

الْبَيْتُ الْفَتَى

في القرن الرابع

تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

[قدّم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور في ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جداً]

الجزء الأول

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع مجد على بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م



(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

الإهداء

- الى أستاذى الدكتور منصور فهمى .
- والى صديقى المسيو دى كومنين .
- أهدي هذا الكتاب .
- تحية ووداد وإعزاز وإخلاص ٤

زكى مبارك

مصر الجديدة، أول يناير سنة ١٩٣٤

(١)
فهرس

صفحة		صفحة	
١٧١	الوصف	٧	فاتحة الكتاب
١٨٠	المتبذل والطريف في التعابير الأدبية ...	١٧	نقد النثر الفني
	الباب الثالث		
	كتاب الأخبار والأقاصيص		
١٩٧	المقامات		الباب الأول
٢٠٦	مقامات بديع الزمان		تطور النثر الفني من عصر النبوة
٢٢٧	أحاديث ابن دريد		الى القرن الرابع
٢٣٤	روايات الأغنياء		
٢٤٦	أخبار ابن دريد	٣٣	النثر الجاهلي
٢٥٤	حكايات ابن الأنباري	٤٤	نشأة النثر الفني
٢٥٨	التوابع والزوابع	٥٧	النثر الفني في العصر الاسلامي
٢٧١	الانسان والحيوان أمام محكمة الجن ...	٦٤	أطوار السجع
٢٨١	أخبار التوحيدى		
٢٨٦	قصص البيغاء		الباب الثاني
٢٩٤	أحمد بن يوسف المصري		خصائص النثر الفني في القرن الرابع
٣١٢	عبد الله بن عبد الكريم	١٠٥	خصائص نثرية
٣١٥	المحسن التنونى	١١٣	السجع والأزدواج
٣٣٨	حكاية أبي القاسم البغدادى	١٢٦	تصوير الحياة العقلية
٣٥٣	الفهرس المفصل	١٣٢	الفكاهات
		١٤٨	النسيب
		١٦٣	الاخوانيات

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١ -

هذا كتاب "النثر الفني في القرن الرابع" وهو كتاب شغلت به نفسي سبع سنين، فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قاب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز فهو عصارة لجهود عشرين عاما قضاهها المؤلف في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي؛ وإن رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليتكذكروا أنى ألفته في أعوام سود لقيت فيها من عنت الأيام ما يقصم الظهر، ويقصف العمر : فقد كنت أسطر العام شطرين ، أقضى شطره الأول في القاهرة، حيث أودى عملي ، وأجنى رزقي ، وأقضى شطره الثاني في باريس ، كالطير الغريب ، أحادث العلماء ، وأستلهم المؤلفين ، الى أن ينفد ما أدخرته أو يكاد، ثم صممت على أن أنقطع الى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت ، وكانت العاقبة أن أنعم على الله — عز شأنه — بالنصر المبين .

ولكني أحب أن أكون في طليعة المنصفين لمؤلف هذا الكتاب، وهل من العدل أن أظلم نفسي وأنصف الناس ؟

إن هذا الكتاب أول كتاب من نوعه في اللغة العربية، أو هو — على الأقل — أول كتاب صُنّف عن النثر الفني في القرن الرابع، فهو بذلك أول منارة أقيمت لهداية السارين في غيابات ذلك العهد السحيق .

ولن يستطيع أى مؤلف آخر — مهما أعتز بقوته، وتعاى عن جهود من سبقوه — أن ينسى أنى رفعت من طريقه ألوفا من العقبات والأشواك .

وهل يمكن الارتياح في أن مؤلف هذا الكتاب هو أول من كشف النقاب عن نشأة النثر الفني في اللغة العربية ، وقهر المستشرقين ومن لفّ لفّهم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور النثر الجاهلي ، وأنه دليل على أن العرب كان لهم نثر فني قبل عصر النبوة بأجيال ؟

وهل يمكن الشك في أن مؤلف هذا الكتاب هو أول من رجع الصور الفنية في نثر كتاب الصنعة والزخرف الى أصول عربية صميحة ، وكان الباحثون يظنونها أثرا من اتصال العرب بالفرس واليونان ؟

وهل يمتري منصف في أن ما كتبه عن أطوار السجع والنسيب في النثر الفني باب من البحث جديد ؟

وهل يتردد أريب في الاعتراف بأن الفصول التي كتبتها عن نشأة المقامات وعن الأخبار والأقاصيص فصول مبتكرة كتبت لأول مرة في اللغة العربية ؟

والفصول التي أنشأتها عن كتاب النقد الأدبي ؟ لقد جالوت في تلك الفصول طوائف من الحقائق الأدبية لم يهبها أحد ما تستحق من العناية قبل اليوم .
والمؤلفون المنسيون الذين بعثهم هذا الكتاب ؟

لقد مرت أجيال طوال نسي فيها أبو المغيرة بن حزم نسيانا تاما حتى كاد يطوى من صفحة التاريخ ، الى أن كشف عنه مؤلف هذا الكتاب .

وكان أساتذة الأدب العربي في الشرق والغرب يعتقدون أن (رسالة الغفران) أول مسلاة في اللغة العربية ، ويظنون أن ابن شهيد حاكاه حين ألف رسالة (التوابع والزوابع) بجاء مؤلف هذا الكتاب وأثبت أن رسالة ابن شهيد ألغت قبل رسالة المعري بنحو عشرين عاما ، وأن المعري هو الذي حاكى ابن شهيد .

وكان كتاب أبي محمد بن حزم في (فن الحب) مجهولا في الشرق ، فلما جاء مؤلف هذا الكتاب وأظهره عده المصريون أعجوبة ، وتألفت لجنة من علماء الأزهر برئاسة الشيخ

محمد عرفة وكيل كلية الشريعة لثبوت ابن حزم مما نسب اليه ! ثم آنفَضَت اللجنة وأنزوى
أعضاؤها الفضلاء ! أليس ذلك دليلاً على أن هذا الكتاب فاجاً الشرقيين بنبأ عظيم ؟
وما كتبته عن ابن دريد ؟ هل كان ينتظر أحد أن يكون هذا الرجل هو واضع الأقصوصة
في اللغة العربية ، والملمهم الأول لبطل المقامات بدیع الزمان ؟
تلك ملاحح من شمائل هذا الكتاب ، أقف عندها ولا أزيد !
ومعاذ الأدب أن أمق على لغة العرب التي أعزنى بها الله . وإنما هي ثورة نفسية أنطقني
بها ما أراه في زمانى من غدر وعقوق . والله المستعان ، على إفاك هذا الزمان !

- ٢ -

وأنا ، بعد ذلك ، مسئول عن عرض المؤاخذات التي وُجِّهت الى هذا الكتاب .
وأذكر ، أولاً ، أن في هذا الكتاب عيباً بحله الأساتذة في جامعة باريس ، وهو غلبة الزعة
الوجدانية ، وقد اعتذر عنى المسيو ماسينيون يوم أداء الامتحان في السوربون ، فذكر أنى
شاعر ، والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان .
وأذكر ، ثانياً ، أنى قصرت تقصيرا ملموسا في عرض الشواهد ، ولم أذكر شاهداً كاملاً
غير مناظرة الخوارزمي والهمداني ، واكتفيت بالإشارة في الهوامش الى مراجع الشواهد .
وعذرى في ذلك أن هذا الكتاب لم يؤلف إلا للخواص ، ومن السهل عليهم أن يرجعوا الى
الشواهد في مصادرهما حين يشاءون . يضاف الى هذا أن الشواهد لو ذكرت كاملةً لوصل
حجم الكتاب الى أكثر من أربعة مجلدات . وأين الناشر الذى ينفق على نحو ألقى صفحة من
هذه الصفحات الطوال العراض^(١) ؟ !

وأذكر ، ثالثاً ، أن منهج العرض والتأليف يختلف في هذا الكتاب بعض الاختلاف .
والسبب في هذا أن الكتاب لم يؤلف في عام واحد ، وإنما كتبت فصوله كما أسلفت في خلال
سبع سنين ، وهى مدّة طويلة يتحول فيها العقل والذوق من حال الى حال .

(١) تردد الحاج مصطفى محمد أولاً في نشر هذا الكتاب لطوله وضخامة نفقاته ، ولم تصح عزيمته على نشره إلا بعد
أن علم أن حضرة صاحب المعالي الأستاذ محمد حلى عيسى باشا وعد بطبعه على نفقة وزارة المعارف العمومية .

وأذكر، رابعا، غلبة الاستطراد في صلب الكتاب، وهو عيب لامني عليه الأساتذة في باريس . وعذري في ذلك أني أميل الى هذا النحو الموروث في التأليف ، لأن مؤلفاتنا القديمة كان أكثرها كذلك، والقارئ هو الغانم على أى حال، والفهرس المفصل^(١) الذى ألحقته بالجزء الأول والجزء الثانى سيمكّن القارئ من تعقب ما فى الكتاب من شتيت الفوائد الأدبية والتاريخية .

— ٣ —

عُتينا فى هذا الكتاب بدرس النثر الفنى، أما الزمان فهو القرن الرابع، وأما المكان فهو الأمصار الاسلامية لذلك العهد . فهل كان يمكن أن يتفق العرب والمستعربون فى القرن الرابع على أصطناع أسلوب واحد أو مقارب فى التعبير عن مختلف المعانى والأغراض ؟ ذلك سؤال وجهه الينا المسيو ديمومين ، وأجبنا عنه فى النص الفرنسى^(٢) ، ونعرض له فى هذه المقدمة بشئ من البيان .

لا جدال فى أن الموضوعات كانت تختلف كثيرا أو قليلا، فالمشاكل العقلية والوجدانية التى كانت تعرض لكتاب الأندلس تغاير بعض المغايرة ما كان يعرض لأمتناهم فى مصر والشام وفارس والعراق .

أما اللغة والأسلوب فالاختلاف فيما قليل . لأن العرب الذين هاجروا فاتحين الى مصر والمغرب والأندلس نقلوا تقاليدهم الأدبية الى تلك البلاد، وكان من هم المؤلفين فى المغرب والأندلس أن ينقلوا الى مواطنهم أدب أهل المشرق . والتاريخ يحدثنا " أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فخرص حتى حصل عنده، فلما تأمله قال : هذه بضاعتنا ردت الينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شئ من أخبار بلادهم، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه^(٣) " .

(١) الفهرس المفصل هو الترجمة المقبولة لعبارة Table analytique

(٢) ص ٤١ و ٢٣١ - ٢٣٣ (٣) معجم الأدباء ج ١ ص ٦٧

ولهذا الخبر الصغير وجهان على جانب من الأهمية : فالصاحب كان يشوف الى أدب أهل الأندلس ، لأنه لم يكن منشورا في المشرق ، وكان يرى أن أول ما ينبغي أن يشغل به رجل كأحمد بن عبد ربه هو تدوين أدب أهل الأندلس . أما ابن عبد ربه فكان أعرف بحاجة بلاده من صاحب ، فأجتهد في أن ينقل اليهم أدب أهل المشرق ، وكانوا يرونهم اساتذة في الشعر والبيان . وأهتمام أمثال ابن عبد ربه بجمع الآداب المشرقية يؤيد ما نراه من محافظة أهل الأندلس على الأساليب العربية التي كان يصطنعها كتاب الشام وكتاب العراق . وما وقع في الأندلس وقع مثله في المغرب ، فان مؤلف زهر الاداب يحدثنا في مقدمة كتابه أن العباس بن سليمان أرتحل الى المشرق في طلب الكتب ” باذلاً في ذلك ماله ، مستعذباً فيه تعبته ، الى أن أورد من كلام بلغاء عصره ، وفصحاء دهره ، طرائف طريفة ، وغرائب غريبة ” وسأله أن يجمع له ” من مختارها كتابا يكتفى به عن حملتها ” فألف كتاب زهر الآداب .

وكما خلا العقد الفريد من أدب أهل الأندلس خلا زهر الآداب من أدب أهل المغرب .

أليكون معنى ذلك أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يستخفون بآثارهم الأدبية ؟

لا ، ولكن معناه أنهم كانوا يرون المثل الأعلى عند أهل المشرق ، فكانوا يحدّثون في نقل ما أثر عن أهل الشرق من القصائد والرسائل والحكم والأمثال .

وكذلك كان زهر الآداب المرجع الأول الذي اعتمدت عليه في أكثر الشواهد المشرقية مع أنه لرجل تونسي من أهل القيروان .

— ٤ —

ويمكن الحكم بأن حظ بغداد في الأيام الخالية كان شبيها بحظ القاهرة في هذه الأيام ألسنا نرى العرب والمستعربين في مختلف الأفطار الإسلامية يتأثرون ما يحدّث في القاهرة من ضروب الآداب والفنون ؟ ألسنا نرى مناهج النشر والتأليف التي يبدعها أهل القاهرة تنتشر في أكثر الأمصار الإسلامية بشيء من التغيير قليل ؟

والمسيو ديمومبين يحدثنا أن زرياب حين رحل الى الأندلس أستطاع أن يؤثر في الأغاني الأندلسية ويصبغها بصبغة شرقية، أفيرتاب أحد في أن أغاني محمد عبد الوهاب تعطر الأغاني الشرقية بنفحة مصرية، وتنقل الى أكثر البلاد العربية أسرار الغناء في وادي النيل ؟

يضاف الى هذا نظام الرحلة في طلب العلم، وكان أهل الأندلس معروفين بذلك، وكان الأخذ عن علماء المشرق مما يرفع رأس الرجل حين يعود الى بلاده موفور العلم والعقل، وكان يتفق لأهل الأندلس أن يقيموا زمنا بمصر في طريقهم الى المشرق، ليأخذوا عن علماء مصر ما يرون في أخذه فضلا وعائدة . وقصة المنذر بن سعيد البلوطي معروفة، وهي لا تخلو من فكاهة، فقد حضر مجلس ابن النحاس في مصر وهو يلى هذه الأبيات :

خليل هل بالشام عين حزينه تبكى على ليلى لعل أعينها
قد أسلمها الباكون إلا حمامة مطوقة باتت وبات قرينها
بجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدينها من الأرض لينها

فقال ابن سعيد : يا أبا جعفر ! ماذا ، أعزك الله ، باتا يصنعان ؟ فقال ابن النحاس : وكيف تقوله أنت يا أندلسي ؟ فقال : بانت وبان قرينها .

وبالطبع ما كان يتفق لجميع من وفد على مصر من أهل الأندلس ما آتفق لأبن سعيد مع ابن النحاس ولكن المهم أن نشير الى أن ابن النحاس أستثقل ابن سعيد بعد ذلك حتى منعه كتاب العين وكان يذهب فيتنسخ من نسخته ، فأنصرف عنه الى الانتساخ من نسخة أبي العباس بن ولاد^(١) .

وفي أمثال هذا الخبر ما يدل على أن الأندلسيين والمغاربة في رحلتهم الى المشرق كانوا يجمعون بين فائدتين : الاستماع الى الرجال وآتساخ ما يظفرون به من نادر المصنفات ، حتى إذا عادوا الى بلادهم آشتغلوا بالوراقة والتدريس ، أما الوراقة فلحسب الرزق ، وأما التدريس فلطلب المجد .

(١) أنظر معجم الأدباء ج ٢ ص ٧٢ ، ٧٣

و بعض هذا كافٍ لصنع أذواقهم بالصبغة المشرقية في الشعر والبيان .

أ يكون عجيبا بعد هذه الأدلة أن نحكم بأن أساليب الكتاب في القرن الرابع كانت متقاربة في السمات والخصائص وإن أفرقت مساكنهم بين المغرب والمشرق ؟

— ٥ —

مررت المناقشات هادئة في هذا الكتاب ، ولم يستعر ضريحها إلا حين أتصلت برجلين من كرام الرجال ، هما المسيو مرسيه والدكتور طه حسين .

أما المسيو مرسيه فعالم واسع الاطلاع ، وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا العهد ، وكانت له آراء مدونة عن نشأة النثر الفني عند العرب . وما كدت أصل الى باريس حتى هممت بمهاجمته ، فنصحتني المسيو ماسينيون وأفهمني أنه رجلٌ صعب المراس ، وأن منزله في المعهد العلمي عظيمة ، وأن المستشرقين جميعا يحلونه أعظم الإجلال . ولكن كتب الله أن لا أنتصح برأى المسيو ماسينيون ، فابتدأت رسالتي التي قدمتها للسوربون بفصلين في نقض آرائه من الأساس ، فغضب الرجل وثار ، وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لَوْنٌ من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسية في البحث ، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما الهاد الذي تنهض عليه نظريتي في نشأة النثر الفني .

وكأنما عزَّ على الرجل أن أهاجمه في عُقد داره فضى يعاديني عداً خفيا كانت له آثار بشعة لا اتذكرها إلا أنتفضتُ رُعباً من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف .

وقد قابلت خصومته بلددٍ أقسى وأعنف ، ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه ، فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه ، وأضفت الى البحث الذي قدمته الى مدرسة اللغات الشرقية فصلا كان أشار بحذفه لأني هاجمته فيه ، وأتتهنا الى عاقبة أفصح عنها المسيو ماسينيون كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيرا في باريس :

”إن المسيو مرسيه لا يحبك، ولكنه لا يستطيع أن ينسأك“ .

أما أنا فأحب هذا الرجل وأذكره بالجميل ، لأنه من خيرة الأساتذة الذين تلقيت عنهم في باريس ، ولأنه كان رئيس لجنة الامتحان الذى ظفرت فيه بدبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية . والله سبحانه هو القادر على أن ينسينى ما لقيت على يديه من ظلم وإجحاف !

أما الدكتور طه حسين فما أدري والله ما ذنبه حتى يهاجم أعنف الهجوم في هذا الكتاب !

إن هذا الرجل تربطني به ألوف من الذكريات ، يرجع بعضها الى العهد الذى كنت فيه طالبا بالجامعة المصرية القديمة ، يوم كان يصطنع العدل الذى يلبس ثوب الظلم في امتحان الطلاب ، فقد ساعد مرة على إسقاطى في امتحان الجغرافيا ووصف الشعوب ، وأسقطنى مرة ثانية في امتحان تاريخ الشرق القديم . والسقوط في الامتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف .

ويرجع بعض الذكريات الى العهد الذى كنت فيه مدرسا بالجامعة المصرية الجديدة ، حين كنت أحمل اليه على أكتافى أحجار الأساس لنرفع القواعد من كلية الآداب .

وأدق ما يصل بيننا من الذكريات ما وقع في ربيع سنة ١٩٢٦ يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلى ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان ، وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب ، وحاسد يتربص ، وكنت وحدى صديقه الذى لا يهاب ، وزميله الذى لا يخون .

ولكن حماسى للفكرة التى أدافع عنها ، وغرام الدكتور طه بنقضها في رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كان مما حملنى على مقاومته بعنف وقوة ، حتى ليحسب القارئ أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف حين عرضت لدحض آرائه في فصول هذا الكتاب .

أكتب هذا وقد شَرَّق الدكتور طه وغرَّبَت ، ولم يبقَ بيننا إلا أطْيافُ من كرائم
الذكريات ، قلبي بها ضنين .

— ٦ —

يشتمل هذا الكتاب على مقدمة وستة أبواب ، أما المقدمة فتبحث عن نصيب النثر
الفنى من عناية النقاد ، وتبين الغرض من تأليف هذا الكتاب ، وفى الباب الأول يتكلم
المؤلف عن النثر الجاهلى والنثر الاسلامى وأطوار السجع والأزدواج ، وكان من الضرورى
فى نظر المؤلف أن ينشئ هذا الباب ، وهو أصل الخصومة بينه وبين أستاذه المسيو مرسيه .
وحجة المؤلف أنه من الواجب تعرف مذاهب النثر من عصر النبوة الى القرن الرابع لظهور
خصائص النثر فى العصر الذى ألف عنه الكتاب ، وفى الباب الثانى يدرس المؤلف خصائص
النثر فى القرن الرابع فيبين ما فيه من الظواهر الفنية والعقلية ، ثم يمضى فيتكلم فى الباب الثالث
عن كُتَّاب الأخبار والأفاصيص ، ويتحدث فى الباب الرابع عن كُتَّاب النقد الأدبى ، ويشرح
فى الباب الخامس بعض الجوانب المهمة من كُتَّاب الآراء والمذاهب ، وينتم الكتاب بالباب
السادس عن كُتَّاب الرسائل والعهود .

والمؤلف مطمئن الى صحة هذا التقسيم ، ويعترف بأنه لم يتكلم عن البلاغة الدينية إلا قليلا ،
فقد حملته الأثرة على أن يستبقى هذا الجانب لكتابه "أثر التصوف فى الأدب والأخلاق" الذى
يرجو أن يوفق الى إتمامه بعد قليل .

— ٧ —

راعينا روح العصر فى تأليف هذا الكتاب ، فتجنبنا ألفاظا وتعاير كانت تستساغ فى القرن
الرابع ولا تستساغ اليوم ، ولكنا فى الوقت نفسه لم نهمل واجب الدقة فى التأليف فأشرنا الى
نوازع اللهو والمجون ، ودلنا القارئ على مصادرها إن كان يهيمه استقصاء الظواهر الاجتماعية
التي حفظها التاريخ . والأدب فى رأينا أصدق مصدر للدراسات الفلسفية والتاريخية ، ومثل
هذا الكتاب يقدم للخواص الذين يُعَدُّ التحفظ فى مخاطبتهم ضربا من الجمود .

- ٨ -

بين الأصل الفرنسى وبين هذا الكتاب اختلاف قليل ، ففي النسخة الفرنسية أشياء تكتب لأهل الغرب ولا يحتاج إليها أهل الشرق ، وفي هذه النسخة العربية تفاصيل لا يحتاج إليها أهل الغرب وتتفع أهل الشرق ، ويمكن القول بأن في النسخة العربية حرية لم تكن في النسخة الفرنسية ، لأن الأصل الفرنسى كتب لأداء امتحان الدكتوراه في جامعة باريس ، تحت إشراف أستاذين فيهما صرامة وقسوة ، وهما المسيو مرسيه والمسيو ديمومبين ، فالأصل الفرنسى وجهه وجهة العلم الصرف ، أما هذا الكتاب فوضع لغرض التعليم والتثقيف .

- ٩ -

أيرانى القارئ أحسنت التمهيد لهذا الكتاب ؟

قد يكون ذلك وقد لا يكون ، ولكن مما لا ريب فيه أنى رفعت عن كاهلى عبثاً ثقيلاً باخراجه الى الناس ، فقد كان من الواجب أن ينشر بالعربية بعد نشره بالفرنسية . وقد قضيت عاماً في طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية ، وأستوجب تحقيقه وتصحيحه جهوداً لم تكن تخطر بالبال ، وصبر ناشره الحاج مصطفى محمد صبرا جميلاً ، واحتمل عمال المطبعة ضجر الإفراط في المراجعة والتصحيح .

وأرى من الواجب أن أشكر صاحب العزة الأستاذ برادة بك على التسهيلات التى آتتني بها في تسير طبع هذا الكتاب على الطريقة الفنية التى أستطعت بها ربط أصول الكتاب بعضها ببعض ، وأن أسدى الثناء الى صديق المفضل محمد افندى نديم على معونته في إنجاز الطبع على أحسن حال .

والله أسأل أن يقينى شر الفتنة ، فتنة النفس والقلب والعقل ، وأن يهدينى الصراط المستقيم ، وأن يمنح هذا الكتاب من القبول ما يكافئ ما أضعت في تأليفه من العمر والعافية . إنه قريبٌ مجيبٌ ما

محمد زكى عبد السلام مبارك

٦ شوال سنة ١٣٥٢
مصر الجديدة في ٢٢ يناير سنة ١٩٣٤

نقد النثر الفني

١ - ينبغي أن نعيد في صدر هذا الكتاب أن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية : فلسنا نجد في كتب النقد تلك الأبحاث المطولة التي يراد بها ردّ معاني الكتاب إلى مضادها الأولى على نحو ما فعلوا في درس معاني الشعر وبيان المبتكر منها والمتقول . فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد في بيت من الشعر فيذكرون أجديداً هو أم قديم ، ثم يذكرون من أخذ عنه إن كان قديماً ، ويبينون الفرق بين المعنى في صورته الأولى وبينه في صورته الثانية . وقد يزيدون فيذكرون الأدوار التي مر بها المعنى منذ عُرف عن الجاهليين ويبينون درجات من تناوله من الشعراء . وهذا الذي نقوله يبين وجهاً من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية : فالشعر في نظر النقاد من العرب أكثر حظاً من الفن وأولى بالنقد والوزن . والنثر مهما احتفل أصحابه باتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر . ولذلك قلّت العناية بتقيد أوابده والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والابتكار أو دلائل الضعف والجمود^(١) . وليس في اللغة العربية كتاب مشور شغل به النقاد غير القرآن ، على أن شغل النقاد بالقرآن لم يكن عملاً فنياً بالمعنى الصحيح للنقد الأدبي : فقد كان مفروضاً في كل من يكتب عن القرآن أن يظهر عبقريته هو في إظهار ما خفى من أسرار ذلك الكتاب المجيد . وليس هذا

(١) رُوع هذا نجد في مطالعنا إشارات إلى سرقات الكتاب فقد كان أحمد بن أبي طاهر يقول في سعيد بن حميد « لو قيل لكلام سعيد وشعره أرجع إلى أهلك لما بقى معه شيء » - الفهرست ص ١٧٩ - و(الكلام) هنا هو النثر الذي يسمى أيضاً (الكتابة) وقد سمي النثر (كلاماً) في عدة مواطن منها قول بدیع الزمان « البليغ من لم يقصر ظله عن ثره ، ولم يزد كلامه بشره » ...

وعرض الثعالب لبعض المعاني التي وردت في نثر الصاحب بن عباد مسروقة من شعر المتنبي - البيهقي ص ٨٧ ج ١ وعرض الثعالب كذلك لأحدى رسائل الصابي فيبين أن بعض ألفاظها مأخوذ من فصل كتبه جعفر بن محمد بن ثوبان عن المعتضد إلى ابن طولون - البيهقي ص ١٩١ ج ١

وفي وفیات الأعيان - ج ١ ص ١٥ و ١٦ - كلام لابراهيم الصولي عما أضاف إلى ثره من معاني الشعراء .

من النقد في شيء . إنما النقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف الممتحن للحاسن والعيوب . من أجل ذلك وُسم أكثر ما كتب عن القرآن بأسم الإعجاز لأن النقاد أطمأنوا الى أن القرآن هو المثل الأعلى الذي تقف عنده حدود الطبيعة الانسانية في البلاغة والبيان .

٢ — فإذا خيلنا القرآن جانبا وانتقلنا الى غيره من غرر النثر وجدنا البدائع الثرية قليلة الحظ من عناية النقاد : فنحن نستطيع أن نجد طائفة صالحة من المؤلفات تدور حول أبي تمام والبحترى ومسلم بن الوليد وأبي نواس وبشار والمتنبي ، بحيث نستطيع أن نهزم بأن الشعراء الكبار الذين شغل بهم الناس كانوا سببا في نشاط النقد الأدبي وإمداده بتلك الحيوية العظيمة التي ظهر أثرها في مثل مؤلفات أبي هلال العسكري وابن الأثير وابن رشيق وأبي الحسن الجرجاني وغيرهم من فحول النقاد الذين شغلوا بالموازنة بين الشعراء . ولكن قل أن نجد أثرا لمثل ذلك الاهتمام اذا شئنا أن نعرف ما صنع النقاد في الموازنة بين كاتنين كالبديع والخوازمي ، أو الصاحب والصابي ، أو عبد الحميد وابن المقفع ، أو الصولي وابن الزيات ، أو ابن زيدون وابن شهيد ، وغيرهم من الكتاب الذين شغلوا معاصريهم من المتأدين والناقدين .^(١)

(١) ولا نكرع هذا أنه وضعت كتب كثيرة في نقد النثر أشهرها كتاب قدامة بن جعفر الذي نشرته الجامعة المصرية بتحقيق الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادي . وكتاب (المذهب في البلاغات لابن العبيد) — ١٩٤ فهرست — وكتاب (غرر البلاغة) أورد منه صاحب صبح الأعشى شواهد — ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٩ — و (تحفة الكتاب في الرسائل) — ٢٧٤ ج ٦ ياقوت — و (كتاب الكتاب) — ٢٧٩ ج ٦ ياقوت — و (غلط أدب الكاتب) و (مصابيح الكتاب) — ٢٨١ ج ٦ ياقوت — و (الاختيار من الرسائل) أو (فقر البلاء) — ١٣٠ ج ياقوت — و (علم النثر) — ٢٥١ ج ١ ياقوت . و (أنواع الأسماع) — ٧٥ ج ٤ ياقوت — و (الرسائل السلطانيات والاخوانيات) و (الفرق بين المترسل والشاعر) — ٢٥٧ ج ٢ ياقوت .

وفي مطالعاتنا نجد كتباً كثيرة ألقت في النثر : لا نعرف أي من قبيل المجموعات أم من باب النقد أم من علم البيان ، لأن أصولها لم تصل إلينا . وهي تدل على أن المتقدمين اهتموا بالدراسات الثرية . ولكن لا يزال نرى أن الشعر استبد بجهد أكثر النقاد ولم يخلص للنثر من عنايتهم إلا القليل .

ولنقد أن نقد النثر الذي انصرف عنه أكثر الباحثين هو فن غير الفن الذي حرف بأدب الكتاب ووضعت فيه أبحاث كثيرة منها « الرسالة العذراء » التي قدمناها مع مقدمة بالفرنسية الى مدرسة اللغات الشرقية في باريس ونشرناها في سنة ١٩٣١ و (أدب الكتاب) للصولي . و (كتاب الكتاب) لابن درستويه ، وما الى ذلك من الدراسات التي تصلح =

٣ - وإيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة في البيئات العربية، فهذا أبو بكر الخوارزمي الذي كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه آهم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هي كتاب الصاحب إلى ابن العميد جواباً عن كتابه عليه في وصف البحر^(١). والواقع أن الشعر أقرب إلى النفس من هذه الناحية، وهو بالذات كرة أعلق، وعلى الألسنة أسير، بفضل القوافي والأوزان.

٤ - ولندكر هنا أن في كتاب القرن الرابع من نظر في هذه المسألة وفاضل بين الشعر والنثر وبين مقام الكتاب ومقام الشعراء. وأهم مالفت نظري في تحرير هذا الموضوع ما كتبه الثعالبي في تفضيل النثر وما كتبه ابن رشيق رداً عليه في تفضيل الشعر. والثعالبي يبنى حكمه على أن طبقات الكتاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء «فإن الكتاب وهم السنة الملوك إنما يتراسلون في جباية خراج، أو سد نفق، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى ألفة، أو نهى عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية في رزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعظم الشئون، التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة، ومعارف مفننة»^(٢).

وهذا حق من جانب وخطأ من جانب آخر: هو حق من حيث تنويهه بفضل النثر في المصالح المعاشية والسياسية والإدارية، لأن النثر هو الأداة الصالحة للتفاهم في شئون الحرب والسلم والتجارة والزراعة والصناعة وما إلى ذلك من شئون العمران، ولكنه خطأ من حيث يعطى للنثر جوانب هي أقرب إلى الشعر: فالدعاء إلى ألفة والنهي عن الفرقة والتهاني بالعطايا والتعازي في الرزايا من الموضوعات التي كان الشعر فيها أصلح أداة من النثر وأقدر على تسجيل العواطف والأحاسيس، وأمتلاك القلوب والنفوس.

== في الأغلب بأحوال الكتاب من الوجهة الديوانية والاجتماعية. وأهم كتاب في هذا الباب هو (صبح الأعشى) الذي يعد أقدم ما صنف في أدب الكتاب. على أن هذا النوع من التأليف حافل بالملاحظات الفنية التي تقر به من (النقد الأدبي) وإن لم تنسب به إلى المصنفات المنتمية التي قصرها أصحابها على دراسة آثار الشعراء.

(١) ص ٨٧ سج ٣ من قيمة الدهر. (٢) ص ٣ نثر النظم.

والثعالبي صدق في نصه على أن ما يشتغل به الكتاب يقضى بأن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفننة : فانه يكاد يغلب على جمهور الشعراء في اللغة العربية فراغ الأفتدة وفقر الروس . والشعراء المتفوقون عند العرب هم الشعراء المثقفون الذين أستطاعوا أن ينافسوا كبار الباحثين من أصحاب المذاهب وأرباب الأفلام . فأبو نواس وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وابن المعتز وابن الرومي وأبو تمام والبحترى والشريف الرضى والمتنبي، كل أولئك كانوا من أهل العلم الوافر العميق، وكانوا فوق ذلك أصحاب مطامع وأهواء في الملك والسياسة، وكانوا لا ينامون إلا على سر مبيت أو غرض دفين .

ونظرة إلى شعراء العصر الحاضر تعطينا ما يؤيد هذه الفكرة، فالشعراء النابهنون في عصرنا هم الذين لا بسوا رجال الملك وأتصلوا بالجماهير اتصال أستثمار وأستغلال: فقد كان شوقي شاعر القصر، وكان حافظ شاعر الشعب، كما كان البارودي شاعر السيف، وقد نخل من نخل من الشعراء الذين قعدت بهم ثقافتهم ووقفت بهم همهم عند الاكتفاء بمضغ الكلام الموزون !

٥ - والثعالبي بعد كلماته تلك يذكر في أسباب تقديم النثر على الشعر أن الشعر تصون

عنه الأنبياء وترقع عنه الملوك . وهى حجة واهية وسبب ضعيف ، فالشعر أقرب الفنون الى ارواح الأنبياء، وأنا لا أتصور الأنبياء إلا شعراء، وإن جهلوا القوافى والأوزان، لأن الشعر الحق روح صرف، والنبوة الحققة شعر صراح . أما الملوك فترقمهم عن الشعر لا يحط من قدره، ولا يفض من شأنه، والملوك لو أستطاعوا أن يضموا الى قواهم المادية تلك القوة الروحية لكان حظهم أوفى الحظوظ . ولكن شواغل الملك وتكاليف السياسة اليومية تصرف العقل والحس والخيال عن إجادة الشعر الذى يتطلب صفاء النفس وجلاء الوجدان .

٦ - وربما كان أطرف نقد وجه للشعر والشعراء ما قصه الثعالبي إذ قال : وقد أنصح عبد الصمد بن المعذل عن حقيقة الحال فى انحطاط رتبة الشاعر لأشتغاله بخلاف المراسد حيث قال لأبى تمام وقد قصد البصرة وشارفها :

أنت بين آثنين تبرز لنا س وكلتاهما بوجه مذل

لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالب لنوال
أى ماء لحز وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال
فلما بلغت الأبيات أبا تمام قال : صدق والله وأحسن ! وثنى عنانه عن البصرة وحلف
أن لا يدخلها أبدا^(١).

وهذه الأبيات التى قالها ابن المعتزل تصوّر حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير . وقد
رأيت أن أرجع بمناسبة هذه الأبيات الى وصية أبى تمام للبحترى لأرى الأغراض التى كان
يهم بها مثل ذلك الشاعر البليغ ، فلم أجده نص على غير النسيب والمديح إذ قال :
”وإن أردت التشبيب فأجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر من بيان الصبابة
وتوقع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . فاذا أخذت فى مدح سيد ذى أيدٍ فأشهر
مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وابن معالمة ، وشرف مقامه“^(٢).

فالشاعر على هذا الوضع لا يبرح داعم العين فى سبيل الحب ، أو قلق النفس فى سبيل
المال ، وحياته إذن مقسمة بين ذلين : ذل الهوى وذل السؤال .

٧ — غير أنه ينبغى أن لا نفتن بهذا الكلام فتنة باقية ، وأن نفهم أن جماله يرجع الى
أنه سخريّة تدل على براعة وذكاء ، فانه إن جاز لنا أن نلوم الشعراء على إسفافهم حين يطعمون
فى عطايا الملوك فانا لا نستطيع أن نأخذ عليهم أن تُفتن عيونهم بالحسن ، وأن تحفق قلوبهم
بالوجد ، فان للشاعر رسالة يؤذيها الى العالم هى فهمه العميق لأسرار الجمال ثم غناؤه الساحر
فى تقديش الحسن المصون . والشاعر الملهم حين يفهم المعانى الروحية لصباحة الوجوه
وأسالة الحدود ، ورشاقة القدود ، يعود وهو قيثاره إلهية يمضى رنينها ساحرا أخاذا لا يملك
الغض منه إلا صمّ المسامع أو غلّف القلوب .

٨ — أما ابن رشيق فيفضل الشعر على النثر لأسباب فنية ، وهو يذكّر أن كلام العرب
نوعان : منظوم ومثثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة وردية ، وفى رأيه

(١) ص ٤ من تر النظم . (٢) ص ١٠١ ج ١ زهر الآداب .

أنه إذا اتفق الطبقان في القدر وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية : لأن كل منظوم أحسن من كل منشور من جنسه في معترف العادة ، فالدر - وبه يشبه اللفظ - إذا كان منشورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي كسب له وآنخت من أجله ، وكذلك اللفظ إذا كان منشورا تبدد في الأسماع ، فاذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت فرائده ^(١) .

وهذا كلام ضعيف لا يتناسب مع عقل مثقف كعقل ابن رشيق ، لانه اذا صح أن يشبه الشعر بالعقد المنظوم فانه لا يصح أن يشبه النثر بالدر المنشور : لأن النثر منظوم أيضا ، والكتاب يؤلف بين الكلمات ويزاوج بين الألفاظ بنفس الدقة التي يعنى بها ناظم العقد ، واللؤلؤ المنشور له قيمته دائما ، لأن اللؤلؤة هي في قيمتها ونفاستها ، ولن يضرها أن تسقط من بين حبات العقد وأن تقع حيث يشاء الإغفال . أما اللفظة فتفقد قيمتها الأدبية وهي مفردة إذ كان سحرها يرجع الى موقعها من التركيب بلا فرق بين الشعر والنثر . وقد نص عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز على أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وانما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، وذكر أننا نرى الكلمة تروق وتؤنس في موضع ، ثم نراها تثقل وتوحش في موضع آخر ، وأننا قد نرى رجلين آستعملا كلنا بأعيانها ثم نرى هذا قد فرع السماك ، ونرى ذاك قد لصق بالحضيض ^(٢) .

٩ - على أنه يخيل الى أن تقديم الثعالب للنثر كان أثرا لغرض شخصي ، فلا يبعد أن يكون خوارز مشاء الذي قدم اليه "نثر النظم وحل العقد" كان من هواه أن يقدم النثر على الشعر إيثارا لبعض الكتاب ، أو حقدا على بعض الشعراء . وهذا الذي نقوله ليس بغريب من كتاب ذلك العصر ، فعهدي بهم يصورون الحقائق حسبا توحى الأهواء ، حتى أننا نجد ابن رشيق الذي فضل الشعر على النثر يقول : "ولم أهتم بهذا الرد وأورد هذه الحجة لولا أن السيد أبقاه الله

(١) ص ٤ و ٥ من كتاب العدة . (٢) راجع ص ٣٨ و ٣٩ من دلائل الإعجاز .

قد جمع النوعين، وحاز الفضيلتين، فهما نقطتان من بحره، ونوارتان من زهره^(١)، فهذه الفقرة صريحة في أن أحكامه تتأثر بأهواء من يعاشر من الرؤساء.

١٠ — وأبو هلال العسكري أكثر دقة من الثعالبي في الكلام على الشعر والنثر، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فالفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة، في أيسر كلفة، ولا يتبها مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحاطته إلى الرسائل إلا بتكلف، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعرا إلا بمشقة^(٢).

١١ — هذا فهم أبي هلال للنثر والشعر من الوجهة الفنية، أما من الوجهة الاجتماعية فالنثر في رأيه عليه مدار السلطان، والشعر يغلب عليه الزور والبهتان، وليس يراد من الشاعر إلا حسن الكلام، أما الصدق فيطلب من الأنبياء^(٣).

وفضل الشعر على النثر — عند أبي هلال — يرجع إلى استفاضته في الناس، وبعد سيره في الآفاق، وإلى تأثيره في الأعراض والأنساب، وإلى أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، وإلى أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس

(١) ص ٦ المدة . (٢) ص ١٠٢ — وهذا صريح في أن نقاد العرب يفهمون أن الرسائل والخطب فن واحد أو فنان متقاربان يقابلهما الشعر. فالكلام ينقسم إلى قسمين منظوم ومثنو، والمثنو منه الخطب والرسائل . وقد عرض القلقشندي التعليق على كلمة أبي هلال في صبح الأعشى — ج ١ ص ٢٢٦ — فقال : "إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها يحتاج الكتاب إليها في صدور بعض المكاتبات وفي البيعات والمعهود والتقاليد والتفاريض وجمار التواقيع والناشير" . ومن هذا يتبين أن المسيو مرسيه تكلف شططا حين زعم أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أصول أساسية : هي النظم والنثر والخطب، ليصح له أن يحكم بأن الجاهليين عرفوا فن الشعر وفن الخطابة ولم يعرفوا فن النثر . والمعقول أن الذي يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة إنشاء الرسالة . وقد بنى صدى خطباء الجاهلية لأن الخطب كانت لا تليق خاصة إلا في المراسم أو عند كبريات الحوادث . أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة إلى قبيلة على أيدي الرسل وكانت في الأغلب مما يكتمه المرسلون . (٣) أنظر الصناعتين ص ١٠٣

إلا بانشاد الأشعار، وإلى أن الشعر أصلح للألحان التي هي أهني للذات، ولا تنهياً صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة^(١).

قال أبو هلال : ومن صفات الشعر التي يختص بها دون غيره أن الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتاً من الشعر احتُمِل. ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه إليه وشهرته في حبه وبكاه من أجله لاسْتُهْجِن منه ذلك وتنقص به فيه، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً^(٢).

١٢ — وهذا كلام يحتمل النقض، فإن مدح الرجل نفسه، إن جرى مجرى المدح والمفاخرة، صح وقوعه في النثر، وشواهد ذلك كثيرة من خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم، فليست خطب علي بن أبي طالب في حملتها إلا إشادة بشرفه وتأييده بقربه من الرسول. أما الفخر الذي يجري مجرى الزهو والخيلاء فهو مردود في الشعر والنثر. وإن كان الشعر أصلح للفنين للتغنى بكرم الأعراق وشرف الأحساب.

أما الغزل فمن الحق أن الشعر أولى به، لأن الغزل غناء، والشعر أقرب إلى الأئنين والرنين، ولكنا لانجد بدا من الإشارة إلى أن من الكتاب من اتخذ النثر أداة تشبيب فوق تشبيه موقع القبول، وفي رسالة الجاحظ إلى إبراهيم بن المذبر ورسالة اسحق بن إبراهيم إلى علي بن هشام^(٣) وما نقله صاحب زهر الادب في الجزء الأول والثالث من وصف النساء والعلماء ورسائل الشوق دليل على أن النثر يصلح أيضاً للمعاني الغرامية. ولا معنى لتضييق المجال أمام الكتاب بمثل ذلك الاصطلاح، ولكن هيئات أن تتجوز الحياة الأدبية أو الاجتماعية من أنقال التقاليد التي تسطر على الذوق، وتجعل مقياس القبح والحسن تابعا لما ألف الجمهور من ملابسات الحياة.

(٣) ص ٦٧ ج ٦ باقوت.

(٢) ص ١٠٤

(١) ص ١٠٣

(٤) ص ٢١٩ ج ٢ باقوت.

١٣ — بعد هذا البيان أحب أن أدون رأيي في الفرق بين منزلة الشعر ومنزلة النثر وهو رأى لم أسبق اليه : رأيي أن الموضوعات هى التى تحدّد نوع الصياغة ، فليس ينبغي أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع ، ولا أن النثر صالح لكل موضوع ، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر . والبليغ الموفق هو الذى يفهم سياسة الفطرة فى مثل هذه الشئون . ففى بعض الأحوال يكون الإفصاح بالشعر نوعاً من العى ، كما يكون أحياناً أسمى أنواع البيان . وقد أذكر أننى كنت أحاور المسيو مرسيه فى تطوّر السجع فأخرج رسائل الجاحظ وفيها هذه العبارة :

”إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملى كتاباً الى رجل فقال فيه : هو أهون على من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة) ثم قال : اخ (من كلاب الحرة) واكتب (من الكلاب) كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس فى موضعه“^(١) وكان المسيو مرسيه يظن أن فى هذه العبارة دلالة على أنهم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع ، فوجهت نظره الى أن لهذه العبارة معنى آخر: ذلك أن السجع فن رقيق ، لا يصلح فى مثل ذلك المقام وهو مقام تهديد ووعيد .

وفهم الظروف وما تقتضيه من شعر أو نثر هو أساس التوفيق عند من يفرض عليهم القول . فكم موطن يظهر فيه الشعر غريباً ، وكم موطن تظهر فيه الرسائل والخطب وكأنها بعيدة عما يجب أن يقال . ولو تتبعنا آثار الكتاب الذين منحوا موهبة الشعر لرأيناهم ينجحون الى القريض فى مواضع لا يغنى فيها النثر شيئاً . فبدى الزمان يمضى فى رسائله ومقاماته ناثراً ، ثم ينتقل الى الشعر بقاء حيث يرى الشعر أقرب الى ما يريد . وقد رأينا عبد العزيز بن يوسف يرسل الصحاب بن عباد فيبدأ خطابه ناثراً ثم يميل الى النظم ولا يفوته أن يعلن ذلك الميل فيقول : ”ابتدأت أطال الله بقاء مولاي الصحاب بكتابي هذا وفى نفسى إتمامه نثراً ، فال طبعي الى النظم ، وأمل خاطري على يدي منه ما كتبت ، ونعم المغرب عن الضمير مضمار القريض“^(٢)

(١) من ١٥٥ رسائل الجاحظ . (٢) البهجة ص ٩١ ج ٢

١٤ — قلنا إن الموضوعات هي التي تتحدد نوع الصياغة فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول : إذا كان موضوع القول متصلا بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب لأن لفته أقدر على التأثير والإمتاع ، وإذا كان الموضوع متصلا بأعمال العقل والفهم والادراك كان النثر أوجب ، لأن لفته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع ، ومن أجل ذلك نرى الفقهاء واللغويين والنحويين ورجل العلوم الصرفة كالفلكيين والرياضيين لا يحددون الشعر إلا قليلا ، لأن اتجاهاتهم العقلية تصرفهم عن تلقى الوحي والإلهام إذ كان الشعر في سبيحته ينفر من النفوس المعقدة ويأنس بالنفوس الصافية التي تسيطر عليها القوة أو الوداعة وتغلب على أصحابها الثورة أو السكون ، ولا يفهمون من العالم إلا جوانبه الأخاذة التي تصرخ بالعظمة البالغة أو ترمي بالقلب في سفير الحب وفتنة الجمال .



١٥ — ونعود فنذكر أن كتاب القرن الرابع كان يغلب عليهم الشعر ، فكانوا يلجأون إلى القريض في المواطن التي لا يحسن فيها غير القريض . وحرص كتاب القرن الرابع على إجادة الشعر يدل على مغالاتهم في الصنعة فإن الشعر أدخل في الفن من النثر . ولكن ليس معنى هذا أنهم كانوا جميعا من الشعراء المتفوقين . كلا ! فإن عبد العزيز بن يوسف الذي كان يقرنه صاحب إلى الصابي لم يكن جيد الشعر ، والقطع التي وصلت إلينا من شعره باردة الأنفاس ، والتوحيدى أثر عنه شعر قليل ، وهو مع قلته ضعيف . وهناك كتاب كان شعرهم أجود من ثمرهم وكانوا من المبرزين في الصناعتين ، منهم أبو العلاء المعري صاحب اللزوميات وسقط الزند وهما من دواوين الشعر الممتازة في اللغة العربية ، وصاحب رسالة الغفران التي تعد من من آيات النثر العربي ، ومنهم الشريف الرضى وهو من أفذاذ الشعراء ، وينسب إليه جزء كبير من نهج البلاغة ، ومنهم أبو عامر بن شهيد أحد كبار الأندلس وشعرائها وهو من أفراد المحيدين في المنظوم والمشور ، والشعر عليه أغلب :
أما الكتاب الذين غلب عليهم النثر وكان لهم مع ذلك شعر جيد فهم هؤلاء :
ابن عبد العزيز الجرجاني ، وأبو بكر الخوارزمي ، وأبو الفضل بن العميد ، وأبو إسحق الصائفي ،

وبديع الزمان الهمذاني، وأبو اسحق الحصرى^(١)، وأبو الفرج البيهقي، وهؤلاء كانوا يجيدون الشعر لإجادة تامة في موضوعات لا يحسن فيها غير القريض .

١٦ — ولندكر نماذج من شعر هؤلاء الكتاب لندل على تفوقهم في الصناعتين تفوقاً يجعل منزلتهم في النثر الفنى أعلى وأرفع؛ إذ كان النثر عند هؤلاء فناً خالصاً لا يفضله الشعر بغير القوافي والأوزان .

فمن ذلك قول ابن العميد في معشوقه وقد فُصِدَ :

ويح الطيب الذى جئت يداه يدك ما كان أجهله فيما قد أعتمدك
بأى شيء تراه كأن معتذرا من مسه بجديد مؤلم جسديك
لو أن الحافظه كانت مباضعه ثم أتتلك بها من رقة فصديك
وقال الصاحب بن عباد في رجل كثير الشرب بطع السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما توالى عليه من نداماه قرقف
فقلت سبيل الخمر أن تنقص الحجا فان لم تجد عقلاً فماذا تحيّف
وقال بديع الزمان في طبائع الناس :

كذلك الناس خداع إلى جانب خداع
يعيشون مع الذئب ويكون مع الراعى

١٧ — والفلقشندى من الذين رجحوا النثر على الشعر : فقد ذكر في كتابه (صبح الأعشى) أن الشعر وإن كانت له فضيلة تخصه من حيث تفرد به بأعتدال أقسامه وتوازن أجزائه ، وتساوى قوافيه ، مع طول بقائه على تعاقب الأزمان ، وتداوله على ألسنة الرواة لسهولة حفظه ، وجمال إنشاده بحال الملوك ، فإن النثر أرفع منه درجة ، وأعلى رتبة ، وأشرف مقاماً ، وأحسن نظاماً .^(٢)

(١) الحصرى نقل في كتابه وشعره ، ولكن الفقرات التى تليها فى (زهر الآداب) تنم عن ذوق فى الإنشاء .
(٢) صبح الأعشى ص ٨٨ ج ١ .

والنظام الذى يظهر حسنه فى النثر غير واضح، ولكن القلقشندى يفسره فيذكر أن الشعر محصور فى وزن وقافيه يحتاج الشاعر معهما الى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود، ومدة المقصود، وصرف ما لا ينصرف، ومنع ما ينصرف من الصرف، الى غير ذلك مما تلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه، والكلام المنشور لا يحتاج فيه الى شئ من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه.

وتفسير القلقشندى لرأيه غير كاف ولا سديد، فان الشعر الذى نوازن بينه وبين النثر ليس هو الشعر الذى تكون معانيه تابعة لألفاظه، وإنما هو الشعر المحكم الذى تكون فيه الألفاظ دائماً تبعاً للمعنى، والنظم الجيد يفرض ذلك فى الشعر والنثر على السواء.

ومما تنبه له القلقشندى خطر الموضوعات التى يعرض لها النثر حيث يراه مبنيًا "على مصالح الأمة وقوام الرعية" لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسراة الناس فى مهمات الدين وصالح الحال، وما يلتحق بذلك من ولايات السيوف وأرباب الأقاليم^(١).

ونقل القلقشندى عن "مواد البيان" أن العرب كانت أحست بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام المنشور، كما حكى أن أمراً القيس بن حجرهم أبوه بقتله حين سمعه يترنم فى مجلس شرا به بقوله :

إسقىا حجرا على علاته من كُميت لونها لون العلق^(٢)

وما روى أن النابغة الجعدى كان سيدا فى قومه لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر نقصه وحط رتبته^(٣).

ونحن نرى مسألة أمرئ القيس تحتاج الى تأويل، أما مسألة النابغة الجعدى فصحيحة من حيث دلالتها على بعض التقاليد الاجتماعية. وقد تحدثت مرة مع الأستاذ ابراهيم مصطفى

(١) ص ٥٩ (٢) الكُميت الخمر فى لونها كنه وهى حمرة فى سواد، والعلق بالضمريك الدم الشديد الحمرة.

(٣) ص ٦٠ و ٦١

فى مثل هذا الموضوع وكما نتكلم عن شخصية الأستاذ محمد نجيب الغرايلى باشا ، وكان الأستاذ ابراهيم مصطفى يرى أن اهتمام الغرايلى باشا بقرض الشعر يحط من قيمته كزعيم سياسى ، ولم أفلح فى إقناع صديق ابراهيم بأن الشعر قد يكون من مميزات كبار الرجال^(١) .

١٨ - وخلاصة هذا الفصل أن التأليف فى نقد النثر كان قليلا بالإضافة الى التأليف فى نقد الشعر، ويرجع ذلك الى أن القدماء كانوا يرون الشعر أرفع فنون الجمال ، أما النثر فكان فى نظرهم أداة من أدوات التعبير عن الأغراض العلمية والسياسية والدينية ، ولذلك كانوا حين ينقدونه يتوجهون فى الأغلب الى ما فيه من معان وأغراض قبل أن يعنوا بالنظر فى أساليب الإنشاء ، ظنا منهم أن الدقة لا تطلب إلا من الشعراء .

١٩ - ونحن نرى أن الوقت حان للعناية بالنثر ونقده وإحلاله المحل الأول من جهود الباحثين والناقدين ، فإن النثر اليوم هو صاحب السلطان فى المشرق والمغرب ، والكتاب يحتلون اليوم مكانة يصعب أن يتسامى اليها الشعراء ، لأن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد ، وزماننا مجنون بالسرعة فى كل شىء ، والشعر - كفن دقيق مثقل بالقوافى والأوزان - غير خلى بتقديم ما تحتاج إليه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلى والوجدانى ، وهو حين يوجد يظل مقصورا على بعض النوازع القلبية والنفسية التى لا تستريح إليها الجماهير إلا فى لحظات الفراغ . وليس معنى هذا أن الشعر دالت دولته ، لا ، فانه لا تزال لدينا جوانب وجدانية تشوف الى التغنى بالشعر البليغ ، لأن الطبيعة لا تزال تتألق فى خلق دواعى الشعر ، ولا يزال فى الدنيا نجوم نتألق ، وأزهار تتفتح ، ولا تزال الأرض تذلل خدها لمن يمشى عليها من أسراب الطباء .

(١) وقد تصاولت مرة مع الأستاذ عبد العزيز البشرى بمناسبة ما كنت أثرته فى جريدة البلاغ عن شرح نهج البردة فقال الأستاذ وهو غاضب : « إن أبى أجل قدرا من أن يشرح قصيدة لشاعر » وهذا شاهد جديد على فهم العلماء لقيمة الشعر . وقد يما زعموا أن الشافعى قال :

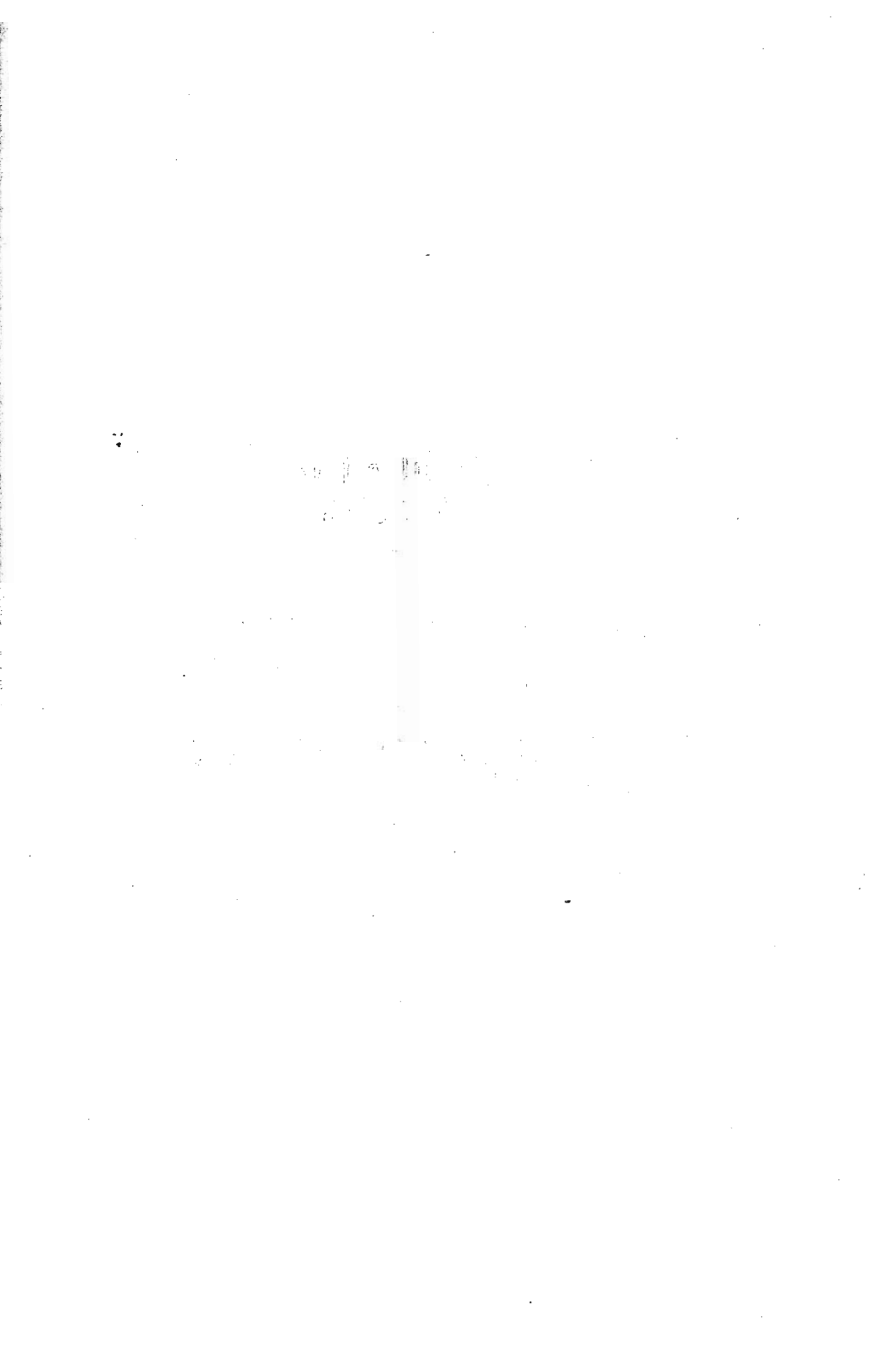
ولولا الشعر بالعلماء يرمى لكنت اليوم أشعر من ليد

وإنما نريد أن نقدر النثر حق قدره، وأن نبين مناهجه ومذاهبه ممثلة في كتاب القرن الرابع، لأنه في رأينا أول عصر في اللغة العربية أراد فيه الكتاب أن يستبدوا بمعاني الشعراء وألفاظهم وتعابيرهم، وأن يروضوا القلم الطليق على التحليق في جميع الأجواء .

٢٠ — وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن أول ما يهمننا هو المعاني والأغراض، وليست الألفاظ والتعابير إلا وسائل لتجلية المعاني وكشفها وتوضيحها بحيث يستطيع القارئ أن يشارك الكاتب في حسه وشعوره، وذوقه ووجدانه، وضلاله وهدهاء . ومن أجل هذا أهتممنا باهتمام بالغ بتحليل آراء الكتاب ومذاهبهم الاجتماعية، واتجاهاتهم العقلية، وثوراتهم النفسية والوجدانية، ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الكاتب كاتباً (écrivain) أي رجلاً قديراً على تلوين أفكاره وخواطره تلويحاً يستهوى العقول والألباب، فليس كل مفصح عن غرضه بقادر على جذبنا إليه، وإنما يستميلنا الكتاب الفنانون الذين يجمعون بين جودة المعنى وجمال الأداء .

الباب الأول

تَطَوُّرُ النَّبِّ الْفَنِيِّ
مِنْ عَصْرِ النَّبِ بَوَّةٍ إِلَى الْقُرُونِ الْوَالِدَةِ



١ - النثر الجاهلي

١ - هل كان للعرب ترفني في عصور الجاهلية ؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والأمثال ؟

لقد اتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبي ولا سياسي قبل عصر النبوة، وأن الإسلام هو الذي أحياهم بعد موت ونهبهم بعد نحول .

وهذا الاتفاق يرجع إلى أصليين : فهو عند مؤرخي الإسلام من المسلمين تأييد لترعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذي خلق العرب خلقاً وأنشأهم إنشاءً : فنقلهم من الظلمات إلى النور، ومن العدم إلى الوجود . وهو عند مؤرخي اللغة العربية وآدابها يرجع إلى الشك في كثير من النصوص الأدبية التي أثرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وأبياج وأمثال .

٢ - وقد وقع للأستاذ خليل مطران وهو يحاور الدكتور محمد هيكمل في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ أن أشار إلى أن مجموعة الأدب التي أثرت عن الجاهليين لم تكن تزيد عن كراس، وأنها على ضآلتها كانت مغنية في تثقيف الأدباء لذلك العهد أمثال علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب . وهذا خطأ من الأستاذ مطران فإن الثقافة التي ظهر أثرها في خطباء العرب لعهد النبوة كانت تشهد بوجود مجموعات كثيرة جيدة من الشعر والنثر والخطب والأمثال .

٣ - وهناك رأي مثقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأي المسيو مرسيه ومن شايعه كالـكتور طه حسين . وذلك الرأي يقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية (Primitif) والحياة الأولية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال . وهذا الرأي أعلنه المسيو مرسيه في المحاضرة التي أفتتح بها دروسه

في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام، ثم أذاعه مطبوعاً في كراس خاص^(١). وقد أختطف الدكتور طه حسين هذا الرأي وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبتته في كتاب (المجمل) الذي أشترك في وضعه للدارس الثانوية^(٢). وكان ينتظر أن يتنبه المسيو مرسيه ومشايه الدكتور طه حسين إلى أن العصر الذي سمي بالاولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد. وفي ذلك العصر كان النثر الفنى موجوداً عند أكثر الأمم التي جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان، وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم ثرفنى قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب ثرفنى بعد الميلاد بخمسة قرون، كأن العرب أنفردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال.

والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب في العصر الجاهلى، وينكر إنكاراً مطلقاً أن يكون هناك ثرفنى كالذى ياجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة، أو دفع شبهة، أو إيضاح مشكلة. وفاته وفات أشياعه أن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبي عليه السلام حتى يُتهم بأنه لفق القرآن مما نُقل إليه من علوم الأولين ((وما كنت تلتو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لأرتاب المبطلون^(٣))).

وكانت حجة المسيو مرسيه التي واجهني بها في صيف سنة ١٩٢٧ أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن في آثار الهند والفرس والروم. وقد أجبتة يومذاك بأن فقدان تلك الآثار لا يكفى لإنكار أنه كان لها نصيب من الوجود. على أن في القرآن الكفاية وهو أثر جاهلى كما سنبينه بعد قليل.

٤ — وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الاسلام ثرفنى يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية، وقلة التدوين، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الاسلام ودونها القرآن.

(١) يمكن الرجوع الى نص هذه المحاضرة في

(Revue Africaine—Nos 330 & 331 (1er & 2e trimestres 1927)

(٢) المجمل ص ١٥ و ١٦ (٣) سورة القصص.

وما نقله الرواة من النصوص لا يكفى لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى ، وبيان الاتجاهات العقلية التى كان يرمى إليها الكاتبون إذ ذاك ، وهو على قلته مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية ، وهو لهذا لا يعين مدرسة نثرية ، ولا مذهباً اجتماعياً ، ولا رأياً عاماً ، وإنما يعين أذواق واضعيه ، ومذاهبهم السياسية ، واتجاهاتهم الدينية .

ومن أمثلة ذلك حديث خنافر الحميرى ، وهو منقول عن ابن الكلبي ، ومثبت فى الجزء الأول من الأملى^(١) : وهو حديث مختلف وضع بعد الاسلام . وقد أضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهلى مع أنه قيل — على فرض صحته — فى عصر النبوة : لأننى أدخل تلك الفترة فى الجاهلية ، إذ لم يكن الاسلام استطاع أن يحو الآثار التى سبقته فى الشعر والكتابة وأن يدع مناهج جديدة للانشاء والتفكير تغاير مذاهب الجاهليين .

والذى وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبي إلى الجن ، وهى مسألة لا تعرض لها برفض ولا قبول ، وإنما نقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعيناً فى سبيل الوصول إليها بمحاكاة اللغة اليمنية ، فذكر "الزخبيخ" و"الهوب" بدل النار ، و"الواهر" بدل الساكن و"المجتمتين" بدل العينين ، ليوقع فى روع القارئ صحة الرواية ، مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية فى ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لا تخالفها إلا فى بعض الألفاظ . وكل ما يمكن استخلاصه من مثل هذا الحديث هو أطمئنان الرواة إلى أن لغة الكهان كانت مسجوعة ، وأنه كان من المؤلف أن يتبع النثر بشيء من الشعر . ولهذا قيمته فى تصور حالة النثر الفنى فى العصر الجاهلى ، وإن لم يصل بنا إلى تحديد ما كان عليه من قوة أو ضعف ووضوح أو غموض .

٥ — والحكم الذى أجريناه على حديث خنافر هو الحكم الذى نقضى به فى تقدير خطبة قس بن ساعدة الإيادى ، وهى الخطبة التى زعم الرواة أنه تنبأ فيها بظهور الرسول ، وهى بلا

(١) ص ١٣٣ ج ١ طبع بولاق .

شك خطبة وضعت لإيهام الجمهور أن نبوة محمد كانت مما يجري على ألسنة الخطباء الموقفين من أصحاب الحكمة في عهد الجاهلية . وهي كذلك خطبة مسجوعة ختمت بقطعة من النثر على نمط الحديث المنسوب إلى خنافر بن التوأم الحميري .

٦ - ومن أهم ما نسب إلى العصر الجاهلي من آيات النثر الفنى خطب وفود العرب عند كسرى . وهي خطب طويلة فصيحة مثبتة في الجزء الأول من العقد الفريد . وأنا أرى أن هذه الخطب منحولة وضعها الرواة بعد الاسلام لأغراض سياسية ، حين أرادوا أن يثبتوا فضل العرب في الجاهلية ، وانهم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسيف واللسان . وأكبر الظن أنها وضعت في العصر الإسلامي ، فإن لغتها تشابه تمام المشابهة للغة التي كتبت بها مشاورة المهدي لأهل بيته في بغداد سنة ١٧٠^(١) . ويكفي أن يرجع الباحث إلى نصوص تلك الخطب وهاته المشاورة ليقنع بأن التشابه بين الاثنين بين واضح من حيث الألفاظ والتعابير والأسلوب . وتدلنا خطب الوافدين على كسرى على تصور العرب بعد الاسلام لما كان عليه أسلافهم من المنعة وقوة الجانب ، وما أحبوا أن يصفوهم به من الثورة على كسرى والتأهب لمقاومته والخروج على سلطانه . وهي في جملتها صورة لشمال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وطباعهم ، وتفسير لما أخذ عليهم من الشذوذ في بعض الأوضاع الاجتماعية .

ويؤيد ما ذهب إليه من أنها كتبت بعد الاسلام أننا نجد الكلام الذي فاه به كسرى موضوعا في لغة تماثل تمام المماثلة لغة أولئك الخطباء ، مما يدل على أن يدا تعمدت تحرير ما جرى في تلك الوفادة . ولسنا نستطيع إثبات أن ذلك كان في الجاهلية ، فليس لدينا ما نعرف به كيف كان النعمان ينظم ديوان التحرير في قصره ، ولكننا نعرف أن العرب بعد الاسلام

(١) ص ١٠١-١٠٦ ج ١ (٢) نجد نص هذه المشاورة في العقد ص ٥٧ - ٦٤ ج ١

(٣) هذا لا يمنع انه كان في قصر النعمان ديوان للانشاء : فان أهبة الملك توجب ذلك ، وكان أولئك الناس حريصين

على مجاراة من يتصلون بهم من الفرس والروم في التحلي بالمظاهر الرسمية ، وأخصها تنظيم دواوين الملوك .

نظموا دواوين الرسائل ، وأعدوا لكل فن من فنون الكتابة رجالا إخصائيين ، ولذلك نجد مشاورة المهدي لأهل بيته مثلا ختمت بهذه العبارة :

”وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد“

٧ — والذي قلناه في خطب الوفود يمكن أن نقوله في أكثر القصص والمحاورات التي نسبت إلى أهل الجاهلية ، وتكلف واضعوها أن ينشئوا لها من الشعر وأن يضيفوا إليها من الأمثال ما يتناسب مع الغرض الذي وضعت له والظرف الذي قيلت فيه .

والنتيجة أننا لا نستطيع أن نعطي النثر الفنى في العصر الجاهلى لونا نظمئن إليه . لأن أكثر ما نسب إلى الجاهليين غير صحيح . ومؤرخو الآداب مطمئنون إلى أن الشعر بقى منه أضعاف ما بقى من النثر : لأن الشعر موزونٌ مقفىٌ يسهل حفظه ، ولأن أكثره قيل في حوادث مشهودة ساعدت على ترديده ، ولأن التدوين كان قليلا جدا فلم يحفظ به من النثر إلا اليسير .^(١) على أن في القدماء من أرتاب في صحة أكثر الشعر الجاهلى مثل محمد بن سلام ، وفي المحدثين من يكاد يرفضه كله كالكتور طه حسين .

وإذا كان الشعر الجاهلى مهددا بمثل هذا الرفض مع اتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع عناية الرواة والحفاظ والناسخين ، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نسب إلى الجاهليين من النثر مع أن عناية الرواة به كانت قليلة ، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم لقلة التدوين ، وكانت لهم شهرة مستفيضة جدا مثل سحبان وغيره من الخطباء الذين حدثنا عنهم الجاحظ وغيره ممن عُنوا بتدوين أصول الآداب .

٨ — قلنا إنه كان للعرب ثرفنى في الجاهلية ، ثم عدنا فأثبتنا أن شواهد ذلك النثر ليست صحيحة لأنها في جملتها من صنع الرواة ، فكيف يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب ثر فنى قبل الاسلام ؟

(١) في حديث لعبد الصمد بن الفضل الرقاشى : ”ما تكلمت به العرب من جيد المثنو أكثر مما تكلمت به من جيد

الموزون : فلم يحفظ من المثنو عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة“ راجع البيان والتبيين ص ١٥٨ ج ١

فليعلم القارئ ان لدينا شاهدا من شواهد النثر الجاهلي يصح الاعتماد عليه وهو القرآن .

ولا ينبغي الأندهاش من عدّ القرآن أثرا جاهليا ، فانه من صور العصر الجاهلي : إذ جاء بلغته وتصوّراته وتقاليده وتعايره ، وهو — بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفوّده بصفات أدبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلي ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتاب والخطباء .

وقد قدّمت هذا الشاهد للسيو مرسية الذي يرى أن النثر الفني يتبدى بآب المقفع ، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يهتد إلى الآن . أما الدكتور طه حسين فقد آهتدى إلى مخرج لطيف ، وذلك إعلانه أخيرا في دروسه بالجامعة المصرية أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر ، وإنما هو قرآن^(١) .

وقد بلغتني عنه هذه الكلمة وأنا في باريس ، فحسبته يمزح ، والمزاح مما يباح ! فلما عدت راجعته فوجدته يصّر على أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وقد حسب الدكتور طه أنه يخو بهذا التأويل ! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه من قدم النثر الفني عند العرب ، وأن لا يستكثر علينا أن ننقض بعض ما يرى المستشرقون ، وهم يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية ، وإنما أخذوا طرائق النثر الفني عن الفرس واليونان^(٢) .

(١) وهي متابعة غير موفقة للسيو مرسية الذي يرى أن القرآن ليس خليقا بأن يسمى نثرا ويقول :

On est donc fondé à refuser à la langue du Coran le nom de prose au sens plein et strict du mot.

وذنب القرآن عند السيو مرسية أنه في الأغلب مسجوع وموزون rimé et cadencé ولا يفر من قيد إلا ليقع في قيد ، ولو صح رأى السيو مرسية لأنكرنا أن يكون في آثار كتاب القرن الرابع والخامس ما هو خليق بأن يسمى نثرا : لأن أغلب كلام أولئك مسجوع وموزون .

(٢) الدكتور طه لا يقف عند العصر الجاهلي في نفى النثر الفني ، فقد صرح في إحدى محاضراته بالجامعة الأمريكية — مارس سنة ١٩٣٣ — أن القرن الأول بعد الهجرة لم يكن فيه نثر يعتد به ولم تكن للكتاب أهمية اجتماعية . وإنما كان الشأن للشعر والشعراء . وسيرى القارئ ان هذا الرأي قليل الحظ من الصواب .

٩ — القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ، ولو كره المكابرون ، فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ أنضعه فى العهد الإسلامى ؟ وكيف والإسلام لم يكن موجودا قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب !

فلا مفتر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية ، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهليين ، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون . والنبي جاء لإرشاد قومه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فى الحدود التى رسمها الدين الحنيف ، ولم يكن القرآن إلا أداة لنشر تلك الرسالة الكريمة التى أعزت العرب بعد ذل ، وهدتهم بعد ضلال .

وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل ﴿ إلا بلسان قومه ليين لهم ﴾ . وتلك إشارة نلوح بها لمن لا يكفهم المنطق ، وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبي قومه بما ينبو عن أدواقهم وأفهامهم ، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد الى الإغراب فى الألفاظ والتعابير ، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان .

إنه لو اضح أن اللغات يتميز بعضها عن بعض بشيئين اثنين : اللفظ والتعبير . وقد نتحد طائفة من الألفاظ فى بعض اللغات كما يقع ذلك فى العربية والتركية والفارسية والعبرية والهندية . ثم لا يقال إن وحدة الألفاظ تقتضى وحدة اللغات ، لأن سر اللغة هو فى طريقة الأداء لا فى أعيان الألفاظ ، ومن هنا صح لك أن تنظر فى صفحة من كتاب تركى فتجد ثلاثة أنحاسها مفردات عربية ثم لا يغنيك ذلك فى فهم ما أفصح عنه الكاتب من المعانى والأغراض .

وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أصدق فهم ، ووصل الى قرارة نفوس المؤمنين ففلاها روحا و يقينا ، وأستثار الدفائن من صدور المشركين فأعلنوا ما فى قلوبهم من غيظ وما فى رءوسهم من عناد . أفكان شئ من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها أهل الجاهلية ؟

١٠ — القرآن ليس بشعر ، لأنه خال من القوافى والأوزان ، وهذا موضع اتفاق .

ولكن أيمكن القول بأنه ليس بنثر أيضا كما يتوهم الدكتور طه حسين ؟ وليت شعري لمن يقال هذا الكلام !. أيقال لرجال الدين ؟ وكيف وهذه مسألة لغوية لا دينية ، وليس في أصول الدين ما يقهرنا على القول بما لم يقل به أحد من علماء اللغات ! أيقال لمؤرخي اللغة العربية ؟ وكيف وهم متفقون على أن القرآن كلام منشور وإن تفرد ببعض الخصائص والمميزات . أيقال إن الكتاب العزيز لا هو شعر ولا هو نثر وإنما هو قرآن لتصدق أوهام من يقولون بأن العرب لم يكن لهم نثر فني قبل الإسلام ، لأن النثر الفني لغة العقل ، وأولئك قوم كانوا يحيمون حياة أولية لا تبيح لأمثالهم غير التغني بعواطف الأطفال ؟

إذا كانت ميزة النثر الفني أنه أداة لشرح الحقائق التي توحى بها العقول ، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لكثير من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية التي كانت تغزو أفئدة العرب في الجاهلية ؟ أو من ذا الذي يرتاب في أنه خاطب العرب باسم العقل لا باسم الخيال ؟

ومن موجبات الغلط عند الدكتور طه حسين أنه يرجع كلمة قرآن الى أصلها في اللغة السريانية ، فهي هناك معناها الجهر ، وهو يؤكد أنه لذلك كان المسلمون في الصدر الأول يجهرون بتلاوة القرآن .

وهذا منطوق لا قيمة له ، وكان يصح لو أن القرآن كان مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها المسلمون في أعقاب الصلوات ، وكيف والقرآن لم يكن مما أنشئ للتسبيحات والتهليلات كما هو العهد بكثير من الكتب الدينية ، وإنما نزل لدفع عادية المشركين ونقض أوهام النصارى واليهود ، وإن كان هذا لا يمنع أنه أشتمل على سور قصيرة مسجوعة صالحة للتلاوة في سبيل الدعاء والابتهاال .

١١ - وأنا مع هذا أقرر أن القرآن - بالرغم من وضوح لغته وقربها أشد القرب من الآثار الأدبية لعهد الاسلام - يعد أثرا أدبيا يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التي جاءت بعده ، ويتفرد بالصفات الآتية :

(أولاً) خلّوه من الشعر الموزون خلقوا تاماً ، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر : فقد كان يمزج غالباً بأبيات من الشعر تأتي في أثناء الرسائل ، وقد تكون فاتحة أو خاتمة .

(ثانياً) نظام الآيات الذي يسمح في الغالب بوقف كامل يستريح عنده نفس القارئ ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذي أثر عن الجاهليين وشاع بعد الإسلام .

(ثالثاً) ضرب الأمثال وسوق القصص . وهى طريقة لم تعرف إلا قليلاً في الآثار الأدبية لتلك العصور . والقرآن يستبجح تكرار القصة الواحدة كلما دعت مناسبة ، في تصرف قد يكون قليلاً في كثير من الأحيان .

رابعاً — الابتداء بالفاظ غير مفهومة مثل الم ، حم ، طسم ، الر ، ص ، ن ، ق . إلى آخر تلك الفواتح التي اختلف في تأويلها المفسرون ، والتي لم يهتد أحد إلى المراد منها^(١) بالتحديد ، وهذا الخط من الابتداء لم نجده في النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية .

(١) كنت أتحدث عن فواتح السور مع صديق وأستاذى المسيو بلانشو (Blanchot) فعرض على تأويلها جديراً بالدرس والتحقيق ، وفي رأيه أن الحروف (الم . الر . حم . طسم) هى كالحروف (A O I) التي توجد في بعض المواطن من (Chansons de geste) فهي ليست إلا (Neîmes) أى إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون وقد كانت الموسيقى القديمة بسيطة يشار إلى الحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة ، وكان ذلك كافياً لتوجيه المعنى أو المرتل إلى الصوت المقصود .

وفي الكنائس المسيحية بأوروبا ، حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى (Le chant grégorien) وفي أثيوبيا مثلاً ، يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك : فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التي تذكر (الم) في القرآن أو (A O I) في نشيد رولان .

ويفيد رأى المسيو بلانشو أن (الم) تنطق هكذا عند الترتيل : (ألف . لام . ديم) فهي ليست رمزا كتابيا ، ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفاً عند أهل الجاهلية . ومن الواضح أن القرآن لم يكن من هم أن يخالف الجاهليين في كل شئ حتى في الأصوات الموسيقية : فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين .

ونحن مع اعتدافنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية ، مع تطوعهم بعرض كثير من الفروض . ولو أنه كان معروفاً في الصدر الأول لما تعرض لثل هذا الإغفال .

ومن بدرى فلعل دراسة أصول الموسيقى في الكنائس الحبشية والشامية في العهد الذى سبق الإسلام تعود على هذا الرأى بشئ من التوضيح والتحديد . وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأى بين الشك واليقين .

خامسا — يظهر أن القرآن نُظِمَ نظمًا غنائيا، وأن ترتيله كان ملحوظا في أوضاعه الثرية، بدليل أن كثيرا من الآيات ينتهي قبل أن ينتهي المعنى المطلوب . وترتيل القرآن والتغنى به كان معروفا في صدر الاسلام، ولكننا لا نعرف كيف كانت قوانين التغنى به من الوجهة الموسيقية . لذلك ندهش حين نرى في سورة المدثر مثلا أن الآية الحادية والثلاثين تزيد عن الآية الثلاثين والثانية والثلاثين أكثر من عشرين مرة . ولا حل لهذا الإشكال إلا ما نلمحه في الآيات الطوال من الاشارات التي تليح الوقف القصير . على أن في هذا نفسه دلالة على أن المعنى هو الأساس في نظم القرآن ، وأن الغناء لا يقع إلا نافلة في صياغة الآيات .

سادسا — لا يلتزم القرآن السجع، فقد نجد سورا قصيرة مسجوعة ، وقد نجد صحفا مسجوعة من السور الكبار . ولكن ذلك لا يطرد فيه . وكثيرا ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل . وأكثر ما يكون ذلك حين يُعنى بالمشاكل الدينية والاجتماعية التي لا يراد بها مخاطبة القلوب حتى توضع وضعها موسيقيا، وإنما يراد بها مخاطبة العقول ودعوتها إلى ترك ما درجت عليه من بعض أوضاع الاجتماع .

سابعا — يتدئ القرآن السور بالبسملة ، وهي سمة إسلامية أريد بها مخالفة ما كان عليه المشركون . وقد أراد فريق من الفقهاء أن يتخذوها فاتحة للرسائل والمؤلفات فوجدوا لذلك حديثا يقول "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" .

١٢ — وهذه الخصائص ليست كل شيء في متن القرآن، فهناك مميزات يختلف بها بعض السور عن بعض، وهناك فروق دقيقة تتميز بها أساليب السور المدنية من السور المكية . ولكنه لا يمكن الفصل فيما يميز به أسلوب القرآن في جملة تميزا جوهريا إلا إذا ظفرنا بنصوص كافية من نصوص النثر الذي عاصر القرآن أو سبقه بنحو جيل .

وهناك ميزة خطيرة للقرآن من الوجهة المعنوية : تلك تصويره للحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية التي كان يعرفها العرب قبيل الاسلام، وتصويره لبعض ما كان يعرف العرب عن

أسلافهم الأولين ، وبعض ما سمعوا به من أخبار الأمم الأجنبية التى سامها ملوكها الخسف وسوء العذاب .

١٢ - والخلاصة أن القرآن نثر ، وأنه دليل على أن العرب كان عندهم ترفنى قبل الاسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبى متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان .

وفى هذا قضاء على أوهام من زعموا أن أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل^(١) ؛ وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب والأسجاع والأمثال .

(١) هو رأى المسيو مرسيه وتابعه الدكتور طه حسين فى بحث نشره فى المقتطف ثم أعاد نشره فى كتابه عن (شوق وحافظ) .

٢ - نشأة النثر الفنى

هل الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية ؟ — الصور الفنية فى القرآن — وجوب الاهتمام بدرس عصر النبوة — خطب الرسول والخلفاء — نشأة العلوم العربية — الحياة السياسية والأدبية فى عصر النبوة — آثار المعارضين من المشركين واليهود — كيف ضاعت آثار أولئك المعارضين — كيف ضاع أكثر ما ترك النبي وأصحابه من الآثار الأدبية — ضياع الأدب الجاهلى — رأى ابن فارس فى قدم النحو والعروض — رأى فى قدم علم البديع

١ — يبتأ أن النثر الفنى وجد عند العرب فى الجاهلية . وهو يفرض نوعاً من الزخرف يهتم به علماء البلاغة . فلننظر أكان ذلك الزخرف فى طبيعة اللغة العربية ، أم وصل إليها من الخارج حين اتصل العرب بالفرس واليونان .

يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفنى وصل إلى العرب من الفرس ، وكان الدكتور طه حسين يشابهه فى ذلك ، ثم تغير فجأة فزعم أنه وصل إلى العرب من اليونان^(١) . وكانت حجته وحجة المسيو مرسيه أن المولعين بالزخرف من كتاب اللغة العربية أكثرهم من الفرس المستعربين . وهذه مدرسة قديمة يرجع عهدها إلى رينان (Renan) ، وهى ترمى إلى الحكم بأن المدنية العربية غريبة عن العرب ؛ وأن العرب مدينون فى علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهم إلى الفرس واليونان . والدكتور طه حسين متأثر بهذه المدرسة إلى حد بعيد : فهو يقول بأن البلاغة العربية أخذت حرفياً عن البلاغة اليونانية حتى فى الشواهد والصور والتعابير . وأذكر أنه أوصانى بالرجوع إلى تاريخ الآداب الفارسية لأعرف بالضبط من هم الكتاب الفرس الذين أوحوا إلى كتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس .

(١) إشارة إلى آراء متناقضة أعلتها الدكتور طه فى سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ (٢) قال ذلك فى محاضرة ألقاها فى مسرح حديقة الأربكية فى ربيع سنة ١٩٢٩ ثم أثبتته فى البحث الذى نشر مع كتاب (نقد النثر) لقدامية بن جعفر (راجع نقد النثر ص ١٤) .

٢ - وأنا لا أنكر أن العرب تأثروا بالفرس في حياتهم الأدبية، فإن من الطبيعى أن تدخل في اللغة والعقول عناصر جديدة بسبب المعاشرة والأغتراب والإطلاع على آداب الناس في مختلف الأقطار . فكل أمة في الأرض تتأثر حضارتها وآدابها وفنونها بالتماذج الجديدة التى تصل إليها عن طريق المعارض الدولية، وعن طريق السياحات وتبادل الآراء والأفكار فى العلوم والفنون والآداب .

ولكنى - مع هذا - أقرر أن الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية . وعندى لذلك شاهد لا يمحى وهو القرآن .

٣ - أليس القرآن آية فنية؟ بلى، فلننظر إذن أهو كتاب طبعى أم هو كتاب مملوء بالزخرف والصنعة المحكمة التى تدل على أنه أنزل على قوم يعرفون ما هو الكلام الجيد وما هو الأسلوب المتين . وإننا لنرى المؤلفين فى علوم البلاغة من رجال القرن الثالث والرابع والخامس يرجعون إلى القرآن فيأخذون منه الشواهد المتنوعة التى قد يعز وجودها أحيانا فى الشعر والنثر عند الكتاب المتأخرين .

وأنا لا أعرف حتى الآن باحثا رجع فى تدوين الصور الفنية للنثر إلى القرآن وأهتم ببيان الجدة والروعة التى يحتويها ذلك الكتاب الفذ، فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذى أولعوا بالجرى فيه وهو عصر الدولة العباسية، وأن يعملوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه، وأن يتحدثونا ما هى الصلات الأدبية والاجتماعية التى وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت ثمرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين نراهما مجسمين فى القرآن . هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية . ولكن مثل هذا العمل فى رأى خطر على الباحثين المسلمين فى الوقت الحاضر : لأن رأى العام فى مصر والشرق الإسلامى لا يسمع بدرس القرآن درسا تحليليا يبين ما فيه من العناصر العربية الصميمة والعناصر الدخيلة . والمستشرقون أيضا لا يهتمون بمثل هذا البحث لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبى قبل الإسلام، والعرب بعد الإسلام فى رأيهم متأثرون بالفرس والروم . كأن العرب

لم يكن لهم من طبيعتهم الصافية ، وعقولهم القويّة ، وأذواقهم السليمة ، ما يكفي لأن تكون لهم اتجاهات فلسفية وأدبية وفنية تغلب عليها صبغة العبقريّة أكثر مما تغلب نزعة المحاكاة .

٤ — ولنفرض جدلاً أن المسلمين المعاصرين يسمحون لكاتب مثلى بمعالجة هذا البحث وأن المستشرقين كذلك أهتموا به فستظل المسألة في رأي معقّدة صعبة الحل : لأنه لا يمكن الوصول الى يقين في تحديد العناصر الأدبية التي يحتويها القرآن إلا اذا أمكن الوصول الى مجموعة كبيرة من النثر الفني عند العرب قبل الاسلام تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون ، فانه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ما هي الصفات الأصيلة في النثر العربي ، وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة ، أم هو فنٌّ من الكلام جديد .

ومفهوم أنه من المستحيل في الوقت الحاضر الوصول الى نماذج أدبية تمثل من الأدب العربي ثلاثة قرون أو قرنين قبل الاسلام ، وإذن بقي القرآن وحده يتقدّم الينا كل يوم على أنه صورة فنية مفردة لا نعرف لها شبيها موثقاً به قبل الاسلام كما يعتقد المسلمون . والخطب والوصايا والرسائل التي نقلت الينا على أنها جاهلية هي موضوع شك ، وهي على فرض صحتها منسوبة الى القرن الذي يباشر الاسلام . ولا يمكن معرفة طبيعة لغة من اللغات بعدد قليل من النصوص وجد في مدّة قليلة لا تزيد عن نصف قرن من الزمان .

٥ — ونحن مع هذه الحيرة لا نستطيع الفرار من الاقتناع بأن القرآن أثر عربيٌّ صرف ، لأن الرسول الذي تلقاه وبلغه عربيٌّ ، ولأنه نشأ في بيئة عربية ، ولسان عربيٌّ مبين ، وليس أمامنا أى دليل على أنه متأثر تأثراً محسوساً بأدب أخرى أجنبية ، وإن كان هذا ممكناً ، لأن العرب قبل الاسلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاورهم من الأمم ، وكانت لهم مع جيرانهم الأقربين والأبعدين علاقات تجارية . وهذا كله لا يفيد غير الظن وهو لا يغني عن اليقين .

أفاستطيع بعد هذا البيان أن أقول من جديد : إن صور النثر العربي لا ينبغي البحث عن أصولها في القرن الثاني والثالث ، وإنما ينبغي الرجوع اليها في القرآن ، وإذن لا يصبح الحكم

بأن الزخرف الفني في النثر العربي جاء عن طريق الفرس ، وإنما هو طابع أصيل في اللغة العربية تطوّر مع الزمن وأخذ لونا بعد لون وانتقل من حال الى حال . وإن كان هذا لا يمنع أن تكون صلات العرب بالفرس زادت في قوة هذا التطور وأضافت اليه قوًى جديدة خيلت إلى الباحثين أن النثر العربي مدين للفرس في تطوره ونموه . وهذا يفسر جانباً من أسباب التطور ولكنه لا يرجعها إلى سبب واحد هو العملة الأولى كما ظن كثير من المستشرقين .

٦ — والخواص الفنية الموجودة في القرآن توجد كذلك في الآثار الأدبية التي عاصرتها كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والولاة والقواد الذين شهدوا عصر النبوة أو جاءوا بعده بقليل . ففي خطبة الوداع للنبي عليه السلام وكتب عمر بن الخطاب وخطب عليّ وزياد والحجاج روح أدبية تقارب الروح السائد في القرآن .

٧ — ويمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التي سبقت الاسلام لم تكن تخالف كثيراً لغة القرآن لأن التطور الكبير الذي ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب ومن روح إلى روح لا يتم في خمسين سنة مثلاً . وإنما يتطلب مدة طويلة . خصوصاً في أمة بدوية محافظة قليلة الاختراع والتبديل في لغتها وأسلوبها . ولكن هذا محض افتراض إلى أن توجد نصوص كافية موثوق بها تعين أن لغة القرآن كانت موجودة بروحها وأسلوبها ووضعها قبل الاسلام بقرن أو قرنين .

٨ — بعد هذا ينبغي أن ننظر في نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض . وهي أيضاً في رأي قديمة لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الاسلام في القرن الأول والثاني كما يظن مؤرخو الآداب العربية . لأنه لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن في أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا في الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير . وظهور كتاب كالقرآن في أي لغة يدل على أنها تعدت طور الطفولة منذ أزمان . واللغة حين تصل إلى عهد القوة

والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقييد ما يعرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والغموض^(١).

والدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر حين أشدّت الخصومة بين علماء الكلام، والباحظ في رأيه أول من أهتم بالبلاغة اهتماماً جدياً . وأنا أرى أن نشأة البلاغة قديمة سبقت القرآن وتطوّرت من بعده . ولكن ذلك كان يجري ببساطة وسهولة لا توقع في الزخرف، ومن أجل ذلك لاحظ مؤرّخو الآداب أن بشارا هو أول من كلف بالبديع في شعره، وتبعه في ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس، وأن أبا تمام تأثر مسالماً، وأولئك من شعراء القرن الثاني، فهل نشأ البديع في يوم وليلة، أم كان موجوداً وتطوّر على السنة أولئك الشعراء ؟

٩ — ولنقيّد هنا أن القرآن في بلاغته إنما كان يخاطب قوما يفهمونه ويتذوّقونه . وفهم القرآن وتذوّقه لا يمكن أن يقع اتفاقاً وبلا استعداد، بل لا بدّ من أن تكون عند الجماهير التي سمعته وتأثرت به واعتنقت دينه ثقافة أدبية خاصة . وأنا لا أفترض أن هذه الثقافة كانت كالثقافة التي ظفر بها العرب بعد الإسلام . ولكنها على كل حال كانت تتناسب قليلاً أو كثيراً مع ما في القرآن من فصاحة وعمق . وهذا الذي أقوله يمحّنا على الشك في التقاليد التي جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أميين بدرجة خطيرة وأنهم لذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئاً يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم . بل أنا أذهب أبعد من ذلك فأفترض أن الإسلام كان تاجاً لنهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية

(١) يذكر أبو هلال في كتاب الصنائع — ص ٣٥١ — أن أكرم بن صيفي كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : (افصلوا بين كل متقضى معنى، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً ببعضه ببعض) وأن الحارث بن شر الفسائي كان يقول لكتابه المرقش : (إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بغير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبعته من الألفاظ، فانك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذّق قرت القلوب عن وعيها وملتها الأسماع واستغلتها الرواة) . وفي أمثال هذه الكلمات دليل على أن الرواة نقلوا عن الجاهليين أحكاماً في صناعة الكلام . وفي ذلك ما يصلح للاستئناس به في هذا الموضوع . وليسك من شاء في صحة هذه النصوص فهي على كل حال صورة لفهم نقاد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية .

في الحدود التي كان يستطيعها العرب ، لأنه لا يمكن رجلا فردا مثل النبي محمد عليه السلام أن ينقل أمة كاملة من العدم الى الوجود ومن الظلمات الى النور ومن العبودية الى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد استعدت في أعماقها وفي ضمائرها وفي عقولها بحيث استطاع رجل واحد أن يكون منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوروبا في زمن وجيز . ولو كان يكفي أن يكون الإنسان نبيا ليفعل ما فعله النبي محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا : لأن أهمهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض .

١٠ - بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقتر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية في عهد النبي لم تصور الى الآن بصورتها الحقيقية : فهذا رجل غير أمة كاملة في عشرين عاما واقيت دعوته آلاف المصاعب . أفيمكن حقا الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبري وغيره من المؤرخين ؟ وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التي قامت في وجهه وأضطرت به إلى الهجرة ؟ وأين السنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟

أيعقل أن تمر حركة كهذه من دون أن تهب في وجه صاحبها السنة الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء ؟

وهل نسمح طبيعة الوجود بأن رجلا كمحمد يقضى أسناره بين خواصه ، وأيامه في ميادين الحروب ، من غير أن تكون له ولرجاله مساجلات قوية يتناولون فيها حجج خصومهم نقدا وتحليلا ويعرضون فيها للسياسة العامة بآراء لها من القيمة ما شهدنا آثاره في الرسالة الإسلامية ؟

وهل يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبي وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول في التفتيح

عن دياناتهم والقدح في الديانة الجديدة التي تهاجمهم في عقرب دارهم ، وتدعوهم إلى تحطيم أصنامهم وترك أحبارهم ورهبانهم ؟ هل يعقل أن يمر ذلك كله من دون أن يكون هؤلاء ألف خطبة وألف رسالة ، وألف قصيدة ؟

١١ - أضيف إلى ذلك أن الحركة الإسلامية لم يعرف فيها من الخطباء والشعراء إلا عدد قليل لا يتناسب مع خطورة ذلك الموقف ، أفكان حقا أن الاسلام لم يقم إلا على كفاف ذلك العدد القليل ؟

إن الحياة العقلية في عهد النبي لم تنقل إلينا بصورتها الحقيقية ، ويرجع ضياع صورتها في رأيي إلى سببين :

أولا - ضياع آثار حزب المعارضة معقول ، لأنه أنهزم ولم يعد في الإمكان تدوين الرسائل الجارحة والخطب المقذعة والرسائل اللذاعة التي هوجم بها النبي وأنصاره . خصوصا إذا لاحظنا أن الذين نقلوا آثار ذلك العصر كلهم من المسلمين الذين يرون من الإثم والخرج أن يعيدوا الشتائم والقذائف التي رُمي بها النبي وجرح بها الاسلام ، ولو بقيت آثار حزب المعارضة لاستطعنا أن نفهم إلى أي حد كان خصوم النبي يفهمون آراءه الاجتماعية والمنزلية ، ولرأينا كذلك صورة من الأدب الذي كان يستريح مهاجمة النبي ورسالته في عنف وإفذاء .

ثانيا - ضياع آثار النبي وأصحابه معقول أيضا . فقد شعر المسلمون بأن واقعة اليمامة أضاعت جمهور الحفاظ بحيث أصبح القرآن نفسه مهددا بالضياع ، ولولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدد القرآن وعدنا لا نجد منه إلا شذرات مختلفة لا تطمئن إليها النفس كما هو الحال في الأحاديث التي دوت أخيرا ، بعد إذ مات الحفاظ الأولون .

١٢ - وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب بأن يدقنوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة فإنه لا يصح لنا أن نستنتج أنه لم تكن لهم حياة أدبية قوية تصور ميولهم وأذواقهم وعواطفهم ومشاعرهم وكفرهم وإيمانهم ووفاءهم وغدرهم ، إلى آخر الألوان النفسية التي يقتضيها عصر التحول والانتقال في جميع الأمم بلا استثناء .

وانما ينبغي أن نعتقد أنه كان لهم أدب قوى متين يقرب في روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه : فان البيئة واحدة واللغة واحدة والعصر واحد ، ولم يكن محمد إلا بشرا أُلهم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة ، لا سيما إذا تذكرنا أن القرآن نفسه وصف العرب في عدة مواطن بأنهم أهل فصاحة وجدل وخصومة وعناد ، ولم تكن فصاحتهم صمتا ، ولا جدلهم سكوتا ، ولا خصومتهم فرارا ، ولا عنادهم أنهما ، ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول والسيف بالسيف نحو ثلث قرن إلى أن انتصر الإسلام ، ولم تبق من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحروب .

١٣ - والواقع أن تسمية ذلك العصر بالجاهلى تسمية دينية صرفة ، فان العرب لم يصفوا ذلك العصر بالجهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية . ولكنهم فيما يرجع الى الأدب كانوا يرونه من أرق العصور ، وكانوا يتأثرون شعراء وخطباء وحكماء في كثير من أبواب القول^(١) .

وقد آسَمَسَك العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلى وعدوه وحده المرجع في ضبط أساليب اللغة العربية . ولم يتخذوا شواهد من الشعر الإسلامى إلا في الحدود التى حسبوها قريبة أشد القرب من النزعة الجاهلية ، فكان الشعراء لذلك يمتهدون في تذوق الأدب الجاهلى وفي رياضة أنفسهم على محاكاةه والصدور عن وحيه وأخيلته وتعايره وألفاظه . وقد نفق ذلك الأدب نفاقا عظيما حتى رأينا من الرواة من يصنع القصائد والخطب والأمثال في لغة جاهلية ليبيعها في الأسواق وفي قصور الأمراء والوزراء والخلفاء . فكان مثل ذلك الشعر الجاهلى مثل الآثار المصرية التى يخلقها التجار خلقا لبيعوها للأغنياء من عشاق العاديات . وقد نشأ عن

(١) ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن العصر الجاهلى لا يمثل أمانا في بواديه ، فان البوادرى العربية كانت ولا تزال بعيدة من الفنون الأدبية التى تعتمد على العقل والمنطق . وانما نقصد الحواضر العربية لعهد الجاهلية ، وتلك الحواضر كان فيها شعروثر وقصص لأن هذه الفنون توجد حيث توجد الحضارة . والمدائن الكبيرة في العصر الجاهلى كانت فيها حضارة تتمثل في مظاهر مادية من المنازل والقصور ، ومظاهر معنوية من الملك والجاه والمال ، وهذه وتلك توجب ثروة من الترف العقل والوجدانى . والنثر الفنى مظهر من ترف العقل والوجدان .

هذا فنٌ من النقد برع فيه الأقدمون، فكان منهم من يهتم بتمييز الأدب الجاهلي الصحيح من الأدب الجاهلي المصنوع، نكايه بالرواة الملقين، أو حبا في تصفية الأدب الجاهلي من الزيف المدخول.

وفي ذلك مقنع لمن يحب أن يطمئن إلى أن العصر الجاهلي لم يوصم بالجهل إلا فيما يختص بالدين. أما في الأدب فكان عصر نور وعلم وعرفان، كما تشهد آثار القدماء.



١٤ - هناك ناس يعتقدون أن الشعر الجاهلي منحول وهناك أفراد ينكرون أن يكون العرب الجاهليون عرفوا من الأدب شيئا آخر غير الشعر والأمثال، وأحب أن أبين أنه لا تعارض بين القول بنفى ذلك الأدب والقول باثباته: فأنا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهلي واسع النطاق، وأنه كان للعرب الجاهليين ألسنة فصيحة وعقول ناضجة وآراء حكيمة قادرة على قيادة تلك الجماهير الحية التي تفرقت في الحواضر العربية.

يقولون: وأين آثار ذلك الأدب الجاهلي؟

وأجيب بأن ذلك الأدب قد ضاع أكثره حتى يصعب أن تتخذ منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية واجتماعية ودينية.

وهنا يتسم المنكرون قائلين: ومن يدرينا أنه كان هناك أدب ضاع!

وعند هذه المفاجأة نجد الجواب: لأن الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثاني والثالث فقد عرفوه وتدارسوه. فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن المجموعة الشعرية التي جمعها المفضل الضبي في القرن الثاني مجموعة صحيحة؟ ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن تلك المجموعة تدل على أنه كان هناك شعر جاهلي كثير جدا اختيرت منه المفضليات؟

١٥ - أضيف إلى هذا أن من رجال الأدب الموثوق بهم من جمع كتباً كثيرة من آثار

العصر الجاهلي، وأن تلك الكتب قد ضاعت أصولها ضياعاً تاماً، وفي ذلك ما يشعرون بأن المتأخرين فقدوا ذخائر كثيرة من أصول الأدب القديم.

إننا نعرف أن أبا تمام جمع كتاب الحماسة من مكتبة أحد الأمراء ، والجمع هنا معناه التخير، ونعرف كذلك أن ديوان الحماسة يشتمل على مختارات نفيسة من الأدب الجاهلي . فهل نجد من يدلنا على مصادر أخرى لأكثر ما اختاره أبو تمام غير ديوان الحماسة ؟

فإن لم توجد تلك المصادر فلن يكون معنى هذا أن أبا تمام خلق ديوان الحماسة خلقا ، ولكن معناه أن الحياة كتبت لذلك الديوان . وليس أبو تمام وحده هو الذى عنى باختيار الشعر القديم فهناك مؤلفون عديدون أهتموا بذلك النوع من الاختيار ثم ضاعت مختاراتهم ولم يبق إلا ذكرها فى كتب التراجم . ومع هذا فمن الغرور أن نحكم على قيمة الأدب الجاهلي بما قرأناه منه فمن ذلك الأدب مجموعات قيمة جدا لم يكتب عليها الفناء وغفل عن استغلالها أكثر الباحثين . وفى دار الكتب المصرية مخطوطات لم يفكر أحد فى الانتفاع بها ، مع أن دار الكتب المصرية من المكاتب الفقيرة التى جمعت ذخايرها اتفاقا ومصادفة بدون أن يكون عند مؤسسيها فكرة الاستقصاء . وفى مكاتب اسبانيا والمغرب آثار جلية للأدب الجاهلي لم يستغلها أحد ، ولعلها لو فُهرست ونظمت ودرست لكشفت لنا نواحي مجهولة من الأدب القديم ... ولكن أين من ينتظر نتيجة البحث ؟ إن المتأدين عندنا يحكمون على الغائب بلا بينة ولا شهود !

١٦ — أنا أقول بأن الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند المتأخرين ، أما المتقدمون فكانوا يعرفونه ويروونه ويتجرون به فى الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك . ولكننى مع هذا أقرر أن هناك شطرا من الأدب الجاهلي قبره المسلمون عمدا فى القرن الأول ، وإلى القارئ البيان :

كانت الحياة الجاهلية تختلف عن الحياة الإسلامية اختلافا شديدا . ففى الأعوام التى سبقت الإسلام كانت فى الجزيرة عادات وتقاليد وأوضاع لها ألوان وثنية أو نصرانية أو يهودية ، فلما جاء الإسلام تبدلت تلك التقاليد وصار من اللائق تناسي ما يمسها من الأدب الجاهلي وصفا أو شرحا أو تعليلا . ورأى العرب المسلمون أن فى ذلك الأدب جوانب خطيرة يجب

إسقاطها والقضاء عليها صونا للوحدة الإسلامية . وليس في هذا شيء منكرو، لأن الأدب يتصل أكثره بحياة الناس وسيرهم وأخبارهم وأخلاقهم من شئامهم مرضية أو طباع ذميمة ، وفي حياته حياة لما وصف أو شرح أو علل من الأخلاق والسجيا والمعتقدات . وقد يتفق أن يكون في العرب المسلمين من تناول شعراء الجاهلية وكتبهم وخطبائهم بالقدح والثلب والتحقير ، وقد يتفق كذلك أن تكون هناك قبائل تهاجت وتحاربت في الجاهلية ثم ألف بينها الإسلام . أفىكون من الحزم أن يعود الرواة إلى ذلك الأدب فيرووه ويحيوه وفيه إثارة لما سكن وهدأ من قديم الأحقاد ؟

١٧ - إن العرب في الصدر الأول من الإسلام تناسوا علمدين أبوابا كثيرة من الأدب الذي كان محفوظا قبيل الإسلام صيانة للوحدة الإسلامية من عبث الأهواء . وليس هذا الذي نقوله مجزؤا فتراض : ففي التاريخ الإسلامي شواهد كثيرة تقنعنا بأن الخلفاء الراشدين كانوا يتشاءمون من رواية الأدب الجاهلي . وهم بالطبع لا يتشاءمون إلا من الأدب الذي يصور ما كان عند الجاهليين من ترات وعداوات وحزازات . وهم فيما عدا ذلك كانوا يدعون إلى رواية الشعر وحفظه لأنه كما قال عمر بن الخطاب ديوان العرب . والذي تقضى به في الشعر هو نفس ما تقضى به في الرسائل والخطب والأشباع . فمن عسى أن يكون ذلك المسلم الذي يستبجح رواية خطب الكهان ورسائلهم وأشباعهم وهي تفيض بالروح الوثنية ؟ ومن عسى أن يكون ذلك المسلم الذي يروى ما أثير عن النصارى واليهود قبيل الإسلام ، في حين أن الدين الجديد كان يروضهم على تناسي جميع الآداب التي تنافى أدب القرآن^(١) .

(١) نستطيع فهم ذلك بصورة أوضح إذا تذكرنا الأدب المصرى قبل الحرب العالمية التي ثارت سنة ١٩١٤ فان رسائل الشيخ عبد العزيز شاويش ضد الأقباط ورسائله في مهاجمة سعد باشا زغلول ، وقصائد حافظ بك إبراهيم في حادثة دنشواى والمطالب التي طوق بها عتق إبراهيم بك الملباوى ، كل ذلك لا تمكن روايته اليوم : لأن فيه إثارة للعداوة التي كانت بين المسلمين والأقباط . وفيه تحقير لناس رضى عنهم الجمهور . وقد كتبت مرة رسالة عن الأدب المصرى قبل الحرب فأبنت أن نشرها جريدة (البلاغ) فزادنى ذلك اقتناعا بصحة هذا المثال . ومن هذا الباب ما وقع بعد وفاة سعد باشا فقد جمع كاتبه الخاص محمد إبراهيم الجزيرى خطبه السياسية ونشرها كاملة فكتب رئيس محرر جريدة السياسة =

١٨ - من أجل هذا كله أستبعد أن يكون العرب ظلوا خالي الذهن من العلوم الأدبية الى أن اتصلوا بالفرس والروم . وإذا كان المستشرقون ومن لف لفهم من أدباء مصر يستكثرون أن يكون أبو الأسود الدؤلى هو أول من فكر فى النحو ويرجحون أن يكون النحو أثرا من اتصال العرب بالسريان والروم ، فانا أستقل أن يكون أبو الأسود أول من فكر فى النحو ، وأرى من المضحك أن يظن أن العرب لم يتنبهوا الى وقوع اللحن فى لغتهم إلا بعد الاسلام ، وأن اتصال العرب بالأعاجم هو الذى رماهم باللحن ، كأن لغة العرب بدع من اللغات لا يلحقها تغير ولا تبدل . وذلك رأى واضح البطلان . وانما أرجح أن يكون العرب فى جاهليتهم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبية . ألسنا نرى القرآن يجرى على نمط واحد فى أوضاعه النحوية لا يختلف فى ذلك إلا باختلاف رواته من القبائل المختلفة^(١) ؟ ولغة القرآن هى لغة قريش ، وهى التى تهمننا ، فإذا كنا نجعل إلى الآن كيف تطورت وكيف نشأت علومها وفنونها ، فمن الأمانة العلمية أن نقف على الأقل محايدين وأن لا نجزم برأى ستنتفضه الأيام .

وهذا الذى أقوله أنا مستعد لتحمل تبعته والدفاع عنه ، وأرجو أن يكون له أثر فى فهم البيئة القديمة التى نزل فيها القرآن ، والتى تستحق أن تدرس من جديد درسا علميا يكشف اللثام عن ذلك العصر الذى سموه خطأ عصر الجهل ، وهو فى رأى أهل لأن يسمى عهد معرفة ونور .

* * *

١٩ - على أننى وقفت على نص مهم يدل على أن من نقاد العرب من أرتاب فى نشأة العلوم اللغوية ، إذ رأيت ابن فارس يلاحظ فى قصيدة الخطيئة التى أولها :

== مقالا بين فيه أن فى نشر خطب سعد باشا كاملة خطرا على ائتلاف الأحزاب ، لأن فى المجموعة التى نشرها الجزيرى خطبا جارحة فى مهاجمة ثروت باشا ، وكان من أصدقاء حزب الأحرار الدستوريين . ولا ينس القارى أننا اليوم أشد تسامحا مما كان عليه العرب فى صدر الاسلام ، فأنكره نحن كان عندهم إمعنا وفسوقا .

(١) عدم اختلاف الأوضاع النحوية لا يدل على أن العرب لذلك العهد كانوا عرفوا النحو ، ولكنه دليل على أن اللغة كانت موحدة فى طرائق التعبير ، وهذا كاف للاقتناع بأنهم كانوا فكروا فى ربطها بقواعد النحو وأصول البيان .

شافتك أظعان للـلى على دون ناظرة بواكر

أن قوافيها كلها عند الترم والإعراب تجئ مرفوعة ، ولولا علم الخطيئة بالرفع لاختلف
إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد لا يكون ، وهذا برهان على فهم
الخطيئة لقواعد النحو والعروض ^(١) .

وكذلك يرى ابن فارس أن معرفة القدماء من الصحابة بكتابة المصحف على النحو الذى
يعلمه النحويون في ذوات الواو والياء والهمزة والمسد والقصر تدل على فهمهم لأصول اللغة
وقواعد الكتابة ^(٢) . وهو على الجملة يرى أن العلوم العربية كانت معروفة قبل الاسلام .

٢٠ - والذى قضى به ابن فارس في نشأة النحو والعروض هو الذى تقضى به نحن
في نشأة البديع ، بل نشأة البديع أظهر وأوضح ، فإن القرآن سجل مظهراً من مظاهر الزخرف
والسجع ، فهو إذن كان موجوداً قبل الاسلام ، وليس السجع فقط هو الذى قيده القرآن ،
بل أكثر الفنون البديعية أخذت شواهدا من آيات القرآن .

ونتيجة ما سلف أن العرب في جاهليتهم اهتموا بالنثر الفنى اهتماماً ظهر أثره وعرفت
خواصه في خطب الخطباء ورسائل الكتاب ، ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التقيد
والتدوين لشيوع الأمية فيهم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتماماً جدياً بتدوين البديع ، فكان
من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين في هذا الفن الجميل ^(٣) .

(١) الصحابي ص ٩ (٢) الصحابي ص ١١ (٣) جاء في زهر الآداب (ص ١١٤ ج ٤) مانص :

”قال أبو بكر الصولي : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يتحقق بعلم البديع
تحققاً ينصر دعواه فيه لسان هذا كراته : فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعبا من شعابه ، وأرانا أحسن
ما قيل في بابه“ .

فالمسألة إذن هي أن ابن المعتز كان يدعى التفوق في علم البديع . فعلم البديع كان معروفاً . ومن الصعب أن تقبل
سكوت كتاب العرب وأدباؤهم نحو قرنين عن هذا الفن حتى يجي . هذا الأمير المترف فيؤلف فيه .

وما قلناه في ابن المعتز نقوله في قدامة بن جعفر الذى عدوه من أوائل المؤلفين في البديع . وفي حديث خنافر الحميري —
المنبت في الأمالي ص ١٣٣ ج ١ — وصف القرآن بأنه ”ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف“ وهذا الحديث
موضوع بلا شك ، ولكن فيه إشارة الى أنه كان مفهوماً عند الرواة أن الناس لهد النبوة كانوا يميزون بين السجع
المطبوخ ، والسجع المصنوع . والسجع من فنون البديع .

٣ - النثر الفني في العصر الإسلامي *

١ - جاء الإسلام فأيقظ العرب وأثار ما سكن من نشاطهم وحياتهم وحبب إليهم القوة والجاه والملك، فأطلقت ألسنتهم، وظهر فيهم الكتاب والخطباء والشعراء . وكان من دواعي ذيوع البلاغة عندهم حاجتهم إلى الدفاع عن صدق النبوة، ثم أشجار الفتن بينهم : فتن التحزب والاختلاف والانقسام التي كانت أهم باعث على شيوع الكتابة والخطابة في تلك الأمة التي توارت في الصحراء زمنا غير قليل . وأول مظهر لقوة الخطابة والكتابة هو التنافس الشديد الذي قام بسبب الخلافة، فقد كان كل حزب من المهاجرين والأنصار يدعو لنفسه سرا وعلانية عن طريق الخطب والرسائل والمجادلات التي كانت تنور في المجالس والمساجد والأسواق . ثم كانت الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فظهرت حاجة الفريقين إلى البلاغة واشتدت الرغبة في نشر الدعوة في الأمصار الإسلامية . ولم يكن حظ هذه النهضة الأدبية كحظ النهضة التي سبقتها في الجاهلية، لأن العرب شرعوا يتحضرون ويسلكون سبيل الأمم الممدنة في التدوين ، فكان من أثر ذلك أن حفظت آثار الكتاب والخطباء بحيث يستطيع الباحث أن يعين مظاهر النثر وخواصه في عصر بني أمية وصدر عصر بني العباس .

٢ - وأول ما ينبغي إثباته من خواص النثر هو عمقه وقوته بفضل تأثره بالآداب الأجنبية التي عرفها العرب حين آتبنوا بفضل الإسلام في الممالك التي فتحوها واكتسبوا بالمعايشة والمصاهرة روحا جديدا ظهر أثره في الخطب والرسائل والمحاورات ، حتى يمكن أن يقال : إن الفتح والملك أعطاهم من قوة الملاحظة ودقة التفكير ما لم يكن يعطيهم القرآن وحده

(*) هذا الفصل ليس إلا نظرة سريعة إلى مذاهب النثر في العصر الإسلامي يمكن القارئ من تصور الجهود التي سبقت القرن الرابع ، وكل جزء من هذا الفصل يحتاج إلى درس مطول . ولكنا وقفنا عند حدود الإشارة لأن الفصل يرمي نوع من التمهيد . وأهم ما نحتاجه هو الكلام عن السجع ، وسنفرده بفصل خاص .

لو ظلوا محصورين في أرجاء الجزيرة العربية^(١). ولا عبرة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة، فان هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربي عن فهم المدنيات الأجنبية، وإنما كان يراد به حمايته من العجمة التي كانت تعيب الأرستوقراطية العربية، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه.

٣ - ومن خواص الكتابه عدم التأني في البدء والختام فقد كانت الجاهلية تكتب في أول كتبها « باسمك اللهم » ثم تكتب من فلان إلى فلان، ويمضون في الغرض، وكان النبي يفتتح كتبه بالبسملة ثم يقول : من محمد رسول الله إلى فلان، ويبتدىء صدورها غالباً بالسلام عليكم، أو السلام على من أتبع الهدى ويثنى بالتحميد بعد السلام فيقول : إني أحمد الله إليك الذي لا إله الا هو، ويتخلص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بآما بعد وأخرى غيرها، وكان يختتمها في الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله، أو السلام على من أتبع الهدى^(٢).

٤ - والذي يهمننا تقييده في هذا الفصل هو المنهج العام الذي جرى عليه النثر في ذلك العصر، ويظهر مما أطلعنا عليه أن مسألة الإيجاز والإطناب كانت تجري في الغالب على مقتضى (١) ليس معنى هذا أننا ننكر أثر القرآن في إحياء البلاغة العربية، لا، فنحن نؤمن بأن القرآن كان من أقوى البواعث على النشاط الأدبي، وزراه مصدر الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية التي ازدهرت في الحواضر الإسلامية. وحسب القارئ أن يذكر أن عمل علماء اللغة والنحو والصرف والبيان كان دعوة إلى غاية : هي الإيمان بأعجاز القرآن. ولم يقف أثره عند إحياء العلوم الأدبية، وإنما أثر تأثيراً بيناً في أساليب الكتاب والخطباء حتى لوحظ أن ابن نباتة الخطيب كان يسلك في نثره مسلك الأساليب القرآنية وحتى دون المتقدمون أن الروح القرآني كان يظهر على لسان الصابي وعلى سنان قله البليغ، فن المجازفة أن نوافق المسيو مرسيه حين يقول في انكار أثر القرآن في النثر الفني :

L'influence du livre saint sur le developpement de la plus ancienne prose littéraire arabe est infiniment moins considérable qu'on ne serait tenté de la croire (Revue Africaine 1^{re} & 2^e trimestres 1927. P. 19).

ولا قيمة لما أشار إليه المسيو مرسيه عقب كلمته هذه من أن العرب كانوا يجنبون محاكاة القرآن، فان ذلك لا ينافي تأثرهم به وتأثيره فيهم، فان هناك عدوى روحية تمس القلب والعقل وتصنع الآثار الأدبية بصيغة ما يقرأ المرء أو يسمع وإن تكلف الحرب وحسب نفسه بمنجاة من المحاكاة والتقليد.

(٢) راجع خطاب النبي محمد وكتاب أبي بكر للسلمين يمهّد إلى عمر بالخلافة وخطاب عثمان إلى علي يستنجد به ١٢٨ و ١٢٩ من كتاب الوسيط.

الحال فكان الكاتب يوجز تارة ويطنب أخرى وفقا للظروف التي يكتب فيها رسالته، وكان من الخطباء من يطيل، وكان منهم من يوجز، ولا يرجعون في ذلك الى قاعدة غير المناسبات التي توجب الكلام، فتقضى مرة بالاطناب وتقضى حيناً بالايجاز . وسحبان وائل الذي عرف بالتطويل وبأنه كان يخطب أحيانا نصف يوم أثرت عنه الخطب القصيرة الموجزة . وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبية على ذلك العصر وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئا آخر غير مراعاة الظروف .

ورسائل علي بن أبي طالب وخطبه ووصاياہ وعهوده الى ولاته تجرى على هذا النمط، فهو يطيل حين يكتب عهدا بين فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي يراعه، ويوجز حين يكتب الى بعض خواصه في شأن معين لا يقتضى التطويل ^(١) .

٥ - غير أنه لا يمكن الحكم بأن الكتاب والخطباء كانوا جميعا موفقين في ترك الفضول، بل يظهر أنه في أوائل العصر العباسي وقع اضطراب في تقدير الظروف والمناسبات وفهم أقدار المخاطبين، فلنا نجد ابن قتيبة يدعو في مقدمة كتابه أدب الكاتب الى وضع الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب اليه بحيث لا يعطى الكاتب خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضعيف الكلام، وزاه يلاحظ أن الكتاب لا يفرقون بين من يكتب اليه " أنا فعلت ذلك " ومن يكتب اليه " نحن فعلنا ذلك " ^(٢) .

وقد ساعدنا ابن قتيبة على تحديد النمط الذي ساد في العصر الاسلامي حيث ناقش كلمة أبريز في الايجاز "وأجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول" فبين أن الايجاز ليس محمودا في كل موضع، ولا يختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، وأنه لو كان الايجاز محمودا في كل الأحوال لجرى عليه القرآن، ولكنه لم يفعل ذلك، بل أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للايجاز، وكرر تارة للإفهام، ثم أندفع ابن قتيبة فذكر أنه ليس يجوز لمن قام مقاما في تحضيض على حرب أو حمالة بدم أو صلح بين عشائراً أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن

(١) راجع فصول نهج البلاغة . (٢) ص ١٥ من أدب الكاتب .

كتب إلى عامة في فتح أو استصلاح أن يوجز، وأنه لو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكه في بيعته:

”أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت ، والسلام“ .

لم يعمل هذا الكلام في انفسها عمله في نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدئ ، ويحذر وينذر .

وقد توهم الأستاذ أحمد الزيات أن كلمة ابن قتيبة هذه دليل على أن النثر في الصدر الأول كان موسوماً بالايجاز وأن^(١) ابن قتيبة دعا أهل ذلك العصر إلى عدم الاكتفاء بما كان يكتفى به أمثال يزيد بن الوليد . وهذا خطأ في الاستنتاج فان ابن قتيبة ذكر أن القرآن كان يطيل ويكرر حسبما تقتضي الظروف . والقرآن أساس المنهج الكتابي لذلك العصر بلا شك . والذي لا يمكن نكرانه أنه حصل تطوّر في النثر في العصور الاسلامية الأولى ، ولكنه كان تطورا بطيئا لم تظهر آثاره إلا في طرائق التعبير عن الشئون الخاصة بتدبير الملك ومخاطبة الخلفاء ، وهذا التطور متأثر باتصال العرب بالفرس ، فقد كان لهؤلاء تقاليد ملكية رغب العرب في محاكاتها حين أطلعوا على ما عندهم من الفنون والآداب .

(١) أدب الكاتب ص ١٦ و ١٧ (٢) تاريخ الأدب العربي ص ١٢٥

(٣) المعروف أن عبد الحميد بن يحيى هو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية (راجع الصنائع ص ٥١) ومعنى هذا أنه كانت للعرب تقاليد كتابية أضاف إليها عبد الحميد زيادات فنية في الفوائج والخواتم . فهو لم ينشئ فنا جديدا ، ولكنه أصلح فنا قديما ، وهذا يؤيد رأينا في نشأة النثر الفني ، فهو فن قديم عرفه العرب في الجاهلية ، وتم نضجه في العصر الاسلامي .

ومن ظريف ما يحسن تقييده أن المستشرقين كانوا يرتابون في شخصية عبد الحميد بن يحيى فلم يهتموا به اهتماما يذكر في دائرة المعارف الاسلامية ، ورأى الدكتور طه حسين أن يقدم فزع أن شخصية عبد الحميد شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس !! ونحن نثبت أن الجاحظ ذكره في كتبه ، فها هنا هذا التحدى ، وعدنا إلى كتب الجاحظ نسألها أخبار عبد الحميد ، فرأينا الجاحظ يتحدث عنه في رسائله وكتبه غير مرة ، وأقبلنا على الدكتور طه نخبره بنتيجة البحث ، فماد فتحدث إلى تلاميذه بأن عبد الحميد بن يحيى كان يعرف اليونانية !! ثم أثبت ذلك في بحث قدمه إلى مؤتمر ==

٦ - ويهمننا فوق ما تقدم أن ننص على أن النثر في العصر الاسلامي لم يؤخذ عليه التزام السجع، وإنما كان يقع السجع حين يقع بسيطا مقبولا لا تكلف فيه، ولا نكاد نجد في القرن الأول والثاني وأوائل الثالث كاتباً يتخذ السجع طابعا ملازما لنثره، خصوصا الكتاب المشاهير الذين أغنوا تلك العهود بأدبهم كأبن المقفع وعبد الحميد بن يحيى. والسجع في الأصل حلية يزدان بها النثر، وهي مقبولة ما دامت تجرى في حدود الاعتدال والقصد، كما وقع في القرآن، فإن القرآن يسجع أحيانا ولكنه لا يلتزم السجع، لذلك نجا من التكلف والابتذال. والصنعة التي أثرت عن ذلك العصر تدل على أن الكتاب كانوا يفهمون أن الكتابة فن له قواعد وأصول، وأن الكاتب يجب أن يصفى كتابته من أوشاب الخطأ والضعف، لذلك رأينا واصل بن عطاء مثلاً يتجنب الرأى في خطبه إذ كان ألغى، بالرغم من أن هذا الحرف كثير الدوران في الكلام^(١). وتجنب مثل هذا الحرف من باحث كبير مثل واصل يتكلم ويخطب بلا انقطاع يدل على أن إجادته النثر أصبحت مقصودة عند كتاب ذلك العصر وخطبائه، ومثل هذا القصد كاف للدلالة على فهم أولئك الناس لأهمية الإتقان.

٧ - والذي يتأمل آثار ذلك العصر يرى اهتمام الكتاب والخطباء ببسط المعاني وتأكيدها بتكرير الجمل المتقاربة في مغزاها ومدلولها. وهذا يعطينا فكرة واضحة عن تصور الكتاب والخطباء لنفسية من يراسلونهم أو يخاطبونهم. وهذا التكرير الذي أشير إليه ليس كالتكرير الذي سأنكره فيما بعد على كتاب القرن الرابع، وإنما هو تكرير خفيف مقبول يؤكد المعنى ولا يثقله كالذي وقع في رسالة الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز:

”وأذكرك يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقله أشياك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر. وأعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت به

= المستشرقين... ويظهر أن الدكتور طه نسي أن يتحدث تلاميذه وقراءه عن دله على مكان عبد الحميد في كتب الجاحظ. فليسمح لنا أن نحفظ لأنفسنا هذا الحق، ورحم الله ابن الرومي إذ قال:

وعزيز على مدحى لنفسى غير أنى جشمته للدلالة
وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر يريد يظهر حاله

(١) البيان والذبيان ص ١٠ ج ١ طبعة سنة ١٣٣٢ هـ.

يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدا وحيدا، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه^(١) .

وهذا التكرير قد يزيد عند بعض الكتاب ولكنه يظل مقبولا أيضا كالذي وقع في مشاورة المهدي لأهل بيته في مثل هذه التعابير :

”أيها المهدي ! إن في كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة استغرقت رأيهم وأستغرقت أشغالهم وأستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعرفوا بها وعرفت بهم، ولهذا الأمور التي جعلتنا فيها غاية وطلبت معونتنا عليها أقوامٌ من أبناء الحروب وساسة الأمور وقادة الجنود، وفرسان الهزاهن وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سجالها وفياتهم ظلالها وقرمتهم نواجذها، فلو عجمت ما قبلهم وكشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديث تقوى قلبك ، فأما نحن معاشر عمالك وأصحاب دواوينك فحسن بنا وكثير منا أن نقوم بثقل ما ملتنا من عملك، وأستودعنا من أمانتك، وشغلنا به من إمضاء عدلك، وإنفاذ حكمك، وإظهار حقك^(٢)“ .

وقد شاع هذا الأسلوب في القرن الثاني والثالث، واتخذة الجاحظ خاصة أسلوبا مختارا لا يحيد عنه ، يظهر ذلك في مقدمة كتبه مثل البيان والتبيين والحيوان ، وفي رسائله الأدبية والاجتماعية . وفي رأي أن الجاحظ وصل إلى درجة الغلو والإملال ، ولولا أنه كان يخطط في كتابته بين الجلد والهزل والحلو والمر لآنصرف الناس عنه ، ولكنه كان رجلا عالما بطباع الناس وغرائزهم فاستطاع بذلك أن يخلق أهواءهم وأذواقهم وأن ينسبهم برقة دعابته وحلاوة استطراده إسرافه في أسلوبه وتطويله الذي عرف به واضطر للدفاع عنه في مقدمة كتاب الحيوان .

٨ - ومن مظاهر الصنعة في ذلك العصر تعمد الخيال، وتلك صفة نجدها عند أكثر الكتاب والخطباء، فنجد الحجاج مثلا يقول :

(١) نهاية الأرب ص ٣٨ ج ٦ (٢) راجع العقد الفريد ص ٥٧ - ٦٤ ج ١

”يا أهل الكوفة ! إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لأصاحبها ، وكأنني أنظر إلى الدماء تترقق بين العمام واللقى “ .

ويقول :

”إن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه ! — كبّ كئانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلبها عموداً ، فرماكم بي ، لأنكم طاماً أوضعتم في الفتنة ، وأضطجعتم في مراقد الضلال ... أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلطة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل^(١) “ .

وإيثار الخيال في النثر ظاهر في خطب علي بن أبي طالب وزياد ورسائل عبد الحميد^(٢) ، وحكم الواعظين والنسك في تلك الأيام ، ومنشورات الخوارج التي هاجموا بها الخلفاء . وهذا الأسلوب مظهر من مظاهر الفن لا ينبغي تجاهله عند تقرير الخواص التي أمتاز بها النثر في ذلك الحين .

هذه المظاهر الفنية التي طبع بها النثر في عصر بني أمية وصدر دولة بني العباس كانت مقدمة لنوع من الاسراف في الزخرف أفسد النثر فيما بعد ، وأثقله بألوان من السجع والأزدواج .

(١) البيان والتبيين ص ١٦٤ و ١٦٥ ج ٢ (٢) أظهر أثر لعبد الحميد بن يحيى هو رسالته التي وجهها

إلى الكتاب يوصيهم فيها بحفظ الكرامة واحترام المهنة ومواساة الزملاء — راجع صبح الأعشى ص ٨٥ — ٨٩ ج ١

٤ - أطوار السجع

١ - لهذا البحث أهمية عظيمة . وقد جمعنا له مذكرات عديدة تصلح مادة لكتيب خاص . ثم رأينا لإجمالها في هذا الفصل ^(١) . وترجع أهمية هذا البحث الى مايجب من تبديد الشبهة التي تاصلت في أنفس كثير من الباحثين الذين يظنون أن التزام السجع لم يقع إلا في القرن الرابع . فقد حدثني المسيو مرسيه مرة أنه وجد كتابا للمؤلف قديم أسمه الأخضرى ، وأن المؤلف منسوب الى القرن الثالث . وبصرّ المسيو مرسيه على ضمه الى رجال القرن الرابع : لأنه يلتزم السجع . وأستطرد المسيو مرسيه فذكر أنه عرض هذه المسألة على الدكتور طه حسين فوافقه على استبعاد أن يكون من رجال القرن الثالث من يلتزم السجع . وفي هذا الفصل تُبدّد أمثال هذه الشبهات ، ويعرف القارئ أن السجع حلية قديمة أولع بها الكتاب والخطباء قبل القرن الرابع بأجيال ، وأنه لا يكفى أن يكون الكتاب مسجوعا ليترد من حظيرة القرن الثالث كما حكم وليم مرسيه وطه حسين ^(٢) .

٢ - ولندكر أولا أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية : فهو في أكثر اللغات يجرى بأطراد في الحكم والأمثال . ويمكن الحكم بأن أمثال العامة تقع غالبا مسجوعة ، وقد يجنى السجع على المعنى أحيانا في تعابير الفطريين من أهل البادية والريف ، وفي ذلك دلالة على أن المحسنات اللفظية مما يقصده العوام ، وليست مما ينفرد به الخواص . والقارئ يستطيع بسهولة أن يجمع عشرين مثلا في لحظة واحدة من أسجاع العامة فيما سار على ألسنتهم من مختلف

(١) عرضنا لهذا الموضوع في الأصل الفرنسى ، ثم عدنا ففصلناه بعض التفصيل في المقدمة الفرنسية التي نشرناها مع (الرسالة العذراء) . (٢) من الانصاف أن نذكر أن رأى هذين الباحثين قد تغير في كثير من موضوعات النظر الفنى بعد الأبحاث الجدية التي قدمناها الى السوربون ومدرسة اللغات الشرقية في باريس .

الحكم والأمثال^(١) . ولو رجع القارئ الى احدى اللغات الأوروبية ، كالفرنسية مثلا ، لوجد السجع يجرى بأطراد فى هذا الضرب من القول ، مثل :

(Qui va à la chasse, perd sa place)

ومثل :

(Qui se ressemble, s'assemble)

ومثل :

La nuit, tous les chats sont gris

وكالمثل السائر :

Vouloir, c'est pouvoir

وما جمعه الرواة من خطب الجاهليين أكثره مسجوع ، كخطبة قس بن ساعدة الإيادى وخطبة النابغة الذبياني^(٢) . ومع أننا نرتاب فى صحة تلك الخطب فاننا نرى فى وضعها مسجوعة — على فرض صحة الوضع — دليلا على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية ، وفهم الرواة له قيمته : لأنهم أقرب منا بمراحل طويلة الى ذلك العهد ، ولأنهم كانوا يملكون من أصول الأدب الجاهلى الصحيح ما يمكنهم من الحكم على طرائق أهله فى التعبير .

٣ — ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية ، وعدنا الى نص جاهلى لاريب فيه وهو القرآن لرأينا السجع إحدى سماته الأساسية . والقرآن نثر جاهلى ، كما أوضحنا ذلك من قبل ، والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان . ولا ينكر متعنت

(١) أجماع العامة كثيرة ، ومن طريقها ما جرى فى وصف الشهور المصرية مثل : ” كياك ، صباحك مساك “ يريدون وصفه بقصر النهار . و ” برمها ، روح الغيط وهات “ لأن برمها موسم ظهور البقول . و ” برمودة ، دق العموده “ لأنه موسم الحصاد والدرس ، درس القمح والفل والشعير . ويقولون فى موعد انصرام الشتاء ” اذا اخضر التوت البرد يموت “ ، ومن فكاهاتهم : ” عيشك كويس يا خالى ! من سوء بختي ، يا بنت اخي ! “ وأذكر بمناسبة السجع فى الشهور المصرية أن هناك سجعا يماثله عند عوام الفرنسيين مثل :

En Avril, n'enlève pas un fil

ومثل :

En Mai, fais ce qu'il te plait

(٢) تجد هذه الخطبة فى ص ٣٨ من مجموعة التحفة البهية .

أن القرآن وَضَعَ للصلوات والدعوات ومواقف الثناء والخوف والرجاء سورا مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين . ولا ننس أن الوثنية كانت ديننا يؤمن به أهله في طاعة وخشوع ، وكانت لهم طقوس في هياكلهم . وكانت تلك الطقوس تؤدى على نحو قريب مما كان يفعل أهل الكتاب من النصارى واليهود . والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب في صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات . والفرق بين الملتين يرجع الى المعانى ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال . ولودخات كنيسة في باريس ورأيت كيف تتلى الدعوات بعد الصلاة لتذكرت الصورة التى تتلى بها الدعوات بعد الصلاة في مساجد القاهرة : ذلك بأن الديانات الثلاث الاسلام والنصرانية واليهودية ترجع الى مهد واحد هو الجزيرة العربية . فاللون الدينى واحد ، وصورة الأداء تكاد تكون واحدة ، فلا تحسب أن القرآن غير مناهج الناس فى يوم وليلة ، وتذكر أنه لم يشأ إلا أن يصلح من عقائد من دعاهم الى الله وأن يروضهم على فكرة واحدة هى التوحيد .

ومعنى هذا أن القرآن يسجع لأن السجع كان فنا من فنون القول والدعاء عند الجاهلية ، والصلوات بطبيعتها تحتاج الى لون من الفن يتمثل فى السجع . لأن فيه استجابة للموسيقا الوجدانية فى قلوب المتبتلين . واليك أمثلة من سجع القرآن .

”وكم أرسلنا من نبي فى الأولين . وما يأتهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فاهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهذا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا الى ربنا لمنقلبون“^(١) .

”والسابقون السابقون، أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلثة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عِين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً ، إلا قيلاً سلاماً سلاماً . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود، وطلع منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة“^(١) .

وعند ملاحظة سجع القرآن نراه يتخلف بجاءة في بعض الأحايين : كأن تكون القافية نونية فتجيء في وسط السياق فاصلة ميمية . وفي هذا برهان على أن المعنى هو الأصل ، وأن السجع لا يراد به مطلق التوافق في الحرف ، وإنما يقصد به التلحين والتنغيم ، لأن تغيير الحرف مع بقاء الوزن لا يغير من الرنة الموسيقية^(٢) .

٤ — وفي الأحاديث النبوية سجع مقصود، خلافا لما ظن المسيو ماسينيون^(٣)، ومن أمثاله :

”أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام“ .

ونقل الغزالي في باب الاستعاذات الماثورة عن الرسول :

”اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدى الى طبع، ومن طمع في غير مطعم، ومن طمع حيث لا مطعم . اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع، فانه بثس الضجيع، ومن الخيانة، فانه بثست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن ومن الهرم ومن أن أرذ الى أرذل العمر“^(٤) .

(١) موضونة : منسوجة بقضبان من الذهب والجواهر . (٢) سورة الواقعة . (٣) الباقلائي

ينفى ورود السجع في القرآن وقد نقضنا رأيه من الأساس . راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٧٧ — ٨١

(٤) في ملاحظاته التي أبداهها يوم مناقشته الرسالة في السوربون . (٥) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٣٠

ولنقيد أن السجع لا يطرد في الحديث كما لا يطرد في القرآن، فهو حلية تقصده، ولكنها لا تلتزم، لما في التزامها في قهر المعاني على متابعة الألفاظ .

وقد نجد في الأحاديث عبارات تجرى مجرى السجع من حيث مراعاة الوزن وإن لم تراعى فيها القافية، كقوله عليه السلام :

”اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملتي، وتلم بها شعتي، وترد بها ألقى، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتركني بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء“^(١) .

وهذا النوع من ”الوزن“ قريب من السجع من حيث بناء الجملة، وسنعود إليه بعد قليل .

٥ — ولو مضينا نستقرئ خطب الصحابة والخلفاء الراشدين لرأينا السجع يلتزم في كثير من الأحيان . وإلى القارئ خطبة منسوبة إلى علي بن أبي طالب :

”دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم نزالها، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم . وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة : ترميم إسماعيل، وتقنينهم بحماها . وأعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم ممن كان أطول منكم أعمارا، وأعمر ديارا، وأبعد آثارا، أصبحت أصواتهم هامة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية : فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمازق المهددة، الصخور والأحجار المستندة، والقبور^(٢) اللاطئة الملهدة . التي قد بنى بالخراب فناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فحلها مقرب، وساكنها مغرب، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين ، لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الحيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودنو الديار، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طعنهم بكلكلة البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى، وكأن قد صرتم إلى ما صاروا

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٢٢ (٢) اللاطئة : اللاصقة بالأرض .

اليه، وارتنهكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لوتناهت بكم الأمور، وبعثرت القبور^(١) .

وقد أراد المسيو ديمومبين (Demombynes) أن يفض من قيمة ما نسب الى على بن أبى طالب من خطب ورسائل، استنادا الى ما شاع منذ أزمان من أن الشريف الرضى هو واضع كتاب (نهج البلاغة) أما نحن فتحفظ في هذه المسألة كل التحفظ؛ لأن الجاحظ يحدثنا أن خطب على وعمر وعثمان كانت محفوظة في مجموعات^(٢). ومعنى هذا أن خطب على كانت معروفة قبل الشريف الرضى . والذين نسبوا نهج البلاغة الى الرضى يحتجون بأنه وضعها لأغراض شيعية، فلم لا نقول من جانبنا بأن تهمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعية^(٣) ؟ .

ولو فرضنا أن أمثال ما آستشهدنا به من خطب على ليس له فان ذلك لا يمنع أن السجع كان من مزايا ذلك الخطيب، لأن من يقلد خطيبا يحرص على تمثيل مذهبه في الأداء والأسلوب . وقد رأينا التوحيدى يخترع حديث السقيفة ويرى من الفن أن ينطق الصحابة بكلام مسجوع، لأنه كان يعرف اغتهم كذلك، فيقول على لسان عمر وهو يخاطب أبا عبيدة: "قل لعلى: الرقاد محلمة، والهوى مقحمة، وما منا إلا له مقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، ونبا ظاهر أو مكتوم، وأن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا، وقارب البعيد تطفلا، ووزن كل شىء بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه، . . ما هذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك؟ ما هذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك؟ ما هذه القذاة التى تغشت ناظرك؟ وما هذه الوحرة التى أكلت شراسيفك؟ وما هذا الذى لبست بسببه جلد النمر، وأشمملت عليه بالشحناء والنكر... الخ"^(٤) .

(١) نهج البلاغة ص ٤٨١ — ٤٨٣ (٢) البيان ج ١ ص ١٤٧ (٣) الواقع أن اتهام الشريف الرضى بوضع (نهج البلاغة) قديم وقد أشار اليه ابن أبى الحديد فى شرحه ثم أفاض فى نقض ذلك الاتهام . راجع ص ٥٤٦ من المجلد الثانى . (٤) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٢

ومن دقة المحاكاة ما رأينا التوحيدى يحرص عليه في حديث السقيفة من التسامح في الترام السجع في بعض الفقرات ايوافق المنهج الذى عرف في نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين .

٦ — فاذا تخطينا عصر النبوة وصدر الاسلام إلى العصر الأموى رأينا الخطباء كذلك يسجعون، ورأينا مثلاً هشام بن عبد الملك يقول :

”وإنالنعرف الحق إذا نزل، ونكره الإسراف والبخل، وما نعطى تبذيراً، وما نمنع تقتيراً. وما نحن إلا خزان الله في بلاده، وأمانؤه على عباده، فإن أذن أعطينا، وإذامنع أبينا، ولو كان كل قائل يصدق، وكل سائل يستحق، ما جهنا قائلًا، ولا ردنا سائلًا“ .^(١)

روى هذا الكلام على أنه مرتجل في الرد على خطيب وفد أهل الحجاز . وفي روايته كذلك دليل على أنهم كانوا يفهمون أن الكلام يقع مسجوعاً حين يحتفل به القائلون .

وقد أثر عن الخلفاء والقواد كلام مسجوع في مواطن لا ينتظر فيها تأنيق في التعبير، كأن يكون الكلام جواباً على سؤال . من ذلك ما روى أن دقال بن شبة دخل على هشام وأراد أن يقبل يده فقال : لا يفعل هذا من العرب إلا هُلُوع ، ولا من العجم إلا خَصُوع . وقالت امرأة لأبي مسلم : ناوانى يدك أقبليها فقد نذرت . فقال : عليك بالحجر الأسود تصيبين أجراً، وتقضين نذراً^(٢) .

(١) ولا ننس أن نشير الى أن لغة الزهاد والنسك في العصر الأيو كانت في الأذنب مسجوعة، ومن شواهد ذلك قول الحسن البصرى يوصى عمر بن عبد العزيز :

”وأذكر يا أمير المؤمنين اذا بعثت ما في القبور، وحصل ما في الصدور ... وأنت في مهل، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، لأنهم لا يرقون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك، وتحمل أمثالك وأمثالا مع أمثالك، ولا يفرئك الذين ينعمون بما فيه يؤسرك، ويا كلون الطيبات من دنياهن باذهب طيباتك في آخرتك“
راجع نهاية الأرب ص ٣٨ ج ٦ (٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٦٥ (٣) (محاضرات الأسفهان ج ١ ص ١٤٦)

وكان المسيو مرسيه (Marçais) يظن أن الناس بدأوا يكرهون السجع في العصر الأموى . وكانت حجة ما حدثت الجاحظ أن معاوية أملى كتابا الى رجل فقال فيه : "لهاهون على من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة" ثم قال لكتابه : "امح من كلاب الحرة . واكتب : من الكلاب" كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس في موضعه ^(١) .

وقد راجعنا المسيو مرسيه في هذا وأبنا له أن معاوية تحامى السجع في هذا الموطن لأنه فن يشعر بأن الكاتب هادئ النفس ، وهو لا يصلح لمقام التهديد والوعيد .

والمعروف عن ابن المقفع أنه لا يلتزم السجع ، وبالغ المسيو مرسيه فحذثنى في أحد أيام سبتمبر سنة ١٩٢٩ أنه لا يعرفه على الإطلاق ، ولو أنه أستقصى أخباره لرآه يذكر أن من البلاغة " ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل " ^(٢) فأبى المقفع يقرر أن السجع فن من القول يقابل الشعر والرسائل ولعله يريد به الأمثال ، وإن كان قرنه بالخطب يفهمنا أنه يقصد به الخطب المسجوعة . ولا سيما إذا لاحظنا أن الحصرى يذكر أن بشار بن برد كان "سجعا خطيباً" ^(٣) وأن المختار بن أبى عبيد كانت له "سجعا يصنعها ، وألفاظ يتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتوحى إليه" ^(٤) وفي هذه العبارة ما يذكر بأن الإلهامات الدينية ، حتى المفتراة ، كانت تنتظر صورة مسجوعة ، لأن السجع كان من تقايد الكهان ، وكان الكهان حملة راية الدين في عصر الجاهلية .

٧ — ولو حللنا أساليب المشاهير من كتاب العصر الأموى لرينا كتاباتهم "موزونة" على طريقة السجع ، وإن لم تلتزم فيها القافية ، وأنظر قول عبد الحميد بن يحيى :

(١) رسائل الجاحظ ص ١٥٥ (٢) ص ٦٤ ج ١ البيان والتبيين — وهذا الذى رواه الجاحظ عن فهم ابن المقفع لقيمة السجع وعده بابا من البلاغة كاف في الرد على من يشك في نسب كتاب الى ابن المقفع بسبب ما يقع فيه من تعدد السجع أحيانا كما فعل مؤلف ضحى الاسلام — ص ٢١٥ ج ١ — حين ارتاب في أحد كتب ابن المقفع .
(٣) زهر الآداب ج ٢ ص ١٢١ — ولتلاحظ أن «سجعا» رواها الحصرى بالسین المهملة . ووصف الجاحظ في الجزء الثالث من البيان ص ٩٦ مسلة بأنه كان «سجعا خطيبا وبارع اللسان جوادا» فأثبت «سجعا» بالسين المعجمة ، و«سجعا» و«سجعا» وردتا مقرونتين الى «خطيبا» ونحن نرجح أن التعريف وقع في كتاب الجاحظ .
(٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٥١

”ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي التي يستخف بها أهل البطالة ويتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويجد فيها أهل الحسد مقالا ليعيب يرفعونه، ولطعن في حق يمحذونه، مع ما في ذلك من نقص الرأي، ودرن العرض، وهدم الشرف، وتأثيل الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كيون النار في الحجر الصلد، فاذا قدح لاح شرره، ولهب وميضه، ووقد تضمره . وليست في أحد أقوى سطوة، وأظهر توقدا، وأعلى كونا، وأسرع إليه بالعيب منها الى من كان في سنك من أغفال الرجال^(١)“ .

وفي مثل هذا الحرية ظاهرة، ولكن بناء الجمل مطبوع بطابع السجع في كثير من الفقرات . ورويت لعبد الحميد أجماع كقوله : ”الناس أخياف مختلفون، وأصناف متباينون، فمنهم علق مضغة لا يباع، ومنهم غل مظنة لا يبتاع^(٢)“ .

وابن المقفع أكثر كتاب العصر الأموي حرية في صوغ الجملة، ولكن يتفق له أحيانا أن يرصع كلامه على منهج الوزن في السجع فيقول مثلا :

”وليس كل ذى نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى في ذوى الألباب ... فن رام أن يجعل نفسه لذلك الأسم والوصف أهلا فليأخذ له عتاده، وليعدله طول أيامه، وليؤثره على أهوائه، فانه قد رام أمرا جسيما لا يصلح على الغفلة، ولا يدرك بالمعجزة، ولا يصير على الأثرة“ .

وما نسميه الوزن نريد به توافق الفواصل الذي يتحصل به هدوء النفس عند تلاوة الكلام المرصوف .

٨ - ومما يعين ميل الأذواق العربية الى إثارة السجع غلبة هذا الفن على أكثر ما أثر عن الاعراب . حدث الأصمعي أنه سمع أعرابيا يذكر قومه فقال :

”كانوا إذا اصطفوا تحت القتام، ومطرت بينهم السهام، يشربون الحمام . وإذا تصالحوا بالسيوف، فغرت فاها الختوف^(٣)“ .

(١) رسائل البلغاء ص ٢٤ (٢) الصداقة والصديق ص ٢٨ (٣) زهر الآداب ج ٤ ص ١٩٠

وعذلت أعرابية أباهما في إتلاف ماله بالحدود فقالت :

”حبس المال، أنفع للعيال، من بذل الوجه في السؤال، فقد قل النوال، وكثر البخال، وقد أتلفت الطارف والتلاد، وبقيت تطلب ما في أيدي العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه، أوشك أن يسعى فيما يضره“^(١).

وقال بعض الأعراب :

”نالنا وسمى“^(٢)، وخلفه ولي“^(٣)، فالأرض كأنها وشى عبقرى“، ثم أتتنا غيوم جراد، بمناجل حداد، فخربت البلاد، وأهلك العباد، فسبحان من يهلك القوى الأكل، بالضعيف المأكول“^(٤).

ووعظ أعرابي رجلا وهو يقول :

”ويحك ! إن فلانا وإن ضحك إليك، فانه يضحك منك، ولئن أظهر الشفقة عليك، إن عقابه لتسرى إليك . فان لم تتخذ عدوا في علانيتك، فلا تجعله صديقا في سريرتك“^(٥).

ودخل اعرابي على خالد بن عبد الله القسرى فقال :

”أصلح الله الأمير ! شيخ كبير، حدثه إليك بارية العظام، ومؤرثة الأسقام، ومطولة الأعوام، فذهبت أمواله، وذعدت آباله، وتغيرت أحواله . فان رأى الأمير أن يجبره بفضله وينعشه بسجله، ويرده إلى أهله“^(٦).

والسجع في كلام الأعراب كثير جدا فلا نشغل أنفسنا بالتدليل على كثرته، ولنذكر أن هناك أحاديث كثيرة وضعت على ألسنة الأعراب وآهت الموضوعون بصوغها مسجوعة لتسهل نسبتها إليهم، وسنعود إليها عند الكلام عن ابن دريد .

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٤٢ (٢) الوسمى : المطر الأول . (٣) الولي : المطر الثاني .

(٤) زهر الأدب ج ٤ ص ١٤٣ (٥) زهر الأدب ج ٣ ص ٢٥٦ (٦) ذعدت : فرقت .

(٧) أمالي القالي ج ٢ ص ٤٩ .

٩ — وهناك فن من القول التزم فيه السجع على نمط كلام الأعراب وهو وصايا الآباء للأبناء . وهو فن قديم عرفه أهل الجاهلية ، ومن شواهد في العصر الإسلامي قول عبد الله بن شداد :

” أى بنى . لا ترهذن فى معروف ، فان الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نواثب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوبا اليه ، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه ... وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ... وإن غلبت يوما على المنال ، فلا تدع الحيلة على حال : فان الكريم يحتال ، والدنى عيال ، وكن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا ، أقل ما تكون فى الباطن ^(١) مالا “ .

وقال علقمة بن لبيد لأبنه :

” يا بنى ، إذا نرغنتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن صلت شدّ صولك ، وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سأله أعطاك ، وإن سكت عنه آتدك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات آساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وإن حاول حويلا أمرك ، وإن تنازعتما منفسا أثرك ^(٢) “ .

١٠ — وزعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع كأن الخطب نوع من القصيد . قال عبد الملك بن مروان وقد دخل عليه العجاج ” يا عجاج ! بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء . فقال يا أمير المؤمنين ! من قدر على تشيد الأبنية ، أمكنه إخراب الأخبية “ .

قال : فما يمنحك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلم ، وإن لنا حلماً يمنعنا من أن نُظلم ، فعلام الهجاء ؟ فقال : لكلماتك أشعر من شعرك . فأنى لك عز يمنعك من أن تُظلم ؟

(١) الأملج ٢ ص ٢٠٥ (٢) أمرك : شاورك . (٣) عيون الأخبار ج ٣ ص ٤

قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع . قال : فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم ؟ فقال :
الأدب المستطرف والطبع التالذ^(١) .

وروى أن على بن أبى طالب أرسل الى معاوية بالشام كتابا صحبة صمصعة بن صوحان
فساربه حتى أتى دمشق فأتى باب معاوية فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن
أبى طالب ، وبالباب جماعة من بنى أمية ، فأخذته النعال والأيدى لقوله "أمير المؤمنين"
وكرثت عليه الجلبة ، فاتصل ذلك بمعاوية فأذن له فدخل عليه فقال : السلام عليك يا بن
أبى سفيان . هذا كتاب أمير المؤمنين . فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تُقتل فى جاهلية
أو إسلام لقتلتك ! ثم اعترضه معاوية فى الكلام وأراد أن يستخبره ليعرف طبعاً أو تكلفاً ، فقال
له ممن الرجل ؟ فأجاب : من نزار قال : وما نزار ؟ قال : كان إذا غزا النخوش^(٢) ، وإذا أنصرف
انكش ، وإذا لقي افترش . قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة . قال : وما ربيعة ؟
قال : كان يغزو بالخليل ، ويغير بالليل ، ويجود بالنيل . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من
أمهر ، قال : وما أمهر ؟ قال : كان إذا طلب أفضى ، وإذا أدرك أراضى ، وإذا آب أنضى .
قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من جديلة . قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النجاد ،
ويعد الجياد ، ويمجد الجلال^(٣) . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من دعى . قال : وما
دعى ؟ قال : كان نارا ساطعا ، وشرا قاطعا ، وخيرا نافعا . قال فمن أى ولده أنت ؟ قال :
من أفضى . قال : وما أفضى ؟ قال : كان يزل القارات ، ويكثر الغارات ، ويحى
الجارات . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال وما عبد القيس ؟ قال : أبطال
زادة ، بحاججة سادة ، صناديد قادة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفضى . قال :

(١) الأمالى ج ٢ ص ٤٩ . (٢) انخوش : أسرع ، ومثلها انكش . (٣) رواية صبح الأعشى

تصف جديلة بأنه « كان فى الحرب سيفاً قاطعاً ، وفى المكرمات غيثاً نافعا » ، وفى اللقاء لها ساطعا » وبين رواية صبح
الأعشى والأمالى خلاف ملهوس ، وهو دليل على التصرف فى أصل هذا الحديث . وقد اعتمدنا على رواية الأمالى

وما أفضى؟ قال : كانت رماحهم مُشرعة، وقدورهم مترعة، وجفانهم مفرغة . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من لُكَيْز . قال : وما لُكَيْز؟ قال : كان يباشر القتال، ويعانق الأبطال، ويبتد الأموال . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من عجل . قال : وما عجل؟ قال الليوث الضراغمة ، الملوك القهاقة ، القروم القشاعمة . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من كعب . قال : وما كعب؟ قال كان يسعر الحرب ، ويحيد الضرب ، ويكشف الكرب . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من مالك . قال : وما مالك؟ قال : هو الهمام للهمام ، والقمقام للقمقام .

فقال معاوية رحمة الله : ما تركت لهذا الحى من قريش شيئا ! قال : بل تركت لهم أكثره وأحببه ! قال : وما تركت لهم؟ قال : تركت لهم الوبر والمدر، والأبيض والأصفر، والصفاء والمشعر، والقبة والمفخر، والسرير والمنبر، والملك الى المحشر .

قال معاوية : أما والله لقد كان يسوءنى أن أراك أسيرا .

فقال صعصعة : وأنا والله لقد كان يسوءنى أن أراك أميرا ! » .

تلك رواية الأمالى . أما رواية صبح الأعشى فقصيرة وتختتم هكذا بالسؤال عن عبد القيس : فمن أى أولاده أنت؟ قال : من عبد القيس . قال وما كان عبد القيس؟ قال : كان حسنا أبيض وهابا، يقدّم لضيفه ما وجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق . يقوم للناس مقام الغيث من السماء .^(٢)

ولنلاحظ أن هذا الحوار يشتمل فى سياقه على ثلاث قواف فى كل جواب ، ويطول فى الجواب الأخير لأنه بيت القصيد . ومن الواضح أن هذه الصنعة تعسر على الارتجال ، فمن المرجح أن يكون هذا الحوار لحقه شىء من الترتيب ، ولا سيما إذا تذكرنا أنه منسوب

(١) هى كذلك بالغين المعجمة فى الأصل ، وهو خارج على السجع وإن لم يخرج على الموازنة، ولعل الصواب « مفرعة » بالغين المهملة، يريد وصف الجفان بالامتلاء . والمادة تسمح بذلك . وليلاحظ القارئ أن (أفضى) ذكر مرتين فى هذه الرواية ، ولعل هناك خطأ فى الوضع . (٢) صبح الأعشى ص ٢٥٥ ج ١

الى خطيب كان مضرب المثل فى البيان المطول وهو ابن صوحان، فلا يبعد أن يكون نظمه نظماً جديداً بعد خروجه من قصر معاوية بن أبى سفيان^(١).

وهنا أيضاً لا نحتاج الى كثير من الشواهد : لأن السجع فى حضرة الخلفاء والأمراء والوزراء كان من الذبوع بحيث لا يحتاج فى إثباته الى تدليل .

١١ — ومن طريف ما هدانا اليه الاستقراء أن السجع كان وسيلة من وسائل المجتدين والعفاة ، فهو عندهم فن من النول كالقصيد يتقربون به الى قلوب الأغنياء^(٢) . وتحت أيدينا شواهد بعضها خشن متوعر، وبعضها سهل مقبول، وهى فى مجملها تثبتنا بأن السجع كان يزيد الكلام رونقا وبهاء، وينظم قائله فى سلك أهل البيان .

قال صاحب الأملى : ”حدثنا أبو بكر رحمه الله . قال أخبرنا أبو حاتم . قال أخبرنا أبو زيد قال : بينا أنا فى المسجد الحرام اذ وقف علينا أعرابى فقال : يا مسامون ! إن الحمد لله والصلاة على نبيه . انى أمرؤ من أهل هذا الملطاط^(٣) الشرق المواصى^(٤) أسياف تهامة . عكفت علينا سنون محش^(٥) فاجتبت الذرى^(٦) ، وهشمت العرى^(٧) ، وجمشت النجم^(٨) ، وأعجت البهم^(٩) ، وهمت

(١) هذا النمط من الأجوبة المسجوعة كثير جداً فيما نقله الرواة ، وجزء منه منسوب الى نساء شيعرات . ويمكن الحكم بأن هذا النوع يمثل أدبا قائماً بذاته يجد القارى . مواد متفرقة فى كتب الأخبار والأفايص . وفن المقامات الذى ظهر ظهوراً قوياً فى القرن الرابع متأثر بهذه الأحاديث ، فالمقامة حديث معاول يرتكز على الحوار ويلتزم فيه السجع ويفترض عند بطل المقامة ذكاء . يماثل الذكاء الذى يظهر فى أحاديث الأعراب والوافدين على الخلفاء .

(٢) يؤيد هذا قول أبى العلاء المعرى فى رسالة المنيع :

”وقد كان فيما مضى قوم جعلوا الرسائل ، كالوسائل ، وترينوا بالسجع ، تزين المحول بالرجع“ راجع فحول البلاغة ص ٢٠٠ (٣) الملطاط : كل شفير نهر أو واد . (٤) المواصى والمواصل واحد ، يقال تواصى التبت اذا اتصل بعضه ببعض . (٥) الأسياف جمع سيف بكسر السين وهو ساحل البحر . (٦) عكفت : أقامت : (٧) محش جمع محوش وهى التى تحش الكلا أى تحرقه . (٨) اجتبت : اقتلعت من الجب وهو القطع . (٩) هشمت : كسرت . (١٠) العرى جمع عروة وهى هنا القطعة من الشجر لا يزال باقياً على الجذوب . (١١) جمشت : احتلقت . (١٢) النجم ما نجم من التبت ولم يستقل على ساق . (١٣) أعجت : صيرتها نجاً . والمعنى المهزول من سوء الغذاء . (١٤) همت : أذابت .

الشحم ، والتجبت اللحم ^(١) ، وأحجنت العظم ^(٢) ، وغادرت اتراب مورا ^(٣) ، والماء غورا ^(٤) ، والناس
أوزاعا ^(٥) ، والنبط قعاعا ^(٦) ، والضمحل جزاعا ^(٧) ، والمقام جمعجاعا ^(٨) ، يصبحنا الهاوى ^(٩) ، ويطارقنا العاوى ^(١٠) ،
نخرجت لا أتلفع بوسيدة ^(١١) ، ولا أتقوت هبيدة ^(١٢) ، فالبخصات وقعة ^(١٣) ، والربكات زلعة ^(١٤) ، والأطراف ^(١٥)
قفعة ^(١٦) ، والجسم مساهم ^(١٧) ، والنظر مدرهم ^(١٨) ، أعشو فاعطاش ^(١٩) ، وأضحى فأخفش ^(٢٠) ، أسهل ظالعا ^(٢١) ،
وأحزن راكعا ^(٢٢) ، فهل من أمر بيمر ^(٢٣) ، أوداع بخير ؟ وقاكم الله سطوة القادرة ^(٢٤) ، ومملكة الكاهر ^(٢٥) ،
وسوء الموارد ، وفضوح المصادر .

وهذا النوع من الكلام كثير أيضا . فلا نشغل أنفسنا بإيراد الشواهد . ولنذكر أننا
نفترض أن بديع الزمان اقتبس هذا المنهج في مقاماته ، فان صاحبه أبا الفتح الاسكندري
يسأل الناس في المساجد والأسواق على هذا المتوال . وهذه الطريقة في الاستجداء لا تزال
معروفة : ففي مضاييف القرى المصرية وأسواقها يشهد الأغنياء أفواجا من السائلين يتوسلون
اليهم برقى من الكلام المسجوع : بعضه في المدح وبعضه في الدعاء .

ولنقيد أيضا أن ما روى في سجع العفاة يرجع الى باين : باب تغلب فيه الصنعة حتى لتميل
النفس لنسبته الى صانعى الأخبار والأفاصيص ، كالكمة التى نقلناها آنفا ، فان أغلب الظن
أنها من وضع بعض اللغويين .

(١) التجبت اللحم : عرقته عن العظم . (٢) أحجنت العظم عوجته فصيرته كالحنجن . (٣) المور : الذى
يذهب ويحى . (٤) الغور : الفائر . (٥) أوزاع : فسر . (٦) النبط الماء الذى يستخرج من
البئر أول ما تحفر والقعا الماء المالح المر . (٧) الضمل القليل من الماء ، والجزاع أشد المياه مرارة .
(٨) الجمعجا : الذى لا يطمئن من قعد عليه . (٩) الهاوى : الجراد . (١٠) العاوى : الذئب .
(١١) الوصيدة : كل منسوج . (١٢) الهبيدة : حب الحنظل . (١٣) البخصات جمع بخصة وهى لحم
باطن القدم ، والوقعة من قولهم وقع الرجل اذا اشتكى لحم باطن قدمه . (١٤) زلعة : متشققة . (١٥) قفعة :
مقفعة وهى التى تقبض وييست . (١٦) مساهم : مدبر . (١٧) المدرهم : الضعيف البصر الذى
ضعف بصره من جوع أو مرض . (١٨) أعشو : فاعطش أى أصير عطشا ، والاعطاش ضعف فى البصر .
(١٩) اخفش : فساد فى الجفون . (٢٠) يقول : اذا مشيت فى السهول ظلمت أى غزت . (٢١) أى اذا
علا الحزن ركم وكبا لوجهه . (٢٢) المير : العطية . (٢٣) القاهر والكاهر واحد ، وقرا بعضهم
«فأما اليتيم فلا تكهر» . (٢٤) راجع هذه القطعة وشرحها فى الأما الى ج ١ ص ١١٣ - ١١٦ طبع بولاق .

وباب تغلب عليه الفطرة كالاستجماع التي يفيض بها المعتفون حين تقع بينهم وبين من يسألونهم مراجعة أو ملاحظة . من ذلك ما روى أن أعرابيا وقف يسأل فعبث به فتي فقال : ممن أنت ؟ فقال الأعرابي : من صمصمة . فقال الفتي : من أيهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة : فليس مقامى مقام مجادلة ولا مفاخرة . وأنا أقول : فإن لم أكن من هاماتهم ، فلست من أعجازهم . فقال الفتي : ما رويت من فضيلتك إلا النقص في حسبك . فامتعض الأعرابي لذلك . فجعل الفتي يعتذر ويخلط الهزل والدعابة باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابي : ” يا هذا إنك منذ اليوم آذيتنى بمزحك ، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك . ويحك ! إن الجاهل إن مزح أسخط ، وإن اعتذر أفرط ، وإن حدث أسقط ، وإن قدر تسلط ، وإن عزم على أمر تورط ، وإن جلس مجلس الوقار تبسط . أعوذ بالله منك ، ومن حال أضطرتنى الى مثلك ! “^(١)

ووقف أعرابي على قوم فنعه فقال :

” اللهم أشغلنا بذكرك ، وأعدنا من سخطك ، وأولجنا الى عفوك ، فقد ضنّ خلقك برزقك ، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك ، وآتانا من الدنيا القنعان^(٢) . وإن كان كثيرها يسخطك^(٣) ، فلا خير فيما يسخطك “ .

(١) زهر الآداب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ج ١ (٢) القنعان : القناعة . (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٢٤ — وبمناسبة هذا الدعاء نذكر أن الأعراب رويت لهم دعوات كثيرة مسجوعة ، منها قول أحدهم عشية عرفة : ” اللهم إن هذه العشية من عشايا منحتك ، وأحد أيام زلفتك ... أتتلك الضوامر من الفج العميق ، وجابت إليك المهارق من شعب المضيق ، ترجو مالا خلف له من وعدك ، ولا مترك له من عظيم أجره ، أبرزت إليك وجوها المصونة ، صابرة على لقع السائم ، وبرد ليل التائم ، ليدركوا بذلك رضوانك “ ثم قال : « الهى ! إن كنت مددت يدي إليك داعيا ، فظالما كفتي ساهيا ، نعمتك تظاهرها على عند القفلة ، فكيف أياس منها عند الرجعة ... فهب لى ، يارب ، الصلاح في الولد ، والأمن في البسند ، وعافنى من شر الحسد ، ومن شر الدهر النكد » راجع الأمالى ص ٣٢٣ ج ٢

ولا يفيض من قيمة هذه الاستجماع أن يظن أنها موضوعة ، فقد أشرنا غير مرة إلى أن الواضعين يراعون الذوق المعروف عند اختراع الأحاديث .

وأظرف ما قرأت في سؤال الأعراب هذه الكلمات :

”أين الوجوه الصُّباح، والعقول الصُّباح، والألسن الفُّصاح، والأُنساب الصُّراح، والمكارم الرياح، والصدور الفُّساح. تعيذني من مقامى هذا“^(١).

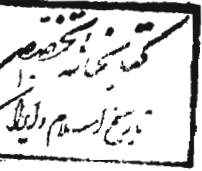
١٢ - وأصرح من كل ما سلف في إثبات السجع ما قاله عبيد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي وقد سئل : ”لم تؤثر السجع على المنشور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟“ فأجاب : «إن كلامي لو كنت لا أأمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك . ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ اليه أسرع، والآذن لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنشور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشرة“^(٢).

وهو جواب صريح الدلالة على أن الكلام المسجوع كان ينظر إليه نظرة تقدير وإعجاب، وأنه خليق بأن يحفظ ويروى، وأن الكلام المنشور الخالي من الوزن والقافية يراد به في الأغلب إقناع المخاطبين . أما التفكير في الحاضرين والغائبين فيوجب كلاما مصنوعا يستأهل البقاء، وكانت الصنعة أظهر ما تكون في القوافي والأوزان .

وفي هذا الكلام أيضا دلالة صريحة على أن النثر المرسل لم يحفظ منه إلا قليل . أما النثر المسجوع لحفظ معظمه بفضل الوزن والقافية . والأمر كذلك، فيما نظن، في سائر اللغات : لأنه يرجع إلى طبيعة يتساوى فيها جميع الناس .

(١) البيان ص ٢٣٢ ج ٣ (٢) البيان ص ١٥٨ ج ١ - وعبد الصمد هذا من رجال القرن الثاني وله كلام طريف مع شبيب بن شبة يجده القارىء في الصناعتين (ص ٣٥٠) وسيرد له ذكر في كلام الجاحظ بعد صفحات من هذا الفصل في الدفاع عن السجع . (٣) كلمة الرقاشي تدل على أن النثر الموزون لم يضع عشرة، فالشعر من باب أولى لم يضع منه إلا قليل، أى أن معظمه كان موجودا عند أهل القرن الثاني .

ونشر هنا إلى خطأ وقع فيه صاحب (الريحان والريمان) فيانقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى - ج ١ ص ٢١٠ - إذ قال : «إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنشور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يحفظ من المنشور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة» ثم مضى في أن المنشور هو الخطب وأن الموزون هو الشعر . وإنما كان هذا خطأ لأنه اعتمد على كلمة الرقاشي وأساء فهمها، فان كلمة الرقاشي كانت جوابا على من سأله كيف يترك الكلام المرسل ويؤثر الكلام المسجوع . ولانفس أن المنشور والمزدوج من ضرب النثر الفني . فصاحب «الريحان والريمان» على هذا أخطأ مرتين حيث فهم كلام الرقاشي على غير وجهه وحيث ظن أن المنشور والمزدوج مقصور على كلام الخطباء .



١٣ — عرفنا إلى الآن أن السجع كان كثيرا فى الجاهلية، وكان يغلب على النثر فى عصر النبوة، ثم أخذ سلطانه يضعف قليلا فى العصر الأموى، وإن حرص عليه القصاص والخطباء وناقلو أحاديث الأعراب، فلنذكر الآن أنه عاد يسترد قوته فى أواخر القرن الثانى وبدأنا نرى رسائل يكاد يلتزم فيها السجع. كقول كلثوم بن عمرو العتاتى فى مخاطبة صديق^(١) :

”أما بعد — أطل الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه فى الجنة — فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة : استئاما لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وأدخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف، وأشدت علينا كلبها، وغابت قطتها، وكذبنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك . مع علمى بأنك موضع الزائد، وأنتك تغطى عين الحاسد . والله أعلم أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل . وأعلم أن الكريم اذا أستحيا من إعطاء القليل، ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته“.

والعتاتى لا يقف عند السجع، بل يكلف أحيانا بالبديع، وهو أدخل فى الصنعة من السجع، وأنظر قوله لمالك بن طوق :

”أيها الأمير ! إن عشيرك من أحسن عشرتك، وإن ابن عمك من عمك غيره، وإن قريبك من قرب منك نفعه، وإن أحب الناس إليك، من كان أخفهم ثقلا عليك“^(٢).

٤ : — فاذا جاء القرن الثالث رأينا السجع يظهر فى الكتابة وفى التأليف، ورأينا أبا العيلاء، مثلا، يؤلف كتابا فى ذم أحمد بن الحصبب يحكى فيه أن جماعة من الفضلاء اجتمعوا فى مجلس وكل منهم يكره ابن الحصبب لما كان فيه من الفدامة والجهالة والتغفل، فتجادبوا أطراف الملح فى ذمه فقال أحدهم — وهنا يبدأ الشاهد — : كان جهله غامرا لعقله، وسفهه قاهرا لحلمه . وقال آخر : لو كان دابة لتقاعس فى عنانه، وحرن فى ميدانه . وقال

(١) الأمالى ج ٢ ص ١٣٦ (٢) باقوت ج ٦ ص ٢١٤ وانظر (الصناعين) ص ٢٥٢

آخر : كنت اذا وقع لفظه في سمعى ، أحسست التقصان في عقلى . وقال بعض كتابه : كنت أرى قلم ابن الخصيب ، يكتب بما لا يصيب ، ولو نطق لنطق بنوك عجيب ^(١) . وأظهر من هذا في إقامة الشاهد قول ابن المعتز يمدح سر من رأى ويصف خرابها ويذم بغداد :

”كُتبت من بلدة قد أنهض الله سكانها ، وأقعد حيطانها : فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى وخرابها ينشر ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فما لها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، على أنها وإن جفيت معشوقة السكنى ، رجية المئوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصباؤها جوهر ، ونسيمها معطر ، وتراها أذفر ، ويومها غداة وليها سحر ، وطعامها هنىء ، وشرابها مرىء ، لا بكلدكم الوسخة السماء ، الومدة الماء والهواء ، جوها غبار ، وأرضها خبار ، وماؤها طين ، وتراها سرجين ، وحيطانها نزوز ، وتشربنها تموز ، فكم في شمسها من محترق ، وفي ظلها من غرق ، ضيقة الديار ، وسيئة الحوار ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ، ومالهم مكتوم : لا يجوز إنفاقه ، ولا يحل خناقه . حشوشهم مسابل ، وطرقهم مزابل ، وحيطانهم أخصاص ، وبيوتهم أقفاص ، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم“ ^(٢) .

ولابن المعتز من كلمة ثانية يغلب عليها السجع والأزدواج :

”لا يزال الاخوان يسافرون في المودة حتى يبلغوا الشقة ، فاذا بلغوا ألقوا عصا التسيار ، وأطمأنت بهم الدار ، وأقبلت وفود النصائح ، وأمنت خبايا الضمائر ، فخلوا عقد التحفظ ، ونزعوا ملابس التخلق“ .

وقال من كلمة ثالثة :

”سار في جيوش عليهم أردية السيوف ، وأقصصة الحديد ، وكأن رماحهم قرون الوعول ،

وكان دروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمتد بالنقع سرادقها ، قد نشرت في وجوها غرر كأنها صحائف الرق ، وأمسكها تحجیل كأنه أسورة اللجين ، وقزطت عذرا كأنها الشنف ، تتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليهم وقار الصبر وهبت معهم ریح النصر^(١) .

وفي هذه الشواهد الثلاثة لكاتب واحد ما يدل على أن التزام السجع لم يغلب غلبة مطلقة ، كما سنرى عند كتاب القرن الرابع ، وإنما هي طلائع لهجوم السجع نراها عند كتاب القرن الثالث من حين إلى حين ، والفنون الأدبية لا تتخلق مرة واحدة ، أو لا تبعث مرة واحدة ، ولكنها تأخذ في الظهور والانتشار على نحو ما تفعل تبشير الصباح .

١٥ — ومن أظهر الدلائل على ذبوع بدعة السجع في القرن الثالث ما رأيناه من حرص ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة في كتاب الزهرة ، وفي هذا أصدق شاهد على أن السجع عاد فنا يؤلف ويستطاب . وإلى القارئ نماذج من تلك العناوين :

” من كثرت لحظاته ، دامت حسراته — العقل عند الهوى أسير ، والشوق عليهما أمير — من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفائه — ليس بلييب ، من لم يصف ما به لطيب — إذا صح الظفر ، وقعت الغير — التذلل للحيب ، من شيم الأديب — من طال سروره ، قصرت شهوره — من كان ظريفا ، فليكن عفيفا — سوء الظن ، من شدة الضن — من مُنع من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال — بعد القلوب على قرب المزار ، أشد من بعد الديار من الديار — ما عتب من اغتفر ، ولا أذنب من اعتذر — إذا ظهر الغدر ، سهل الهجر — من راعه الفراق ، ملكه الاشتياق — ما خلق الفراق ، إلا لتعذيب العشاق — من غاب قرينه ، كثر حنينه — من قدم هواه ، قوى أساه “ .

وأرى في هذا الشاهد مقنعا لمن يتوهمون أن التزام السجع نشأ بفاة في القرن الرابع ، ففي هذا الشاهد وحده دليل على أن من الممكن أن نرى كتابا مسجوعا لرجل من كتاب القرن

الثالث بدون أن يكون في ذلك ما يحملنا على زحزحته إلى خطيرة القرن الرابع؛ كما فعل بعض الناس^(١).

ولنقيد هنا أن السجع في عناوين فصول الكتاب الذى شرعه ابن داود — وقد يكون سيق إليه — هو أصل السجع في عناوين الكتب، وهو فن يجده المطالع في العصور التالية، حتى لنجد عهدا بأكلها يطرد فيها السجع في العناوين. ومن أغرب ما رأيته أن كتاب (من غاب عنه المطرب) للشعالبي كتب كاتبه على أصله ما نصه :

”كان ينبغي للأؤلف رحم الله أن يلحق اسم هذا الكتاب بلفظة وهو أن يقول : كتاب المعرب، فيمن غاب عنه المطرب“.

وكانت عناوين الرسائل الخاصة توضع أحيانا مسجوعة، ومن أقر بها إلى الفكاهة هذا العنوان :

”الى المخالف الشاق، السيئ الأخلاق، الظاهر النفاق، محمد بن إسحاق“^(٢).

وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر مع ما أفرطنا في الدعوة الى ترك السجع : فلأشير شكيب أرسلان كتاب حديث جدا نشره أولا في جريدة الشورى واسمه :

”الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج الى أقدس مطاف“^(٣).

١٦ — وقد حذا حذو ابن داود في سجع فصول الكتاب مؤلف آخر عاش في النصف الثانى من القرن الثالث وعاش صدرا من القرن الرابع وهو محمد بن أحمد بن إسحاق المعروف بالوشاء، وإلى القارئ نماذج من سجمه فى عناوين الفصول :

(١) جاء فى كتاب (ضحى الاسلام) للأستاذ أحمد أمين ما نصه : ”ونحن نعلم أن هذا العصر — عصر الحاحظ — لم يتكاف فيه سجع، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها، وإن تكاف فيه سجع فقررة أو فقرتان، فأما كتاب كله سجع فهذا ما لانعرفه فى هذا العصر“ راجع ص ٢٢٦ ج ١

ودراستنا لأطوار السجع تقتنع بأن حكم الأستاذ غير صحيح، وأنه لا مانع أن توجد فى القرن الثالث مؤلفات مسجوعة، لأن السجع بدأ يكثر فى هذا القرن حتى فى لغة التأليف كما فى الفقرات التى نقلناها عن أبي العيلاء، ولأن القرن الرابع كثرت فيه المؤلفات المسجوعة ثم شاعت بدعة السجع فى التأليف فى القرن الخامس. ومن المعقول أن يكون لطفيان السجع فى التأليف بواكير ظهرت فى القرن الثالث. (٢) ياقوت ص ٢٥٢ ج ٦ (٣) وأظرف من هذا ما يصنع المستشرقون فى عناوين ما يطبعون من المصنفات : فقد سمي فوجل كتابه فى فهرس الألفاظ القرآنية :

”نجوم الفرقان، فى أطراف القرآن“

”باب النهى عن مازحة الأخلاء، والنهى عن مفاكهة الأوداء — باب الحث على صحبة الاخوان، والإغراء على مودة الخلان، والرغبة فى أهل الصلاح والإيمان — باب ما جاء فى قبج خلف المواعيد، وما يلحق صاحبه من اللوم والتفنيد — باب الحث على كتمان السر، والترغيب فى حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر — باب ما سئل عنه أهل الصدق، من تمام خلات العشق — باب صفة دم القيان، ونفوذ حيلتهن فى الفتیان — باب زى الطرف، فى التكك والنعال والخفاف — باب زيهن المخصوص، فى الخواتيم والفصوص^(١) —“ .

والقارئ يرى هذا السجع فى العناوين أقل جودة من سجع ابن داود .

وأهم من هذا وأدل على الغرض ما رأينا من إثارة هذا المؤلف للسجع فى كثير من مواد كتاب ”الموشى“ وفى هذا دليل واضح على أن السجع دخل فى لغة التأليف عند كتاب القرن الثالث . وانظر قوله فى وصف الأديب :

”حقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه، ولا يرسله فى غير حقه، وأن ينطق بعلم، وينصت بحلم، ولا يعجل فى الجواب، ولا يهجم على الخطاب، وإن رأى أحدا هو أعلم منه، نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والغلط، ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم ينظر فيما لا يفهم، فانه ربما أخرجه ذلك الى الانقطاع والاضطراب، وكان فيه نقصه عند ذوى الألباب“^(٢) .

وحديثنا هذا المؤلف عما كان ينقش على الخواتم والفصوص فرأيناه أسجاء فى أسجاع !

فما كان ينقشه أهل الحزم على خواتيمهم :

”القناعة، خير من الضراعة — التقل، خير من التذلل — السلامة، خير من الندامة — بادر الفرصة، قبل أن تكون النصة — الهرب، قبل الطاب — الفرار، قبل الحصار — الرجوع، قبل الوقوع“^(٣) .

ومما كان ينقشه أهل الهوى على الفصوص :

”الحين، خير من البين — القبر، أفسح من الهجر — الموت، خير من الفوت —
كأس الهجر، أمر من الصبر — طول الحفاء، يكدر الصفاء — آفة الحبيب، نظر الرقيب —
الهوى، ثوب الضنى — ذهب الفراق، بحيلة العشاق“^(١).

فهذا ”الجو“ من الكلف بالسجع في الرسائل والمؤلفات وأحاديث الناس كان تمهيدا لما سنراه من الترام السجع في القرن الرابع . ولا ننس أن أكثر ما كان يكتب في الغزل والوصف والهجاء وقع في الأكثر مسجوعا، كأن السجع هو الفن الملائم للموضوعات التي كانت في الأصل مما يتحدث عنه الشعراء، والسجع فيه خواص من الشعر، أظهرها الوزن والتقفية، وإن كان يحتاج إلى رياضة نفسية تبعد بعض البعد عن الرياضة التي يوجبها القريض .

ولا ينبغي أن نستبعد — كما استبعد الأستاذ أحمد أمين — أن توجد مؤلفات مسجوعة في القرن الثالث ، فإن عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار، ويراه ضربا من التكلف المقفوت ، ومع هذا وجدت في عصرنا مؤلفات مسجوعة مثل (صهاريج اللؤلؤ) و (حديث عيسى بن هشام) وأبواب من (ليالى سطيح) ولا يزال عندنا كتاب مطبوعون على السجع ، لا يتحامونه إلا كارهين ، ليسا يروا الذوق الحديث . ومن هذا يتبين أن الصبغة الفنية التي تغلب في بعض العصور لا تسود سيادة مطلقة وإنما تعيش بجانبها مذاهب تتناقضها بعض المناقضة وترفع رأسها في غير خوف ولا إشفاق . ولولا ما صنعت الصحافة في رياضة الكتاب المعاصرين على تجنب السجع والطباق والجناس لبقيت من البديع فنون تسيطر على أكثر الكتاب .

١٧ — ولناخذ في محاولة أخرى جريئة النفع ، وهي درس آراء علماء البيان الذين تكلموا عن السجع ، ففي كلامهم تحديد لأهمية السجع في البلاغة العربية . ولنبدأ باللاحظ، وهو كاتب لا يسجع إلا قليلا ، ولكنه يرى السجع من خصائص لغة العرب . وأنظر قوله في الرد على الشعوبية :

”ونحن — أبقاك الله ! — إذا آدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأشجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج^(١)، فعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى السير والنبد القليل^(٢)“.

ونراه يخص الأشجاع بأبواب من كتابه (البيان والتبيين) فيتخير من بدائعها فرائد بعضها تليد وبعضها طريف، فيقول :

قال عمر بن ذر : (والله المستعان على السنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخلف)
ولما مدح عتبة بن مرداس عبد الله بن عباس قال : (لا أعطى من يعصى الرحمن، ويطيع الشيطان، ويقول البهتان) وفى الحديث المأثور : (يقول العبد : مالى ! وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنت، أو أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت) ووصف أعرابى رجلاً فقال :
(صغير القدر، قصير الشبر، ضيق الصدر، لثيم النجر، عظيم الكبر، كثير الفخر) وسأل بعض الأمراء رسولا قدم من جهة السند : كيف رأيتم البلاد ؟ فقال : (ماؤها وشل، ولصها بطل، وتمرها دقل، إن كثرا لخنسها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا) ونظر رجل من العباد الى باب بعض الملوك فقال : (باب جديد، وموت عتيد، ونزع شديد، وسفر بعيد) وقيل لبعض العرب : أى شئ تمنى وأى شئ أحب اليك ؟ فقال : (لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير !) وقيل لآخر — وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان أمر بقتله — :

(١) المزدوج فى كلام الجاحظ باب من السجع فانا نراه فى كتاب البيان يعقده بابا مزدوج الكلام — ص ٥٨ و ٩٥ ج ٢ — يستشهد فيه بأمثال هذه الكلمات : ” اللهم علمه الحساب والكتاب، وقه العذاب “ وقال رجل من بنى أسد لشيخ مات ابنه : ” اصبر، أبا أمامة، فانه فرط أفرطه، وخير قدمته، وذخر آخرته “ فقال مجيباً له : ” ولد دفنته، ونكل تعجته، وغيب وعدته “ وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق فسأله أبوه عنهما فقال : ” جرير يغفر من بحر، والفرزدق ينحت من صخر “.

وسرى أن علماء البديع لا يشترطون القافية فى الازدواج، وبها يتم السجع، وإنما يشترطون أن تتفق الكلمات فى الوزن مثل ” المستقيم “ و ” المستبين “.

(٢) ص ١٣ ج ٣ من البيان والتبيين.

(٣) النجر : الأصل . (٤) الدقل : أردأ النمر .

أجزعت من الموت ؟ فقال : (إن أـبـزع فقد أرى كفنا منشورا ، وسيفا مشهورا ، وقبرا محفورا)^(١) .

وعقد الجاحظ فصلا آخر للأسباع جاء فيه :

ومن الأسباع قول أيوب بن القريّة وقد كان دعى للكلام فخبس عليه القول : (قد طال السمر ، وسقط القمر ، وأشدّ المطر ، فإذا ينتظر ؟) فأجابه فتى من عبد القيس : (قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق ، فلينطق من نطق)^(٢) .

ولم يقف الجاحظ عند رواية الجيد من الأسباع ؛ بل أضاف الى ذلك الدفاع عنها ومناقشة من كرهوها ، فحدث أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل : فقد قيل للذى قال : ” يا رسول الله ، أرايت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهلّ ، أليس مثل ذلك يُطلّ ” فقال رسول الله ” أسجع كسجع الجاهلية ” ؟ فقال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا إقامة الوزن لما كان عليه بأس . ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق فتشادق في كلامه .^(٣)

وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحاب رسول الله قد قالوا شعرا ، قليلا كان ذلك أم كثيرا ، وسمعوا وأستشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل^(٤) .

قال الجاحظ : وكان الذى كره الأسباع بعينها — وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة — أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاضرون إليهم ويدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رثيا من الجن مثل (حاذى جهينة) ومثل (شق) و (سطيج) و (عزى سلمة) وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسباع ، كقوله (والأرض والسماء ، والعقاب والصقعا ، واقعة ببقعاء)^(٥) ، لقد نفر المجد بنى العشراء ، للمجد والسناء) وهذا الباب كثير . ألا ترى

(٣) البيان ج ١ ص ١٦٣

(٢) اللثق : الندى .

(١) البيان ج ١ ص ١٥٧

(٦) البقاء : السنة المجدية .

(٥) الصقعا : الشمس .

(٤) البيان ج ١ ص ١٥٨

أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربعة بن حذار . قالوا : فوقع النهى في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم .^(١)

ثم قال الجاحظ : وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحدا . وكان الفضل بن عيسى الرقاشى سجعا في قصصه وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبى عياش يأتون مجلسه .^(٢)

١٨ — ونستخلص من كلام الجاحظ ثلاث حقائق : الأولى أن السجع عنصر كريم في بلاغة العرب ، الثانية أن ناسا من أهل القرن الأول والثانى كرهوا السجع لأنه كان يذكّر بأساليب الكهان ، الثالثة أن جمهور الخطباء والقصاص والوعاظ كان يسجع ، وأن الخلفاء لم ينكروا على أحد أن يتكلم بين أيديهم بكلام مسجوع .

ومن الواضح أن شبهة من كرهوا السجع ساقطة : لأن القرآن يسجع . وما نظن الرسول تجنب أساليب الكهان ، فإن الكهان لم يخلقوا السجع ، وإنما كان حلية قديمة في اللغة العربية وكانت قوية الصلاحية لمن يخاطب القلوب . وكذلك أنتفع بها القسيسون والكهان في الجاهلية ، وقبلها القرآن ، وآثرها النبي وأصحابه ، وظلت أثيرة لدى خطباء المساجد إلى اليوم . وهى في الواقع أساس البلاغة عند رجال الدين .

١٩ — ومن الباحثين الذين فصلوا في مسألة السجع الخفاجى في كتابه " سر الفصاحة " وقد تكلم عن السجع في غير موضع ، وحدّثنا " أن السجع الواقع موقعه كثير لمن طلبه " ^(٣) ونقل نموذجا من سجع الأحنف بن قيس ، وخطأ الرمانى في قوله إن السجع عيب والفواصل بلاغة على الإطلاق ، لأن الرمانى إن أراد بالسجع ما يكون تابعا للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعانى تابعة له وهو

(١) البيان ج ١ ص ١٥٩ (٢) كتاب مخطوط منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٤٣٩ و ٤٤٢ بلاغة .

(٣) سر الفصاحة ص ٩٢

مقصود متكلف فذلك عيب، والفواصل مثله . وكما يعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف . وقال :

”أظن أن الذي دعا أصحابنا الى تسمية كل ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم . فأما الحقيقة فما ذكرناه : لأنه لا فرق بين مشاركة القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً وعربياً ومؤلفاً ... ولا فرق بين الفواصل التي تماثل حروفها في المقاطع وبين السجع . فان قال قائل : إذا كان عندكم أن السجع محمود فهلاً ورد القرآن كله مسجوعاً ؟ وما الوجه في ورود بعضه مسجوعاً وبعضه غير مسجوع ؟ قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع سيما فيما يطول من الكلام . فلم يرد مسجوعاً جرياً به على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم^(١)“ .

وأشار الخفاجي الى جماعة من زعماء الكتاب في القرن الثاني والثالث فبين أن السجع فيما وقف عليه من كلامهم قليل . ” لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ في الفصول والمقاطع إلا في اليسير من المواضع “ .

ومعنى هذا أن الذين لم يلتزموا السجع من كتاب القرن الثاني والثالث كانوا يحرصون على على ألوان من الفن في كتاباتهم . وتلك الألوان الفنية ظاهرة كل الظهور لمن يقرأ آثار أولئك الكتاب .

ولنصف الى ما أسلفناه من رأى الخفاجي أنه وإن كان يميل الى إثبات السجع حين يوجبه المعنى والغرض فانه يكره أن تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد : ” لأن في ذلك تعزواً للتكرار وميلاً الى التكلف^(١)“ .

٢٠ - ولنوجه نظر القارئ الى حقيقتين فى كلام الخفاجى : أولاها حكمه بأن القرآن " أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم " فان لهذه الحقيقة عندنا أهمية خاصة إذ كانت تؤيد رأينا فى أن القرآن من جنس كلام العرب وعلى أساليبهم ، ولا يمتاز إلا بقوة المعنى وقوة الروح . وثانيتهما حكمه بأن الفصيح من كلام العرب لا يكون كله مسجوعا لما فى ذلك من أمارات التكلف ، فقد رأينا شواهد ذلك فى كلام الرسول وخطب الصحابة والخلفاء والقواد والوزراء . وأكثر ما رأيناه يخرط فى سلك قول قطرى بن الفجاءة فى وصف الدنيا :

" من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ، ويطيل حزنه ، ويبكى عينه . كم واثق بها قد بغمته ، وذى حلم تنبه اليها قد صرعته ، وذى احتيال فيها قد خدعته وكم ذى أبهة فيها قد صيرته حقيرا ، وذى نخوة قد ردته ذليلا ، ومن ذى تاج قد كبته لليدين والفم ! سلطانها دول ، وعيشها رنق ، وعذبها أجاج ، وحلوها صبر ، وغذاؤها سمام ، وأسبابها رمام ، وقطافها سلع ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض آهتضام ، ملكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجارها محروب ، مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الحكم العدل^(١) " .

وقول خطيب من آل صوحان يعارض عبد الملك وقد أغلظ القول :

"مهلا مهلا يا بنى مروان ! تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا نتعظون !! أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ، أم نطيع أمركم بالسنتكم ؟ فان قلم : اقتدوا بسيرتنا . فأنى وكيف ؟ وما الحجة وما المصير الى الله ؟ أنقتدى بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا ، وعبيده خولا ؟ وإن قلم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، وأقبلوا العظة ممن سعتموها ، فعلام وليناكم أمرنا ، وحكمناكم فى دماثنا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فىنا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح

بالعظاات؟ فتخلوا عنها، وأطلقوا عقالها، وخلوا سبيلها، ينتدب إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شردتموهم في البلاد، ومنزقتموهم في كل واد، بل تثبت في أيديكم لانتقضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة. إن لكل قائم قدرا لا يعدوه، ويوما لا يخطوه، وكتابا بعده يتلوه“.

ففي هذا الشاهد والذي قبله سجع مقبول جدا، ولكنه لا يلتزم، وإنما يريد من فقرة إلى فقرة بلا قلق ولا التواء. وقد يكون الشاهد الثاني من وضع بعض العلويين: لأن راويته يذكر أن الخطيب “التمس فلم يوجد” ومن العسير أن يحفظ كلام ألقاه صاحبه في فورة غضب وفي مقارعة ملك ثم لاذ بالفرار. ولكن القارئ مرجو أن يتذكر ما أسلفناه من قبل من أن الرواة كانوا — حين يضعون كلاما — يجتهدون في محاكاة لغة العصور التي ينسبون إليها ما يضعون من خطب وأحاديث^(١).

٢١ — ومن دافعوا عن السجع أبو هلال العسكري في كتاب (الصناعتين) ويمتاز أبو هلال في كتابه بالحرص على رد أصول المحسنات البديعية إلى القرآن، ومن أمثلة ذلك مارواه من الشواهد في باب (التجنيس) من مثل:

”وأسلمت مع سليمان — فأقم وجهك للدين القيم — تتقلب فيه القلوب والأبصار — والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق — وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض — ثم كل من كل الثمرات“ وعرض أبو هلال للشاهد الذي عرض له الرقاشي فيما نقل الجاحظ. ووقف عند قوله عليه السلام ”أسجما كسجع الكهان“ وعال الاستنكار بما عرف في سجع الكهان من التكلف. ثم قال: ”ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه

(١) ومن السجع المقبول عند خطباء القرن الأول قول زياد:

”إن للشيطان طيفا، وللسلطان سيفاً، فن سقمت مريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صلبه، ومن لم تدمه العافية، لم تضق عنه الهلكة، ومن سبقته بادرة فقه، سبق بدنه بسفك دمه، إني أنذر، ثم لا أنظر، وأحذر، ثم لا أعذر“ صبح الأعشى ص ٢٢٠ ج ١ (٢) ص ٢٥١

سجعا لقال : أسيجا ؟ ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه^(١) .

ويحدثنا أبو هلال أن النبي كان ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها كقوله : "أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة" وإنما أراد ؟ ملامة . وقوله عليه السلام : "ارجعن مأزورات ، غير مأجورات" وإنما أراد : موزورات ، من الوزر، فقال (مأزورات) لمكان (مأجورات) قصدا للتوازن وصحة التسجيع^(٢) .

٢٢ - وشدد أبو هلال في الحرص على الازدواج . وهو فن ظاهر في كلام من لا يلتزمون السجع من أقطاب القرن الأول والثاني والثالث ، ومن أمثلة الازدواج قول بعضهم :
 "أصبر على حر اللقاء ، ومضض التزال ، وشدة المصاع ، ومداومة المراس"^(٣) .
 فلو قال : (على حر الحرب ، ومضض المنازلة) لبطل رونق التوازن^(٤) .

(١) ص ٢٠٠ (٢) الموازنة التي عنى بها أبو هلال كانت مما عرض له الحريري في (درة النواص) وكلام الحريري هناك أظهر في الدلالة على أن الموازنة فن أصيل في العريضة تغير به الكلمات من وضع إلى وضع رغبة في الوزن : فهم يقولون (حدث وقدم) فيضمون الدال من (حدث) لتوازن (قدم) فإذا أفردوها فتحوا الدال ، ويقولون "الفدايا والعشايا" إذا قرنوا بينهما فان أفردوا (الفدايا) ردوها إلى أصلها فقالوا الغدوات . ويقولون (هأني الشيء ومرأني) فان أفردوا (مرأني) قالوا أمرأني . وقالوا : "فعلت به ما ساءه وناءه" فان أفردوا قالوا (أناءه) وقالوا في الشجاع الذي لا يزايل مكانه "أهيس أليس" والأصل في الأهيس الأدوس لاشتقاقه من هاس يهوس إذا دق فعدلوا به إلى الياء ليوافق لفظة (أليس) وفي الحديث من "حفنا أورفنا فليقتصر" أي من خدمنا أو أطعمنا . وكان الأصل أنحفنا فأنبع حفنا رفنا . ويروى في قضايا على أنه قضى في القارصة والقامصة والواقصة باليدية ، والواقصة هي الموقوفة وإنما قال الواقصة للموازنة مع القارصة والقامصة . وأنشد القزأ :

هناك أخبية ولاج أبوبة

لجمع باب على أبوبة ليزاوج لفظة أخبية (راجع درة النواص ص ٣٠ و ٣١ وراجع الشرح ص ٧٩ - ٨٣) والازدواج كثير الوقوع في اللغة العربية وله شواهد عديدة ، فلنكتف بهذه الأمثلة في الدلالة على ذوق العرب في هندسة الألفاظ والتعابير . ومن طريق التوافق أن اللغة العامية تسير اللغة الفصحى في هذا الباب . سمعت مرة تلميذة تقول وهي تملل : "النجوح زى السقوط" نقلت "النجاح" إلى "النجوح" ليوازن "السقوط" ، وأحسب أن ذلك جرى على لسانها بدون أن تقصد إليه ، لأن حاسة الموازنة بين الكلمات تأصلت عند الناطقين بالضاد .

(٣) المصاع : القتال . (٤) ص ٢٠٣

وقد يتفق السجع والازدواج مثل :

” حتى صار تعريضك تصريحاً ، وتريضك تصحيحاً “ .

فالتعريض والتريض سجع ، والتصريح والتصحيح سجع آخر : فهو سجع في سجع .

قال أبو هلال : وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع^(١) .

ويحدثنا أبو هلال أن العرب فتنوا بالسجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم ، وصار

ذلك الجنس من الكلام منظوماً في منظوم وسجعاً في سجع ، وهذا النوع من الشعر اسمه ” المرصع “ ومن أمثله :

فتور القيام قطيع الكلا م يفتر عن ذى غروب خصر

وقول كعب بن زهير :

* هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة *

وقول أوس :

* جُشاً حناجرها علماً مشافرها *

وقول النمر :

* من صوب سارية علّت بغادية *

وقول تأبط شرا :

حمال ألوية شهاد أندية هباط أدوية جَوَاب آفاق

وقول الأفوه الأزدي :

* سود غدائرها بلج محاجرها *

وقول عامر بن الطفيل :

ولكنني أحمى حماها ، وأتقى أذاها ، وأرمي من رماها بمنكب

وقد آرتقى أبو هلال بالترصيع إلى العصر الجاهلي وصدر الإسلام فدلنا على أنه فن قديم

أنتزع من النثر وأضيف إلى الشعر رغبة في وفرة الأنغام والألحان .

٢٣ - ومن أظهر من آهتوموا بالكلام عن السجع صاحب (المثل السائر) وهو يمتاز عن سبقوه الى الدفاع عن السجع بأنه عاش في عصر كان أهله جميعا يسجعون^(١). وهو يتهم خصوم السجع بالعجز عن أن يأتوا به "وإلا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم فانه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرها. وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور"^(٢) ثم سرد أمثلة من الآيات المسجوعة. وانتقل الى الحديث فذكر شواهد من سجع الرسول. ثم تحدث عن نهى النبي عن سجع الكهان بمثل ما تحدث به صاحب الصناعتين ثم قال :

"وأعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل اليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعا، وما من أحد منهم ولو شدا شيئا يسيرا من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة ويأتى بها في كلام، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة. وأعنى بقولى غثة وباردة أن صاحبها يصرف نظره الى السجع نفسه من غير نظر الى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا الى تركيبها وما يشترط له من الحسن، وهو في الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف أو ينظم عقدا من الخزف الملون. وهذا مقام تزل عنه الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد. ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا. فاذا صفى الكلام المسجوع من الغثاء والبرد فان وراء ذلك مطلوبا آخر: وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ، فانه يجيء عند ذلك كظاهر مموه، على باطن مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب، على نصل من خشب"^(٣).

(١) ولد آبن الأثير سنة ٥٥٨ هـ وتوفى سنة ٦٣٧ هـ وهو نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني. وأبنا.

الأثير ثلاثة : مؤرخ ومحدث وأديب، وهو صاحب المثل السائر. (٢) المثل السائر ص ١١٤

(٣) المثل السائر ص ١١٦ و ١١٧

وقد افترض ابن الأثير أن يقال : إذا كان السجع أعلى درجات الكلام فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعا ، وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع وغير المسجوع .
وقال في الجواب : ” إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتي كلها مسجوعة .
وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار . والسجع لا يؤتى في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار ، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب ” ثم قال : ” وههنا وجه آخر هو أقوى من الأول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ في باب الإعجاز^(١) ” .

ومعنى هذا أن السجع بعض أسرار الإعجاز عند ابن الأثير .

٢٤ — وحدّثنا في مكان آخر أنه تصفح القرآن فوجده ” لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة^(٢) ” والواقع أن الموازنة كثيرة في القرآن ، مثل : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ فالمستبين والمستقيم على وزن واحد . وكذلك قوله تعالى في سورة مريم عليها السلام : ﴿ وأنخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ، فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عدا ً ﴾ . فالعز والضدّ على وزن واحد ، والأز والعدّ على وزن واحد .

٢٥ — وكلام ابن الأثير يؤيد ما آتينا إليه في أثناء هذا الفصل من أن بناء الجملة لم يخرج في جوهره عن السجع طوال القرن الثاني والثالث . والقرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين (عصر الجاحظ) وينفي عنه السجع ، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الأزواج ، ومن كلامه في وصف إفك الحاسد :

(١) ١١٨ هذا وقد عرض ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة إلى مناقشة من أنكروا السجع على علي بن أبي طالب وبين أن كثيرا من كلام الرسول مسجوع ، وعرض لسجع الكهان بكلام قريب مما ذكره الجاحظ والعسكري وابن الأثير — راجع شرح ابن أبي الحديد ج ١ ص ٤١ و ٤٢ ثم راجع ما كتبه عن الموازنة في ص ٢٧٣ من المجلد الأول . (٢) المثل السائر ص ١٧٠

” وإن كان المحسود عالماً قال مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل، وتابع نيل، لا يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، وقد أقبل وجوه الناس إليه، وما أحققهم إذ مالوا عليه، فقبحه الله من عالم ما أعظم بليته، وأقل رعيته، وأسوأ طعمته، وإن كان المحسود ذا دين قال: متصنع يغزول يوصى إليه، ويحج لثني عليه، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره أبنته، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته“^(١).

وأنظر قوله في مقدمة الجزء الثانى من البيان والتبيين :

”ولكننا أحببنا أن نصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجللة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض، وحلى الدنيا، والنجوم التى لا يضل معها السارى، والمنار الذى يرجع إليه الباغى، والحزب الذى كثّر الله به القليل، وأعز به الدليل، وزاد الكثير فى عدده، والعزيز فى ارتفاع قدره. وهم الذين جلّوا بكلامهم الأبصار العليّة، وشحذوا بمنطقهم الأذهان الكليّة، فنبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها من سوء عاداتها، وشفوها من داء القسوة، وغاوة الغفلة، وداووا من العى الفاضح، ونهجوا الطريق الواضح... الخ“.

وهذا يدلنا على أن الجاحظ لا يهمل السجع إلا حين يسوقه أطراد القول فى لغة التأليف، ولكنه حين يحتفل بالكتابة يسجع ويزاوج، كأن لغة النثر الفنى تنتظر ملاكا من السجع والازدواج^(٢).

٢٦ - وقدامة^(٣) بن جعفر - من كتاب القرن الرابع - يرى السجع من أوصاف البلاغة، على شرط أن يكون فى موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون فى بعض الكلام

(١) معنى هذا أن حضور الجنائز للشهرة كان من عيوب الناس فى القرن الثالث. وهو اليوم لا يزال كذلك !!

(٢) للجاحظ رسائل اخوانية التزم فيها السجع ستجد منها نموذجا عند الكلام على الغزل المنشور فى الباب الثانى من

هذا الكتاب ص ١٥١ ج ١

(٣) اهتم قدامة بالكلام عن النقد والبلاغة وألف فى ذلك (نقد النثر) و (نقد الشعر) و (جواهر الأنفاظ) ومن أحكامه التى تهمنا ما قضى به من أن المنشور (ليس يخلو من أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجا أو حديثا) ص ٨٢ من (نقد النثر). وهذا يؤيد ما أشرنا اليه من قبل فى هامش صفحة ٢٣

لا في جميعه ” فان السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه ، فأما أن يلزمه الانسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهلٌ من فاعله ، وعيٌ من قائله ” وتحدث قدامة عما كره الرسول من السجع بمثل ما تحدث الجاحظ وأبو هلال وابن الأثير ثم قال : ” وإنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان . وأما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافي مختلفة متكلفة ، ولا متحملة مستكرهة ، وكان ذلك علي سجيية الانسان وطبعه ، فهو غير منكرو ولا مكروه ، بل قد أتى في الحديث : ” ويقول العبد مالى مالى ، وماله من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى “ .

ثم عرض لأهل عصره ، وهم رجال القرن الرابع ، فقال :

ومما تكلم به أهل هذا العصر فأتى بالسجع فيه محمودا ، ومن الاستكراه بعيدا ، قوله : ” والحمد لله الذى ذخر المنة لك ، وأخرها حتى كانت منك ، فلم يسبقك أحد الى الاحسان إني “ ، ولم يحاضك أحد في الانعام على “ ، ولم تنقسم الأيادى شكرى فهو لك عتيد ، ولم تخلق المنن وجهى فهو لك مصون جديد ، ولم يزل ذمامى مضاعا حتى رعيته ، وحق مبخوسا حتى قضيته ، ورفعت من ناظرى بعد آنخفاضه ، وبسطت من أملى بعد آنقباضه ، فليس أعتد يدا إلا لك ، ولا منة إلا منك ، ولا أوجه رغبتى إلا إليك ، ولا أتكلم فى أمرى بعد الله إلا عليك ، فصانك الله عن شكر من سواه ، كما صنتنى عن شكر من سواك “ .

ثم قال :

ومما يبين هذا مما وضع في غير موضعه قول صديق لنا في فصل من رقعة له : ” ورزقنى عدلك ، وصرف عني خذلك “ . وقوله أيضا : ” ولقد جلت عندى بابن فلان المصيبة ، وعظمت الشعبة “ . وقول آخر في صدر رقعة : ” أطل الله بقاءك لى خصيصا ، ولأودائك فيصوصا “ — الى أن قال :

ولو كان لزوم السجع في القول والإغراب فيه وفي اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالهما في كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة

المهذبون قد آستعملوهما ولزموا سبيلهما وسلكوا طريقهما . فأما ولسنا واجدين فيما فى أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا فى المواضع اليسيرة فهم أولى بأن يقتدى بهم ، ويحتذى بمنهجهم ممن قد نبت فى هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها ، ولا من الخطابة إلا التحلى باسمها ^(١) .

٢٧ — وقد لا حظنا أن الكتاب كانوا يسجعون ويزاوجون حين يترجمون ، لأن الترجمة القوية لونٌ من الإنشاء توجب ما يوجبها الكلام المبكر من قوة الرصف ، والتأنق فى الصوغ . وقد حدثوا أنه قيل لبزرجهر : أى الاكتساب أفضل ؟ فقال : (العلم والأدب كتران لا ينفدان ، وسراجان لا يطفآن ، وحلتان لا تبليان ، من نالها أصاب الرشاد ، وعرف طريق المعاد ، وعاش رفيعا بين العباد ^(١)) وقيل لكسرى : أى الملوك أفضل ؟ فأجاب : ” الذى إذا حاورته وجدته عليا ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استمنح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شكى اليه وجد رحيما ^(٢) ” .

فهذه فقر نقلت عن الفارسية وروعى فيها السجع ، وسرى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فقرات منقولة عن اليونانية وروعى فيها السجع ، ونقلت صحائف من لغات أخرى وروعى فيها السجع ، من ذلك ما حدث ابن قتيبة بسنده أن يوسف عليه السلام لما لبث فى السجن سبع سنين أرسل الله عز وجل اليه جبريل عليه السلام بالبشارة بخروجه فقال له : أتعرفنى أيها الصديق ؟ قال له يوسف : أرى صورة طاهرة وروحا طيبا لا يشبه أرواح الخاطئين . قال جبريل : أنا الروح الأمين ، ورسول رب العالمين . قال يوسف : فما أدخلك مداخل المذنبين ، وأنت سيد المرسلين ، ورأس المقربين ؟ قال جبريل : أولم تعلم أيها الصديق أن الله يطهر البيوت بطهر النبئين ، وأن البقعة التى يحلون بها هى أطهر الأرضين ،

(١) راجع ص ٩٣ — ٩٥ من كتاب (نقد النثر) .

(٢) زهر الآداب ص ١٨٩ ج ٢ (٣) ص ١١٧ و ١١٨

وأنه قد طهر بك السجن وما حوله يا ابن الطاهرين! قال يوسف: كيف تشبهني بالصالحين وتسميني بأسماء الصّديقين، وتعذّني مع آبائي المخلصين، وأنا أسير بين هؤلاء المجرمين؟ قال جبريل: لم يكلم قلبك الجزع، ولم يغير خلقك البلاء، ولم يتعاضمك السجن، ولم تطأ فراش سيدك، ولم ينسك بلاء الدنيا بلاء الآخرة، ولم تنسك نفسك أباك، ولا أبوك ربك، وهذا الزمان الذي يفك الله به عنوك، ويعتق به رقك، ويبين للناس فيه حكمتك، ويصدق رؤياك وينصفك ممن ظلمك، ويجمع اليك أحبتك^(١).

ولسنا نريد أن نثبت أن كل ما ترجم روعى فيه السجع والازدواج، لا، ولكننا نقول إن فريفاً من المترجمين جرى على الطبع المكتسب بطول الألفة في مذاهب الانشاء فسجع وزاوج فيما نقل الى العربية من اللغات الأجنبية. وفي هذا تأييد لما حاولنا إثباته في هذا الفصل من غلبة السجع والازدواج على سواد المنشئين.

٢٨ — أما بعد فقد أسهينا في هذا الفصل إسهاباً نخشى أن ينتهي الى الإملال. ولكنه فصلٌ ضروريٌ جداً في بناء هذا الكتاب. ذلك بأن السجع صار خصيصة أساسية عند كتاب القرن الرابع، ومن الناس من ظن أنه كان كذلك لأن كتاب ذلك العهد أسرفوا في آنتهاب المحسنات اللفظية من اللغة الفارسية، فأردنا أن نثبت أن السجع كان حلية أصيلة في اللغة العربية، وأنه أخذ أطواراً مختلفة حتى وصل الى القرن الرابع.

وسنرى بعد قليل أن السرف في إقبال كتاب القرن الرابع على السجع يرجع الى حرصهم على انتهاب طرائق الشعراء في المعاني والأساليب.

ونعيز القارئ أن يتوهم أننا كتبنا هذا الفصل للدعوة الى إثثار السجع. لا، فنحن نرى السجع قيذا يعطل حركة الفكر والعقل في كثير من الأحيان، ونراه يبعد لغة العرب من أن تصير لغة مدنية تعبر عن جميع الشؤون في طلاقة وحرية، بحيث لا يصددها سجع، ولا يحدها ازدواج. وسيرى المتأمل حين يجاوز القرن الرابع — الذي سلم فيه السجع من آصار التكلف

المحموت — أن لغة الرسائل والتأليف وقعت تحت نير من السجع ثقيل، حتى وجدنا السجع يلتزم في موضوعات بعيدة عن الأدب . وكان الأدب هو الذى يوحى بالتائق والافتنان .

وإذا كان كتاب العصر الحاضر قد أنصرفوا انصرافا تاما عن السجع فان ذلك منشؤه أنهم ملأوا هذا الزخرف، وضجروا منه، ورأوه علامة على فقر الكاتب وعجزه عن الظفر بالحلية الجوهرية : حلية المعنى الرائع والغرض النبيل .

ولا ينس القارئ أننا نؤدى فى هذه الدراسة مهمة المؤرخ : فليس من شأننا أن نقبح أو نحسن فنا من طرائق البيان، وإنما نرمس العهود الأدبية رسما واضحا قد يظهر عليه التشيع فى بعض الأحيان، وما بنا أن نتشيع، ولكن الحرص على إتقان الصورة التاريخية قد يظهرنا متشيعين من حيث لا نريد .

ونحن فى العصر الحاضر نهرب من السجع والمزاوجة عامدين، حتى فى المواطن التى يفرض فيها المعنى أن نسجع أو نزواج، وليس خطؤنا فى هذا بأقل من خطأ من يحنون على المعنى بالتزام السجع . ولكل عصر آفته : فالتائق المغرب آفة ، والتحرر المسرف آفة ، والصواب أن تكون السيادة للمعنى وأن يكون له السلطان المطلق فى فرض ما توجهه الألوان النفسية من مختلف الصور والأساليب ^(١) .

(١) من أجل ما قرأنا فى الدفاع عن السجع قول ابن أبى الحديد فى الرد على من يرون السجع بابا من التكلف : « المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ، فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن ، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك » راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢ ج ١ وفى هذا المعنى قال شوقي طيب الله ثراه :

« كل موضع للشعر الرصين محل السجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فأنما يوضع السجع التابع فيما يصلح مواضع للشعر الرصين : من حكمة تتخرج ، أو مثل يضرب ، أو وصف يساق ، وربما وشيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورصعت به القصائد من فقر البيان المحض . وقد ظلم العربية رجال قبضوا السجع وعدوه عيبا فيها ، وخططوا الجليل المنفرد بالقيح المزدول منه موضع عنوانا لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشوا فى رسائل السياسة ، أو وثرت فى المقالات العلوية . فيأنشء العربية إن لغتكم سرية مزية ولن يصيرها عائب ينكر حلالة الفواصل فى الكتاب الكريم ، ولا يبيع الحمام فى الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح » .
(أسواق الذهب ص ١٠٩) .

الباب الثاني

مُخَصَّصًا لِلتَّائِيهِ
فِي الْفَرْزِ الْمَرْجِي

١ - خصائص نثرية

١ - نريد أن نبين في هذا الباب بعض خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع ، ونحب مع هذا أن نوجه نظر القارئ الى أنه من المتعذر أن نطمئن الى أن هناك خصائص يتفرد بها ذلك العصر، فقد رأى القارئ كيف تطورت الفنون النثرية من عهد النبوة الى العهد الذى ندرسه فى هذا الكتاب ، ورأى كذلك أننا موقنون بأن النثر لعهد النبوة نفسه لم يخلق خلقا ، وإنما نشأ وتطور فى عدة أجيال .

٢ - وكل ما يمكن الاطمئنان اليه فى تقدير الخصائص النثرية لهذا العهد هو بروز العناصر الفنية التى ظهرت تباشيرها منذ القرن الأول ، فليس فى القرن الرابع خصائص جديدة كل الجدة ، ولكن فيه خصائص كانت تلمح عند كتاب القرن الاول والثانى والثالث ، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والخوارزمى وبديع الزمان .

٣ - وأولى هذه الخصائص إشار البديع ، فقد كان الكتاب السابقون يميلون الى المحسنات البديعية ولكن فى غير إسراف، فلما جاء كتاب القرن الرابع قصدوا اليها قصدا، وأسرفوا فى توشية الكتابة بفنون التورية والموازنة والمطابقة والجناس .

وآية ذلك أن مؤلفى البلاغة فى القرن الثالث ما كانوا يحرصون كل الحرص على المحسنات اللفظية ، بل كانوا يلمون بها إلمامة خفيفة ، فلما جاء مؤلفو البلاغة فى القرن الرابع حرصوا عليها أشد الحرص حتى أستطاع أحدهم أن يقول :

وقد ألف للألفاظ غير كتاب فقيل : "أصلح الفاسد، وضم النشر، وسد الثلم ، وأسا الكلم" فوزن أصلح الفاسد مخالف لوزن ضم النشر، وكذلك سد وأسا . ولو قيل : "أصلح

الفاسد، وألف الشارد، وأصلح ما فسد، وقوم الأود“ أو قيل “صلح فاسده، ورجع شارده“
لكان في استقامة الوزن واتساق السجع عوض من تباين اللفظ وتنافي المعنى والسجع^(١).

٤ — ويمكن تحديد ما أختص به النثر في القرن الرابع بالصفات الآتية :

أولاً — التزام السجع في جميع الرسائل، حتى الرسائل المطولة التي يراد بها تقييد مناظرة أو شرح مسألة كالذى وقع فيما كتبه بدیع الزمان الهمداني عن المناظرة التي كانت بينه وبين أبي بكر الخوارزمي، وكالرسالة التي كتبها الخوارزمي إلى الشيعة بنيسابور^(٢). وكان الكلب قبل ذلك يسجعون، ولكنهم لم يكونوا يلتزمون السجع في جميع الموضوعات، ومن كتاب هذا العصر من جانب التزام السجع كالشريف الرضي وأبي حيان التوحيدي، ولكنهم كانوا يعودون إليه من حين إلى حين.

ثانياً — الحرص على تضمين الرسائل أطايب الشعر ومختار الأمثال. فمن الكتاب من يبدأ رسالته بيت أو بيتين يتقدم بهما كلامه كما كان يفتح الأقولون رسائلهم بحمد الله والصلاة على نبيه، ومنهم من يختم الرسائل بالشعر كما كان يختمها المتقدمون بعبارة « والسلام على من اتبع الهدى » أو « والسلام عليكم ورحمة الله » وهم مع ذلك يتخيرون من الأشعار والأمثال ما يحلون به تضاعيف الرسائل، يذكرون اسم الشاعر تارة ويفعلونه أخرى، والخوارزمي يحرص على تعيين اسم الشاعر وإن كان لا يلتزم ذلك.

وفي رسائل البديع الهمداني رسالة رصعها بالشعر لم أجد لها نظيراً عند غيره إذ يقول :

« أنا لقرب الأستاذ أطل الله بقاءه :

” كما طرب النشوان مالت به الخمر “

ومن الارتياح للقائه :

” كما انتفض العصفور بلله القطر “

(١) راجع مقدمة جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر . (٢) راجع رسائل بدیع الزمان ص ٣٨

(٣) راجع رسائل الخوارزمي ص ١٢٥

ومن الأمتراج بولائه :

”كما التقت الصهباء والبارد العذب“

ومن الابتهاج بمرآه :

”كما أهترت تحت البارح الغصن الرطب“^(١)

وهذا النمط جميل ، ويدل فوق جماله على معرفة الكاتب بأسرار الشعر البليغ ، ولكن الكتاب لم يلتزموه بالرغم من إسرافهم في الصنعة لأنه متعب يضطر الكاتب الى الإكثار من البحث عن الشطرات المناسبة ، خصوصا اذا راعى القافية كما زواج البديع بين الرء والباء .

ثالثا — ألفت كتاب القرن الرابع الكتابة في بعض الموضوعات التي كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف ، وذلك لأنهم نقلوا الى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال . والنثر اذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف لخلوه من قيد الوزن والقافية . وكذلك أصبح النثر في القرن الرابع أداة لتقييد الخواطر النفسية ، والملاحظات الفنية ، بحيث يرى القارئ من جمال الصنعة ودقة الأسلوب ما يغنيه عن التفكير في قصائد الشعراء الذين سبقهم هؤلاء الكتاب الى تصيد ما يقضى به العقل ، أو يوحي به القلب ، أو يشير اليه الخيال .

ولو بحثنا في الشعر العربي عن قصيدة في الهجاء لما وجدنا ما يساوى ما قاله البديع الهمداني في ذم أحد القضاة :

”وهذا الخيرى رجل سفلة طلب الرياسة بغير تحصيل آلتها ، وأعجله حصول الأمانة

عن تمحل أدواتها :

والكلب أحسن حالة وهو النهاية في الخساسة

من تصدّر للزياة سة قبل إبان الرياسة

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعلم مقدارها ، والأمانة عند الفاسق ، خفيفة المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، وتحملها الجهال ، فقبحه الله من

حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما الى الحكام ، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر، ترقص على الظفر، ولا وثيقة أحب اليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المحتوم، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيثة الذيل، وحمال الليل، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق ، في وقى الفسق والفلق ، ولا حكومة أبغض اليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس . ثم الويل للفقير إذا ظلم ، فما يغنيه موقف الحكم ، إلا بالقتل من الظلم ، ولا يبحره مجلس القضاء ، إلا بالنار من الرضاء . وأقسم لو أن اليتيم وقع بين أنياب الأسود، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيايات هذا القاضى وأقاربه . وما ظن القاضى بقوم يحملون الأمانة على متونهم ، ويأكلون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتضمن أكفاهم من مال الأيتامى؟ وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور، وعطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت؟ وما قولك في رجل يعادى الله في الفلس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السمى، وباطن أصحاب السبى، فعله الظلم البحت، وأكله الحرام السحت؟ وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود؟ وما زلت أبغض حال القضاة طبعا وجبلة ، حتى أبغضتهم ديناً وملة ، وألعنهم دربة ، حتى لعنتهم قربة ، بما شاهدت من هذا الحيرى وقاسيت ، وعانيت من خبطه وخطبه ما عانيت .“

وهذه الرسالة ليست إلا قصيدة مثورة . وهذا النمط من الكلام لم يكن كثير الوقوع قبل القرن الرابع، وهو أسلوب من أساليب الهجاء يكثر في نثر بدیع همدان .

ومن أظرف ما كتبه رسالته التى بعث بها الى شاب كتب اليه بعد أن عزل عن ولاية حسنة يستميل فؤاده ، وهى رسالة مشهورة عارضها كثير من الكتاب ، وأنظر كيف يقول :

« وردت رقعتك — أطال الله بقاءك! — فأعرتها طرف التعزز، ومددت إليها يد
التعزز، وجمعت عنها ذيل التعزز، فلم تند على كبدي، ولم تحظ بناظري ويدي، وخطبت
من مودتي ما لم أجده لها كفوا، وطلبت من عسرتي ما لم أرك لها رضى، وقلت : هذا
الذى رفع عنا أجفان طرفه، وشال بشعرات أنفه، وتاه بحسن قدمه، وزها بورده، ولم
يسقنا من نوءه، ولم نسربضوه . والآن اذ نسخ الدهر آية حسنه، وأقام مائد غصنه،
وفئاً غرب نجبه، وكف زهو زهره، وأنتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله، وأكسفت
باله، ومسخت جماله، وغيّرت حاله، وكدرت شرعته، جاء يستقى من جرفنا جرفاً، ويغرف
من طيبنا غرفاً، فهلا يا أبا الفضل مهلاً .

أرغبت فينا إذ علا لك الشعر في خدّ قفل
ونحرت عن حدّ الظبا وصرّت في حدّ الإبل
الآن تطلب عسرتي عد للعداوة يا نجمل

وتناسيت أيامك إذ تكلمنا نورا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسرق إليك
النظر، ونهت لكلامك، ونهش لسلامك .

ومن لك بالعين التي كان مدّة اليك بها في سالف الدهر يُنظرُ

أيام كنت تمايل، والأعضاء تنزائل، وتتغايج، والأجساد تتفالج، وتتلقت، والأكباد
تتفتت، وتخطر وترفل، والوجد بنا يعلو ويسفل، وتدبر وتقبل، فتمنى وتقبل، وتصد
وتعرض، فتضنى وتمرض،

وتبسم عن ألى كأن منورا تخلل حرّ الرمل غض له ندى

فأقصر الآن، فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودولة عرضت، وأيام آنقضت،

وعهد نفاق مضى وخطب كساد نزل
وخدّ كأن لم يكن وخط كأن لم يزل

ويوم صار أمس ، وحسرة بقيت في النفس ، وثغر غاض مأوه فلا يرشف ، وريق خدع
فلا ينشف ، وتمايل لا يعجب ، وتئن لا يطرب ، ومقلة لا تجرح الحاظها ، وشفة لا تفتن
ألفاظها . نختام تدل وإلام ؟ ولم نحتمل وعلام ؟ وأن أن تدعن الآن ! وقد بلغني ما أنت
متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء في الغسق ، وتشبيه يفتضح عند ذوى البصر ، وإفنائك
لتلك الشعرات حقا وحصا ، وإشباعك لها نتقا وقصا ، وسيكفيني الدهر مؤونة الانكار
عليك ، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك ! فأما ما استأذنت رأي فيه من الاختلاف الى
مجلسي فما أقل نشاطي لك ، وأضيق بساطي عنك ، وأشبع قلبي منك ، وأشد آستغنائى عن
حضورك ! فان حضرت فأنت كغاش نروض عليه الحلم ، ونتعلم به الصبر ، وتكلف فيه
الاحتمال ، ونغضى منه الجفن على قذى ، ونطوى منه الصدر على أذى ، ونجعله للعيون تأديبا ،
وللقلوب تأنيبا .

”مالك يا أبا الفضل تعناض من الرغبة عنا رغبة فينا ، ومن ذلك التدل علينا تذلا لنا
ومن ذلك التعالى تبصبصا ، ومن ذلك التغالى ترخصا ، وما بال الدهر أبدلك من التزايد
تنقصا ، ومن التسحب على الإخوان تقمصا ؟ ! ولئن أعتضت عن ذلك الذهاب رجوعا ،
لقد أعتضنا عن هذا النزاع نزوعا ، فأنا برحلك وجانبك ، ملق جلك على غاربك ، لا أوثر قربك
ولا أندع سربك ، ولو أحبيت أن أوجعك لقات :

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يفعل الشعر بالحدود^(١)

رابعا — عدم التقيد بصيغة خاصة في بداية الكتب ، فقد كان القدماء يحرصون على
الابتداء بحمد الله والصلاة على نبيه ، بعد عبارة من فلان الى فلان التي كثرت ورودها في القرن
الأول ، ولكن كتاب هذا العصر أخذوا يحرون على فطرتهم في تخير البدايات ، فمنهم من يتبدى

(١) رسائل بدیع الزمان ص ٨٤ ، ٨٨ وقد غارضا عبد الوهاب بن حزم برسالة طريفة (الذخيرة ص ٦٦ ج ١) .

بيت من الشعر^(١) أو بحكمة مأثورة أو مثل معروف، أو قصة صغيرة^(٢)، ثم يدخل فى الموضوع .
ومنهم من يكتب فى الموضوع مباشرة من غير أن يتقدمه بشيء ، وهم فى ذلك كله يجرون على
خطة مقبولة، ولا يراعون القواعد إلا اذا خاطبوا الوزراء أو الأمراء أو الملوك ، فعند ذلك
يسدّون بالعبارات المملوءة بالمجاملة والرفق كقول البديع فى بداية خطاب كتبه الى الوزير
أبى نصر الميكالى :

” قد عرف الشيخ الجليل آتسمى بعبوديته، ولو عرفت مكانا بعد العبودية لبلغته
معه“^(٣) .

وبديع الزمان بالرغم مما درج عليه من البساطة فى بداية الكتب يبالغ فى مخاطبة الرؤساء
مبالغة مملوءة تظهر فى الجمل الدعائية التى يختص بها من يكتب اليهم، وكذلك يفعل أبو بكر
الخوارزمى، والصابى، وأبن عباد . ومن أمثلة ذلك ما كتبه ابن العميد الى عضد الدولة
يهنئه بولدين :

” أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة — دام عزه وتأييده، وعلوه وتمهيد،
وبسطته وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيده“^(٤) .

على أنه لا تزال بقية من البدء بحمد الله والصلاة على نبيه تجرى فى رسائل الخوارزمى يحدها
القارئ فى عدة مواطن كقوله يخاطب ابن عباد :

” كتابى الى الوزير وأنا على بعد الدار سالم فى جملته ، مستظهر على الامام بدولته، والحمد لله
على سلامي فى سلامته، وصلى الله على سيدنا محمد وعترته“^(٥) .

وكذلك قوله فى كتابه الى كاتب خوارز مشاه :

” كتابى وأنا بين محنة قد أدبرت، ونعمة قد أقبلت، وولى قد ملك، وعدوّ قد هلك ،
والحمد لله الذى آبتلى ثم أبلى فأنعم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين“^(٦) .

(١) راجع رسائل الخوارزمى . (٢) انظر ص ١٢٢ من رسائل بديع الزمان . (٣) رسائل البديع

ص ٣٤٤ (٤) زهر الآداب ج ٤ ص ١٨٠ (٥) رسائل الخوارزمى ص ١٥٢

(٦) رسائل الخوارزمى ص ٢٠١

وهذه الفقرات ليست بداية خالصة بحمد الله والصلاة على نبيه، وإنما هي عبارات أُريدَ بها مراعاة التقاليد الدينية .

أما ختام الرسائل فقد درج أكثرهم في الأغلب على الاكتفاء بعبارة "والسلام" وهي اختصار لكلمة "والسلام عليكم ورحمة الله" التي كانت تختتم بها الرسائل غالباً في القرن الأول .

٥ — ونعيد ما قلناه من أن هذه الخواص التي أمتازت بها الكتابة في القرن الرابع لم تنشأ في يوم وليلة حتى صارت من سمات هذا القرن، وإنما هي صفات نثرية تطورت على مدى القرون التي سبقت هذا القرن، ثم ظهرت فيه ظهوراً قوياً لأن كتابه أرادوا متعمدين أن تكون لهم شخصية فنية تظهر في تجسيم ما كان أسلافهم يشيرون إليه من أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية ، فالسجع مثلاً لم يخلق في القرن الرابع وإنما هو حلية قديمة الترمها كتاب هذا العصر، وكذلك تضمين الرسائل أبياتاً من الشعر ليس بجديد، فقد وجد منه شيء في خطاب عثمان بن عفان الذي كتبه إلى عليّ يستنجد به ، وفي بعض خطب علي بن أبي طالب أبيات من الشعر وردت لتأييد ما كان يقوله في مدافعة خصومه . وأنا أرتاب في صحة خطاب عثمان ، ولكنه مع ذلك دليل على أنه كان مفهوماً أن تضمين النثر شواهد من الشعر كان من التقاليد التي درج عليها المتقدمون . ومثل هذا يقال في أخذ النثر لبعض أغراض الشعر ، فقد كانت للمتقدمين جولات فنية في النثر لا تقل في طرافة موضوعاتها ورقة حواشيها عن الشعر، ولكن كتاب القرن الرابع ظهوراً في هذه الناحية ظهوراً جعلها من خواصهم من حيث الغرض والأسلوب .

٢ - السجع والازدواج

١ - بينا في فصل سلف أطوار السجع في النثر الفني ، ورأى القارئ كيف كان كتاب القرن الأول والثاني والثالث ينتقلون بين لونين من الصياغة الفنية : هما السجع والازدواج . فلنذكر الآن أن التزام السجع صار من خصائص النثر الفني في القرن الرابع ، وأن كتابه لا يتحررون من السجع إلا إلى فن قريب منه هو الازدواج ، ولم يخرج من كتاب هذا العصر إلى الحرية في الصياغة الفنية إلا عدد قليل .

٢ - وكتاب هذا العصر ينقسمون إلى ثلاث طوائف : طائفة تلتزم السجع التزاماً مطلقاً ولا تخرج عنه إلا في قليل من الأحيان ، ومن أشهر هذه الطائفة بديع الزمان والحوارزمي^(١) والنعماني والصابي والميكالي وابن عباد وابن دريد وابن نباتة وابن وشمكير ، وطائفة تؤثر الازدواج وتسجع من حين إلى حين ، وعلى رأسهم ابن العميد والتوحيدي والآمدي والرضي والباقلاني والعسكري والحاتمي وابن شهيد . وطائفة تؤثر الحرية في الصياغة الفنية فلا تسجع ولا تزوج إلا قليلاً ، ومن هؤلاء ابن مسكويه والمرزباني وابن فارس والجرجاني والأصفهاني والتنوخي وأحمد بن يوسف المصري .

٣ - والطائفة الأولى لا تترك السجع في جد ولا هزل . وقد رأيت أن أفتح رسائل بديع الزمان وأن أنقل منها شيئاً بدون بحث ولا تخير ، فلما فتح الكتاب على هذه الحال رأيت الكاتب يقول :

” عافاك الله ! مثل الانسان ، في الإحسان ، مثل الأشجار ، في الإثمار ، سبيل من أت بالحسنة ، أن يرفه إلى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدي ، وهما فؤادي

(١) ومع ذلك رأينا للنعماني صفحات في كتاب (ثمار القلوب) تمثل النثر المرسل أجمل تمثيل حتى كدنا نحسبه لرجل آخر غير مؤلف البيمة وسحر البلاغة ، وقد تعذب لغة النعماني وتأسس في ذلك الكتاب فنذكرنا بالمطعم الممتنع من أساليب البيان .

ويدي، أما الفؤاد فيعلق بالوفود، وأما اليد فتولع بالجوهر، ولكن هذا الخلق النفيس، لا يساعده الكيس، وهذا الطبع الكريم، ليس يحميه الغريم، ولا قرابة بين الأدب، والذهب... والأدب لا يمكن سرده في قصعة، ولا صرفه في ثمن سلعة، ولما مع الأدب نادرة، جهدت في هذه الأيام بالطباخ، أن يطبخ لونا من جيمية الشماخ، فلم يفعل، وبالقصا، أن يسمع أدب الكتاب، فلم يقبل، واحتج في البيت، إلى شيء من الزيت، فأنشدت شيئا من شعر الكمي، ألفا ومائتي بيت، فلم يغرب، ولو وقعت أرجوزة العجاج، في توابل السكاج، ماعدمتها عندي، ولكن ليست تقع، فما أصنع؟ فان كنت تحسب اختلافك^(١) إلى، إفضالا على، فراحتي، أن لا تطرق ساحتي، وفرجي، أن لا تجي، والسلام“.

ولأفعل مثل هذا مع الخوارزمي. ولقد فتحت ديوان رسائله عفوا فرأيتة يقول:

”فأما الآن، وقد كان ما كان، فاني أرى للشيخ أن يابس للدهر ثوبا من الصبر ثخيناً، ويولى حوادثه ركا من التماسك ركيناً، وأن تجده الأيام حراً، وأن تصيبه الحوادث إذا ذاقته مرّاً، وأن يداري مع ذلك سلطانه، ويصغر بلسانه إساءته ويكبر إحسانه، ويروض لسانه في الخلوة على شكره، لئلا يجمع به في الخلوة إلى غيره، فانما أيام المحنة موج من تطاطأ له تخطاه، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الإذبار بوجهه صدمته، ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام هزيمته، ومن طالب السلطان بالنصفة طاب عسيرا، ومن حاسب على قليل من العنت لقي كثيراً“^(٢).

٤ — وما يؤيد إثبات هذا الفريق للسجع أن نرى المؤلفين منهم يهتمون بجمع ما يجري من الفقرات المسجوعة مجرى الأمثال، وقد صنع هذا الثعالبي غير مرة في كتابه (يتيمة الدهر) فاختار مثلاً للصاحب بن عباد:

”من نبت لحمه على الحرام، لم يحصده غير الحسام — من لم يهزه يسير الإشارة، لم ينفعه كثير العبارة — الشمس قد تغيب ثم تشرق، والروض قد يذبل ثم يورق — الضمائر الصالح،

(١) رسائل بدیع الزمان ص ٢٢١ و ٢٢٢ وقد كتبت هذه الرقعة إلى «مستريح عاوده مرارا».

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٩٨

أبلغ من الألسنة الفصاح — متن السيف لين ، ولكن حده خشن ، ومتن الحية أئين ، ولكن نابهأ أخشن — عقد المنن في الرقاب ، لا يبلغ إلا بركوب الصعاب — بعض الحلم مذلة ، وبعض الاستقامة مزلة — إنجاز الوعد ، من دلائل المجد ، وأعتراض المطل ، من أمارات البخل ، وتأخير الإسعاف ، من قرائن الإخلاف — بعض الوعد كنقع الشراب ، وبعضه طمع السراب — قد يبلغ الكلام ، حيث تقصر السهام — ربما كان الامساك عن الاطالة ، أبلغ في الابانة والدلالة — إن نفع القول الجميل ، وإلا نفع السيف الصقيل — تلقى الاحسان بالجوود ، تعريض النعم للشرود — قد يقوى الضعيف ، ويصحو التزيف ، ويستقيم المسائد ، ويستيقظ الهاجد — قد يصلى البرئ بالسقيم ، ويؤخذ البر بالاثيم — ما كل طالب حق يعطاه ولا كل شائم مزن يسقاه^(١) .

٥ — وإذا نظرنا في نثر ابن العميد وجدنا الحرية غالبية عليه ، ولكننا نراه يلتزم السجع أحيانا كأن يقول :

”أنا أشكو اليك — جعلني الله فداك! — دهرنا خؤونا غدورا ، وزماننا خدوعا غرورا ، لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع ، ولا يبق فيما يهب إلا ريث ما يرتجع ، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جُرْعا ثم يمتنع ، وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدى لما يسطه وشك أنقباض ، وكنا نلبسه على ما شرط ، وإن حاف منه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستم بقصده وظلمه ، ونعقد من أسباب المسرة أن لا ينجى محذوره مصمما بلا أنفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفا بلا مزاج ، وتعلل بما تختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ... أتلخ^(٢)“ .

٦ — والتوحيدي يمزج بين السجع والمزاوجة — كما كان يفعل الجاحظ الذي آرتضاه إماما في حياته العقلية والأدبية — ولندكر مثالا من نثره الذي يعدّ من أبلغ النماذج في اللغة

(١) البنية ج ٣ ص ٨٧ و ٨٨ (٢) ص ٢٤٤ ج ٢ من زهر الآداب .

العريضة ، وليكن ما كتبه في سبب القبض على أبي الفتح بن العميد فانه من أروع آيات
(١)
البيان .

” لما مات ركن الدولة سنة ٣٦٦ اجتمع ذو الكفائتين أبو الفتح وعلى بن كامه أحد
أمرء الديلم والأعيان ، وتعاهدا وتوثقا وتحالفا وبذل كل واحد منهما الاخلاص لصاحبه
في المودة في السر والعلانية ، والذب والتوقيف ، عند الصغير والكبير ، واجتهدا في الأيمان
الغامسة ، والعقود الموثقة ، ودبرا أمر الجيش ، ووعدا الأولياء وردا النافر ، وربما انخطر
الحاضر ، وعانقا الخطب العاقر ، وباشر كل ذلك أبو الفتح خاصة بجهد من نفسه ، وصرامة
من رأيه ، وجودة فكره ، وصحة نيته ، وتوفيق ربه . فلما ورد مؤيد الدولة الري من أصبهان
وصادف الأمر متسقا ، ولحق كل فتح مرتقا ، بما تقدم من الحزم فيه ، ونفذ من الرأي
الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة لتجند فكرهما ، ودمدم بذكرها ، فقال له أبو الفتح : بها
نظمت لك الملك وحفظت لك الدولة ، وصنت الحریم ، فان خالفت هذه الزيادة هواك
فأسقطها : فاليد الطولى لك . وكان ابن عباد قد ورد وحطبه رطب ، وتورّه بارد ، وأمره
غير نافذ . هذا في الظاهر . فأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوثبه على أبي الفتح بما
يجد السبيل اليه من الطعن والقدح فأحس بذلك ابن العميد فألب الأولياء على ابن عباد حتى كثر
الشغب ، وعظم الخطب ، وهم بقتله ، وقال للأمر : ليس من حق كفايتي في الدولة وقد
انتكث حبلها وقويت أطماع المفسدين فيها ، أن أسام الخسف ، والأحرار لا يصبرون

(١) آثرنا أن نقدم هذا الشاهد على طوله لأنه مثال للبلاغة القوية التي تمثل صفات الرجال وأحقادهم أشع تمثيل ،
وفي هذا الشاهد تظهر براعة الكاتب في سرد الحوادث بطريقة أخاذة تبدو طبيعية ، على حين يلمس الناقد فيها آثار الصنعة
الخفية والتكلف المدفون . وفي احتفال التوحيدى بهذه الصورة دليل على أنه كان يجتهد في مكافئة خصومه عن طريق
سرد التاريخ . فان لم يقين القارى خطر ما في هذا الشاهد من الدسائس فليقرأ ما كتبناه عن التوحيدى والصاحب
في باب « الرسائل والعهود » بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

وأبو الفتح بن العميد هو ابن الكاتب المبدع أبي الفضل بن العميد ، وكان شابا أديبا ناصع البيان ، ولكنه لم يرزق
ما رزق أبوه من أصالة الرأي ورجاحة العقل ، وكان طيشه من ثرما قاسى أبوه من هموم الحياة .

راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٩٩ — ٢٠١

على نظرات الذل ، وغمزات الهوان . فقال له فى الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك متبوع ، فما الذى يبرد فورتك عنه ؟ قال ينصرف الى اصفهان موفورا ، فوالله لو طالبتة منصفاً برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ، ولئن أحس الأولياء ، الذين أصطنعهم بمالى وأفضالى ، بكلامه فى أمرى ، وسعيه فى فساد حالى ليكون هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ، ومن المزن اذا نطف . فقال له : لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزام بيدك . وتلطف ابن عباد فى خلال ذلك لأبى الفتح وقال له : أنا أنظّم منك إليك ، وأتمجّل بك عليك ، وهذا الاستبحاش سهل الزوال : إذا تألفت الشارد من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك ، ولتّى ديوان الانشاء وأستخدمنى فيه ، ورتبني بين يديك ، وأحضرني بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضاك ، فاني صنيعة والدك ، وأتخذني بهذا صنيعة لك ، وليس يجمل أن تكثر على ما بنى ذلك الرئيس فهدمه وتنقضه . ومتى أجبتني الى هذا ، وآمنتني ، فاني أكون خادمك بمحضرتك ، وكاتباً يطلب الزلفة عندك ، فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء للنائرة التى قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك أعدائى علىّ ، فقال فى الجواب : والله لا تجاورني فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك أذن علىّ ، ولا عين عندى ، وليس لك منى رضى الا بالعود الى مكانك من أصفهان ، والسلو عما تحدّث به نفسك . فخرج ابن عباد من الرى ، على صورة قبيحة متنكراً بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والغيلة ، وبلغ اصفهان وألقى عصاه بها ، ونفسه تغلى ، وصدرة يفور ، والخوف شامل ، والوسواس غالب . وهم أبو الفتح بانفاذ من يطالبه ، ويؤذيه ويهينه ، ويعسفه ، فأحس هو بالأمر . فخذثنى أبو النجم قال : عمل على ركوب المفازة الى نيسابور ما ضاق عطنه ، واختلف على نفسه ظنه ، وإنه لفى هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان قد أزمعت الدلوف إليهم وتشاورت فى الإطلال عليهم . فقال الأمير لأبى الفتح : ما رأى وقد نمى إلينا ما تعلم من طمع خراسان فى هذه الدولة ، بعد موت ركن الدولة ؟ فقال أبو الفتح : ليس رأى إلىّ ولا إليك ، ولا الهى علىّ ولا عليك ، ههنا من

يقول لك أنت خليفتي ويقول لى أنت كاتب خليفتي . يدبر هذا بالمال والرجال وهو الملك عضد الدولة أخوك، قال فاكتب إليه وأشعره، وأشع ما قد منبتنا به وأشهره ، وسله يداوى هذا الداء . فكتب أبو الفتح وتلطف فصدر في الجواب ، إن هذا لأمر عجاب ، رجل مات وخلف مالا، وله ابن، فلم يحمل اليه من إرثه شئ زوياً عنه ، واستثنى عنه ، ثم يخاطب بأن يغرم شيئاً آخر من عنده ، قد كسبه بجهده ، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن أستفتى الفقهاء في هذا لم يكن عندهم منه بثة إلا التعجب والاستطراف ، ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث ، والآخر أنه يطالب باخراج ما ليس عليه ، وإن شاء حاكمت كل من سام هذا الى من يرضى به . فلما سمع مؤيد الدولة هذا ، قال لأبي الفتح : ما ترى ؟ قال قد قلت ، وليس لى قول سواه ، هذا الرجل هو الملك والمدبر ، والمال كله ماله ، والبلاد بلادده ، والجند جنده ، والكل له ، والأسم والجلالة عنده ، وليس ههنا إرث قد زوى عنه ، ولا مال آستؤثر به دونه ، والنادرة لا وجه لها في أمر الجند ، وفيما لا تعلق له باللعب . أما خراسان فكانت منذ عشرين سنة تطالبنا بالمال ، وتمددنا بالمسير والحرب ، ونحن مرة نحارب ، ومرة نسالم ، وفي خلال ذلك نفرق المال بعد المال ، على وجوه مختلفة ، فأحسب أن ركن الدولة حى باق ، هل كان له إلا أن يدبر بماله ورجاله ، وذخائره وكنوزه ، أفليس هذا الحكم لازماً ، لمن قام مقامه ، وجلس مجلسه ، وألقى اليه زمام الملك ، وأصدر عنه كل رأى ؟ وهل علينا إلا الخدمة ، والنصرة ، والمناصحة ، وكل ماسهل وصعب كما كان عليه ذلك بالأمس ، من جهة الماضى ، فقال مؤيد الدولة : إن الخطب في هذا أراه يطول ، والكلام يتردد ، والمناظرة تربو ، والفريضة تعول ، والفرصة تفوت ، والعدو يستمكن ، وأرى في الوقت أن نذكر وجهها للمال ، حتى نحتج به ، ثم نستمد في الثانى منه ، ونرضى الجند في الحال ، ونحتزم في الأمر ، ونظهر المرارة والشكيمة ، بالاهتمام والاستعداد ، حتى يطير الخبر الى خراسان ببجدانا واجتهادنا ، وحزنا واعتمادنا ، فيكون ذلك مكسرة لقلوبهم ، وحسماً لأطعامهم ، وباعثاً على تجسيد القول في الصلح ورد الحال الى العادة المؤلوفة . فقال : نسأل الله بركة

هذا الأمر فقد نشأت منه رائحة منكزة، ما أعرف للمال وجهها ، أما أنا فقد خرجت من جميع ما عندى مرة، بما خدمت به الماضى تبرعا حدثان موت أبى ومرة بما طالبنى به سرا وأوعدننى بالعزل والاستخفاف من أجله ، ومرة بما غرمت فى المسير الى العراق ، فى نصرة الدولة ، وهذه وجوه استنفدت قلى وكثرى ، وأتت على ظاهرى وباطنى . وقد غرمت الى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كأتى ممتن على أولياء نعمتى ، وإن سكت كنت كالتهم عند من يتوقع عثرى ، فهذا هذا ، وأما أموال النواحي ، فأحسن أحوالنا فيها أنا نرجئها فى نواحيها مع النفقة الواسعة فى الوظائف والمهمات التى تتوبنا . وأما العامة فلا أحوج الله اليها ، ولا كانت دولة لا تثبت إلا بها ، وبأوساخ أموالها ! فقال مؤيد الدولة ، وكان ملقنا هذا ابن كامه وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون وبيده بلاد وقد جمع هذا كله فى دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا وبدولتنا وهو مخنوم ما فض مذ كان . ما تقول فيه ؟ قال : مالى فيه كلام . فان بنى وبينه عهدا ما أخيس به ، ولو ذهبت نفسى ! فقال : اطلب منه القرض . قال : إنه يستوحش ويراه بابا من الغضاضة ، وقدر القرض لا يبلغ قدر الحاجة . فان الحاجة ماسة الى خمسمائة ألف دينار على التقريب ، ونفسه أنفع لنا ، وأرد علينا ، وأحصن لنا ، والينا من موقع ذلك المال وبعد رأيه وتديره وأسمه وصيته فوق المطلوب منه . قال : وإذ ليس ههنا وجه فليس بأس بأن يطالع الملك بهذا رأى ليكون نتيجه من ثم قال : أنا لا أكتب بهذا فانه غدر . قال : يا هذا فانت كاتبى وصاحب سرى والزام فى جميع أمرى ، ولا سبيل الى إخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله . فان أنت لم تتول حازه وقازه ، وغنه وسمينه ، ومحبوبه ومكروهه ، فمن ؟ قال : يا أيها الأمير ! لا تسمنى الخيانة ! فانى قد أعطيته عهدا يذر الديار بلاقع ، ومع اليوم غد ، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة ! قال : انى لست أسوئك أن تقبض عليه ، أو أن تسيء اليه ، أشرب هذا المعنى الى الملك عضد الدولة وخلالك ذم ! فان رأى الصواب فيه تولاه دونك ، وإن ضرب عنه أعاضنا رأيا غير ما رأيناه ،

(١) حدثان الأمر بالكسر أوله وابتدأه ، والمراد هنا عقب موت أبيه .

وأنت على حالك لا تنزل عنها ولا تبدلها، وإنما الذى يجب عليك فى هذا الوقت بين يديّ كتب حرفين أنه لا وجه لهذا المسال إلا من جهة فلان، ولست أتولى مخاطبته عليه ولا مطالبته به، وفاء له بالعهد، وثباتا على اليمين، وجريا على الواجب، ولا أقل من أن تجيب الى هذا القدر، وليس فيه شيء مما يدل على النكث والخلاف والتبديل. وما زال هذا وشبهه يتردد بينهما حتى أخذ خطه بهذا على أن يصدره الى أخيه عضد الدولة بفارس. فلما حصل هذا الخط عنده وجنّ عليه الليل أحضر ابن كامه وقال له: أما عندك حديث هذا الخنث فيما أشار به على الملك فى بابك وأورده عليه فى حقك وأمرك وإطاعه فى مالك ونفسك وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك؟ فقال ابن كامه هذا القتي يرتفع عن هذا الحديث وأعمل عدوا قد كاده به وبني وبينه مالا منفذا للسحر فيه ولا مساع لظن سيء به. قال ما قلت لك إلا بعد أن حققت ما قلت. ودع هذا كله فى الرجح هذا كتابه الى الملك بما عرفتك وخطه بيده فيه. قال على بن كامه أنا أعرف الخط ولكن هاتوا كتابي فأحضر كتابه الخنثى فشهد أن الخط خطه لخال على بن كامه عن سجيته وخرج من مسكنه وقال ما طننت بعد الأيمان المغلظة التى بيننا أنه يستجير مثل هذا. قال الأمير أيها الرجل إنما أطلعك الملك على سر هذا الغلام فيك لتعرف فساد ضميره لك وما هو عليه من هنات أخر وآفات هى أكبر فإنه هو الذى حرك من بخراسان وكاتب صاحب جرجان وألقى الى أخينا بهمدان — يعنى نخر الدولة — أخبرنا وهو عين لبختيار ههنا. وقد اعتقد أنه يعمل فى تحصيل هذه البلاد ويكون وزيرا بالعراق فقد ذاق من بغداد مالا يخرج من ضرره، إلا بزع نفسه، وكان أبو نصر المجوسى قد قدم من عند الملك عضد الدولة وهو يقتل الجبل ويبرم، ويهاب مرة ويقدم، وكان الحديث قد يئّ بليل وآهّم به قبل وقته بزمان، فقال على بن كامه: فما رأى الآن؟ قال: لا أرى أمثلا من طاعة الملك فى القبض عليه، وقد كنا على ذلك قادرين، ولكن كرهنا أن يظنّ بنا أننا هجمنا على ناصحنا، ومرهب نعمتنا، ونائىء دولتنا، فهدنا عنك العذر، وأوصحنّا لك الأمر. قال: فانا أكفيكموه!

ثم قبض عليه وكان منه ما كان، وأستدعى ابن عباد من أصفهان، وولى الوزارة ودبرها برأى وثيق، وجد رتيق .

٧ — وعند تأمل هذه الرسالة نجد التوحيدى يمضى على الفطرة فى الإنشاء، ثم يسجع ويوازن من سطر الى سطر حين يطيب له ذلك . والى القارئ ما ورد فى هذه الرسالة من الأسجاع .

”ردا النافر، وربكا الخطر الحاضر، وعانقا الخطب العاقر“ .

”صادف الأمر متسقا، ولحق كل فتق مرتقا“ .

”كلامك مسموع، ورضاك متبوع“ .

”ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف، ومن المزن اذا نطف“ .

”والله لا تجاورنى فى حضرة السرير، وبحضرة التدبير، وخلوة الأمير“ .

”ليس الرأى الى ولا إليك، ولا ألهم على ولا عليك“ .

”لست أسومك أن تقبض عليه، أو أن تسئ إليه“ .

”ذاق من بغداد مالا يخرج من ضرسه، إلا بنزع نفسه“ .

”ولى الوزارة ودبرها برأى وثيق، وجد رتيق“ .

وما وقع فى هذه الرسالة من الموازنة واضح يدركه القارئ بأيسر مراجعة .

٨ — والشريف الرضى يسلك هذا المسلك فيسجع قليلا، ويزاوج كثيرا، وهو كاتب

فعل لم تبق لنا من ثره بقايا كافية لتعيين مذهبه فى أساليب الإنشاء . والى القارئ فقرات من مقدمة (نهج البلاغة) الذى دؤن فيه خطب الامام على رضى الله عنه :

«أما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه، ومعازا فى بلائه ... فانى كنت فى عنفوان

السن، وغضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب فى محاسن الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم، حدانى عليه غرض ذكرته فى صدر الكتاب ... وعاق عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الزمان، ومماطلات الأيام ... ومن عجائبه عليه السلام أن كلامه

الوارد في الزهد والمواعظ ، والتذكير والزواج ، اذا تأمله المتأمل ، وفكر فيه المتفكر ، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك في أنه من كلام من لاحظ له في غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، قد قبع في كسر بيت ، أو أقطع في سفح جبل ، لا يسمع الا حسه ، ولا يرى إلا نفسه ، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس في الحرب مصلتا سيفه : فيقط الرقاب ، ويحذل الأبطال ، ويعود به ينطف دما ، ويقطر مهجا ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبذل الأبدال^(١) .

٩ — وأحمد بن عبد ربه لا تظهر آثار قلبه الا في المقدمات القصيرة التي يمهدها لأبواب^(٢) العقد الفريد ، وهو في تلك المقدمات لا يلتزم السجع ، ولكنه لا يكاد يخجل بالأزدواج .

١٠ — أما الطائفة الأخيرة فتكتب في حرية وطلاقة ، وإن لم تخل آثارها النثرية من السجع والمزاوجة ، ومن أشهر هؤلاء أبو الفرج الأصفهاني الذي يترسل في بعض فقرات (الأغاني) ترسلا سهلا مقبولا لا سجع فيه ولا أزدواج ، وابن مسكويه الذي ينطلق الى غرضه انطلاق السهم الى رميته ، والتنونخي الذي رقت على أسلة قلمه لغة القصص المسلسل ، وأحمد بن يوسف المصري الذي دون مشاهداته في لغة لا تعتمد في جمالها الا على دقة المعنى وصفاء الأسلوب .

وأهم كتاب هذا الفريق إخوان الصفاء الذين دونوا ما عُرِف لعهدهم من الآراء والمذاهب في أسلوب طاق خال في جملته من التصنع والزخرف والغموض .

(١) كان الشريف الرضي جديرا بأن يعقد له فصل في هذا الكتاب ، ولكن الشعر غلب عليه ، وضاعت جملة نثره ، ولستنا من المطمئنين الى ما قيل من أن أكثر نهج البلاغة من فيض قلبه ، بالرغم من قدم هذه الشبهة ورواجها في أسواق المستشرقين .

(٢) كلام ابن عبد ربه في النثر قليل ، ولهذا لم نعقد له فصلا في هذا الكتاب ، ولكن تمهيداته لأبواب العقد الفريد جزلة متممة ، وفيها دلالة على أن قلبه كان حرا من قيود المحسنات البديعية ، بالرغم من غلبتها على كتاب المشرق والمغرب لذلك العهد .

ويمكن القول بأن كتاب المذاهب والاراء هم أخلص الناس من أضرار الصنعة بين كتاب القرن الرابع ، لأن حرية الفكر تفرص حرية القول ، والكاتب المفكر في شغل بفكره العميق عن تلمس أسباب الترويق والتهويل .

١١ - ولتبيين القارئ الفرق بين كاتب يتأنق كالنوحيدى وكاتب يترسل كابن مسكويه نعرض نموذجا مما قصه صاحب تجارب الأمم عن أبي نصر كاتب عضد الدولة إذ قال :

”كان بالقصر جماعة من الغلمان تحمل اليهم مشاهراتهم من الخزانة بالحضرة، فلما كان في آخر شهر قد بقي منه ثلاثة أيام استدعاني وقال لي : تقدّم الى الخازن في بيت المال بأن يزّن كذا وكذا ألف درهم ويسلمها الى أبي عبد الله بن سعدان ليحملها الى نقيب الغلمان بالقصر . فقلت : السمع والطاعة . فأنسيت ذلك وسألني عنه بعد أربعة أيام فاعتذرت بالنسيان فخاطبني بأغلظ خطاب، فقلت : أمس كان استهلال الشهر، والساعة تحمل المادة . وما ههنا ما يوجب شغل القلب بهذا الأمر . فقال : المصيبة بما لا تعلم ما في فعلك من الغلط أكثر منها فيما استعملته من التفريط ! ألا تعلم أنا اذا أطلقنا لهؤلاء الغلمان ما لهم وقد بقي في الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم ، واذا آنقضى الشهر وآستهل الآخر حضروا عند عارضهم فاذا كروه فيعدهم ، ثم يحضرونه في اليوم الثاني فيعتذر اليهم ، ثم في الثالث فتبسط في اقتضائه ومطالبته ألسنتهم ، فتضيع المنة ، وتحصل الجراءة ، وتكون الى الخسارة أقرب منا الى الربح؟“ .

والقارئ حين يوازن بين الخبر المطول الذي نقلناه عن التوحيدى وبين هذا الخبر القصير الذي نقلناه عن ابن مسكويه لا يمتري في أن التوحيدى كان خليقا بأن يجعل من هذا الخبر القصير قصة طويلة يبدئ فيها ويعيد .

ولكن هذا اليسر في رواية الخبر لم يمنع ابن مسكويه من التأنق في التعليق عليه اذ قال :
”ولعل عضد الدولة نظر في هذا الوقت الى ما وجد في سيرة المعتمد رضوان الله عليه . وهل ينكر لى هاشم أن يقتدى بأقوالهم ، أو يهتدى بأفعالهم ، وهم الأصديقون أقوالا ،

والأكرمون أفعالا، والأشرفون أنسابا، جبال الحلوم، وبحار العلوم، وأعلام الهدى، وساسة الدين والدنيا، وفرسان الحروب والمحاضر، وأملاك الأسرة والمنابر، الى مكارمهم ينتهى الكرم، وبما أثرهم تتجلى الظلم، المعتصم بينهم المعتصم“ .

ويمكن المضى فى استقراء الفصول الجيدة مما كتب ابن مسكويه فى التاريخ : فهو يسرد الأخبار فى يسر ملموس ثم يعقب عليها بتأق مقبول . وأنظر قوله فى خواص الملوك : ”ومن حسن سياسة الملوك أن يجعلوا خاصتهم كل مهذب الأفعال، محمود الخصال، موصوفا بالخير والفعل، معروفا بالصلاح والعدل، فإن الملك لا تتخالطه العامة ولا أكثر الجند، وإنما يرون خواصه : فإن كانت طرائقهم سديدة، وأفعالهم رشيدة، عظمت هيبة الملك فى نفس من يبعد عنه، لاستقامة طريقة من يقرب منه ... وإذا كان خواص الملك ممن يُقدح فيهم، وتذكر مساوئهم، قلت الهيبة فى النفوس، فأظهر الجند استقلالاً لأمره، ثم صار الاضمار نجوى بينهم، ثم زادت الحيرة فصارت النجوى إعلاناً، فعند ذلك تقع المجاهرة، وترتفع المراقبة، ويتحكمون عليه تحكّم الأمر لا المأمور، والقاهر لا المقهور“^(١) .

١٢ - ومن أحرار الأساليب بين كتاب القرن الرابع إخوان الصفاء - وفى رسائلهم فقرات تمتاز بوضوح المعانى وبسطها، من ذلك قول أحدهم فى وصف الرسول :

”قال النمر للأسد : ما تلك الخصال التى ذكرت ، أيها الملك، أنها يجب أن تكون فى الرسول ؟ بينها لنا . قال الملك : نعم . أولها يحتاج أن يكون رجلاً عاقلاً حسن الأخلاق، بليغ الكلام، فصيح اللسان، جيد البيان، حافظاً لما يسمع، محتزاً فيما يحجب ويقول، مؤدياً للأمانة، حسن العهد، مراعياً للحقوق، كتوماً للسر، قليل الفضول فى الكلام، لا يقول من رأيه شيئاً غير ما قيل له، إلا ما يرى فيه صلاح المرسل، ولا يكون شرهاً، ولا يكون حريصاً إذا رأى كرامة عند المرسل إليه مال إلى جهته وخان مرسله وأستوطن البلد لطيب عيشه هناك، أو كرامة يجدها أو شهوة ينالها هناك، بل يكون ناصحاً لمرسله وإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه، ويبلغ الرسالة ويرجع بسرعة إلى مرسله فيعرفه جميع ما جرى من أوله

الى آخره، ولا يخاف في شيء منه في تبليغ رسالته مخافة من مكروه يناله : فانه ليس على الرسول إلا البلاغ^(١) .

وهذه القطعة تصور المعنى الذى وضعت له تصويرا صحيحا ، ولكن النزعة العامية تغلب عليها ، وينقصها ما يسميه علماء النقد " قوة الأسر " وهذا المأخذ تجده أئى سرتحت بصرك في رسائل اخوان الصفاء ، فهم يقدمون اليك الموضوعات الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية في أسلوب يغلب عليه الانحلال . ولعل السر في ذلك يرجع الى انعدام الشخصية : فالكاتب يعبر عن روح إخوانه وكأنه يلخص آراءهم ، ولو كان يعبر عن نزعاته الذاتية لرجونا أن تكون حماسته أقوى وروحه أظهر ، وعند ذلك تستطيع إغواء عقله ووجدانه فيصطبغ أسلوبه باللون الخيال . وسترى في الجزء الثانى من هذا الكتاب^(٢) كلاما كثيرا عن الأسلوب ، وسترى أنه يتكون من عنصرين : المعنى والروح ، فاذا وجد المعنى وحده كانت الكتابة علمية . وإذا أضيف اليه الروح كانت الكتابة أدبية . وذلك ما نعينه بالنثر الفني .

١٣ — ولك أن تتظر فيما كتب الفارابى أو ما كتب ابن حزم في الفلسفة لترى كيف تكون الكتابة العلمية التى يراد بها تقرير الحقائق ، وشرح المذاهب ، وعرض البراهين ، فهى كتابة خالية من السجع والأزدواج ، الا في أحوال قليلة ، والكاتب مشغول بسرد الحقائق لا تنميق الإنشاء . وهذه الكتابة صالحة كل الصلاحية للموضوعات العلمية والفلسفية ، وليس خلوها من الفن الا دليلا على توفيق الكاتب ، فليس كل موضوع بصالح للزخرف والتهويل . وقد يكون من الخير أن نذكر الفرق بين كاتبين يشتغلان بالموضوعات الفلسفية ويختلفان في الأسلوب ، فيكتب أحدهما كتابة علمية ، ويكتب ثانيهما كتابة أدبية ، كالفارابى والتوحيدى والفرق بين مثل هذين الرجلين أن الأول كان مفكرا قبل أن يكون كاتباً ، والثانى كان كاتباً قبل أن يكون مفكراً : فلما كتب الأول عجز عن التلوين والترتين ، ولما كتب الثانى وثى الفكرة بفنون من التصاوير والتماويل ، والأول أبقى في عالم الفكر ، والثانى أخذ في عالم البيان ، وكلا الاسلوبين ضروري^٣ في حياة العلوم والآداب .

(١)

٣ - تصوير الحياة العقلية

١ - ان الكتاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الفنى فى القرن الرابع قد أهتموا اهتماماً عظيماً بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التى شملت ذلك العصر، فمن الخطأ أن يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير ولم يشتركوا فى الأزمات العقلية والمجادلات الخزبية والدينية فى الحدود التى سمحت بها قوتهم الأدبية. وسيرى القارئ كيف شغلوا بالبلاغة ودراسة الشعر والنثر، فلننظر هنا كيف شغلوا بما كان يحرق لعهدهم من الفتن السياسية والاجتماعية . من ذلك أننا نجد أثر قوة الحزب الشيعى ممثلة فى رسائل بديع الزمان ورسائل الخوارزمى وفى المقتطفات التى جمعها صاحب زهر الآداب عما قيل فى آل البيت مدحا ورتاء مما يدل على أن الشيعة كانت لهم قوة صاخبة فى ذلك العصر . وربما كانت رسالة الخوارزمى التى بعثها الى الشيعة بنيسابور لما قصدهم اليها محمد بن ابراهيم تمثل مأساة الشيعة أصدق تمثيل ، ولننظر كيف يقول :

”وأتم ونحن - أصحابنا الله وإياكم ! - عصابة لم يرض الله لنا ثواب العاجل، فأعد لنا ثواب الآجل، وقسمنا قسمين قسما مات شهيدا، وقسما عاش طريدا، فالحنى يحسد الميت على ما صار اليه، ولا يرغب بنفسه عما جرى اليه، قال أمير المؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام: ”الحنى الى شيعتنا أسرع من الماء الى الحدور“ وهذه مقالة أسست على الحن وولد أهلها فى طالع الهزاهن والفتن، فحياة أهلها نغص، وقلوبهم حشوها غصص، والأيام عليهم متحاملة والدنيا عليهم مائلة، فاذا كنا شيعة أئمتنا فى الفرائض والسنن، ومتبعى آثارهم فى كل قبيح وحسن، فينبغى أن نتبع آثارهم فى الحن : غصبت سيدتنا فاطمة صلوات الله عليها وعلى آله

(١) هذا الفصل القصير لا يغنى عن مراجعة الفصول المطولة فى باب (الآراء والمذاهب) بالجزء الثانى . ويمكن القول بأن الأقرب فى كل عصر صورة للحياة العقلية، غير أن قوة الحيوية فى كتاب القرن الرابع ميزتهم بطابع خاص .

ميراث أبيها — صلوات الله عليه وعلى آله — يوم السقيفة ، وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة ، وسمّ الحسن رضى الله عنه سرا ، وقتل أخوه كرم الله وجهه جهورا ، وصلب زيد بن على بالكاسية ، وقطع رأس زيد بن على فى المعركة ، وقتل ابنه محمد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العباسى ، ومات موسى بن جعفر فى حبس هارون . وسمّ على بن موسى بيد المأمون ، وهزم لإدريس بفتح حتى وقع الى الأندلس فريدا ومات عيسى بن زيد طريدا شريدا “ انخ

وفى هذه الرسالة تفاصيل مزججة عما لقيه العلويون من المحن والمصائب يتلقونها صابرين من خصومهم الذين أصروا على إبادتهم من الوجود ، والذي يقرأها كاملة فى رسائل الخوارزمى يدرك جيدا كيف كانت العصبية للشيعنة قوية حادة فى ذلك العصر ، وكيف تشبعت عقول بعض الكتاب بالمعانى البديعة فى محاوراتهم العقلية ، فن الرائع حقا أن يقتر الخوارزمى أن على بن أبى طالب شتم على المنابر ألف شهر فما شك أنصاره فى وصيته ، وأن النبى محمدا كذب بضع عشرة سنة فما آتهموه فى نبوته ، وأن إبليس عاش مدة تزيد على العدد فلم يرتابوا فى لعنته . وفى رأى أن مثل تلك الرسالة يوضح كثيرا مما غمض من تاريخ الأمم الإسلامية فان الكتاب الذين ينتسبون الى أحزاب يدافعون عنها قد تتاح لهم فرص كثيرة تبصرهم بما خفى من تاريخ من يناصرونهم ومن يعادونهم وإن كانوا متهمين فى مدح من يرضون عنه وذم من يخرجون عليه .

٢ — وبجانب الجدل العنيف الذى كان ينشب كل يوم بين العلويين والعباسيين والعداوات التى كانت تقوى وتشتد كلما أثبتت ذكرى الخلافة والخلفاء ونراها مثلة فى الآثار النثرية فى ذلك العهد ، كانت تقوم فتنة أخرى هى الخلاف بين العرب والعجم وأنقسام الأدباء الى فريقين فريق يفضل العرب وآخر يفضل العجم ، وهى فتنة قديمة شبت منذ كان للوالى وأنصار الفرس أطماع فى دولة الخلافة ، وظلت تزداد وتقوى بفضل الجهود المتصلة التى كان يبذلها الوزراء الفارسيون لكبح النفوذ العربى راجين أن ينتقل إليهم النفوذ الادبى والسياسى والمادى جميعا .

ولبديع الزمان الهمداني رسالة جيدة تمثل تلك المناوشات يميل فيها الى تفضيل العرب على العجم وعلى سائر الأمم إذ كانوا في رأيه أوفى وأشجع وأعلم وأحلم وإن لم يكونوا أحسن ملابس وأنعم مطاعم، ويرى أن فضل العرب لا ينكره إلا وقع وأن الله قدم ملك العجم ليحتج عليها وأخر ملك العرب ليحتج بها، وأن العجم ما ملكت حتى تواصلت، والعرب ما ملكت إلا حين تواصلت، وأن العجم ما تواصلت إلا بأسا من نفوسها، وأن العرب ما تواصلت إلا لما في رؤوسها من النخوة، وهذا طبيعي فلا تكاد السباع تأتلف كما لا تكاد البهائم تختلف. ثم يمضي بديع الزمان فيتحدث عن أعياد الفرس وعبادتهم للنار وهو في ذلك يسخر منهم ويفضل العرب عليهم .

٣ — والذي يهمننا من ذلك كله هو تقرير ما يمثله الثر في ذلك العهد من الشقاق الذي كان يشور بين العرب والفرس من حين إلى حين، أما حجج بديع الزمان في تفضيل العرب على الفرس وحجج خصومه في تفضيل الفرس على العرب فتلك أشياء لا يهمننا تحقيقها الآن . وذلك الخلاف له قيمته في تقدير الحيوية التي كانت يحسها رجال الأدب لذلك العهد فقد كانوا يمثلون طوائفهم ودولهم بذلك الدفاع الذي كان يفيض حياة وقوة، وكان يحتوى أحيانا على مباحث جيدة في بيان الفضائل النفسية والاجتماعية والأدبية التي تمتاز بها الأمم والشعوب .

٤ — وما يتصل بتصوير الحياة العقلية طريقة أولئك الكتاب في شرح حقائق الحياة . ويظهر أنهم كانوا يميلون الى الصراحة المطلقة فيما يختص بنعيم العقل والحواس، فما كانوا يخفون أغراضهم بالرمز والاشارة وإنما كانوا يصرحون بما يحبون الخوض فيه، فكان من ذلك أن أكثروا من الرسائل في تهادى النمر وأن وصفوا مجالس الشراب واللهو وصفا مغريا لا يترك هفوات الشباب ولا جرائم السكر بدون تصوير، وعرضوا للجمال الحسى في الغلمان فوصفوه وصفا جارحا لا تكاد نسيغه اليوم، فقد حذف الشيخ محمد عبده طائفة من مقامات بديع الزمان لما فيها من الصراحة المفرطة في تصوير الشهوات . وللبغاء الشاعر رسالة جميلة

فى وصف ليلة أنس ذكرها الثعالبى فى الجزء الأول من اليتيمة لا يقرؤها القارئ بدون أن يدهش من حب أولئك الكتاب لتصوير لذات الحياة . وما نحب أن نطيل فى بيان هذه النقطة لأن لها مكانا غير هذا . وإنما نقتر أن الذى يراجع آثار الكتاب فى ذلك العصر يقتنع بأنهم لم يكونوا فى الأغلب رجال حشمة ووقار ، وإنما كانوا يفضلون الصراحة العابثة فيما يقولون وما يعملون^(١) .

هـ — ومن أهم الجوانب التى تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر الخصومات العنيفة التى قامت بين الكتاب ، فقد كانت بينهم مناوشات ومجادلات نشأت من أطعامهم فى الحياة المادية ، وكانوا يمثلون غالبا طوائف من الأفكار الدينية والحزبية يقومون فى الدفاع عنها بما تقوم به الجرائد المفترضة فى العصر الحاضر ، وكان لهم من القوة ما كان للشعراء ، فلم يكن بد من أن يتنافس أصحاب الملك فى تقريرهم ، ولم يكن بد كذلك من أن يتنافس هؤلاء فى الاستئثار بالحظوة عند الوزراء والرؤساء والملوك .

(١) وقد رأينا بعد البحث أنهم يؤثرون الأدب الصريح ، فينشدون عن الهنات والعورات فى عبارات صريحة لا تسترها كناية ولا تلويح ، وأكثرهم يمزج الجدل بالهزل فى أساليب مكشوفة ينفر منها الطبع فى بعض الأحيان . ولا نملك هنا إيراد الشواهد ، لأن الذوق فى عصرنا يأبى ذلك . وحسبنا أن نشير الى ما كتبه الثعالبى عن بعض العورات فقد شعر بشئ قليل من الحرج اضطره الى أن يعتذر بهذه الكلمات :

”ذكر الأعضاء لا يؤثم ، وإنما الاتم فى ذكرها عند شتم الأعراض وقول الرفث فى أكل لحوم الناس وقذف المحصنات“ ثمار القلوب ص ١٨٠

وهذه مشكلة قديمة فى اللغة العربية ، فقد تحدث ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار عن هذا الأسلوب فى التعبير ودافع عنه فى حاشية بكلام طويل نكتفى منه بالأسطر الآتية :

”واعلم أنك ان كنت مستغنيا — عن المزاح — بنسكك فان غيرك ممن يترخص فيما شددت فيه محتاج اليه . وان الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيبأ على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توفى المترمين لذهب شطربها ، وشرط مائه ، ولأعرض عنه من أحيينا أن يقبل اليك معك . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملك الخشوع أو التواضع على أن تصمخ ذلك ، وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب“ .

راجع مقدمة عيون الأخبار .

وفي الرسالة التي كتبها بديع الزمان الى أبي نصر بن المرزبان فقرات مرة تمثل ما كان عليه كتاب ذلك العصر من الطمع في المناصب الرسمية ومن ضعف الخلق عند الغنى، ومن النبل عند الفقر، إذ "تسبهم أيام اللدونة، أوقات الخشونة، وأزمات العذوبة، ساعات الصعوبة" وقد كانوا كما قال : " ما آتست دورهم إلا ضاقت صدورهم، ولا أوقدت نارهم إلا أنطفأ نورهم، ولا زاد ما لهم إلا نقص معروفهم، ولا ورمت أكياسهم إلا ورمت أنوفهم، ولا صلحت أحوالهم إلا فسدت أعمالهم، ولا فاض جاههم إلا غاضت مياههم، ولا لانت برودهم إلا صلبت خدودهم^(١)" وفي تلك المناقشات الشديدة، وتلك الدسائس الملعونة، التي كانت تقع بين الكتاب دليل على جشعهم في حب الحياة وفهمهم لها فهما ماديا يتناسب مع تلك العبقريات الفنية التي ظهرت في فقرهم ورسائلهم وأبحاثهم . ومن المؤلم أن تظل قوة الحقد ويقظة الأثرة، وشدة العداوة، في كل عصر، من السمات الغالبة على كبار الكتاب، فمن النادر أن نجد كاتباً كريماً يعطف على زملائه ويجب لهم الخير ويتنى لهم السداد . وقديماً أفزعت هذه الظاهرة عبد الحميد بن يحيى - وكان رجلاً نبيلاً - فكتب وصيته المعروفة يدعو بها الكتاب الى التعاون ونبذ الأحقاد . وفي أيامنا تبعث تلك الشوائب من جديد فلا نجد كاتباً في العالم العربي يحب لأخيه ما يحب لنفسه، بحيث نظن أن شوب العبقرية يوحى بالطمع والاستبداد بالفضل والاستئثار بالجاه .

٦ - وأهم الخصومات التي وقعت بين كتاب ذلك العصر خصومة الهمداني والحوارزمي وخصومة التوحيدى والصاحب بن عباد .

أما خصومة الهمداني والحوارزمي فترجع الى رغبة الهمداني في الظهور وطمعه في الأفراد بال شهرة، وأهم مصدر لهذه الخصومة الرسالة المطولة التي كتبها الهمداني في وصف المناظرة التي قامت بينه وبين الحوارزمي، وهي رسالة مغرضة مملوءة بالتحامل والتهافت، وليس فيها أفكار جديّة تجعل خصومة الرجلين خصومة بين عقليين، إنما هي محاورات لفظية تدل على

غلبة الزخرف وتمكنه من السيطرة على عقول أهل ذلك الجيل . ولو أن الخوارزمي دَوَّن بدوره تلك المناظرة لأيننا وجهين في بسط ذلك الحادث الأدبي وأستطعنا أن نستخلص من مقابلة النصين نفس الرجلين ، ولكن الهمداني تكلم وحده فعرّفنا فقط مبلغ زهوه وكبريائه وطمعه في قهر كاتب كان يومئذ على رأس الكاتبيين .

أما خصومة التوحيدى لأبن عباد فترجع فيما ذكر كتاب التراجم الى سبب ماديّ ، وذلك أن التوحيدى رغب في مال ابن عباد وجاهه فضاق عنه صدر هذا ، فكتب التوحيدى كتابه « مثالب الوزيرين » وهو كتاب جارح كشف به عورات ابن العميد وابن عباد . ثم عاد إليهما بالتجريح أيضا في كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وأسلوبه في الهجاء أسلوب خطر فطيع إذ يختلق من الحوادث والإشارات وينطقهما برسائل ومقطوعات تهوى بهما الى الحضيض . ويعدّ التوحيدى من الوجهة الفنية رجلا خصب الذهن ، غنى اللغة ، وافر المحصول ، قوى الخيال .

وقد تنبه المتأدبون الى تحامل التوحيدى وإسرافه في التعصب ضدّ دينك الوزيرين وشاع الاعتقاد بأن كتابه مثالب الوزيرين كتاب مشثوم لا يملكه أحد إلا انعكست أحواله ، ويذكر ابن خلكان أنه جرب هذا وجربه من يثق به ! فاذا صح هذا الوهم كان التوحيدى قد عوقب على بغيه وظامه وأفترائه : فقد أنطق الصاحب بن عباد بعبارات مخجلة يندى لها وجه القاريّ ويفتر منها الطبع والذوق ، وإن كانت نظمت في أسلوب شائق خلاب .

(١) وفیات الأعيان ج ٢ ص ٤٧٠

٤ - الفكاهات

١ - ليست الفكاهات النثرية مما آبتكره كتاب القرن الرابع ، ولكنها ظهرت فيه ظهورا واضحا ، وصارت فنا واضح الرسوم ، بحيث يمكن الحكم بأن الكتاب كانوا يقصدون إليها قصدا ، ويتنافسون في تزويرها وتجويرها . ومن أشهرهم في هذا الباب بديع الزمان ، فقد كتب في الفكاهة عدّة مقامات ، منها المقامة الشامية التي أنطق فيها « زوج الاثنين » أمام قاضى الشام ، وكانت إحداها تدعى صداقا ، والأخرى تلتمس طلاقا .

القاضى : ما تقول فى الملتمة صداقها^(١) ؟

الزوج : أعز الله القاضى ! صداق عن ما ذا ؟ وأنا غريب من أهل الأسكندرية ، فوالله ما أنقلت لى وتدا ، ولا أشبعت لى كبدا ، ولا عمرت نرابا ، ولا ملأت جرابا .

القاضى : إنك تبطنتها !

الزوج : نعم ! لكنّ فما غير بارد ، ونديا غير ناهد ، وبطنا غير والد ، وعينا غير واجد ، وريقا غير ريق ، وطريقا غير ضيق .

القاضى - للمرأة - : ما تقولين ؟

المرأة : أيد الله القاضى ! هو أكذب من أمه ، وأكثرفى اللؤم من حيله ، وأفسد عشرة من أسفله . والله لقد صادفت من فمه صقرا ، ومن يده صخرا ، ومن صدره سم خياط ، لا يرشح بقيراط ، ولقد زففت إليه بدنا كالديباج ، ووجها كالسراج ، وعينا كعين النعاج ، ونديا كحق العاج ، وبطنا كظهر الهملاج ، وحنّى ضيق الرتاج ، خشن المنهاج ، حار المزاج ، صعب العلاج ، ولكن كيف ألد ، وهو لا ينجز ما وعد ؟ وكيف ينجز ولا يجحد ؟ وهو يجتهد ، لو لم ينجنه الوتد !

(١) حولنا هذه المقامة والتي بعدها الى الحوار بنصرف قليل .

القاضى : أيها الرجل ، قد رمتك بالعنة !

الزوج — وقد مال الى المرأة محتداً — :

ألم أجعل تسعينك ثلاثين ؟ ألم أعرك فى ليلة عشرين ، حتى أسقطت الجنين ؟

المرأة : إشهد أيها القاضى على هذا الإقرار !

الزوج : خدعتنى يا دَفار !

٢ — والمقامة المضيرية من أنضر ما كتب فى الفكاهات ، وأنظر كيف يتحدث عيسى

ابن هشام :

”كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندرى رجل الفصاحة والبلاغة ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار ، فقدمت الينا مضيرة تثنى على الحضارة ؛ وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رضى الله عنه بالإمامة ، فى قصعة يزل عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما أخذت فى الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الاسكندرى يلعنها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطائنها . وظنناه يمزح ، فاذا الأمر بالضد ، وإذا المزح عين الجدد ، وتحنى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلّبت لها الأفواه ، وتلمظت لها الشفاه ؛ وأنقذت لها الأكباد ، ومضى فى أثرها الفؤاد^(١) .

ولكنا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال :

قصتى معها أطول من مصيبتى فيها ، ولو حدثتكم بها لما أمنت المقت ، وإضاعة الوقت .

قلنا هات .

فقال :

دعانى بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب

الرقم ، إلى أن أجبته إليها . وقمنا ، بجمل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفديها بمهجته ؛

ويصف حذقها فى صنعتها ، وتأنقها فى طبخها ، ويقول :

(١) للقارى أن يلاحظ الفكاهة فى هذا الموطن .

يامولاي، لورأيتها، والخرقة في آستها، وهي تدور في الدور، من التنور إلى القدور، ومن القدور إلى التنور، تنفث فيها النار، وتدق بيديها الأبرار، ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل، وأثر في ذلك الخد الصقيل، لرأيت منظرا تحار فيه العيون، وأنا أعشقها لأنها تعشقي، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته، وأن يسعد بظيعته، ولا سيما إذا كانت من طيبته، وهي ابنة عمي لحا طيبتها طيبتي، ومدينتها مدينتي، وعمومتها عمومتي، وأرومتها أرومتي، لكنها أوسع مني خلقا، وأحسن خلقا .

وصدعني بصفات زوجته، حتى آتتهنا إلى محلته، ثم قال :

يا مولاي ! ترى هذه المحلة ؟ هي أشرف محال بغداد، يتنافس الأخيار في نزولها، ويتفاير الكبار على حلولها، ثم لا يسكنها غير التجار، وإنما المرء بالجار، وداري في السطة^(١) من قلايتها، والنقطة من دائرتها .

كم تقدر يامولاي أنفق على كل دار منها ؟

قله تخينا، إن لم تعرفه يقينا .

أبو الفتح : الكثير !

التاجر : يا سبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ؟

(وتنفس الصعداء، وقال سبحان من يعلم الأشياء !)

قال أبو الفتح : وآتتهنا إلى داره .

التاجر : هذه داري . كم تقدر يامولاي أنفقت على هذه الطاقة، أنفقت والله عليها فوق الطاقة، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعها وشكلها، أرأيت بالله مثلها ؟ أنظر إلى دقائق الصنعة فيها، وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وأنظر إلى حذق النجار في صنعة هذا الباب، اتخذ من كم ؟ قل .

(١) السطة : الواسطة، وهي كلمة يكثر ورودها في كلام بديع الزمان في مثل هذا المعنى فقد جاء في المقامة السجستانية ما نصه :

« انتهيت من دائرة البلد إلى نقطتها، ومن قلاية السوق إلى سطها » .

أبو الفتح : ومن أين أعلم ؟

التاجر : هو ساج من قطعة واحدة ، لا ماروض ولا عفن ، اذا حرك أت ، واذا نقر طن . من آتخذه يا سيدى ؟

أبو الفتح : ؟

التاجر : اتخذه أبو اسحق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد فى العمل . لله در ذلك الرجل ! بجياتى لا أستعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة ؟ تراها ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية . وكم فيها ياسيدى من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب ، بالله دورها ، ثم أنقرها وأبصرها ، وبجياتى عليك لا آشتريت الحلق إلا منه ، فليس يبيع إلا الأعلاق .

قال أبو الفتح : ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال :

التاجر : عمرك الله يا دار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ! تأمل بالله معارجها ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى كيف حصلتها ، وكم من حيلة آحتلتها ، حتى عقدتها ؟

أبو الفتح : ؟

التاجر : كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة ، وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلف خلفا أتلغه بين الخمر والزمر ومزقه بين الزرد والقمر ، وأشفت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتنى شراها ، فأتقّطع عليها حسرات ، إلى يوم الممات ، فعمدت إلى أثواب لا تنض تجارتها ، فحملتها اليه ، وعرضتها عليه ، وساوته على أن يشتريها نسيّة ، والمدبر يحب النسيّة عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعل ، وعقدها لى ، ثم تغافلت عن آقتضائه ، حتى كادت حاشية حالة ترق ، فأتيته ، فاقتضيته ، وأستهلنى فأنظرته ، وآلتس غيرها من الثياب فأحضرتة ، وسألته أن يجعل داره

رهينة لدى، ووثيقة في يدي، ففعل، ثم درجته بالمعاملات إلى بيعها فحصلت لي بمجد صاعد، وبمجت مساعد، وقوة ساعد، ورب ساع لقاعد! وأنا بمجد الله محدود في مثل هذه الأحوال، وحسبك يا مولاي أني كنت منذ ليال نائما في البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب، فقلت من الطارق المنتاب، فاذا امرأة معها عقد لآل، في جلد ماء ورقة آل، تعرضه للبيع، فأخذته منها إخذه خلس، وأشتريته بثن بنحس، وسيكون له نفع ظاهر، وربح وافر، بعون الله تعالى.

وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة، والسعادة تنبسط للماء من الحجارة، الله أكبر! لا يثبتك أصدق من نفسك، ولا أقرب من أمسك، اشتريت هذا الحصر في المناداة، وقد أخرج من دور آل الفرات، وقت المصادرات، وزمن الغارات، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطون فلا أجد، والدهر حُبلى ليس يُدرى ما يلد، ثم آتفق أني حضرت باب الطاق، وهذا يعرض في الأسواق، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً. تأمل بالله دقته ولينه وصنعتة ولونه، فهو عظيم القدر، لا يقع مثله الا في الندر، وإن كنت سمعت بأبي عثمان الحصري فهو عمله، له آبن يخلفه الآن في حانوته، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده، فبحياتي لا أشتريت الحصر الا من دكانه، فالماؤن ناصح لآخوانه، لا سيما من تحزم بخوانه.

الى هنا يتصور القارئ ضجر أبي الفتح وهو ينتظر طعام المضيرة.

ولكن التاجر يستأنف الحديث فيقول:

”ونعود الى حديث المضيرة، فقد حان وقت الظهيرة“.

يا غلام! الطست والماء.

أبو الفتح — في سره — الله أكبر! ربما قرب الفرج، وسهل المخرج.

(ويتقدم الغلام بالماء).

التاجر: ترى هذا الغلام؟ إنه رومى الأصل، عراق النشء، تقدم يا غلام وأحسر عن رأسك، وشمر عن ساقك، وأنض عن ذراعك، وأفتز عن أسنانك، وأقبل وأدبر.

(ويفعل الغلام ذلك) .

التاجر: بالله من اشتراه ؟

أبو الفتح : ؟

التاجر: اشتراه والله أبو العباس ، من النخاس ، ضع الطست وهات الابريق .

(يضع الغلام الابريق ويأخذه التاجر فيقلبه ويدير فيه النظر ثم ينقره) .

التاجر: أنظر الى هذا الشبه كأنه جذوة الذهب ، أو قطع الذهب ، شبه الشام وصنع العراق، ليس من خُلقان الأعلاق، قد عرف دور الملوك . تأمل حسنه وسلنى: متى اشتريته؟ أبو الفتح : ؟

التاجر: اشتريته والله عام المجاعة، وآذخرته لهذه الساعة، يا غلام الابريق .

(يقدم الغلام الابريق فيأخذه التاجر ويقلبه) .

التاجر: وأنبوه منه ، لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ، ولا يصلح هذا الدست الا فى هذا البيت ، ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف، أرسل الماء يا غلام، فقد حان وقت الطعام .
(ويصب الغلام الماء فيتأمله التاجر ويقول :) .

التاجر: ترى هذا الماء ؟ ما أصفاه! أزرق كعين السنور، وصاف كقضيبي البلور، استقي من الفرات، وأستعمل بعد البيات، بغاء كلسان الشمعة، فى صفاء الدمعة، وليس الشأن فى السقاء، الشأن فى الإناء، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه ... وهذا المنديل؟ سلنى عن قصته فهو نسج جرجان، وعمل أرجان، وقع الى فاشتريته، فاتخذت بعضه أمرأتى سراويلًا، واتخذت بعضه منديلا، دخل فى سراويلها عشرون ذراعًا، وأنترعت

(١) الشبه ، بالتحريك ، النحاس الأصفر .

من يدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطرز حتى يصنعه كما تراه ، وطززه ثم رددته من السوق ، وخزنه في الصندوق ، وأذخرته للظراف ، من الأضياف ... يا غلام ! الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع ، والطعام ، فقد كثر الكلام .

(ويأتي الغلام بالخوان فيقلبه التاجر وينقره ببنانه ويعجمه بأسنانه) .

التاجر : عمر الله بغداد ! فما أجود متاعها ، وأظرف صناعها ، تأمل بالله هذا الخوان وأنظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله .

أبو الفتح — وقد ضاق صدره — :

هذا الشكل ، فتى الأكل ؟

التاجر : عجل يا غلام ، لكن الخوان قوائمه منه .

أبو الفتح — وقد جاشت نفسه — :

بقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة أين أشتريت أصلا ، وكيف اكرت لها حملا ، وفي أي رحى طحن ، وإجانة عجن ، وفي أي تنور سجر ، وخباز استؤجر ؟ .

وبقي الخطب ، من أين أخطب ، ومتى جلب ، وكيف صفف ، حتى جفف ، وحبس حتى يابس ؟ ؟

وبقي الخباز ووصفه ، والتلميد ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخير وشرحه ، والملح وملاحته .

وبقيت السكرجات من آخذها ، وكيف آتفذه ، ومن آستعملها ، ومن عملها ؟ ؟

والخل كيف آنتقى عنبه ، أو آشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته ، وآستخلص له ، وكيف قيرجه ، وكم يساوى دنه ؟

وبقي البقل كيف آحتيل له حتى قطف ، وفي أي مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ؟

وبقيت المضيرة ، كيف آشترى لحمها ، وفي شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت أوزارها ، حتى أجيد طبخها ، وعقد مرقها ؟ وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم !

(ويقوم أبو الفتح) .

التاجر : أين تريد ؟

أبو الفتح : حاجة أقضيها !

التاجر : يا مولاي ! تريد كنيفا يزرى بربيعى الأمير، وخريفى الوزير، قد جُصَّص أعلاه، وصُهرَجَ أسفله، وسطَّحَ سقفه، وفرشت بالمرمر أرضه، يزل عن حائطه الذر فلا يقلق، ويمشى على أرضه الذباب فيزلق، عليه بابٌ غير أنه من خليطى ساج وعاج، مزدوجين أحسن أزواج، يتنى الضيف أن يأكل فيه .

أبو الفتح : كل أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف فى الحساب !

(ويمضى أبو الفتح فيقول) .

وخرجت نحو الباب، وأسرعت فى الذهاب، وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح (يا أبا الفتح، المضية، يا أبا الفتح) وظن الصبيان المضية لقبا فصاحوا صياحه، ورميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلقى رجل الحجر بعامة، ففاص فى هامته، فأخذت من النعال بما قدم وحدث، ومن الصفع بما طاب وخبث، وحشرت الى الحبس، فأقمت عامين فى ذلك النحس، فنذرت أن لا آكل مضية ما عشت، فهل أنا فى ذا يا آل همدان ظالم ؟

قال عيسى بن هشام :

فقبلنا عذره، ونذرنا نذره، وقلنا : قديما جنت المضية على الأحرار، وقدمت الأراذل على الأخيار !

٣ — ومن الفكاهات التى صيغت صياغة فنية ما كتبه أبو الخطاب الصابى فى صفة حمل أهداه اليه أبو العباس بن سابور :

« وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق، ولفظ موق، وعبارة مصيبة، ومعان غريبة، وآتساع فى البلاغة يعجز عنه عبد الحميد فى كتابته، وسبحان فى خطابته، وتصرف بين جد أمضى من القدر، وهزل أرق من نسيم السحر، وتقلب فى وجوه الخطاب، الجامع

للصواب، إلا أن الفعل قصر عن القول : لأنك ذكرت حملا، جعلته بصفتك حملا، فكان المعيدى الذى تسمع به ولا أن تراه . وحضر فرأيت كبشا متقادما الميلاد، من نتاج قوم عاد، قد أفتته الدهور، وتعاقبت عليه العصور، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح فى سفينته، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته، صغر عن الكبر، ولطف عن القدم، فبانت دماسته، وتقاصرت قامته، وعاد ناحلا ضئيلا، باليا هزيبلا، بادی السقام، عارى العظام، جامعا للعائب، مشتملا على المثالب، يعجب العاقل من حلول الحياة به، وتأتى الحركة فيه، لأنه عظم مجلّد، وصوف ملبد، لا يجيد فوق عظامه سلبا، ولا تلقى يدك منه الا خشبا . لو أبقى الى السبع لأباه، ولو طرح للذئب لعافه وقلاه، قد طال للكلأ فقده، وبعد بالمرعى عهده، لم يرالقت إلا ناء، ولا عرف الشعير إلا حالم . وقد خيرتنى بين أن أقنّيه فيكون فيه غنى الدهر، أو أذبحه فيكون فيه خصب الرجل، فملت إلى آستبقائه لما تعرف من محبتي فى التوفير، ورغبتى للتشيم، وجمعى للولد، وأدخارى للعتد، فلم أجد فيه مستمتعا للبقاء، ولا مدفعا للفناء، لأنه ليس بأنثى فتحمل، ولا بفتى فينسل، ولا بصحيح فيرى، ولا بسليم فيبقى، فملت الى الثانى من رأييك، وعولت على الآخر من قوليك، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأقيمه رطباً مقام قديد الغزال، فأشددنى وقد أضمرت النار، وحدثت الشفار، وشمر الحزار :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال : ما الفائدة لك فى ذبحى، وأنا لم يبق منى إلا نفس خافت، ومقلة إنسانها باهت، لست بذى لحم فأصلح للأكل، لأن الدهر قد أكل لحمى، ولا جلدى يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمى، ولا لى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصّت وبرى !! فان أردتنى للوقود فكف برأبى من نارى، ولن تنفى حرارة جمرى بريح قنارى ! فلم يبق إلا أن تطلبنى بذحل، أو بينى وبينك دم ! فوجدته صادقا فى مقاتله، ناصحا فى مشورته، ولم أعلم من أى أمره أعجب ؟ أمن مماطلته الدهر بالبقاء ؟ أم صبره على الضر واللاء ؟

أم قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم تأهيلك الصديق به مع خسارة قدره ! ويا ليت شعرى إذ كنت وإليك سوق الغنم ، وأمرك ينفذ فى الضأن والمعز ، وكل كبش سمين ، وحمل بطين ، مجلوب إليك ، مقصور عليك ، تقول فيه قولاً فلا ترد ، وتريده فلا تصد ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه ناشر من القبور ، أو قائم عند النفخ فى الصور ، فما كنت مهدياً لو أنك رجل من عرض الكتاب ، كأبى على وأبى الخطاب ، ما كنت تهدى إلا كلباً أجرب ، أو قرداً أحذب ^(١) ! ! .

٤ — وكتب أبو إسحاق الصابى يعزى أبا بكر بن قريعة عن ثور أبيض جلس للغذاء عليه تراقعاً وتحامقاً .

”التعزية على المفقود — أطل الله بقاء القاضى ! — إنما تكون بحسب محله من فاقده ، من غير أن تراعى قيمته ، ولا قدره ، ولا ذاته ، ولا عينه ، إذ كان الغرض منها تبريد الغلة ، وإنقاذ اللوعة ، وتسكين الزفرة ، وتنقيس الكربة ، فرب ولد عاق ، وأخ مشاق ، وذى رحم أصبح لها قاطعاً ، وقريب قوم قد قلدهم عاراً ، وناط بهم شناراً ، فلا لوم فى ترك التعزية عنه ، وأحر بها أن تكون تهينة بالراحة منه . ورب مال صامت غير ناطق ، قد كان صاحبه به مستظهاً ، وله مستثمراً ، فالفجعة به اذا فقد موضوعة موضعها ، والتعزية عنه واقعة منه موقعها . وقد بلغنى أن القاضى أصيب بثور كان له مجلس للغذاء عنه شاكياً ، وأجهش عليه باكياً ، وللندم عليه والها ، وحكى عنه حكايات فى التأين له ، وإقامة الندبة عليه ، وتعدد ما كان من فضائل البقر التى تفرقت فى غيره ، واجتمعت فيه وحده ، فكان كما قال أبو نواس ، فى مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد

لأنه يكره الأرض مغمورة ، ويشيرها مزروعة ، ويدور فى الدواليب ساقياً ، وفى الأرجاء طاحناً ، ويحمل الغلات مستقلاً ، والأثقال مستخفاً ، فلا يؤوده عظيم ، ولا يعجزه جسيم ، ولا يجرى فى الحائط مع شقيقه ، ولا فى الطريق مع رفيقه ، إلا كان جلداً لا يسبق ، ومبرزاً

لا يلحق، وفائتاً لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته. ويشهد الله أن مأساه ساءنى، وما آلمه ألتنى. ولم يحز عندى فى حق وده، استصغار خطب جل عنده فأرمدته وأرقه، وأمرضه وأقلقه، فكتبت هذه الرقعة فأصابها من الجوى فى مصابه هذا بقدر ما أظهر من إكباره إياه، وأبان من إعظامه له، وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر، عن البقر، وأن يفرد هذه البهيمة العجاء بأثرة من الثواب، يضيفها الى المكلفين من ذوى الألباب، فانها وان لم تكن منهم، فقد استحققت أن لا تفرد عنهم، بأن من القاضى سبها، وصار اليه منتسبها، حتى إذا أنجز الله ما وعد به من تمحيص سيئاتهم، وتضعيف حسناتهم، والإيفاء بهم الى الجنة التى رضىها لهم داراً، وجعلها لجماعتهم قراراً، وأورد القاضى أيدى الله تعالى موارد أهل النعيم، مع أهل الصراط المستقيم، جاء وثوره هذا مجنوب معه، مسموح له به! وكما أن الجنة لا يدخلها الخبث، ولا يكون من أهلها الحدث، ولكنه عرق يجرى من أعراضهم، كذلك يجعل الله نور القاضى مركباً من العنبر الشجرى، وماء الورد الجورى، فيكون له جونة عطر ونور! وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر، ولا مستصعب ولا متعذر، إذ كانت قدرته بذلك محيطه، ومواعيده لأمثاله ضامنة، بما أعده الله فى الجنة لعباده الصادقين، وأوليائه الصالحين، من شهوات أنفسهم، وملاذ أعينهم، ماهو منحة من غامر فضله، وفائض كرمه، عاقبة ذلك مع صالح مساعيه، ومحمود شيمه، وقلبي بمعرفة خبره — أدام الله عزه! — فيما أدرعه من شعار الصبر، واحتفظ به من إيثار الأجر، ورفع اليه من السكون لأمر الله تعالى فى الذى طرقه، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه، فليعرفنى القاضى من ذلك ما أكون ضارباً معه بسهم المساعدة عليه، وآخذاً بقسط المشاركة فيه^(١).

٥ — ومن أظرف ما كتب على طريق الهزل والمكاهة "عهد التطفل" وهو عهد أنشأه أبو إسحاق الصابى على لسان طفلى اسمه (عليكا) كان يقع على مائدة معين الدولة بن بويه. والظريف فى هذا العهد أنه يجرى على نمط العهود السلطانية فيبدأ بعرض خصائص المعهود إليه، ويعين المهمات التى كتب من أجلها العهد فيقول:

(١) راجع جواب هذا الخطاب فى زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٣

”هذا ماعهد به عليّ بن أحمد المعروف بعليكا إلى عليّ بن عرس الموصلي، حين استخلفه على إحياء سننه، وأستنابه في حفظ رسومه، من التطفل على أهل مدينة السلام ومايتصل بها من أرباضها وأكفافها، ويجرى معها في سوادها وأطرافها، لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، وراه أهلاله من سدّ مكانه ...“.

ثم يأخذ الأمر بالجد فيقول :

”أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكائلة، والجنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد ... وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ويراقبه في قوله وفعله ...“.

وبعد كلام طويل في هذه النصائح الجدية ينتقل إلى صدر الموضوع فيقول :

”وأمره أن يتأمل أسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه ... فان كثيرا من الناس قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحمله منه على التفة والقرم، فمنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله، ومنهم من شخ على ماله، فدافع عنه بأحتياله، وكل الفريقين مذموم، وجميعهما ملوم، ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان، فهي نتدله إذا كان لها، وتندلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة في المطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب للوارد الواغل، وهي أحق بالحرية، وأخلق بالخيرية ... وقد عرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل، لأنه مشتق من الطّفل وهو وقت المساء، وأوان العشاء، فلما كثر استعمل في صدر النهار وعجزه، وأوله وآخره، كما قيل للشمس والقمر : قمران وأحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر : العمران وأحدهما عمر، وقد سبق إمامنا ^(١) (بيان) رحمة الله عليه إلى هذا الأمر سبقا أوجب له خلود الذكر، فهو باق بقاء الدهر، ومتجدّد في كل عصر، وما نعرف أحدا نال من الدنيا حظا من حظوظها فبقى له منه أثر يخلفه وصيت يستبدّ به

(١) لا نذكر أنا اطلعنا على شيء من نوادر (بيان) هذا، ولكن يظهر أنه كان من الشخصيات المشهورة بالتطفل في الأزمان الماضية .

إلا هو وحده ، فيان رضوان الله عليه يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها ، فمن بلغ الى نهايته ، أوجرى إلى غايته ، سعد بغضارة عيشه في يومه ، ونباهة ذكره في غده . جعلنا الله جميعا من السابقين إلى مداه ، والمذكورين كذكراه ! “ .

ويقول فيمن يجب أن يغشاهم المتطفلون :

” وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزايه ، وتُسمط الأمراء والوزراء بسراياه ، فانه يظفر منها بالنعيمه الباردة ، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة ، وإذا استقراها وجب فيها من طرائف الألوان ، الملذة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغة في الحلقوم ، مالا يجده عند غيرهم ، ولا يناله إلا لديهم ، لحذاق صناعتهم ، وجودة أدواتهم ، وأنزياح عالمهم ، وكثرة ذات بينهم ، والله يوفر من ذلك حظنا ، ويستد نحوه لحظنا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويسهل إليه سبيلنا “ .

ويقول في أخلاق الموسرين من التجار :

” وأمره أن يعرض لموسرى التجار ، ومجهزى الأمصار ، من وكيرة الدار ، والعرس والإعذار ، فانهم يوسعون على نفوسهم في النوائب ، بحسب تضيقهم عليها في الراتب ، وربما صبروا على تطفيل المتطفلين ، وأغضوا على تجهيم الواغلين ، ليتحدثوا بذلك في مجالسهم الرذلة ، ويعتدوه في مكارم أخلاقهم النذلة ، ويقول قائلهم الباجح : اتساع طعامه ، المباهى بكثرة حطامه : إننى كنت أرى الوجوه الغريبة فأطعمها ، والأيدى الممتدة فأماؤها . وهذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسعة ، وإنما أرادت المتى والسمعة ، فاذا آهتدى الأريب الى طرائقها وصل إلى بغيته من إعلان قضيتها ، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها ، إن شاء الله “ .

ويقول فيما يجب على المتطفل من مصادقة المدبرين والطباخين والحمالين :

” وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحمالها ، فانهم يملكون من أصحابهم أزقة مطاعهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم

(١) تأمل الفكاهة في عبارة (رضوان الله عليه) . (٢) الكيرة طعام يعمل ابتهاجا بالفراغ من بناء البيت .

(٣) الاعذار: الختان ، وهو أيضا تقديم طعام الختان . (٤) القهارمة جمع قهرمان وهو رئيس الخدمة المنزلية .

ومعارفهم . وإذا عَدَّت هذه الطائفة أحدا من الناس خيلا من خلائها ، واتخذته أبا من إخوانها ، سعد بمرافقتها ، ووصل إلى محابة من جهاتها ، ومآربه في جنباتها “ .

وأوصاه بعد ذلك أن يتعهد الأسواق ليتوسم من يتيأون لإقامة الولائم . ونصحه بأن ينصب الأرصاد على منازل المغنين والمغنيات ، وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين ، ومحافل الرعاع المقترين ، لأن التطفيل على المعوزين إجحاف ، وفيه إضرار بمروءة المتطفلين !

ثم قال في سياسة الأكل :

”وأمره أن يحذر الخوان إذا وضع ، والطعام إذا نقل ، حتى يعرف بالحدس والتقريب ، والبحث والتنقيب ، عدد الألوان في الكثرة والقلّة ، وأفتنانها في الطيب واللذة ، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها ، وينتهي منها عند آتائها ، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها ، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها ، ومتى أحس بقلّة الطعام ، وعجزه عن الأقوام ، أمعن في أوله إمعان الكيس في سعيه ، الرشيد في أمره ، المائي لبطنه ، من كل حار وبارد ، وخيث وطيب ، فانه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون تطرفا ، ويُقلّون تأدبا ، ويظنون أن المادة تبلغهم في آخر أمرهم ، وتنتهي بهم إلى غاية سعيهم ، فلا يلبثوا أن ينجحوا نجلة الوائب ، وينقلبوا بحسرة الخائب . أعاذنا الله من مثل مقامهم ، وعصمنا من شقاء جدودهم ، إن شاء الله ! “

ثم قال يوصيه بأحتمال الضيم في سبيل البطن :

”وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما ياحقه صفحا ، ويطوى دونه كشفا ، ويستحسن الصمم عن الفحشاء ، وإن أئنه اللكرة في حلقة ، صبر عليها في الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصفقة في راسه ، صبر عليها لموقع أضراره ، وإن لقيه لاق بالهفاء ، قابله باللطف والصفاء ، إذ كان قد ولج الأبواب ، وخالط الأسباب ، وجلس مع الحضور ، وأمتج بالجمهور ، فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره ، ويمر به المستغرب لوجهه ، فإن كان حرا حيا أمسك وتذم ، وإن كان فظا غليظا همهم وتكلم ، وتجنب عند ذلك المخاشنة ، وأستعمل مع المخاطب له الملاينة ، ليبرد غيظه ، ويفل حده ، ويكف غربه ، ويأمن شغبه ، ثم إذا طال

المدى تكررت الألحاظ عليه فعرف، وأنست النفوس به فألف، ونال من المحال المجتمع عليها،
منال من حشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلا من العصاة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طفل على وليمة،
لرجل ذى حال عظيمة، فرمقته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون، فقال له
قائل منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعى الى هذا الحق، فقيل له :
وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : اذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته نفسى . فبحيى
به اليه . فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك أن يصنع طعاما زائداً على عدد
الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين ؟ قال : نعم ! قال : فانما تلك الزيادة لى ولأمثال .
وبها يستظهر لمن جرى مجراى ، وهى رزق لنا أنزله الله على يدك وبك . فقال له : كرامة
ورحبا، وأهلا وقربا ! والله لا جلست إلا مع عليه الناس ووجوه المجلساء، إذ أطرفت
فى قولك، وتفنتت فى فعلك . فليكن ذلك الرجل إماما يقتدى به، إن شاء الله ! “

وأوصاه بعد ذلك أن يكثر من تعاهد الأشياء المقوية للعدة المشهية للطعام “فانها عماد
أمره وقوامه، وبها أنتظامه والتثامه” إذ كانت تعين على حضور دعوتين، وتنهض المتطفل
لأن يأكل فى اليوم الواحد أكلتين !

وختم عهد التطفل بهذا الختام الطريف :

”هذا عهد عليك بن أحمد اليك، وحجته لك وعليك، لم يالك فيه إرشادا وتوقيفا، وتهذيبا
وتثقيفا، وبعثا وتبصيرا، وحقا وتذكيرا، فكن بأوامره مؤتمرا، وبزواجره مزدرجا، ولرسومه
متبعا، وبحفظها مضطلعا، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته“ (١).

٦ — وذوق الفكاهه يغلب على كتاب القرن الرابع، ولكن المهم فى هذا الفصل أن
يعرف القارئ أنهم كانوا يعمدون الى هذا الفن . وعهد التطفل الذى لخصناه يدل أوضح
الدلالة على أن الفكاهه صارت فنا من فنون القول . وكان بودننا أن نكثر من الشواهد، ولكن
هذا الباب فى جملة لا يراد منه الا عرض النواحي البارزة فى الأساليب والأغراض .

٥ - النسيب

١ - النسيب من الموضوعات التي أحترکها الشعر عند العرب . وتلك نزعة طبيعية : فإن النسيب والغزل من أرق ألحان الغناء ، وذلك يفرض أن تؤدَّى تلك المعاني في كلام مقفٍّ موزون . ولم نجد في المجموعات الأدبية مختارات نثرية في النسيب ، لأن مصنفى المجموعات كانوا يفهمون أن الغزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية .

غير أننا نجد في النثر لأقدم عهوده نماذج غزلية ، كالذى وقع في القرآن وصفا للخور والولدان . نحو :

”وَحُورٌ عَيْنٌ ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ“^(١)

ونحو :

”ويطوف عليهم ولدان مخلَّدون ؛ بأكواب وأباريق ، وكأس من معين“ .

وكما جاء في سورة الواقعة :

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً : فَجَلَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ، عُرُبًا أَتْرَابًا﴾^(٢) .

فهذه كلها أوصاف تدخل في باب النسيب . ونسب الى إحدى النساء حديث في وصف الرسول هو أيضا نسيب لأنها تكلمت عن أوصافه الحسية التي تعين أنه إنسان جميل ، ووصف الجمال من ألوان النسيب .

٢ - ثم جاء القصص الغرامى الذى شاع في عصر بنى أمية وأول عصر بنى العباس .

(١) الخور جمع حوراء من الخور بالتحريك وهو أن يشتد بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها . والعين جمع عينا . وهى سوداء العين فى سعة . (٢) العرب جمع عرب وهى العاشقة لزوجها أو المتحبة إليه .

وهو قصص كثير تجدد أطايبه مبعثرة في كتب الأدب هنا وهناك ، وفيه فقرات من الغزل الصرف تؤدي ما يؤديه الشعر من مליح الأوصاف . والى القارئ شاهدا من تلك الأفاصيص :

”خرج أناس من بني حنيفة يتزهون الى جبل لهم ، فبصر قتي منهم يقال له عباس بجارية فهوياها ، وقال لأصحابه : والله لا أنصرف حتى أرسل اليها ، فطلبوا اليه أن يكف وأن ينصرف معهم فأبى ، وأقبل يرأسل الجارية حتى وقع في نفسها ، فأقبل في ليلة إضحيانة^(١) متنكباً قوسه وهى بين إخوتها نائمة ، فأيقظها فقالت : انصرف ، وإلا أيقظت لإخوتي فقتلوك . فقال : والله للموت أيسر مما أنا فيه . ولكن لله على إن أعطينى يدك حتى أضعها على فؤادى أن أنصرف . فأمكنته من يدها ، فوضعها على فؤاده ثم أنصرف . فلما كان من القابلة أتاها وهى فى مثل حالها ، فقالت له مثل مقالتها ، ورد عليها وقال : ان أمكنتنى من شفيتك أرشفهما أنصرفت ثم لا أعود اليك . فأمكنته من شفيتها فرشفهما ثم أنصرف . فوقع فى قلبها منه مثل النار . ونذره الحى فقالوا^(٢) : ما لهذا الفاسق فى هذا الجبل ! انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه . فأرسلت إليه : ان القوم يأتونك الليلة فاحذر . فلما أمسى قعد على مرقب ومعه قوسه وأسهمه . وأصاب الحى من آخر النهار مطراً وندى فلهوا عنه ، فلما كان فى آخر الليل وذهب السحاب وطلع القمر خرجت وهى تريده وقد أصابها الطل فنشرت شعرها وأعجبتا نفسها ومعها جارية من الحى ، فقالت : هل لك فى عباس ؟ فخرجتا تمشيان ، ونظر إليهما وهو على المرقب فظن أنهما ممن يطلبه ، فرمى بسهم فمأخظاً قلب الجارية ففلقه ! وصاحت الأخرى فانهدر من الجبل وإذا هو بالجارية فى دمها فقال :

نعب الغراب بما كره
تبكى وأنت قتلتها
ت ولا إزالة للقدر
فاصبر وإلا فأتحر

(١) اضحيانة : مقمرة .

(٢) نذره الحى : علها به .

”ثم وجأ في أوداجه بمشاقصه^(٢) وجاء الحى فوجدوهما مقتولين^(٣)“ .

ففى هذه الأقصوصة تعابير غزلية لا تخفى على فطنة القارئ .

٣ — ويتصل بهذا الفن ما جاء فى وصف المخطوبات كقولهم أحدهم لصاحبه :

”ابغنى امرأة بيضاء البياض ، سوداء السواد ، طويلة الطول ، قصيرة القصر^(٤)“ .

وقول آخر :

”ابغنى امرأة لا تؤهل داراً ، ولا تؤنس جاراً ، ولا تنفث ناراً^(٥)“ .

وقول أعرابي لابن عمه :

”أطلب لى امرأة بيضاء ، مديدة فرعاء^(٦) ، جعدة تقوم فلا يصيب قميصها منها الا مشاشة^(٧) منكبها ، وحلمتى نديها ، ورانفتى أليتها^(٨) ، ورضاف ركبتيها ، اذا استقلت فرميت تحتها^(٩) بالأترجة العظيمة نفذت من الجانب الآخر“ .

فقال له ابن عمه : وأنى بمثل هذه إلا فى الجنان !^(١٠)

٤ — وأثرت عن الأعراب كلمات غزلية كقول أحدهم فى وصف الهوى :

”هو أعظم ملكا فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النفس ؛ يظهر ويبطن ، ويكتشف ويلطف ، فامتنع عن وصفه اللسان ، وعى عنه البيان ، فهو بين السحر والحقون ، لطيف المسلك والكمون^(١١)“ .

- (١) ونجاً : ضرب . (٢) المشاقص جمع مشقص وهو نصل المهم اذا كان طويلاً غير عريض .
(٣) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ١٣٣ و ٣٤٠ . (٤) يريد : كل شئ . منها أبيض فهو شديد البياض ، وكل شئ . منها أسود فهو شديد السواد . وكذلك الطول والقصر — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥
(٥) لا تجعل دارها أهلة بدخول الناس عليها . (٦) لا تؤنس الجيران بدخولها عليهم .
(٧) أى لا تنم ولا تفرى بين الناس — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ (٨) طويلة .
(٩) الفرعاء : ذات الفرع وهو الشعر . (١٠) جعدة : مجتمعة الخلق . (١١) المشاشة : رموس العظام . (١٢) منى راقحة وهى أسفل الألية الذى يلى الأرض عند القعود . (١٣) الأترجة ثمر شجر من جنس الليمون . (١٤) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ و ٦
(١٥) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٢

وسمع الأصمعيّ امرأة من العرب تصف امرأة وهي تقول :

”بيضاء غضة^(١)، وذماء رخصة^(٢)، قباء طفلة^(٣)، تنظر بعيني شادن ظمآن، وتبسم عن منشور الأخوان، في غب التهنان، بأساريع^(٤) الكشبان، خلقها عميم، وكلامها رخم“.

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال :

”هي زينة الحضور، وباب من أبواب السرور، ولذ كرها في المغيب، والبعد من الرقيب، أشهى إلينا من كل ولد ونسيب، بها عرف فضل الحور العين، وأشتيق بها اليهن يوم الدين“.

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت :

”لا تمتع الهوى بملكه، ولا ملئ بسلطانه ! وقبض الله يده، وأوهن عضده ! فانه جائر لا ينصف في حكم، ولا يقصر في ظلم، ولا يرعوى للذم، ولا ينقاد لحق، ولا يبقى على عقل وفهم . لو ملك الهوى وأطيع لرد الأمور على أديارها، والدنيا على أعقابها“.

وقال أعرابي :

”دخلت بغداد فرأيت فيها عيوناً دججاً^(٥)، وحواجب زجاً^(٦)، يسحب الثياب، ويسلبن الأبواب“.

وقال رجل من فزارة لرجل من بني عذرة : تعدون موتكم في الحب مزية، وإنما ذلك من ضعف البنية، وعجز الروية .

فقال العذري : أما أنكم لو رأيتم المحاجر البلج^(٧)، ترشق بالأعين الدجج، فوقها الحواجب الزج، وتحتمها المباسم الفلج^(٨)، والشفاه السمر، تفر عن الثنايا الغر، كأنها برد الدر، لجعلتموها اللات والعزى، ورفضتم الاسلام وراء ظهوركم“.

(١) غضة : بضـة . (٢) وذماء : جسمها ريان . (٣) رخصة : لينة .

(٤) الأساريع جمع أسروع وهو نوع من دود الرمل تشبه به الأنامل . (٥) الدجج جمع دجج . من الدجج

بالتحريك وهو سواء العين مع سعتها . (٦) زج جم أزج من الزجج بالتحريك وهو دقة الحاجبين في طول .

(٧) البلج جمع أبلج وهو الأبيض . (٨) الفلج جمع أفلاج من الفلج بالتحريك وهو تباعد ما بين الأسنان .

وذكر أعرابي نساء فقال :

”ظعائن في سوافهن طول، غير قبيحات العطول^(١)، اذا مشين أسبلن الذبول، وإن ركن
أثقلن الجمول“ .

ووصف آخر نساء فقال :

”يتلثمن على السباك^(٢)، ويتشحن على النيازك^(٣)، ويترن على العوانك^(٤)، ويرتقن على
الأرائك، ويتهادين على الدوانك، ابتسامهن وميض، عن ثغر كالغريض، وهن عن الصبا
صور^(٥)، وعن الحيا حور“ .

٥ — ولم نجد فيما طالعناه رسالة غرامية لأحد كتاب القرن الأول ، أما القرن الثاني
فنجد فيه شواهد، من ذلك ما حدث مخارق المغنى إذ قال :

”لقيني أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم^(٦) قبل نسكه فقال : أنا والله صب بك، ولوع اليك،
مغمور القلب بشكرك، واللسان بذكرك، متشوف الى رؤيتك ومفاوضتك، وقد طالت
الأيام على ما أعد به نفسي من الاجتماع معك، ومن قضاء الوطر منك، فما عندك، أنا الفداء
لك ! أتورني أم أزورك؟ قلت : جعلني الله فداك ! ما يكون عند من هو منك بهذا الموضع،
وفي هذا المحل، الا الانقياد الى أمرك، والسمع والطاعة لك، ولولا أن أسيء الأدب في أمر
بدأت فيه بالفضل لقلت إن كثير ما ابتدأت به من القول يقل عما عندى من الشوق اليك،
والشغف بك، فوجبت لك به المنة على، وأنا بين يديك : فائن عناني الى ما أردت، وقدنى
كيف شئت“ .

وكان أبو العتاهية من المفتونين بغناء مخارق، سمعه يوما يغنى بفعل بيكي، ثم قال :

”يا دواء المجانين ! لقد رقت حتى كدت أن أحسوك^(٦) !“ .

وهذه العبارة جذوة من جذوات التشبيب .

(١) أى أن العطل من الحل لا يغير من حسنهن . (٢) النيازك : جمع نيزك وهو الرمح القصير .

(٣) العوانك : جمع عانك وهو الرمل المعقد . (٤) صور : منحرفات . (٥) هو أبو العتاهية .

(٦) نهاية الأرب ج ٤ ص ٣٣٤

وقال على بن عبيدة الريحاني وقد رأى جارية يهوها :

”لولا البقيا على الضمائر، لبحنا بما تجننه السرائر، لكن نيران الحب نتدارك بالإخفاء،
ولا تعاجل بالإبداء، فإن دوامها مع إغلاق أبواب الكتان، وزوالها في فتح مصارع الاعلان“.

وقال :

”لولا حركات من الابتهاج أجد حسها عند رؤيتك في نفسي لا أعرف لها مثيلا من
مظانها الا مؤانستك لي ، لأبقيت عليك من العناء، وخففت عنك مؤونة اللقاء . لكنني أجد
من الزيادة بك عندي أكثر من قدر راحتك في تأنرك عني، فأضيق عن احتمال الخسران
بالوحدة منك“ .

والكلمة الأولى غزل خالص، والثانية بين الغزل والاخوانيات، ولكنها تفيض بروح
النسيب .

وكان على بن عبيدة رقيق الاحساس يتحول الودّ عنده الى عشق ، وهو صاحب هذه
الحكمة الغالية :

”اجعل أنسك آخر ما تبذل من ودّك ، ومن الأسترسال منك ، حتى تجد له مستحقا .
فان الأنس لباس العِرض، وتحفة الثقة ، وحِباء الأكفاء، وشعار الخاصة، فلا تخلق جدته
الا لمن يعرف قدر ما بذلت له منك“^(١) .

وكتب إسحاق بن ابراهيم الموصلي الى علي بن هشام القائد :

”جعلت فداك ! بغث إلى أبو نصر مولاك بكتاب منك إلى يرتفع عن قدرى ، ويقصر
عنه شكرى، فلولا ما أعرف من معانيه، لظننت أن الرسول غلط بي فيه ، فما لنا ولك
يا أبا عبد الله ، تدعنا حتى اذا نسينا الدنيا وأبغضناها ، ورجونا السلامة من شرها، أفسدت
قلوبنا، وعلقت أنفسنا، فلا أنت تريدنا، ولا أنت تتركنا ! .

وما ذكرته من شوقك الى لولا أنك حلفت عليه لقلت :

يا من شكنا عبثا إلينا شوقه شكوى المحب وليس بالمشتاق
لو كنت مشتاقا إلى تريدنى ما طببت نفسا ساعة بفراقى
وحفظتنى حفظ الخليل خليله ووفيت لى بالعهد والميثاق
هيات قد حدثت أمور بعدنا وشغلت باللذات عن إسحاق

قد تركت، جعلت فذاك، ما كرهت من العتاب فى الشعر وغيره وقلت أبيتا لا أزال
أخرج بها الى ظهر المريد وأستقبل الشمال وأتنسم أرواحكم فيها ثم يكون ما الله أعلم به، وإن
كنت تكرهها تركتها إن شاء الله :

ألا قد أرى أن الشواء قليل وأن ليس يبقى للخليل خليل
وإنى وإن ملئت فى العيش حقبة كذى سفر قد حان منه رحيل
فهل لى الى أن تنظر العين مرة الى آبن هشام فى الحياة سبيل
فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة وفى النفس منه حاجة وغليل

وأما بعد فانى أعلم أنك وإن لم تسأل عن حالى تحب أن تعلمها، وأن تأتيك عنى سلامة
فأنا يوم كتبت اليك سالم البدن، مريض القلب ... أنخ^(١) .

والشعر فى هذه الرسالة أغلب، وفقا للتقاليد الأصلية فى النسب .

وقال أحمد بن يوسف : كتب غلام من ولد أنوشروان ممن كان أحد غلمان الديوان
الى آخر منهم وكان قد علق به وكان شديد الكلف به والمحبة له :

”ليس من قدرى ، أدام الله سعادتك، أن أقول لمثلك جعلت فذاك، لأنى أراك فوق
كل قيمة نضيرة، وثن معجز، ولأن نفسى لا تساوى نفسك، فتقبل فى فديتك على كل
حال، بجعلنى الله فداء ساعة من أيامك ! اعلم أيها السيد العلى المنزلة أنه لو كان لعبدك من
شدة الخطب أمر يقف على حده النعت لأجتهد أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به
زمام قلبك ، وتحنو على الرقة والتحنى أثناء جوانحك، ولكن الذى أصبحت وأمسيت ممتحنًا

به فيك منع من كل بيان، ونزع عن كل لسان . والحب، أيها الملك، لم يشبه قذى ريبة، ولم يختلط به قلب معاب، فلا ينبغي لمن كرم أخلاقه أن يعاف مقاربة صاحبه المدل بحزم نيته . والذي أتمناه أيها المولى اللطيف مجلس أقف فيه أمامك، ثم أبوح بما أضنى جسدي، وفقت كبدي، فان خف ذلك عليك، ورأيت نشاطا من نفسك إليه، كنت كمن فك أسيرا، وأبرأ عيلا، وسلك من الخير سبيلا يتوعم سلوكها على من كان قبله، ويكون بعده، ثم أضاف الى منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر . فأريك أيها السيد المعتمد الإسعاف قبل أن ينذرني الموت فيحول بيني وبين ما خدعت اليه النفس مواصلا برا . إن شاء الله تعالى» .

فأجابه :

”تولى الله ما جرى به لسانك بالمزيد، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة، ولا حافر تشنت، وضمنا وإياك في أوثق حبال الأنس، وأؤكد أسباب الألفة . وقفت على ما خصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك، وأنطوى في ضميرك، من الشغف المقلقل، والهوى المضرع، ولعمري لو كشف لك عن معشار ما عليه مضمر صدرى، لأيقنت أن الذى عندك إذا نسبته الى ما عندى كالمشاش الزائل . ولكك بفضل الإنعام سبقتنا الى كشف ما فى الضمير . وأما طاعنى لك، وذمى إليك، فطاعة العبد المقتنى، الطائع لما يحكم له وعليه مولاه ومالكه . وأنا سائر إليك وقت كذا، فتأهب لذلك بأجهد عافية، وأتم عاقبة، وأسعد نجم جرى بالألفة إن شاء الله تعالى“ .

وهذا، كما يرى القارئ، غزل عفيف يفيض بأرق أنفاس الوجدان .

وفى نسبته الى غلمان من أولاد أنوشروان دليل على أن هذا الفن وصل الى العرب من الفرس، والفرس المستعربون نقلوا الى اللغة العربية فنونا من القول كان يتخرج منها العرب، فهم الذين أذاعوا غزل المذكر فى الشعر، وهم كذلك الذين أذاعوه فى النثر، لأن هذه

العواطف الرقيقة كانت مما يتحاماها العرب فى بداوتهم ، فلما تحضروا أقبلوا على هذه الفنون الناعمة التى سبقهم اليها الفرس واليونان بأزمان طوال .

٦ — وفى القرن الثالث نجد الغزل أخذ يظهر فى النثر ، ونرى الجاحظ يكتب الى إبراهيم بن المدبر^(١) :

« ما ضاء لى نهار ولا دجا ليل ، مذ فارتك ، إلا وجدت الشوق إليك قد حزّ فى كبدى ،
والأسف عليك قد أسقط فى يدى ، والتزاع نحوك قد خان جلدى ، فأنا بين حشا خافقة ،
ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد بليت بما تكابد ، وذكرت وأنا على
فراش الارتماض ، ممنوع من لذة الأغماض ، قول بشار :

إذا هتف القمرى نازغى الهوى بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا وكنا كماء المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بينى زمانا وبينها كما كان بين المسك والعنبر الورد

فأنتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ، ونجوى فى مودتنا اليه ، فى شعره هذا . وذكرت أيضا ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم ، ويمتحنى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويحرجنيه من مرارة نأيهم ، وبعد لقاءهم ، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أوبتك ، وقلت أبيتا تقصر عن صفة وجدى ، ولكنه ما يتضمنه قلبى ، وهى :

نجدى من قطر الدموع ندوب وبالقلب منى مذ نأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا ورجع حنين للفؤاد مذب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمه يخبر عنى أننى لكئيب
كأنى لم أبفع بفرقة صاحب ولا غاب عن عيني سواك حبيب»

(١) راجع أخبار هذه الرسالة فى باقوت ص ٦٧ و ٦٨ ج ٦

وقد قرئت هذه الرسالة في مجلس ابن المدبر فقال أحد الحاضرين : هذه رقعة عاشق لا رقعة خادم ، ورقعة غائب لا رقعة حاضر ! فضحك ابن المدبر وقال : نحن نتبسط مع أبي عثمان الى ما هو أدق من هذا وألطف .

وقال ابن المعتز : كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة الى قينة فأجابت ، فلما مرت في الطريق وجدت فيه حارسا فرجعت ، فأرسلت اليها أعاتبها فكتبت إلى :

” لم أتخلف عن المسير الى سيدى فى عشية أمس لأرى وجهه المبارك ، وأجيب دعاءه ، إلا لعله قد عرفتها فلانة ، ثم خفت أن يسبق الى قلبه الطاهر أتى قد تخلفت بغير عذر ، فأحببت أن تقرأ عذرى بخطى ، والله ما أقدر على الحركة ، ولا شئ أسرّ إلى من رؤيتك ، والجلوس بين يديك ، وأنت يا مولاي جاهى وسندى ، لا فقدت سندى ! ولك رأيك فى بسط العذر موفقا “ .

وكتبت فى أسفل الكتاب :

أليس من الحرمان حظ سلبته وأحوجنى فيه البلاء الى العذر !
فصبرا فما هذا بأول حادث رمتنى به الأقدار من حيث لا أدرى

فأجابها ابن المعتز :

” كيف أردّ عذر من لا تسلط التهمة عليه ، ولا تهتدى الموجدة اليه ؟ وكيف أعلمه قبول المعاذير ، ولا آمن بعض جواهره الى يسير الى انتهاز فرصة فيما عاد الى الفرطة . فان سلمت من ذلك فمن يحيرنى من توكله على تقديم العذر ، ووقوعه موقع التصديق فى كل وقت ، فتتصل أيام الشغل والعله ، وتنقضى أيام الفراغ والصحة ، فتطول مدة الغيبة ، وتدرس آثار المودة “^(١) .

وكتب آخر الرقعة :

إذا غبت لم تعرف مكانى لذة ولم يلق نفس لهوها وسرورها

وبدلت سمعا واهيا غير ممسك لقول وعينا لا يرانى ضميرها

٧ - وفي القرن الرابع يظهر الغزل في النثر ظهورا رائعا بحيث يمكن مقارنة الرسائل الغرامية بأقوى قصائد التشبيب ، ولا يمكن الأرتياب في قدرة كتاب القرن الرابع على إجادة هذا الفن وتفوقهم فيه وتصرفهم في ضروبه تصرف المبدعين .

وأى حسن فات ابن العميد إذ يقول :

”سألتني عن شغفي وجدى به ، وشغفي حبي له . وزعمت أنى لو شئت لذهبت عنه ، أو لو أردت لأعتضت منه ، زعما لعمر أبيك ليس بمزعم ! كيف أسلو عنه وأنا أراه ، وأنساه وهو لى تجاه ، هو أغلب على ، وأقرب الى ، من أن يرخى لى عنانى ، أو يخلينى وأختيارى ، بعد اختلاطى بملكه ، وأنخرطى فى سلكه ، وبعد أن ناط حبه بقلبي نائط ، وساطه بدمى سائط ، وهو جار مجرى الروح فى الأعضاء ، متنسم تنسم الروح للهواء ، إن ذهبت عنه رجعت اليه ، وإن هربت منه وقعت عليه ، وما أحب السلو عنه مع هنائه ، وما أوتر الخلق منه مع ملاته . هذا على أنه إن أقبل على بهتى لإقباله ، وأن أعرض عنى لم يطرقنى خياله ، يبعد عنى مثاله ، ويقرب من غيرى نواله . ويرد عنى خاسية ، ويثنى يدى خالية ، وقد بسط آفات العيون المقاربة ، وصدق مراعى الظنون الكاذبة . وصله ينذر بصدده ، وقربه يؤذن ببعده ، يدنى عند ما ينزح ، ويأسو مثل ما يجرح ، لحالته أحوال ، وخلته خلال ، وحكمه سجال ، الجسن فى عوارفه ، والجمال من منائحه ، والبهاء من أصوله وصفاته ، والسناء من نعوته وسماته ، اسمه مطابق لمعناه ، وخواه موافق لنجواه“^(١) .

وأرسل قابوس بن شمشير الى بعض أودائه :

”كتبت ، أطل الله بقاء مولاي ، وما فى جسمى جراحة إلا وهى توّد لو كانت يدا تكتبه ، ولسانا يخاطبه ، وعينا تراقبه ، وقرينة تعاتبه ، بنفسى وهى ، وبصيرة وهى ، وعين

عبري، وكبد حري، منازعة الى ما يقرب منه، وتمسكا بما يتصل عنه، ومثابة على أمل هو غايته، وتعلقا بجبل عهد هو نهايته، وخاطري يميل نحوه، ونفسي تأمل دتوه، وترجو وتقول: أتراه، بل لعله وعساه، يرق لنفس قد تصاعد نفسها، ويرحم روحا قد فارقتها روحها ومؤنسها، وكيف بقلبه لو عاين صورة هذه صورتها، وشاهد مهجة هذه جملتها، فليرفق — جعلت فداه! — بمن عاند برحا عظيما، وكابد قرحا أليما، وليرق لكبد مزقها البعاد، وعين أرقها السماد، وأحشاء محرقة بنار الفراق، وأجفان مقروحة بدمعها المهرق، وقلب في أوصابه متقلب، ولب في عذابه معذب، فلو أني أسعدت فأعطيت الرضى، وخيرت فاخترت المنى، لتمتيت أن أتصور صورتك، وأطالع طلعتك، وأمثل لها مثالي لتراه، فأخبرها بكنه حالى ومعناه، لترفق لازالة ما أزله الدهر الى، ولتلتطف لإماطة ما أماطه على، وأشكو بعض ما نابنى من نوائبه، وأطلقنى من أشراكه وجبائله^(١) .

٨ — وأمثال هاتين الرسالتين مما يكثر وجوده فى نثر القرن الرابع، وهو فن وسط بين الغزل والاخوانيات . وهناك نماذج عديدة من الغزل الصريح، كالذى تخيره الثعالبي مما جاء فى رسائل معاصريه وصفا لمحاسن النساء ومحاسن الغلمان . والى القارئ شواهد تعين مناحيهم فى هذا الباب :

— هى روضة الحسن ، وضرة الشمس ، وبدر الأرض .

— هى من وجهها فى صباح شامس ، ومن شعرها فى ليل دامس ، كأنها فلقة قر على برج فضة ، بدر آلم يضيئ تحت نقابها ، وغصن البان يهتز تحت ثيابها .

— ثغرها يجمع الضريب والضرب ، كأنه نثر الدر .

— قد أنبت صدرها ثمر الشباب .

— خرطت لها يد الشباب حقيين من عاج .

— كأنها البدر قرط بالثرى ، ونيط بها عقد من الجوزاء .

- أعلاها كالغصن ميال، وأسفلها كالدهص منال .
- لها عنق كابرقي الجبين، وسرة كدهن العاج .
- نطاقها مجذب، وإزارها مخصب .
- مطلع الشمس من وجهها، ومنبت الدر من فمها، وملقط الورد من خدها، ومنبع السحر من طرفها، ومبادئ الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدمها، ومهيل الرمل من ردفها .
- شادن فاطر طرفه، ساحر لفظه .
- غلام تأخذه العين، ويقبله القلب، وترتاح إليه الروح .
- تكاد القلوب تأكله، والعيون تشربه .
- جرى ماء الشباب في عوده فتمايل كالغصن، وأستوفى ماء الحسن، ولبس دياجة الملاحة .
- كأن البدر قد ركب على أزراره، لا يشبع منه الناظر، ولا يروى منه الخاطر .
- شادن منتقب بالدر، ومكتحل بالسحر .
- ما هو إلا نزهة الأبصار، ومخجل الأقمار، وبدعة الأمصار .
- غمزات طرفه، تخبر عن ظرفه، ومنطقته تنطق عن وصفه .
- تحال الشمس تبرقت غمرته، والليل ناسب أصداعه وطرته .
- الحسن ما فوق أزراره، والطيب ما تحت إزاره .
- شادن يضحك عن الأخوان، ويتنفس عن الريحان .
- له بعينان حشو أجفانهما السحر، كأنه قد أعار الظبي جيده، والغصن قدمه، والراح ريحه، والورد خده .
- الشكل في حركاته، وجميع الحسن بعض صفاته .
- قد ملك أزقة القلوب، وأظهر حجة الذنوب، كأنما وسمه الجمال بنهايته، ولحظه الفلك بعنايته، فصاغه من ليله ونهاره، وحلاه بنجومه وأقماره، ونقشه ببدايع آثاره، ورمقه بنواظر سعوده، وجعله بالكمال أحد جنوده .

- قد صبغ الحياء غلالة وجهه، ونشر لؤلؤ العرق عن ورد خده .
 — له طرة كالغسق، على غرة كالفلق .
 — جاءنا في غلالة تنم على ما يستره، وتحنو مع رقبتها على ما يظهره .
 — وجه بماء الحسن مغسول، وطرف بمرود السحر مكحول .
 — السحر في ألحظه، والشهد في ألفاظه، كأنه خاصم الولدان، ففارق الجنان .
 — اختلس قامة الغصن، ووشح بمطارف الحسن، وحكى الروض غب المزن .
 — الجنة مجتناة من قربه، وماء الجمال يترقق في خده، ومحاسن الربيع بين سحره ونحوه .
 — ماهو إلا خال في خذ الطرف، وطراز على علم الحسن، ووردة في غصن الدهر، ونقش على خاتم الملك، وشمس في فلك اللطف^(١) .

٩ — وأوضح ما يكون النسيب المشور إذا اتصل بأهل الفن، كقول أحد الكتاب في وصف جارية كاتبة :

”كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قامها بعض أناملها، وكأن بنانها سحر مقاتها، وكأن سكينها غنج لحظها، وكأن مقطها قلب عاشقها^(٢)“ .

١٠ — هذا، ولعل القارئ لاحظ أن أكثر ما مر به في هذا الفصل يرجع الى غزل المذكر، وهو كذلك، فقد تحول النسيب في العصر العباسي الى هذا الفن، وقل التشبيب بالنساء أو كاد، وخف خطاب المذكر على ألسن الشعراء، حتى رأينا من يصف محبوبه، وهو يعنى محبوبته، كأن خطاب المذكر أخف في اللغة وأسهل في توجيه الضمائر والإشارات أو كأنه متابعة لما يقع من هذا النوع في اللغة الفارسية .

(١) راجع زهر الآداب ج ٣ ص ١٤٧ — ١٤٩ وسحر البلاغة ص ٢٩

(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٩٣

وقد وضع الراغب الأصفهاني في محاضراته هذا العنوان :

” الاستحياء من المحبوب بظهور الغيب لتذكره “

ثم جاء بشواهد من شعر جميل ، وأشجع ، ومجنون ليلي ، وكلها في المحبوبة لا في المحبوب .^(٢)

ولنذكر أن غزل المذكر في النثر نوع من الثورة على التقاليد الأدبية ، فان أبا هلال يتحدثنا أن صاحب الرياسة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجهه به وحنينه إليه وشهرته في حبه وبكاه من أجله لاستهجن منه ذلك ، ولو قال في ذلك شعرا لكان حسنا . فكأن غزل المذكر في الشعر مستحسن مقبول ، ولكنه في النثر مستهجن مرذول . فكيف يتفق هذا مع ما رأيناه من الغزل المنشور في رسائل ابن العميد؟ الجواب سهل ، وهو أن أبا هلال يقول : ” لو خطب “ ولم يقل ” لو كتب “ ومن الواضح أن من يليق خطبة في الحنين الى معشوق يعد سخيفا ، ولا كذلك من يحن الى محبوبة بأوتار القصيد .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائما موقف المؤرخ ، وليس في مقدورنا أن نحكم ذوق اليوم، ذوق القرن الرابع عشر، في ذوق القرن الرابع ، فكأن عصرنا لا يتغزلون بالنثر، ومنهم

(١) ص ٢٥ ج ٢ (٢) وكتاب العصر الحاضر، على عكس ذلك ، يفزون من خطاب المذكر في الغزل ، ويحذفون الكلم عن مواضعه أحيانا : فقد كتب الدكتور طه حسين فصلا عن شعر الأستاذ عباس العقاد تعرض فيه لتحليل احدى مقطوعاته فقال : « أحسن العقاد وصف صاحبه » مع أن العقاد كان يصف صاحبه لا صاحبه . وكتب الأستاذ الشيخ عبد الله عفيفي فصولا عن شعراء مصر فكان يتفق له كثيرا أن يقول : « وقال في وصف محبوبته » على حين يتحدث الشاعر عن محبوبة لا محبوبته . وهذا وذاك نوع من التجميل المقبول . والذي يهتما هو تقييد هذه الظواهر الأدبية لدلالاتها على تطور التعابير وفقا لتطور الأذواق .

ومما يحسن ذكره بهذه المناسبة أن المستشرقين الذين اهتموا بترجمة بعض القصائد الفارسية والعربية الى الفرنسية ينقلون الخطاب من المذكر الى المؤنث وفقا لتقاليدهم الأدبية فان الكلام عن المعشوق بالتذكير غير مقبول في لغة الفرنسيين ، وقد اتفق لي وأنا أكتب هذا الكتاب بالفرنسية أن أجارى ذلك الذوق فقهرت بعض الضمائر ونقلتها من المذكر الى المؤنث وفقا للتقاليد الفرنسية . والعرف يطغى أحيانا فيأخذ قوة القانون .

(٣) الصناعتين ص ١٠٤

من يلون عواطفه في شعره وفقاً لتقاليد العصر الحاضر فيخاطب المؤنث وهو يريد المذكر، كما كان يتفق لبعض القدماء أن يخاطب المذكر وهو يريد المؤنث . ومؤرخ الأدب تفرض عليه الأمانة العلمية أن يصور الأدب كما كان، لا كما توجب تقاليد عصره أن يكون .

ومما سلف يتبين أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أخطأ حين قرّر في مقدمة كتابه (أوراق الورد) أن العرب لم تؤثر عنهم رسائل الحب ، لتصح له دعوى التفرد بالسبق الى هذا الفن الجميل ، وهو يقف عند ما كُتِب في الشوق الى المحبوبة ، وذلك خطأ من الوجهة التاريخية ، فان أقطاب النثر الفنى وجهوا غزلهم الى المحبوب . وللاستاذ الرافعي أن يطعن في هذا بأسم الأخلاق ، أما نحن فنؤرخ الأدب في حيدة مطلقة، ونسايه أين سار، والأدب لا يفرق بين الخير والشر، ولا يميز بين الجلد والمجون .

٦ - الاخوانيات

١ - هذا الفن لا يحتاج الى تمهيد مطول في بيان أطواره النثرية ، كما صنعنا في النسيب ، فانه فن قديم في اللغة العربية ، وجد في النثر كما وجد في الشعر ، غير أنه في النثر يسمى العتاب .

ومن المؤلفين من يطلق الاخوانيات والعتاب ، بدون تمييز ، على ما يقال شعرا أو نثرا في مناجاة الأصدقاء .

وقدم هذا الفن في اللغة العربية لا يمنع أنه صار في القرن الرابع فنا قويا يخيل إلى القارئ أنه فن جديد ، لكثرة ما جد فيه من الصور والتعابير . وهو في جوهره قريب من الغزل لا يفرق بينهما الا اختلاف ما يردان عنه من أحوال النفس . وقد أفصح عن ذلك التوحيدى إذ قال :

«الصدقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأتزه عن آثار الطبيعة ، ... فأما العلاقة فهي من قبل العشق والمحبة والكلف والشغف والهوى والصبابة... أنخ»^(١) .

٢ - وقد بلغ من ذبوع هذا الفن في القرن الرابع أن عقد له الثعالب فصولا في سحر البلاغة جمع فيها ما تحيره من عبارات الكتاب ، كما آهت في يتيمة الدهر يجمع الفقرات الخاصة بالاخوانيات ، وإلى القارئ شذرات من تلك التعابير الإخوانية :

— مودة سكنت الصدر ، وحلت سواد القلب .

— ودٌ سليم الصفحة ، أملس الجلدة ، مشرق السحنة ، واضح الجبهة .

- مودة أدين بها عن خالصة النفس ، وأودعها واسطة القلب ، وأجمع عليها نواحي الصدر ، وأحرسها من لواحق الدهر .
- قد آتخذنا المودة بيننا ديناً وخليقة ، ورأيناها بين الناس مجازاً فأعدناها حقيقة .
- لا أحول عن عهدك وإن حالت النجوم عن مآزرها ، ولا أزول عن ودك وإن زالت الجبال عن مقارها .
- عهدك سمير فكري ، وودك سمير ذكري .
- صدري وءاء ودك ، ولساني ناشر فضلك ، وضميري وقف على عهدك .
- الحال بيننا أربت على المودة والحرمة ، وأرمت على المشاركة والخلقة ، وعدت في شواجر الرحم واللحمة ، ومزجت الدم بالدم والمهجة بالمهجة .
- محبة لا تتميز معها الأرواح ، إذا ميزت الأشباح ، ومخالصة لا تتباين بها النفوس والمهج ، وإن تباينت الأشخاص والصور .
- نحن كالتفلس الواحد : لا تجزؤ ولا أنقسام ، ولا تميز ولا انفصام .
- لا أعظم حتى مودته حقاً ، ولا أرى بين النفسين فكيف بين المالين فرقا .
- أنت جارٍ مني مجرى أبعاض جسمي ، وأعشار قلبي ، وأنت جزء من نفسي ، وناظم شمل أنسي .
- أنت مني كالعين الناضرة التي تصان عما يقذرها ، واليد الباطشة التي تحفظ مما يدويها .
- هو شقيق روحه ، وعدل حياته ، وشريك دولته ، وقسيم نعمته .
- ما زال مستودع سرى وجهري ، ومشتكى بغي وحرني .
- هو مني بمنزلة الولد ، والعضو من الجسد .
- العشرة رضاء تثبت حرمة ، والمودة لبان تلزم ذمته .
- قد تقلبنا في أعطاف العيش ، بين الوفاق والطيش .

- إخوان تطابقوا فى الآراء ، وآلفوا فى الأهواء ، وتماخوا فى الطعام ، وتراضعوا بالمدام .
- أنا أتهم عليك عيى ، وإن كنت لا أتهم قلبى ، وأرضى لمودتك نيتى ، وإن كنت لا أرضى لها طاقى .
- لا مرحبا بعيش أنتزد به عنك ، ويوم لا أكتحل فيه بك .
- وددت أن أضرب بحضرتك أطناب عمرى ، وأنفق على خدمتك أيام دهرى .
- لا أزال أحن إليك ، وأحنو عليك . باليت قلبى يترأى لك فتقرأ فيه سطور ودى ، وتقف منها على رأى فىك !
- إنى لآسف على كل يوم فارغ منك ، وكل لحظة لا تؤنسها برؤيتك .
- أنت من لا يسافر ودى إلا إلهى ، ولا يرفرف طير محبى إلا عليه .
- قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلت بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل .
- أنا أتصيح باسمك ، وأتفأل بذكرك ، وأحلم بوجهك ، وأحتلب ضرع الشعر بذكرك .
- ما فى نفسى بقعة أعمر من محلك ، وأنضر من مسكك ، ولا فى قلبى مكان إلا موشى بذكرك ، مطرز بأسمك .
- عهدى لك أكرم العهود ، ووفائى لك وفاء العرق للعود .
- شوق إليك زادى فى سفرى ، وعنادى فى حضرى .
- شوق لو خوف المجرمون بجره ، وتوعد المشركون بجره ، لما عُد صنم ، ولا نقلت فى الضلال قدم .
- فرحة الأديب بالأديب ، كفرحة المحب بالمحبيب ، والعليل بالطبيب .
- حالى بعدك حال عود ذوى بعد آرتوائه ، ونجم هوى بعد اعتلائه .
- ودعت بوداعك العافية ، وفارقت مع فراقك العيشة الراضية .
- يا أسفى على غفلات العيش ، ولحظات الأنس ، إذ ظهائنا أسبحار ، وليالينا نهار ، وشهورنا أيام ، وسنونا قصار .

— سقى الله أياما لو كان دهرى عقدا كانت واسطته ، أو كان عمرى جيدا كانت قـلادته .

— أيام حسنت فكانها أعراس ، وقصرت فكانها أنفاس .

— سلام كأنفاس الأحباب ، وأيام الشباب .

— صرت عندك ممن عا النسيان صورته من صدرك ، وأسمه من صحيفة حفظك .

— أنت سخيٌّ بمالك على من يطالبك ، بخيلٌ بكتابك على من يكتبك ، تتوسع في ألوف ، وتضايق في حروف ^(١) .

٣ — وهذه فقرات قليلة تخيرناها مما تخير الثعالبي لأقطاب عصره ، ويجب أن نشير الى أن هذه الثروة الأدبية ليست ملكا خالصا لكتاب ذلك العهد ، فبعضها أنتهب من ألفاظ الشعراء ، فقول أحد أولئك الكتاب ^(٢) :

” في الأرض مجالٌ إن ضاقت ظلالك ، وفي الناس واصلٌ إن رثت حبالك “

مأخوذ من قول معن بن أوس :

وفي الناس إن رثت حبالك واصلٌ وفي الأرض عن دار القلى متحوّل

ولا يقدح في هذا المأخذ أن يحدثنا الثعالبي في مقدمة سحر البلاغة أنه حل بعضه من نظم أمراء الشعر في زمانه ، فإن ألفاظ الشعراء تواجه القارئ في أكثر ما ترك كتاب القرن الرابع ، وعمل الثعالبي نفسه شاهد على ذلك .

٤ — وأفضل من كتب في الاخوانيات أبو حيان التوحيدي ، وكتابه عن (الصدّاقة والصدّيق) من أنفس ذخائر اللغة العربية ، وقد تكلمنا عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب ^(١) وتعجبنا المحاورات التي أنشأها في تحليل معاني الصدّاقات والعلاقات والمودات . وأسمع كيف يقول :

(١) راجع سحر البلاغة ص ١٢٤ — ١٣٤ . (٢) هو بديع الزمان . (٣) ص ١٤٠ — ١٤٣

”قلت للهائم أبى على : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يطعمنى اذا جعت ، ويكسوفنى اذا عريت ، ويحملنى اذا كللت ، ويغفرلى اذا زللت . فقال له على بن الحسين العلوى : أنت انما تريد انسانا يكفيك مؤونتك ، ويكفلك فى حالك ، كأنك تمنيت ويكلا فسميته صديقا . فما أحرار جوابا .

”وقلت للبنوى — ولقيته بالدسكرة سنة خمس وستين — من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يقبلنى اذا عثرت ، ويقومنى اذا أزوررت ، ويهدينى اذا ضللت ، ويصبر علىّ اذا مللت ، ويكفينى ما لا أعلم وما علمت .

”وسمعت أبا عامر النجدى يقول : الصديق من صدقك عن نفسه لتكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضا عنك لتكون على مثله ، لأنكما تقسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء ، فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، فليس لكما فرحة ولا ترحة إلا وأنما تحتاجان فيهما الى الصدق والانكاش والمساعدة على اجتلات الحظ فى طلب المعاش^(١)“ .

٥ — ويمتاز التوحيدى بتاريخ أكثر ما ينقل من الإخوانيات ، فهو بهذا أفضل من الثعالبى الذى يهمل التاريخ حتى حين يترجم للشعراء والكتاب ، من ذلك ما حدثنا أنه لما استوزر أبو محمد المهلبى سنة أربعين بعد وفاة أبى جعفر الصيمرى كتب الى أبى الفضل العباس بن الحسين وكان بينهما تواصل :

”بسم الله الرحمن الرحيم .

إنى: — حفظك الله وحفظنى لك ، وأمتعك بى وأمتعنى بك — قد بلوتك طول أيام أبى جعفر ، قدس الله روحه ، فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل اليك ، كتوما للسرا اذا استُحفظته ، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه . وقد حدانى هذا كله على أجبتائك وتقريبك ، وإدنائك وتقديمتك . وغالب ظنى أنك تعيننى على ذلك بيمينون نقيبتك ، ومأمون ضريتك . وجعلت دعامة هذا كله أنى أجريك مجرى الصديق

الذى يفاوِض في الخير والشر، ويشارك في الغث والسمين، ويستنام اليه في الشهادة والغيب .
 ولى معك عينان إحداهما مغضوِضة عن كل ما ساء في منك، والأخرى مرفوعة الى كل ما سرنى
 فيك، فان كنت تجد في نفسك على قولى هذا شاهدا صدوقا، وأتارا نطوقا، فعرفنى لأعلم أن
 فراستى لم تغل، وحدى عن طريق الصواب لم يمل . والحالة التى قد جددها الله لى هى
 محروسة لك، ومفرغة عليك، ومستقلة بك، فأشركنى فيها بالصفة الوفاء، أو تفرد بها إن
 شئت بحقيقة الصفاء . فلك الأمانة من حيلولة الاعتقاد، والسكون الى عفو الاجتهاد .
 وثق بأن الذى خطبته منك، إنما أريده لك، فلا يقعن فى وساوس صدرك أن لكاشح لنا
 فيما نحن عليه طريقا لنقص، أولحب لنا فيه بابا الى الزيادة . وأكتف بهذا القدر الذى
 دلتك عليه، وأستقبل أمرى وأمرى بالذى أرشدت الىه . وإياك أن تستشير فيه غير
 نفسك فانك بعرض حسد يكون عقلا لحظك . والله يهديك للحسنى، ويقينى فيك غوائل
 العيون المرضى . والسلام^(١) .

وهذا كلام أنصح من أن يحتاج الى تعليق، واليك ما هو أحلى منه وأعذب :

”قلت لأبن الأبهري : من الصديق ؟ قال : من سلم سره لك، وزين ظاهره بك،
 وبذل ذات يده عند حاجتك، وعف عن ذات يدك عند حاجته، يراك منصفا وإن كنت
 جائرا، ومفضلا وإن كنت ممانعا، رضاه منوط برضاك، وهواه محوط بهواك، إن ضللت
 هداك، وإن ظلمت أرواك، وإن عجزت آذاك^(٢) . يبين عنك بالجسم والرسم، ويشاركك
 فى القسم والوسم“ .

”قلت : أما الوصف فحسن، وأما الموصوف فعزيز“ .

قال :

”إنما عزّ هذا فى زمانك، حين خبثت الأعراق، وفسدت الأخلاق، وأستعمل النفاق
 فى الوفاق، وخيف الهلاك فى الفراق . والله لقد شاهدت لشيخنا ابن طاهر أصدقاء ينطوون

له على مودة أذكى من الورد والعنبر ، اذا لحظهم بطرفه تهلوا ، واذا ناقلهم بلفظه تدلوا ، واذا تحكم عليهم تعجلوا ، واذا أمسك عنهم نولوا وخولوا ، وكانوا يجدون به ما لا يجدون بأهلهم وأولادهم . رحمة الله عليهم ! فلقد كانوا زينة الأرض ، فى كل حال من الشدة والخفض ، وإنى لأذكركم فأجد فى روحى روحا من حديثهم^(١) .

والكلام فى إخوانيات التوحيدى يطول اذا شئنا ، فلنكتف بهذه الكلمات الطيبات .

٦ — ومن الذين أكثروا من الإخوانيات بديع الزمان الهمذاني ، وكلامه فى ذلك

موصول بباب العتاب . كقوله من رسالة ابتدأها بهجاء خصومه الواشين :

”أنا أطال الله بقاء الشيخ الإمام بصير بأبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، أعرفهم بشامة ، وأثبتهم بعلامة ، والعلامة بنى وبينهم أن يفسدوا الصنيع على صانعه ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويرموا فى الحكاية ، سهم الشكاية ، ويحيلوا فى الشكاية ، قدح النكاية ، ثم لا يرون النكاية ، إلا السعاية ، وإن أعوزهم الصدق مالوا الى الكذب ، وإن حلم لهم الجحد عرضوا باللعب . ومن علاماتهم ، قبح مقاماتهم ، وإيراد ظلاماتهم ، مورد النصيحة لكبرائهم . ومن آياتهم كثرة جنائياتهم على الفضلاء ، وشدة حنقهم على من لا يخطرهم بباله ، ولا يحطهم فى حباله ... والذى فاوضنى الفاضى فى معناه ، جلى فى باب ما حكا ، يجمع هذه الخصال وقيادة ، وينظم هذه الأوصاف وزيادة . فلم يبعد الشيخ عن مثله أن يكذب ؟ الطهارة أصله ، أم نجابة نسله ، أم حصانة أهله ، أم رجاحة عقله ، أم ملاحه شكله ، أم غزارة فضله ؟ ! ولم يجوز على ما حكا ؟ ألم يؤوى طريدا ، ويأمنى حصيدا ، ويؤنسنى وحيدا ، ويصطنعنى مبديا ومعيدا ؟ وكان بقدرى أنه اذا رأتى أفعل شنيعا ، أو سمع أنى ألفظ بنكر ، لم يأل فى تحسين أمرى ، فعل الوالد بولده . ونظر المولى لصديعه أقرب“ .

”والآن ، إذ عاد الأمر الى العتاب ، فهلم الى الحساب ، إن كنت أخلت بطرف من طاعنى من جهة فقد نقصنى ما عودنى من وجوه : وذلك أنه كان لا يتجاسر أحد على أن يفرينى عنده ، فقد صار يفرينى ويرئى جلده ، وكان يقوم قناتى ، فقد صار يحبط حسناتى ،

وكان يثمر مالى، فقد صار يبطل آمالى، وكان يحتشد لأمرى أحشاده لأمره، فقد نبذت وراء ظهره، وقد كان يحمل فصار يتحامل، وكان لا يضايقنى فى الألوف والدنانير، فقد ضايقنى فى الشعير، فى حمل بعير... الخ^(١) .

وله من رسالة ثانية :

”ليسوا سواء : فئة بالبواب تسعد بالحضرة، وأخرى بالمغيب تكمد بالحسرة، والله ما للساعة من ولى النعمة ثمن، ولا كالأعتياض من لقائه غبن وغبن، فليت كتاب الإذن شفى مما نجد، وليت هذا أنجزتنا ما تعد! معاذ الله أن أشتاق الى حضرة، لكنى أفتقر اليها أفتقار بلخسد الى الحياة، والحوث الى الفرات، وانما مثل العبد مع الأصحاب، مثل الأرض مع السحاب، أفيسمى القحط شوقا، أم يكون الموت وجدا؟ انى عبد الشيخ وأسمى أحمد، وهمذان المولد، وتغلب المورد، ومضر المحتد^(٢) . وعبد بهذه الصفة غريب نادر، وللصدر والمملوك بغريب الأغلاق ولوع... الخ^(٣) .

٧ — وأبو نصر العتي له رسائل جيدة فى الاخوانيات، نختار منها قوله فى الاستشارة :

” هذا يوم رقت غلائل صحوه، وخنثت شمائل جوه، وضحكت ثغور رياضه، وأطرد زرد الحسن فوق حياضه، وفاحت مجامر الأزهار، وأنتثررت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار، وقام خطباء الأطيّار، فوق منابر الأشجار، ودارت أفلاك الأيذى بشموس الراح، فى بروج الأفق، وقد سيدنا العقل فى مرج المجون، وخلعنا العذار بأيذى الجنون . فمن طالعين هذه البساتين، وأنواع الرياحين، طالع فتيانا كالشياطين، ونصارى يوم الشعانين، فبحق الفتوة التى زان الله بها طبعك، والمروءة التى قصر عليها أصلك وفرعك، إلا تفضلت بالحضور، ونظمت لنا بك عقد السرور^(٤) .

وقد ترق الرسائل الإخوانية حتى تعود وكأنها رسائل حب، كالذى آتفق لأبى الفضل الميكالى وأبى الفضل بن العميد، وقد أشرنا الى بعض ذلك فى ترجمة هذين الكتّابين فى الجزء الثانى فليرجع اليه القارئ هناك .

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) فى هذا رد على من يظنون بديع الزمان فارسي الأصل .

(٣) ص ٩ و ٨ (٤) البيّمة ج ٤ ص ٢٨٤

٧ - الوصف

١ - أظهر ميزة في ذلك العصر هي إجادة الوصف : فقد آهت كتابه آهتاما عظيما بوصف ما رآته أعينهم ، أو جرى في خواطرهم ، أو آرتابت فيه عقولهم . ولم يكن الوصف عندهم مما يأتي عفوا عند المناسبات الطارئة - كما كان الحال في أوائل العصر الاسلامي - لا ، بل تعمدوا استقصاء الموضوعات الوصفية : فأطالوا الحديث عن الأزهار والرياح والنبات ، والليل والنجوم ، والحدول والغدران ، والأنهار والبحار ، والبرك والأحواض^(١) ، والمنازل والقصور ، ومطارج القصف ، ومجالس الشرب ، والنساء والغلمان ، والحواري السود ، والقيان ، وآلات الطرب ، ومحاسن الشباب ، وأهوال المشيب ، والرعد والبرق ، والنسيم والريح ، والمطر والثلج ، والصحو والغيوم ، والبلاغة والشعر والنثر ، والخيال والسيوف ، والنار ، والأفاعي والثعابين ، والطيور والأطعمة ، والفواكه ، والسكاكين ، والكؤوس ، والحواتم ، والحلى والقلائد ، والمحابر والأقلام ، والسفن ، والدواب ، والجيش والأساطيل ، وأيام الصيف والشتاء والربيع .

٢ - وأطنبوا في وصف المعاني الوجدانية - كما أطنبوا في وصف المراتيات - فتكلموا عن أهواء النفوس وتزعاتها ، كوصف الحب والوجد ، والحقد والبغض ، والكرم والنبيل ، وعرضوا لما يقع لأهل المهن وللرؤساء من الهنات والعورات .

(١) البرك جمع بركة ، والبركة صارت كلمة مبتذلة ، ولكنها كانت طريفة ، ومعناها الحوض «الفسقية» وكانت مما تزدان به صحن القصور ، والصحن ابتذل أيضا ، ويمبرون عنه بالقناء - بكسر القاء - وفي لغة التخاطب يقولون (الحوش) وهي لفظة عراقية كما في القاموس . وفي بركة قصر المتوكل يقول البحري :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات اذا لاحت مغانيها

(٢) أكثر كتاب القرن الرابع من وصف المحابر والأوراق والأقلام وذلك يدل على فهمهم لخطر هذه الأدوات وأثرها في نفسية الكاتب . وقد فصلنا هذا الموضوع تفصيلا في البحث الذي نشرناه بالفرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتاب في القرن الثالث . وقد طبع هذا البحث مع (الرسالة العذراء) .

كل ذلك بطريقة مقصودة تدل على أنه كان لهم برنامج خاص لم يعرفه أسلافهم . ولهذا المذهب عيوبه ومزاياه : فعبه أنه حملهم على التكلف والإسراف ، ومزيتة أنه دفعهم الى تنظيم أفكارهم ، وترتيب أغراضهم ، فإن القارئ يرى لهم قوة في تصوير المرئيات والمعنويات لا يجدها إلا قليلا عند من سبقهم من الكتاب . وذلك بفضل هذا الاتجاه الذي جعل من عصرهم (مدرسة وصفية) لا نراها في عصر الخلفاء ، ولا عهد بنى أمية ، ولا أوائل أيام بنى العباس . ولا تنكر أن الكتاب السابقين أجادوا الوصف في كثير من الموضوعات ، ولكننا نقرر أن كتاب القرن الرابع عمدوا الى كل ما يقع عليه الحس ، أو يجرى في الخاطر ، أو يتقده العقل ، فوصفوه وصفا مفصلا مقصودا بطريقة لم يفكر في مثلها المتقدمون .

٣ — ولقد مكنتنا الثعالبى في كتابه (سحر البلاغة) من تعابير كثيرة عن الأوصاف التى عنى بها كتاب ذلك العصر، نثبت شيئا منها في هذا الفصل ليرى القارئ صدق ما نراه من قصد كتاب ذلك العهد الى إجادة الوصف .

من ذلك قولهم في وصف الماء :

”ماء كالزجاج الأزرق — غدير كعين الشمس .

— ماء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة، يسبح في الرضراض، سبح الضماض .

— ماء أزرق كعين السُّنور، صاف كقضب البلور .

— غدير ترقرت فيه دموع السحاب، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب “ .

وقولهم في وصف النثر والنظم :

”نثر كثر الورد، ونظم كنظم العقد — نثر كالسحر أو أدق، ونظم كالماء أو أرق .

— رسالة كالروضة الأنيقة، وقصيدة كالخندرة الرشيقة .

— نثر كما تفتح الزهر، ونظم كما تنفس السحر “ .

وقولهم في وصف سكين :

”سكين كأن القدر سائقها، والأجل سائقها، مرهفة الصدر، مخطفة الخصر، يحول

عليها فرند العتق، ويموج فيها ماء الجوهر، كأن المنية تبرق من حدها، والأجل يلمع من

متنها، ركبت في نصاب أنوس، كأن الحدق نفضت عليه صبغها، وحب القلوب كسته لباسها، أخذ لها حديدتها الناصع بحظ من الروم، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج، فكأنها ليل من تحت نهار، أو فجر أبدى سنا نار، ذات غرار ماض، وذباب قاض .
— سكين أحن من التلاق، وأقطع من الفراق، تفعل فعل الأعداء، وتنفع نفع الأصدقاء^(١) .

٤ — وقد ظلت أمثال هذه التعابير الوصفية منبعاً يستقى منه الكتاب والشعراء الى العصر الحديث . والنقاد في مصر يعجبون بقول حافظ ابراهيم في وصف الصهباء :
نمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس

وقد حسب الدكتور طه حسين أن هذا الخيال من مبتكرات حافظ وناله بشيء من الملام لأن عصير الخدود في زعمه مما تعافه النفوس، فليقل اللوم إن شاء الى كتاب القرن الرابع : لأن هذا الخيال سُرق من هناك !^(٢)

ويعجب النقاد كذلك بقول توفيق البكرى في وصف النساء :

” صدور كالإغريض، أو صدور البزاة البيض ” .

وهي عبارة مأخوذة من قول الثعالبي في وصف آثار السرى الرفاء :

” كأنها أطواق الحمام، وصدور البزاة البيض، وأجنحة الطواويس، وسوالف الغزلان،

ونهود العذارى الحسان، وغمزات الحدق الملاح ” .

وقول توفيق البكرى :

” فم كأنه أخوانة لم تصبوح، ووردة لم تفتح، يضحك عن جمان، ويتنفس عن ريحان، وينطق عن ألحان، وخدود، كآر أخدود، أو تفاح، أو ماء وراح، أو الشفق في الصباح ” .

(٢) ورد هذا المعنى أيضاً في شعر ابن خفاجة الأندلسي وورد

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٤١

قبل ذلك في شعر ديك الجن .

مأخوذ أيضا من كتاب ذلك العهد .

وقوله في وصف كبير أحد الرؤساء :

”كأنه جاء برأس خاقان ، أو أдал دولة بنى مروان ، أو أن الايوان داره ، والهرمين آثاره ، وعصام بن شهبر حاجبه ، وعمرو بن بحر كاتبه ، والحجاج غلامه ، والحماسة كلامه “ .
مأخوذ من قول أحد كتاب القرن الرابع :

”قد أسكرته نعمة الكبير ، وأستغرفته لذة التيه ، كأن كسرى حامل غاشيته ، وقارون وكيل نفقته ، وبلقيس إحدى داياته ، وكأن يوسف لم ينظر إلا بطلعته ، وداود لم ينطق إلا بنغمته ، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يبد إلا من يمينه “ .

وكذلك يمكن رد أكثر التعابير الوصفية التي كان يغرم بها فريق من كتاب الصنعة في العصر الحاضر أمثال المبكى على أدهم الرفيع : محمد المويلحي ومحمد السباعي ومحمد هلال .

٥ — وكأن القرن الرابع يؤدي للقرون التي تليها ما أخذه عن القرون التي سبقتها ، فقد كان كتابه مولعين بحل الشعر القديم : لا يرون معنى بديعا ولا خيالا طريفا إلا أقتبسوه وأضافوه الى ثروتهم النثرية ، يشهد بذلك ما أشار اليه الثعالبي في مقدمة (سحر البلاغة) من أنه ضمن كتابه بعض ألفاظ الجاحظ وآبن المعتز ، وما نجده في مقامات بدیع الزمان من حل بعض الأبيات الجاهلية . وكانوا كذلك يغيرون على شعراء عصرهم فيأخذون معانيهم الجسيمة ، كما فعل صاحب بن عباد حين أغتصب بعض معاني المتنبي وأدخلها في رسائله ، وكذلك فعل الصابي والخوازمي وابن العميد .

٦ — وقد أشاع كتاب القرن الرابع نظرية ” الفن للفن “ فقد عودوا القراء تذوق الكتابة البليغة ، وحببوا إليهم النثر المصنوع ، فأصبح المتأدبون يتأملون مواقع الألفاظ ، وقرار التراكيب ، وصارت فنون البديع من تورية وجناس وطباق أصولا فنية يجحد القارئ لذة ومتعة حين يراها وقعت موقعا حسنا ، وأصاب الغرض الذي وضعت له ولو كان غرضاً لفظيا لا يتوقف عليه تمام المعنى المراد .

وإذا كان كتاب العصر الحاضر لا يستطيعون أكثر آثار ذلك العصر، ويرون بلاغتها بلاغة لفظية، فلا أنهم أسرفوا في مهاجمة النثر الفني الذي غلبت عليه الصنعة، حتى صارت صدورهم تضيق كلما رأوا سجعاً أو جناساً أو طباقاً، أو أى محسن وقع عن قصد، مع أن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجباً لتلك القرائح القوية، وتلك الطبائع السليمة، التي سمحت لأولئك الناس بالتعمق في وصف ما شهدته أعينهم، وأحسسته أنفسهم، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة، بطريقة فنية هي وحدها تتطلب دقة في الفهم، وقوة في العقل، وسلامة في الذوق.

٧ - ومن أظهر الدلائل على ميل كتاب ذلك العصر الى الإغراب في الوصف ما جاء في نعت البلاغة بصور مختلفة على السنة جماعة من أرباب الصناعات^(١) :

(١) لم نعرف واضح هذا الحديث، ولم يزد صاحب زهر الآداب على نسبته الى "بعض من ولد عقائل هذا المنشور، وألف فواصل هذه الشذور" وقد رأيت صورة منه في كتاب اسمه "الفرائد والقلائد" منسوب الى النعالي، ومن المحتمل أن يكون من وضعه، وكتاب (الفرائد والقلائد) طبع على هامش "نثر النظم وحل العقد" للنعالي أيضاً - المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣١٧ هجرية.

وملاحظة كلام أهل المهن والصناعات مما تنبه له الجاحظ قال : قلت لملاح لي - وذلك بعد العصر في رمضان - أنظر، كم بين عين الشمس وبين موضع غروبها من الأرض ؟ قال : "أكثر من مردين ونصف" - والمردى عود يدفع به الملاح السفينة - وقال آخر : وقع علينا الاصوص ، فأول رجل دخل علينا السفينة كان في طول هذا المردى ، وكانت نخذه أغلظ من هذا السكان ، وأسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سواداً من هذا القير . وأردت الصعود مرة في بعض القناطر وشيخ ملاح جالس ، وكان يوم مطر وزلق ، فزلق حمارى فكاد يلقيني بجنبي ، لكنه تماسك فأقمى على عجزه ، فقال الشيخ الملاح : "لا إله إلا الله ! ما أحسن ما جلس على كوثله !" - والكوثل : مؤخر السفينة .

وفي دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة (رقم ٨٢ م أدب) تحدث فيها أربعة ونحسون رجلاً (فشرط كل منهم أنه لا يكلم رفيقه إلا بعبارة تناسب حرفته ، وكلما فرغ من نثره أتبعه بيتين من شعره) وهي رسالة جاءت بعد القرن الرابع بزمان طويل وتظهر عليها النزعة المصرية في الألفاظ والتعابير ، وفيها أحياناً نزعة شامية . ومن طريف ما في هذه الرسالة ما جاء على لسان الجزائر :

"ذبحتموني ذبح، ونحرموني نحر، انتو عندكم معنى أحسن من خروف ! بالله استغفموا أيام البدارى قبل انسلخها عنكم، وانت يا ساقى، يافك النجعة وكبش المراح، ما لنا عنك مراح" .

قال الجوهري : أحسن الكلام نظاما ما ثقبته يد الفكرة ، ونظمته الفطنة ، ووصل جوهر معانيه في سموط^(١) ألفاظه ، فأحتملته نحور الرواة .

وقال العطار : أطيب الكلام ما عجن عنبر ألفاظه بمسك معانيه ، ففاح نسيم نسقه ، وسطعت رائحة عبقه ، فتعلقت به الرواة ، وتعطرت به السراة .

وقال الصائغ : خير الكلام ما أحميته بكير الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر ، وخلصته من خبث الإطناب ، فبرز بروز الإبريز ، في معنى وجيز .

وقال الصيرفي : خير الكلام ما نقدته يد البصيرة ، وجلته عين الروية ، ووزنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظريزيفه ، ولا سماع يهرجه .

وقال الحداد : أحسن الكلام ما نصبت عليه منفخة القريحة ، وأشعلت عليه نار البصيرة ، ثم أخرجته من فحم الإلغام^(٢) ، ورققته بفطيس^(٣) الإفهام .

وقال النجار : خير الكلام ما أحكت نجر معناه بقدوم التقدير ، ونشرته بمنشار التدبير ، فصار بابا لبنت البيان ، وعارضة لسقف اللسان .

وقال النجاد : أحسن الكلام ما لطف رفارف ألفاظه ، وحسنت مطارح معانيه ، فتزهرت في زرابي^(٤) محاسنه عيون الناظرين ، وأصاحت لنمأرق^(٥) بهجته آذان السامعين .

= وما جاء على لسان البرادعي :

”أنا معكم كل ساعة في مذلة ، وكم في بردعني منكم مسألة ، أنا أخيش وأتعب ، وغيرى ينط ويركب ، فما أفجع حشوكلامكم ، قطع الله حزامكم ، وأنت يا ساقى ما بتكرمنا ، اسقينا حتى تلجمنا :

عدمت عليكم ما حييت تجلدى وقد ضاع عمرى فيكو وتصرما

وحل حزام الصبر منى ولم يزل فى فيكو عن شرح حالى ملجما

والرسالة طويلة وفيها شواهد على البراعة فى النكتة اللفظية .

(١) السموط جمع سمط بالكسر وهو الخيط الذى تنظم فيه القلادة . (٢) الإلغام : العجز عن

الافصاح . (٣) الفطيس ، على وزن سكيت ، المطرقة العظيمة . (٤) الزرابى جمع وهى

الأبسطة أو كل ما بسط وانكث عليه ، الواحد زربى بالكسر ، ويضم . والزرابى من الثبت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة .

(٥) النمأرق : الوسائد الصغيرة ، والمفرد نمرق ونمركة بالثبث .

وقال المأخ : ^(١) أبين الكلام ما علقت وذم ألفاظه ببكرة معانيه ، ثم أرسلته في قلب ^(٢) الفطن ، فتحت به سقاء يكشف الشبهات ، وأستنبطت به معنى يروى من ظما المشكلات .
وقال الخياط : ^(٣) البلاغة قميص : ^(٤) بخرائه البيان ، وجنيه المعرفة ، وكماه الوجازة ،
ودخار يصح الإفهام ، ^(٥) ودروزه الحلاوة ، ولابس جسده اللفظ ، وروحه المعنى .

وقال الصباغ : أحسن الكلام ما لم تنض بهجة إيجازه ، ولم تكشف صبغة إعجازه ،
وقد صقلته يد الروية من كمود الإشكال ، فراع كواعب الآداب ، وألف عذارى الألباب .
وقال الحائك : أحسن الكلام ما اتصلت ألفاظه بسدى معانيه ، فخرج مفوفا منيرا ،
وموشى محبرا .

وقال البراز : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه ، وحسن نشر معانيه ، فلم يستعجم
عنك نشر ، ولم يستبهم عليك طى .

وقال الرائض : خير الكلام ما لم يخرج عن حد التخليع ، ^(٦) إلى منزلة التقريب ، ^(٧) إلا بعد
الرياضة ، وكان كالمهر الذى أطمع أول رياضته ، فى تمام ثقافته .

وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام كلامه ، فأناخه فى مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار
له عقلا ، والايجاز له مجالا ، فلم يند عن الآذان ، ولم يشذ عن الأذهان .
وقال الخنث : خير الكلام ما تكسرت أطرافه ، وتشتت أعطافه ، وكان لفظه حلة ،
ومعناه حلية .

(١) من متع الماء نزهه . (٢) الودم بالتحريك السيوريين آذان الدلو . (٣) القلب : البر .
(٤) الجربان بتشديد الباء القميص ، اذا كسرت الجسيم والراء ، فاذا ضممتها فهو الجيب ، كما فى القاموس ، وظاهر
من نص هذا الحديث ان جربان القميص شئ ، غير الجيب . (٥) الدخاريص طيات القميص . (٦) دروز
الثوب طرائق الخيط فيه . ومنه — ولا مؤاخذه ! — قيل للقمل بنات الدروز . وأولاد درزة : هم السفلة ، وهم
أيضا الحاككة والخطاطون . (٧) التخليع نوع من سير الفرس تتخلع فيه الأليتان . (٨) التقريب ضرب
من العدو . أو هو أن يرفع الحصان يديه معا ويضعهما معا .

وقال الخمار : أبلغ الكلام ما طبخته مراحل العلم ، وصفاه راووق الفهم ، وضمته دنان الحكمة ، فتمشت في المفاصل عذوبته ، وفي الأفكار رفته ، وفي العقول حدته .
وقال الفقاع^(١) : خير الكلام ما أزاحت ألفاظه غباوة الشك ، ودفعت رفته فظاظة الجهل ، فطاب حساء فطنته ، وعذب مص جرعتة .

وقال الطبيب : خير الكلام ما اذا باشر دواء بيانه سقم الشبهة أستطلقت طبيعة الغباوة فشفى من سوء التفهم ، وأورث صحة التوهم .
وقال الكحال : كما أن الرمد قذى الأبصار فكذا الشبهة قذى البصائر ، فاحل عين اللكنة بميل البلاغة ، وأجل رمص الغفلة بمرد اليقظة .

٨ — وقد يقال : إن هذا حديث يدل على ذوق واضعه : فلا يكون دليلا على الاتجاهات الوصفية في عصره ، ونجيب بأننا نجد هذا الاتجاه في عدة مواطن من آثار ذلك العصر في الموضوع نفسه وهو وصف البلاغة . مثل :
” البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارها ، ومن المعاني ثمارها .

— فلان يعبت بالكلام ، ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق الى خواطره ، والمعاني تتفاير في الانثيال على أنامله^(٢) .

ونجد مثل هذا الاتجاه في الرسائل التي تبادلها كتاب ذلك العصر ، كقول أبي الفضل الميكالي يخاطب الثعالبي :

”وصل كتاب سيدى ومولاي أبدع الكتب هوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ،
فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة ، ومعانيه در السخاب ، بل أوفى قدرا^(٣)
وقيمة^(٤)“ .

(١) الفقاع : بائع الشراب . (٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٤ (٣) الهوادى جمع هاد ، وهو العنق ، والأعجاز جمع عجز ، والمراد بالهوادى والأعجاز في وصف الكتاب الفوائج والخواتم . (٤) الدربالفتح هو في الأصل اللبن ، ومنه : لله در فلان : تمدح الأصل الذى نبت منه . (٥) السخاب ، على وزن كتاب : فلادة من قرتل . (٦) زهر الآداب ج ١ ص ١١٤

٩ — ولكن أليس لهذا الزخرف قيمة في فهم ذلك العصر؟

بلى . إنه يدلنا على أن أولئك الناس عرفوا لغتهم معرفة جيدة، ووقفوا على أسرارها، وطرائق تعبيرها ، وكان من همهم أن يرتبوا الألفاظ والمعاني والتعابير والأخيلة حتى أستطاع كاتبهم أن يحشر أرباب الصناعات في صعيد واحد ، ثم ينطقهم بأسرار البلاغة ، فيتحدث كل واحد على طريقته وبأسلوبه الذي يختاره في مقتر مهنته ، وموطن عمله . وما نحسب كتاب القرن الأول مثلاً كانوا يفكرون في جمع شتات اللغة لتصبح طوع أفكارهم وأفلامهم على هذا النحو الفضفاض ، وإنما كانوا يكتبون في الوصول الى أغراضهم بالعبارة الواضحة الموجزة التي يفهمها خاصة الناس وعامتهم بلا عناء . أما كتاب هذا القرن فقد أصبحوا في حاجة الى صفوة من المتأدين تقرأ لهم ، وتفهم عنهم ، وتنقل الى الجماهير أسرار ما يكتبون ، لأن لغتهم أصبحت من القوة بحيث لا يفهمها الجمهور بلا دليل ، فليس كل قارئ ولا كل سامع بمسطيع أن يتذوق تشبيه الحظ الجميل بأزهار الربيع ، والألفاظ بقلائد النحور ، والمعاني بالآلى ، ولا أن يدرك كيف نمتى كل جارية أن تكون أذنا تلتقط درر الكلام وجواهره ، أو عينا تجتلى مطالعه ومناظره ، أو لسانا يدرس محاسنه ومفائره .

إذن فالصنعة التي عرف بها كتاب القرن الرابع لها وجهان : وجه جميل يدل على حذقهم وبراعتهم ، ووجه آخر يدل على بعدهم من غاية البيان وهي الوضوح ، فان الإغراق في الصنعة باب من الغموض .

٨ - المبتذل والطريف في التعابير الأدبية

١ - نكتب هذا الفصل رداً على الأستاذ ديمومين الذي يرى أن التعابير الأدبية عند العرب أكثرها مبتذلات^(١) . ولنشر أولاً إلى أنه يذكر كلمة « كليشيه » وقد بحثنا فيما يقابل هذه الكلمة في العربية فوأننا كلمة "مبتذل" تؤدي معناها أفصح أداء . وهي كلمة استعملها علماء البلاغة حين قسموا التشبيه باعتبار الوجه إلى مبتذل وغريب ، وعرفوا المبتذل بأنه ما ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به من غير احتياج إلى شدة نظر لظهور وجهه ، وعرفوا الغريب بأنه ما احتاج في الانتقال من المشبه إلى المشبه به إلى فكر ودقة نظر لخفاء وجهه . وفي هذا التفسير بعد قليل بين كلمة مبتذل وكلمة كليشيه ، لأن الكليشيه هو الصورة التي تقع لأول وضعها جميلة ثم تسخف بكثرة الاستعمال ، فلنقرر إذن أن كلمة "مبتذل" كلمة اصطلاحية أردنا وضعها مقابل كلمة كليشيه لأنها أصلح الألفاظ لأداء المعنى الذي نريده في وصف التعابير التي هجناها طول الاستعمال .

٢ - والحق أنه توجد في اللغة العربية - كسائر اللغات - مبتذلات . فقد يقع التعبير موقع القبول عند ظهوره ثم لا يزال الناس يلحون في استعماله حتى يسمح وييوخ . من ذلك "شخط النوى" و "شط المزار" وهي كلمات كثر ورودها في قصائد الشعراء ورسائل الكتاب حتى آبتذلت ، وكان من ذلك أن لا يهش لها الذوق في قول ابن زيدون :

شخطنا وما بالدار نأى ولا شخط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا

(١) ارسلت إلى المسيو ديمومين - وكنت في باريس وكان في هوتوت Hautot - فصولاً من رسالتي ، فأرسل

إلى كتاباً فيها في ثلاث صفحات عن ملاحظاته ، وجاء فيه قوله عن التعابير في اللغة العربية :

La Littérature arabe est par essence une littérature de jolis clichés.

وقد رددت عليه في الأصل الفرنسي ، وعدت إلى الموضوع في هذه الطبعة بهذا التفصيل .

وكلمة "عَبَلُ الشوى" يحدها القارئ في أكثر ما جاء في وصف الخيل بحيث تصح إفاضتها إلى المبتذلات . وعبارة "أنشبت المنية أظفارها" استجدها الناس في قول الهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تيممة لا تنفع

ثم عادت مبتذلة بكثرة الاستعمال بحيث يتحاماها الشعراء والكتاب ، ومثلها عبارة "استشعر الندم" وعبارة "حذوك النعل بالنعل" مع أن العبارة الثانية كانت مستجادة جدا في قول عمر بن أبي ربيعة :

قلما تلاقينا عرفت الذي بها كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

وقد وقعت مرة على لسان خطيب من خطباء الثورة المصرية فقابله السامعون بالسخرية والصفير^(١) . وعبارة "بكرت تلومك" كثر ورودها في الشعر الجاهلي والأموي حتى ابتذلت وتناساها الشعراء . وكلمة "نؤوم الضحى" كانت من أجل ما توصف به المرأة، وهي اليوم من سقط المتاع . وكان القدماء يستجيدون قول امرئ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك لاسحل

والأساريع دواب ظهورها ملساء تكون في الرمل أو في الحشيش وتشبه بها أنامل الحسان وكان هذا التشبيه مستملا لأول ظهوره ثم أخذ يثقل بكثرة الاستعمال حتى كاد يضاف إلى القبيح المرذول في قول أبي تمام :

بسطت إليك بنانة أسروعا تصف الفراق ومقابلة ينبوعا

ومن المبتذلات أيضا قولهم "نسج على منواله" وقولهم "لا يفرق بين الغث والسمين" وهناك مبتذلات ماتت موتا لا نشور بعده كقولهم : "كثير الرماد" و "جبان الكلب" و "مهزول الفصيل" مع أنها كانت من أطيب الصفات في شعر من قال :

وما يك في من عيب فاني جبان الكلب مهزول الفصيل

(١) كان ذلك في خطبة ألقاها الدكتور محجوب ثابت على قبر شهيد الوطنية محمد بك فريد .

٣ - على أن بعض التعابير قد تستثقل لسبب آخر غير كثرة الاستعمال ، وذلك حين يخرف التعبير عما كان يراد به بعض الانحراف ، فقد كان القدماء يستحسنون وصف المرأة بطيب الأنياب، كالذى يقول :

وما أنشد الرعيان الا تعلقاً
بواضحة الأنياب طيبة النشير
أو الذى يقول :

لئن كان يهدى برد أنيابها العلى
لأفقر منى إننى لفقير
ولو أن أحد شعراء اليوم وصف فتاة يبرد الأنياب لعد من السخفاء ، لأن "الأنياب" أخذت معنى أخشن وأقرب الى الوحشية . وكذلك لفظة "النسوان" كانت حلوة في قول بعض الشعراء :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحه
وحسنا عن النسوان أم ليس لى عقل

ولكنها اليوم في مصر كلمة "هجاه" ولا تؤدى في الذوق ما تؤديه كلمة "نساء" .

وكذلك وصف الدمع وتشبيه العين الباكية بالقربة المخروقة في قول ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلى مفرية سرب^(١)

وقوله من كلمة ثانية :

وما شتأ خرقاء واهية الكلى
سقى بهما ساق ولما تبلا^(٢)

بأضيع من عينيك للدمع كلما
تذكرت ربعا أو توهمت منزلا

ويلحق بهذا قولهم : "نزل المطر كافواه القرب" فإنه آبتذل لأنصرف الأذهان عن تلك

الصورة البدوية . وكان الشعراء في عصور كثيرة يشبهون مشية المرأة بالنسياب الحية كقول

ابن أبى ربيعة :

خرجت تأطر في الثياب كأنها^(٣)
أيم يسيب على كتيب أهىلا

(١) الكلى جمع كلية بضم الكاف وسكون اللام ، وهى من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، والمفرية :

المشقوقة . (٢) الشن والشن : القرية . (٣) تأطرت الحسنا : تئنت وتمايلت .

ولكن هذا الخيال عاد مما تنبؤ عنه الأذواق لبعد ما بين مشية المرأة وأنسياب الحية ، وإن كنت أعجب كيف سرى هذا التشبيه حتى نراه عند الفرنسيين في شعر بودلير ، وأنا لا أعرف صلة بين المرأة والحية من جهة الحسن ، إلا أن يكون اتفاقهما في البنى مما يقترّب بينهما في خيال الشعراء ! والمرأة والحية هما اللتان أخرجتا أبانا آدم من فراديس الجنان !

٤ - ولنقيد هنا أن المبتذلات أو الكليشيات تنتقل من عصر الى عصر ومن بيئة الى بيئة ثم تذوى وتموت ، ومن شواهدنا في عصرنا ما كانت تختم به أكثر المقالات في الصحف المصرية قبل سنين من مثل عبارة :

”ولله في خلقه شؤون“

وقد تنوسيت هذه العبارة منذ مدة بعد أن أملت القراء والكتاب . ومن طريف هذا النوع ما كان الدكتور طه حسين يبدأ به محاضراته في الجامعة المصرية من مثل عبارة ”قلنا في المحاضرة الماضية“ وقد آتفق له أن علا المنصة وتأهب للكلام فسمع بعض الطلبة يقول في همس : ”قلنا في المحاضرة الماضية“ فأبتسم وقال :

”سمعت في الدرس الماضي“ .

وهو تخلص لطيف !

وهناك تعابير تحيا على ألسنة أصحابها فقط كقول المرحوم سعد باشا ”أنجلمت تواضعى“ وقوله ”في ميدان الضحايا متسع للجميع“ فان الكتاب أنصرفوا عن استغلال أمثال هذه التعابير لدلالاتها على صاحبها دلالة عنيفة قوية بحيث يشعر القارئ أنها لا تقع في الكلام إلا أنها واختلاسا . وكذلك قوله ”إن الوطن غفور رحيم“ وهو تعبير قرآني نقله سعد باشا من الصيغة الدينية الى الصيغة الوطنية ، فأخذ في كلامه صورة حية ، ولكنه من التعابير التي تأبى الانقياد لكثير من الناس ، إلا أن يتفق للمحاكين ما آتفق لسعد باشا من علو الكلمة ورهبة الجلال .

٥ — تنقسم المبتذلات الى أقسام : قسم مفهوم هجته كثرة الاستعمال وقد ذكرنا له عدة أمثلة ، وقسم غير واضح لا يفهم إلا في غموض ، ولا يزال الناس يستعملونه بدون أن يتبينوا تماما وضع صورته وإن أدركوا معناه ، كقولهم ”جاءوا على بكرة أبيهم“ فانهم يفهمون المراد من هذا التعبير وإن كانوا لا يدركون صورته الأولى ، وقولهم ”رفع عقيرته وغنى“ وهى عبارة ماتت وحاول المنفلوطى إحياءها فتابعه بعض الكتاب ، وإن كانوا لا يدركون الصورة الأصلية ، وقولهم ”شالت نعامة“ اذا مات ، وقولهم :

” الى حيث ألفت رحلها أم قشعم “.

وهى عبارة لا تزال حية ، وإن كان الجمهور لا يدرك صورتها الأولى على الإطلاق . وقولهم ”سبق السيف العذل“ وهى كلمة لا تزال تجرى على ألسنتنا ، وإن كان الناس لا يلتفتون الى موردها الأول . وقولهم ”لأيا عرفت الدار“ وهى عبارة جاهلية تنوسيت طويلا ثم حاول المنفلوطى إحياءها فلم تنهض إلا قليلا . وقولهم ”ينحتون أثنته ويصدعون مروتة“ وهى جملة نستجدها أحيانا وإن كان الجمهور لا يتأمل صورتها إلا بجهد شديد .

وهناك قسم ثالث من الكليشيات جهل أصله منذ زمن طويل فأنصرف عنه الكتاب والشعراء كقولهم ”يا عيد مالك“ و ”يا هي مالك“ و ”يا شئ مالك“ وقولهم فى الإغراء ”كذبك كذا“ و ”كذبك العسل“ و ”كذب عليك الحج“ و ”كذبت عليكم أوعدونى“ وقولهم ”عنك فى الأرض“ و ”عنك شيئا“ وقولهم ”أعمد من سيد قتله قومه“ أى هل زاد؟ وقول ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُلت نيوبها

وفسره الخليل فقال : ”معناه هل زدنا على أن كفينا؟“ وهذا لا يغنى شيئا فى توضيح ذلك التعبير . ومثل هذا قولهم ”بعين ما أرينك“ فى موضع ”عجل“ وقولهم ”لعا“ فى الدعاء

(١) ذكره ابن فارس فيما لم يستطع تفسيره العلماء . انظر الصحاح ص ٣٥ (٢) من قول الشاعر :

كذبت عليكم أوعدونى وعللوا بى الأرض والأقوام قردان موطبا

(٣) ارجع الى الصحاح ص ٣٤ — ٣٧

للعائر، وهى جملة ماتت منذ أزمان وحاول شوقى إحياءها فى رواية مجنون ليلى ، وقولهم ”مخربق لينباع“ وهى عبارة تحاماها المتكلمون منذ عصور طوال، وحاول بعض الكتّاب أن يمدح صدق باشا فوصفه بها فظنها الناس من الهجاء ، وما يدرى أحد أأصابوا أم كانوا من المخطئين ! وكان العرب يستنهضون العائر بقولهم ”دعدع وللع“ فنهاهم النبي عن ذلك وأستحب لهم أن يقولوا ”اللهم أرفع وأنفع“ فما معنى دعدع وللع ؟ كانت هاتان الكلمتان مفهومتين بالطبع حتى صح النهى عنهما ثم أركهما الموت فاندثر ما كان لهما من معنى ومدلول . وكذلك قول الشاعر :

وما كان على الجيء ولا الهى أمتداحيكا

فما هو الجيء والهى ؟ تلك مبتذلات أو كليشيات ضاعت معانيها فسحب عليها الزمان أذيال العفاء .

٦ - وفى اللغة العربية تعابير تفيض قوة وحياة ، ولكن الكتّاب والشعراء ينصرفون عنها عامدين ، ومن ذلك عبارة ”والذى نفسى بيده“ وهو قسم ظريف انفرد به الرسول عليه السلام ، وقد وقع منذ سنوات فى خطاب أذاعه الأستاذ على ماهر باشا وكان وزير المعارف ، فأبتسم الناس ، وقيل إنها عبارة نطقها الأستاذ عبد العزيز البشرى وكان الكتّاب البرلماني لوزارة المعارف حينذاك . ومن هذا الباب الأقسام القرآنية التى تقرأ بحرف ”لا“ مثل ”فلا أقسم بالشفق“ و”فلا أقسم بمواقع النجوم“ وهى أيمان لو عاد إليها المتأدبون لكانت ظريفة ، ولكن القرآن انفرد بها وقصر جمالها على آياته البينات ، بحيث لو وقعت فى كلام غيره لشعر القارئ بفريتها عن مواطنها ، وبذلك قضى عليها أن تظل رهينة المصحف لا يعرفها الناس إلا فى الصلوات . وقد يكون من أسباب هجرها وتناسيها أنها كانت تشير إلى معان أو حوادث كانت معروفة لعرب الجاهلية فكانوا يجدون فى تذوقها ما لا نجد بعد أن تطورت العقائد والأهواء والأذواق والميول ، فلسنا ندرك اليوم ما كان يدركه العرب من جلال هذا اليمين ”والتين والزيتون وطور سينين“ ولا نسمى هذه مبتذلات ولا كليشيات

لأن الناس أنصرفوا عن آستعمالها كل الانصراف، وإنما نسميها الطوابع القرآنية ، لأنها تجعل فيه وحده، ولا تتقاد لكلام سواء بعد أن حفظت فيه ما كانت ترمى إليه من دقائق الأغراض .

٧ - لنترك المبتذلات التي ماتت ، والتي يحاول بعض المعاصرين إحياءها في غير نفع ، من مثل ”يحرقون الأرم“ وما أشبه ذلك من التعابير البالية ، ولناخذ في ذكر نوع من الصور لا يبلى ولا يموت ، لأن الضرورات اللغوية تفرض حياته على اختلاف الأزمان . والضرورات اللغوية هذه مشكلة إنسانية : لأن الناس لا يستطيعون في سبيل الفن أن يخلقوا في كل جيل ألفاظا جديدة يتميزون بها عن سبقوهم في تلوين الخيال . ومن أجل ذلك نرى الشعراء والكتاب في جميع العصور يتلاقون عند تشبيه اتخذ بالورد ، والعين بالنبل ، والثغر بالأخوان ، والسن بالبرد ، واللفظ بالسحر ، والنفس بالريحان ، والقصد بالغصن ، والطائرة بالغسق ، والفزة بالفلق ، والخل بالمسك ، والشفة بالعقيق ، والريق بالريح ، وتشبيه العذار بطراز العنبر ، والعنق بابرقي اللجين ، والسرة بمدهن العاج ، والوجه بالصبح ، والشعر بالليل ، ووصف العيون بالدعج ، والمباسم بالفلج ، وزاهم كذلك يتلاقون عند الكلمات الواضحة الدلالة والتي أقرها العرف والذوق ، مثل : أشعر الصبا ، وسكر الحداثة ، وشرح الشبيبة ، وريعان العمر ، وعنفوان الشباب ، وكبد السماء ، وقرارة الماء ، ومطلع الفلق ، وجمع الغسق ، وأضطراب النفس ، وأضطرام الصدر ، وصروف الدهر ، وغدرات الزمان . ونجدهم يتوافقون أيضا عند الصفات الغالبة ، كالعقاب الكاسر ، والبرج الشاهق ، والنجم الثاقب ، والشعري العبور ، والأسد الهصور ، والجبل المنيع ، والحصن الحصين ، والصبح الشامس ، والليل الدامس ، والقلب الخافق ، والماء الدافق ، والهواء العليل ، والنسيم البليل ، والطرف الكحيل ، واتخذ الأسيل ، والخصر النحيل ، والقوام الأهيف ، والطرف الأحور ، والوعد الخلب ، والزمن القلب ، والرسم الدارس ، والطلل الطامس ، والغيم الجهام ، والسيف الكهام ، والبأس الشديد ، والعذاب الأليم ، والروض الضاحك ، والسراب الخادع ، والغصن الرطيب ، والوادي

الخصيب، والصخرة الصماء، والدرّة العصماء، والحية الرقطاء، والداء العضال، والموت الزؤام، والروضة الغناء، والجنة الفيحاء .

ولو شئنا لمضينا في سرد ما تداوله الشعراء والكتاب من الأوصاف والتشبيهات، بدون أن يجرؤ ناقد على أخذهم باعادة ما سبق اليه الأدباء الأقدمون لأنهم في الواقع ياجأون الى صفات وتشبيهات لا يُستغنى عنها إلا بخلق من اللغة جديد، واللغات لا تخلق في أعوام معدودة، وإنما تنمو وتتطور في أجيال طوال، فليس من المعقول إذن أن نرفض تشبيه الخلد بالورد مثلا بحجة أن هذا كلام معاد درجت عليه القرون . ولو نظرنا لرأينا النقاد في أكثر اللغات يحاكون الكتاب والشعراء الى المصطلح عليه من الألفاظ والتعابير، ويظهر ذلك واضحا عند نقادنا في القديم والحديث، حين نراهم يقولون "العرب لا تقول ذلك" أو "لا تعرف العرب ذلك" وثلاثة أرباع ما كتب الباحثون في النقد والبيان يرجع في جملته الى المقابلة بين القوالب الجديدة والقوالب القديمة في الألفاظ والمعاني والتعابير والأساليب، ومتى راعينا ذلك سهل علينا أن ندرك أن لواجه لاتهام الأدب العربي بأنه ركام من المبتذلات كما يظن المسيو ديمومين .

٨ — على أن الكليشيه بمعناه المفهوم عند النقاد الفرنسيين لا يوجد عند شعرائنا وكتابنا إلا قليلا، ذلك بأن التعبير لا يسمى كليشيه عند الفرنسيين إلا حين يتبدل ويفقد الحياة مثل قولهم في المستنقل من الأشياء أو الأشخاص Embétant comme la pluie .

ونحن إذا رجعنا الى الصور الأدبية عند كبار الكتاب والشعراء من العرب وجدناها تتوشب من فيض القوة والحياة، ونستطيع أن نقدم نماذج من الشعر والنثر ليس فيها تعبير مبتكر، ولا يوجد فيها من الصفات والتشبيهات إلا ما ألفه الناس وتناولت عليه السنون، ومع ذلك تبدو طريقة أخاذة وكأنها عذراء لم يمسسها كاتب ولا شاعر ولا خطيب، وإنما كانت كذلك لأنها صدرت عن نفس حية مفعمة بالشعور والإحساس، ومن ذا الذي ينكر أن الكلمة الواحدة قد ينطق بها رجلان فتقابل من أحدهما بالتبدل والجود، وتقابل من ثانيهما بالتأثر والقبول، وكذلك الأغنية الواحدة يغنيها آثنان على أصولها الفنية بحيث لا تسقط منها

نبرة ولا يشذ فيها صوت ، ومع ذلك يكون الفرق بين المغنيين بعيدا ، لأن أحدهما ينقل الصوت نقل المحاكاة ، على حين يشعر ثانيهما بمعنى ما يغنيه ويساير صاحب الصوت فيما يعبر عنه من ألوان المشاعر والأحاسيس ، فلو كانت المعاني تبتذل يجتهد التكرار لوجب أن تنصرف عن أشياء كثيرة عرفها الأولون ، فان كلمات الحب والعبادة والتقديس قد تكررت وتكررت في مئات الأجيال ، ومع ذلك يقول الحب لحبيبتة ” أحبك وأعبدك وأقدسك “ فتظهر هذه الجمل على طول العهد بها حارة قوية كأنها موجهة من أول آدم الى أول حواء ، وهذه الجمل بعينها قد يوجهها رجل الى امرأة فتتلقاها في خمود ، لا لأنها جمل مبتذلة أضيفت الى الكليشيات ، ولكن لأنها صدرت عن قلب خامد ولسان كذوب !

فالمعول عليه إذن في التعابير الأدبية هو حياتها في أنفاس قائلها ، ولا عبرة بالقدم والحدث في هذا الباب ، وان كان الأدباء يتفاضلون بما يتكرون من الصور والأخيلة ، كما يتفاضلون في المعاني والأساليب .

والى القارئ قطعة من شعر ابن هاني الأندلسي في وصف زهرة رمان قطفت قبل عقدتها :

وبنت أيك كالشباب النضر	كأنها بين الغصون الخضر
جنان باز أو جنان صقر	قد خلقته لقوة بؤكر ^(١)
كأنما سحبت دما من نحر	أو نبئت في تربة من جمر
أو سقيت بجدول من نحر	لو كف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت كمثل الزهد فوق الصدر	تفتر عن مثل اللثات الحمر

في مثل طعم الوصل بعد الهجر

فالتشبيهات والصفات في هذه القطعة قديمة تداولها الكتاب والشعراء ، ولكن من الذي ينكر أن هذه القطعة من نواذر الشعر البليغ ؟ فان سألت ما سر الحياة في هذه القطعة فاني أجيبك بأن سر حياتها هو الحياة في روح من نظم الوصف وهو متأثر بجمال الموصوف .

(١) اللقوة : بالفتح ، هي العقاب ، بضم العين .

والى القارئ قطعة أخرى من شعر ابن المعتز في ضاحية كانت ملعب صباه ثم غيرها الزمان :

لا مثل منزلة الدورية ^(١) منزلٌ يادار جادك وابلٌ وسقاك
بؤسا لدهر غيرتك صروفه لم يمح من قلبي الهوى ومحاك
لم يحل للعينين بعدك منظرٌ دُمَّ المنازل كلهن مواء
أى المعاهد منك أندب طيبه ممسك بالآصال أم مفداك
أم برد تلك ذى النصوص وذى الجنى أم أرضك الميثاء أم رباك
وكانما سعت مجامر عنبر أو فُتَّ فار المسك فوق ثراك
وكانما حصباء أرضك جوهر وكان ماء الورد دمع نداك
وكان درعا مفرغا من فضه ماء الفدير جرت عليه صباح

فأى جديد من التشبيهات والصفات في هذه القطعة ؟ لا شيء ! ومع ذلك لا ينكر أحد أنها من الشعر المرقص المطرب الذى ينذر أن تجود بمثله قرائح الشعراء ، فما هو السرفى هذه العذوبة التى تسكر أرواحنا كلما أصطبحنها أو آغتبقتها بهذه القطعة الرائعة ؟

السرف هو أن الشاعر ينطق عن نفسه فى قوة وحياة ، بحيث تبدو تلك التعابير على لسانه وكأنها من فيض روحه ومن صنع بيانه ، وكأن لم يسبقه إليها أحد من صاغة الكلام .

ولنقدم الكلمة الآتية من تثر بديع الزمان :

”أنا وإن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطول ، وتحامل الأحرار إلا بالتحمل ، أحاسب الشيخ أيدى الله على أخلاقه ضنا بما عقدت يدي عليه من الظن به ، والتقدير فى مذهبه ، ولولا ذلك لقلت فى الأرض مجالاً إن ضاقت ظلالك ، وفى الناس واصلٌ إن رثت جبالك ، فان أعارنى أذنا واعية ، ونفسا مراعية ، ونزوعا عن هذا الباب الذى يقرعه ، ونزولا عن الصعود الذى يفرعه ، فرشت لمودته خوان صدرى ، وعقدت عليه جوامع خصرى ، وبجامع عمرى ،

(١) الدورية محلة كانت ببغداد .

وإن ركب من تعالى غير مركبه، وذهب من التعالى في غير مذهبه، أقطعته خطة أخلاقه وأوليته جانب إعراضه، فاني وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهري البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصاغت يدى النفع والضر، وضربت إبطى العسر واليسر، وبلوت طعمى الحلو والمر، وورضعت ضرعى العرف والنكر، فما تكاد الأيام ترينى من أفعالها غريباً، وتسمعنى من أحوالها عجيباً، ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافى سمعه وبصره، وشغلت حيزى فكره ونظره، فمالي صغرت هذا الصغر فى عينه، وما الذى أزرى بى عنده حتى أحتجب وقد قصصده، ولزم أرضه وقد حضرته؟ أنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل، أو يحدد فضل العلم، ويمتطى ظهر الية، على أهليه، وأسأله أن يختصنى من بينهم بفضل إعظام إن زلت بى مرة قدم فى قصده، وكأنى به غضب لهذه المخاطبة المحجفة، والرتبة المتحيفة، وهو فى جنب جفائه يسير“ .

وقد تخيرنا هذه القطعة لكثرة ما ورد فيها من الصور والتعابير القديمة لنندل القارئ على أن ذلك لم يمنع من ظهور شخصية بديع الزمان إذ كان يعاتب وهو مضطرم الصدر مهتاج الفؤاد . ولنقدم كلمة أخرى من نثر أبى الفضل بن العميد :

”وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق، فان الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال، وأعتقنى من مخالكت عتقا لا تستحق به ولاء، وأبرأنى من عهدك براءة لا تستوجب معها دركا ولا أستثناء، ونزع من عنقى ربة الذل فى إخوانك، بيدى جفائك، ورش على ما كان يضطرم فى ضميرى من نيران الشوق بالسلو، وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبى فلامم قطورى بجمل الصبر، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعرض عن النزاع اليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبايات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عنها غيايات ما سدله الشك دون نظرى، حتى حدر النقاب

عن صفحات شريك، وسفر عن وجوه خليقتك، فلم أجد إلا منكرا، ولم ألق إلا مستكبرا، فوليت منها فرارا، وملكت ربعا، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت اليك ذمم عهدك“ .

وللقارئ أن يتأمل هذه القطعة فسيرى صورها جميعا منتبهة من غرر الشعر القديم بحيث لا يبقى لأبن العميد معنى واحد خلا من لباس معروف، ومع هذا فن ينكر أنها من طرائف النثر الجميل؟ إن الكاتب أفاض عليها من روحه كما تفيض الحسناء من سحر الملاحة على ما تحمل من دمالج وأساور وعقود .

٩ — ونستطيع أن نضرب المثل ببعض ما ظهر من أطايب الأدب الحديث، فهناك كتاب صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى وهو كتاب نفيس لا يختلف فى استجادته اثنان، ولا أقول لا ينتطح فيه عزان، فرارا من الكليشيه! وهذا الكتاب مع جودته قلما يقع فيه تشبيه إلا وهو مسروق من القدماء، وخاصة رجال القرن الرابع، وما نظرت فيه إلا تذكرت ما قاله أحد النقاد المتقدمين فى سعيد بن حميد :

”لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهلك لما بقى معه شيء!“

ولكن هذا لا يمنع من أننا نقرأ نثر السيد توفيق البكرى مأخوذ من بابداعه وأفتنانه حتى لنحسب أنه صاحب ما يطلعنا به من الصور والتشابه، ولننظر كيف يقول فى شواطئ الآستانه :

”فاذا رأيت ثم حين دلوك الشمس، وقد شعشع نورها كل بناء وغرس، وقد عكس فى الماء، صور ما يحيط به من الأشياء، أبصرت فى الماء قبابا من ذهب، وأهلة من لهب، وكثبانا من زمرد، ووديانا من زبرجد، وجبالا وأيفاعا، وحصونا وقلاع، وسقوفا من جوهر، وعمدا من مرمر، وصرحا من قوارير، وتماثيل وتصاوير، ودورا وحورا، ونارا ونورا، وحللا تطوى وتنشر، وسيوفا تغمد وتشهر، وأقمارا تصاغ وتكسر، فكأما تقرأ فى البر، قصيدة من شعر، وتنظر فى البحر، فانوسا من سحر“ .

أفيعد هذا من المبتذلات؟ هيهات هيهات !

١٠ — لقد آن أن نفهم أن الدأب على إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة ورسوخا ويحببها الى أذواقنا وقلوبنا ، ألسنا نشعر أحيانا بالرغبة في وضع بعض الصور الفصيحة في صور عامية ؟ بلى ! وإن ذلك ليقع في كل يوم . فما هو سر ذلك ؟ لا شيء أكثر من أن التعابير العامية صقلتها الألسنة فأستطابتها الأذواق .

وقد تناقل الناس أن أبا العلاء المعزى وضع كتابا في معارضة القرآن ، ف قيل له :
إن كتابك لجيد ، ولكن تنقصه حلاوة القرآن ! فأجاب حتى تصقله الألسن في المحاريب
أربعائة سنة وعند ذلك آنظروا كيف يكون !

وليس المهم هنا أن نعرض لهذا الرأي برفض أو قبول ، ولكن المهم أن نسجل أثر التريديد والتقليب في حياة البلاغات ، فان البلاغة كالموسيقا تبقى صورها في النفس وفقا لما يقدر لها من الذبوع . والقلب أكثر ميلا للصوت الذي يداعب أذنيه في الصباح والمساء ، وكذلك كانت الموسيقى القومية ألصق بالقلوب ، وأعلق بالنفوس ، وإن كانت في تأليفها وسطا لا تسمو الى اللحاق بكثير من مستجاد الأصوات . وهذا هو أيضا السرفيا يُعرف من استعصاء الشعر على الترجمة في كثير من الأحيان ، لأن المعنى قد يتصل بالفاظه اتصال الروح بما في الجسم الذي يلبسه من أعصاب وحواس . فالألغة لها أهمية عظيمة في استجداء ما نقرأ وما نسمع ، واليها يرجع الفضل في استحسن ما ترصع به البلاغات من الحكم والأشعار والأمثال . ولو دققنا النظر في الصلات النفسية لوجدنا لتداعى المعانى دخلا في هذه المشكلة البيانية ، لأن الصور المختلفة الألوان تهىء الذهن والذوق تهية خاصة لأستقبال ما يتقدم به الشعراء والكتاب والخطباء من فنون البيان .

وليس من التعامل في شيء أن نحكم بأن المستشرقين أقل منا إدراكا كما في التعابير الأدبية من قوى الحياة ، لأنهم يرون من التعابير شياتها وأعراضها ولا يدركوا ما توحى الى النفوس إلا بمجهود شديد ، فاذا وقع لأحدهم فعل "عجم" مثلا في عدة مواطن ظن تنقله من هنا الى هناك

سمة من سمات الفقر اللغوى ، ونسى الصورة الأولى التى أخذت عن عجم العود قبل أن تصنع منه الرماح فصعب عليه تبعاً لذلك أن يدرك سر البلاغة فى مثل قول ابن المعتز :

وكم عاجم عودى تكسر نابه إذا لان عيدان اللثام وخاروا

١١ — بقيت نقطة أخيرة فى هذا الموضوع ، وهى تتصل بما نراه من أن حياة التعبير هى التى تمنع من إضافته الى المبتذلات . ذلك أن كتاب اللغة العربية وخاصة رجال القرن الرابع كان من همهم دائماً أن يرتفعوا عن الجماهير بما يبدعون من المعانى والأساليب ، وكانت وسيلتهم إلى ذلك أن يظهروا بالفنى فى ثقافتهم الأدبية بحيث لا يتذوق أدبهم إلا خواص الخواص ، من أجل ذلك كثرت عندهم الإشارات إلى الحوادث السياسية والاجتماعية ، وبالغوا فى تضمين الآيات والأحاديث والأمثال ، لينقلوا قراءهم إلى جواء بعيدة لا يتنفس فيها إلا المثقفون . وذلك كله يفرض ادراكهم الحى لما يشيرون إليه من حوادث التاريخ ، وتأثرهم بما يعرضون له من إثارة ما آندفن من قديم الصور فى مختلف الأغراض .

وهذا التسامى فى خلق بيئة أدبية عالية كان ولا يزال من هموم الأدباء العظام ، فإن الأدب فى ذاته نوع من الترف العقلى وهو يفرض وجود أريستوقراطية فكرية يتفياً ظلها الكتاب والشعراء . وكذلك كان رجال الأدب العربى فى عصور كثيرة من أصحاب المطامع الكبار ، ومن رجال السياسة والملك ، ومن أقطاب المجتمع الفكرى والعقلى ، بحيث لا يفهم عنهم إلا من يدرك ما كانت ترمى إليه همهم فى مطارح الحقائق ، أو مدارج الظنون .

البَابُ الثَّالِثُ

كِتَابُ الْإِسْبَاطِ وَالْأَوْصِيَاءِ

١ - المقامات

١ - العرب بكجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وأسمار ونحرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ، ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون. ففى أى بقعة من البقاع العربية نجد الناس يسمرون تحت ضوء القمر فى ليالى الصيف، أو حول المواقد فى الشتاء. ولو استمعنا إليهم لوجدنا لهم على سذاجتهم طرائف من القصص تدل على لباقة وذكاء. وقد أتى لي فى أحيان كثيرة أن أختبر طبقات العامة من المصريين والسوريين والمجازيين والتونسيين فرأيت لهم نوادر غريبة تشوق الخيال. وتلك القصص الطليقة التى تقال فى غير تحفظ ومن غير فن هى المصدر الأول لكتاب ألف ليلة وليلة الذى شغل الأوربيين والأمريكيين بما فيه من المفاجآت المدهشة والأحلام العجيبة التى صورت بها التمرعات المكبوتة فى تلك الطبقات التى أضناها الاستعباد واليأس والرق الاجتماعى زمنا غير قليل. ولو أن كاتباً أراد أن يجمع كتاباً على طراز ألف ليلة وليلة لوصل إلى ما يريد من غير مشقة ولا عناء، فلا تزال تلك الطبقات تحلم وتتخيل وتبتكر ما شاءت لها حياتها الاجتماعية من أنواع القصص الخلاب الذى يمثل ما ترجو وما تخاف. ولكن هذا النوع من القصص ليس هو النوع الذى نريد أن نتحدث عنه فى هذا الباب، إنما نريد أن نتكلم عن القصص الذى وضع قصداً، والذى أراد أصحابه أن يدونوا به بعض الأوصاف عن طريق الحكايات الصغيرة، أو يذيعوا بعض النوادر والفكاهات، أو يعطوا بعض الجوانب التاريخية صورة مغرضة يخدمون بها بعض الأحزاب، أو يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والأدبية أو يصفوا بعض الحوادث الغرامية، وما إلى ذلك مما يشوق القلوب والعقول والأذواق.

٢ - وأظهر أنواع الأفاصيص فى القرن الرابع هو فن المقامات، وهى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خطرة وجدانية، أو لمحة

من لمحات الدعاية والمجون . وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من أنشأ فن المقامات ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من آرتاب في سبق بديع الزمان إلى هذا الفن ، وإنما رأيت من يعلل سبقه بنزعه الفارسية ، إذ كان الفرس فيما يظن بعض الناس أحرص من العرب على القصص وأعرف بمصنوع الأحداث .

٣ — وفي رأي أن الحريري هو الذي أذاع هذا الغلط ، ثم آمن الناس بقوله إذ كان أشهر من أقبل الجمهور عليهم من كتاب المقامات ، وهو في مقدمة مقاماته ينسب إلى بديع الزمان فضل سبق إذ يقول :

”وبعد فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركبت في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحها ، ذكر المقامات التي أبدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ، رحمه الله تعالى ، وعزرا إلى أبي الفتح الاسكندري نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . فأشار من إشارته حكم ، وطاعته غم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شاو الضليع “ .^(١)

إلى أن قال :

”هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سباق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته . والله در القائل :

فلو قبل مبكها بكيت صباية بعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا بكها فقلت الفضل للتعقد^(٢)

٤ — وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وإنما أبتهكه ابن دريدا لمتوفى سنة ٣٢١ وإلى القارئ النص الذي اعتمدت عليه في تحرير هذه المسألة :

(١) الظالع : الذى يغمز فى مشيته . والضليع القوى الأضلاع . (٢) راجع مقدمة مقامات الحريري .

قال أبو إسحاق الحصرى حين عرض لكلام بديع الزمان :

”كلامه غَضُّ المكاسر، أنيق الجواهر . يكاد الهواء يسرقه لطفًا، والهوى يعشقه ظرفًا . ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثًا وذكر أنه آستنبطها من ينبع صدره، وآستنبخها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض عجمية، وألفاظ حوشية، بجاء أكثر ما أظهر تذو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حججها الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها، في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربعمئة مقامة في الكدية تذوب ظرفًا، وتقطر حسنا، لا مناسبة بين المقامين لفظًا ولا معنى، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها بين رجلين : سمي أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الاسكندري، وجعلهما يتهاديان الدر، ويتنافثان السحر، في معان تضحك الحزين، وتحرك الرصين، يتطلع منها كل طريفة، ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية^(١) .

وقد دهش المسيو مرسية حين عرضت عليه هذا النص في باريس، وعجب كيف آتفق الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو منشئ فن المقامات، ثم سألتني : ألا يمكن الأرتياب في قيمة كلام الحصرى في هذا الموضوع ؟ فأجبت به بأنه تحدت بأسلوب يدل على أنه كان مفهومًا في أوائل القرن الخامس أن بديع الزمان إنما عارض آبن دريد وحا كاه . فأرتضى هذا الجواب ثم قال : يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربي شيء كثير .

وقد واصلت البحث لأرى صدى هذه الفكرة في مؤلفات القدماء فلم أجد من أفردا بجهد خاص وإن كنت رأيت ياقوت الحموى نقل ما كتبه صاحب زهر الآداب حين ترجم لبديع الزمان، ونقل ياقوت لهذا النص من غير تعقيب مظهر من مظاهر القبول .

وعندى أن من أسباب غفلة مؤرخي الآداب عن كشف هذا الخطأ أن آبن دريد سمي قصصه (أحاديث) في حين أن بديع الزمان سمي قصصه مقامات .

(١) راجع ص ٣٠٧ ج ١ من زهر الآداب (الطبعة الثانية) .

٥ — وقد دهش الدكتور طه حسين أيضا حين أطلعتة على ما وصلت اليه في تحرير هذه الفكرة ، وقال : إن ابن دريد كان رجل لغة ورواية ، ولم يعرف عنه أنه كان كاتباً ممتازاً ، فكيف أثار بديع الزمان بما أبتكر من الأحاديث ؟ ثم عاد فقال : ارجع إلى كتاب الأمامي للقالى وأنظر الأحاديث التى نقلها عن الأعراب ، فإن رأيته يروى عن ابن دريد — وكان أستاذه — فأعلم إذن أن الأربعة حديثاً التى ذكر صاحب زهر الآداب أنه اخترعها لم تكن شيئاً آخر غير هذه القصص التى حلّى بها القالى كتابه . فلما رجعت إلى كتاب القالى وجدت حقاً أن القصص التى آتواها مروية عن ابن دريد . من ذلك مثلاً حديث البنات اللأى وصفن أزواجهن^(١) ، وحديث العاشق الجميل^(٢) ، وقصة خنافر الكاهن^(٣) ، والرواد الذين أرسلتهم مذج لوصف بعض أقطار الجزيرة العربية . وكذلك يمكن المضى فى استقصاء ما ذكره القالى من القصص العربية المسجوعة ، وإن كان هذا لا يعين أنها نفس القصص التى عارضها بديع الزمان^(٤) .

٦ — ولكن يظهر مما جاء فى « الرسالة العذراء » لابن المدبر أن أهل القرن الثالث كانوا يعرفون نوعاً من المحاورات الأدبية يسمى المقامات إذ رأيناه يوصى المتأدب فيقول :

(١) ج ١ ص ١٧ (٢) ج ١ ص ٣٨ (٣) ج ١ ص ١٣٣ طبع بولاق . (٤) لم يكن أحد تنبه إلى قيمة النص الذى نقله آتفا عن زهر الآداب ووصلت منه إلى نشأة فن المقامات ، وقد اتفق أن المسيو ديموبين وجه نظرى أخيراً إلى إشارة وردت فى دائرة المعارف الإسلامية تدل على أن المسيو بروكلمان كان تنبه إلى ذلك النص فكتب فى هامش ص ٨٦ من الأصل الفرنسى هذا الاستدراك :

J'ai étudié cette question directement. M. Demombynes après avoir lu ce chapitre a attiré mon attention sur l'opinion exprimée sur le même sujet par les auteurs de l'Encyclopédie de l'Islam. J'y ai trouvé ceci (pp. 71, Livraison 39) :

(... à savoir qu'Al-Hamadani se serait inspiré des Arbaïn d'Ibn Doraïd, nous ne pouvons porter aucun Jugement, car cette œuvre ne nous a pas été conservée.)

ومعنى هذا الكلام أن المسيو بروكلمان الذى كتب عن المقامات فى دائرة المعارف الإسلامية يرتاب فى أن يكون بديع الزمان متأثراً بأحاديث ابن دريد ، لأن هذه الأحاديث لم تصل إلينا حتى نستطيع أن نصدر حكماً . وسيرى القارىء فيما سنكتب عن (أحاديث ابن دريد) كيف ترجح لدينا وجود طائفة من تلك الأحاديث .

”وأنظر في كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب“^(١).

غير أن «المقامات» في كلام ابن المدبر قد تكون جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل في حضرة الخليفة أو الملك، وقد عقد ابن قتيبة فصلاً سماه (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وذكر نماذج كثيرة منها مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي، ومقام عمرو بن عبيد بن يدي المنصور، ومقام خالد بن صفوان بين يدي هشام، ومقام الحسن عند عمر بن هبيرة^(٢). وقد تؤنث كقول بديع الزمان في أحد الواعظين: «غريب قد طراً لا أعرف شخصه، فأصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبيء بعلمته»^(٣).

وقد انتقلت المقامات بعد ذلك إلى كلام المعتفين الذين يتوسلون إلى الأغنياء بكلام مسجوع، وكثيراً ما نجد عندهم أمثال عبارة «ارحموا مقامي هذا» يريدون الموقوف، ثم صار المقام يطابق على ما يقال من الكلام في تلك المواقف. والمقام في الأصل المجلس، ففي القرآن ((أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً)) وفي شعر زهير:

وفيه مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

ومن المؤكد أن بديع الزمان حين أنشأ المقامات كان يمثل مقامات السائلين في المساجد والأسواق، ولذلك نجد راويته مشرداً في جميع الأحيان^(٤).

٧ - ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فإن عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوى وأظهر، وطريقته في القصص تختلف عن طريقة ابن دريد، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن في أذهانهم غير فن بديع الزمان، فهو بذلك منشئ هذا الفن في اللغة العربية، ولم تسم تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد وإنما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان.

(١) راجع ص ٧ من الرسالة العذراء (طبع دار الكتب المصرية). (٢) ص ١٤٣ من المقامات (طبع بيروت). (٣) راجع عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٣ - ٣٤٣ (٤) سورة مريم آية ٧٢ (٥) راجع ما كتبه بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية ص ١٧٠ (Livraison 39).

٨ - وأول من تأثر خطواته في القرن الرابع أبو نصر عبدالعزيز بن نباته السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ولم تحفظ عنه إلا مقامة واحدة كما أشار بروكلمان، ثم جاء ابن نايقا عبد الله بن محمد ابن الحسين المتوفى سنة ٤٨٥ هـ فأنشأ عدة مقامات تختلف في أسلوبها عن مقامات بديع الزمان بعض الاختلاف^(١).

ثم جاء الحريري فصير فن المقامات شريعة أدبية، وقد أُنشِرت مقاماته في جميع الأقطار العربية، وصارت مضرب المثل في الفصاحة والبيان، ويعدّ الحريري أشهر من نظم المقامات واليه يرجع الفضل في ذبوع هذا الفن الجميل.

ومضى الكتاب بعد ذلك يرسلون على هذه الطريقة في جميع العصور حتى اليوم. ولم يمض عصر لم تحفظ فيه مقامات، ونظرةً فيما كتب بروكلمان في دائرة الاسلامية، أو مادون في فهرس دار الكتب المصرية، ترينا كيف آفتن الكتاب في تلك الأفاصيص.

٩ - وقد لاحظنا أن كل ما كتب من المقامات يرجع في جوهره الى فن بديع الزمان، فالصورة واحدة من حيث السجع والأزدواج، وطريقة القصص واحدة، والافتنان في الموضوعات هو كذلك من مبتكرات بديع الزمان، حتى الطريقة التعليمية التي عرفت في مقامات السيوطي وابن الجوزي والقلقشندي هي أيضا مما ابتكر بديع الزمان، والفرق يرجع الى صور الثقافات في مختلف العصور، فبديع الزمان صوّر مشكلات عصره، والحريري مثّل معضلات زمانه، والسيوطي فصّل أوهام الناس وعلومهم في أيامه، وجاء محمد المويلحي في العصر الأخير فوضع كتابا في نقد الحياة الاجتماعية في مصر تأثر فيه سجع بديع الزمان وحفظ من رسومه أسم راويته عيسى بن هشام.

١٠ - وفن المقامات الذي نشأ في القرن الرابع لم يعرف وطنيا عربيا، وإنما عاش في جميع الأقطار الاسلامية، فكان من أهل فارس والعراق والشام واليمن والحجاز ومصر

(١) لم يبق من آثار ابن نايقا إلا تسع مقامات محفوظة بمكتبة (الفايح) في استانبول.

والمغرب والأندلس كتاب برعوا في فن المقامات، وتفصيل هذه النقطة يحتاج الى كلام طويل، على أنها أوضح من أن تحتاج الى تفصيل .

١١ - ومن طريف ما قرأت ما أشار اليه بروكلمان في دائرة المعارف الاسلامية فقد حدثنا أن هذا الفن انتقل بفضل بديع الزمان الى اللغة الفارسية، وكان الدكتور أحمد ضيف يظن أنه انتقل من الفارسية الى العربية، وأشهر أصحاب المقامات في الأدب الفارسي القاضي حميد الدين أبو بكر بن عمر بن محمود البلخي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ وهي تحتوى على مناظرات مختلفة بين الشباب والشيخوخة، وبين أهل السنة والشيعة، وبين الطبيب والمنجم، وفيها وصف للربيع والخريف، والحب والجنون، وفيها مناقشات فقهية وصوفية، وهي كالمقامات العربية تصاغ في قوالب فنية^(١) .

وأشار بروكلمان كذلك الى أن هذا الفن دخل اللغة العبرية بفضل اليهودى الربانى يهودا ابن شلومو الحريزى الذى ترجم مقامات الحريرى الى العبرية وأنشأ على نمطها خمسين مقامة سماها (سفر تحكيموى)^(٢) وضمنها كثيرا من آيات التوراة^(١) .

ودخل هذا الفن أيضا الى اللغة السريانية، فقد نظم أحد السريان من مدينة نصيبين خمسين قصيدة على نمط مقامات الحريرى ضمنها جملة من العظات والأخلاق، في لغة مثقلة بالزخارف والتهاويل، ونشرها جبريل قرداحى في بيروت سنة ١٨٨٩^(١)

١٢ - وعند مقارنة مقامات البديع بمقامات الحريرى يتبين لنا أن لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف، ولا كذلك لغة الحريرى التى تعد من أغرب نماذج النثر المصنوع وعند الرجوع الى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم فى الأغلب تلامذة الحريرى لا تلامذة البديع، فقد ألع أكثرهم بالصنعة والزخرف، ولم يأنس منهم الى فطرته إلا القليل .

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية ص ١٧٢ و ١٧٣ من (Livraison 39) .

(٢) كلمة عبرية معناها « كتاب الحكمة » .

١٣ - ونتيجة ما سلف أن القرن الرابع دان اللغة العربية بفن من فنون القصص هو فن المقامات ، وذيع هذا الفن يرجع الى أنه وافق السليقة العربية التي تميل الى القصص القصير، والتي تميل الى الزخرف في الانشاء .

وقد ظن ناس أن فن المقامة هو فن القصة ، وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلها أثير موضوع القصة في اللغة العربية، والواقع أن العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون الى القصص المعقد الذي وجد كثير منه فيما أثر عن اليونان القدماء ، والذي ذاع عند الانجليز والروس والفرنسيين والألمان .

ولا عيب في أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل ، فان الفن الصحيح يرتكز أولاً على الفطرة ، ولم يكن العرب مفسطورين على القصة التي تقرأ في أيام أو أسابيع ، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الآثار القصصية التي وجدت عند معاصريهم في الشرق والغرب .

وليس معنى هذا أن آثار العرب خلت خلوا تاما من القصة ، ولكن معناه أن فن القصة من الفنون الدخيلة على اللغة العربية ، وقد يكون لبساطة الطباع العربية أثر في وقوفهم عند القصص القصير، ومثل القصة في ذلك مثل الموسيقى ، فقد كانت موسيقاهم بسيطة لأن نفوسهم كانت بسيطة ، فلما أخذت العواطف لتعقد وتشتبك أخذ القصص والموسيقا في التعقد والأشتباك .

ولهذا السبب عنه لم يفكروا في التمثيل ، ولم ينقلوا عن اليونان شيئا يذكر من القصص التمثيلية ، لأن أسماهم كانت تغنيهم عن التمثيل .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائماً موقف المؤرخ للفنون الأدبية، ونحن من وجهة التاريخ نرى أن إبداع فن المقامات يعد فتحة عظيمة في اللغة العربية ، ولا بد أن يكون معاصرو بديع الزمان تلفتوا الى فنه تلفت الدهشة والاستغراب وعدوه من كبار المبدعين .

وحسب بديع الزمان من المجد أنه ألهم الحريري مقاماته التي كانت سببا في خلود هذا الفن الجميل ، وقد ظلمه شوقي حين قال في رثاء المويلحي :

رب سجع كمرقص الروض لما يختلف لحنه ولا إيقاعه
أو كسجع الحمام لو فصلته وتأت به ودقّ اختراعه
هو فيه بديع كل زمان ما بديع الزمان ؟ ما أسجاعه ؟^(١)

إن بديع الزمان شخصية نادرة المثال ، وأسجاعه أحيانا أرق من الزهر المطلول ، ولكن المنصفين في الناس قليل .

ألم يجرؤ أحد المتحذلقين على أدعاء أن شر بديع الزمان لا يقرأ اذا ترجم الى لغة أجنبية ؟ لقد ترجمنا نماذج من مقاماته ورسائله الى اللغة الفرنسية فكانت تحفة في عين من رآها من الفرنسيين ، ولكن أكثر المحدثين عندنا لا يعرفون أسرار الأدب القديم .

(١) انظر ما كتبه الأستاذ محمد لطفي جمعة في جريدة البلاغ « ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٠ » .

٢ - مقامات بديع الزمان^(١)

١ - ألف بديع الزمان مقاماته بعد وصوله إلى نيسابور سنة ٣٨٢^(٢) - والمتفق عليه عند كتاب التراجم أنها كانت أربعائة، ونحن نرجح أنها كانت خمسين، بدليلين :
الأول أنه عارض بها أربعين حديثاً أنشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب دائماً في الكمية .

الثاني أن مقاماته لم يحفظ منها غير خمسين ، فليس بمعقول أن يضع من آثاره خمسون وثلاثمائة مقامة ، مع أن آثاره لم يضع منها إلا القليل .

يضاف إلى ذلك أن الحريري حين عارض بديع الزمان لم ينشئ في معارضته غير خمسين مقامة ، ثم صار عدد الخمسين هو الرقم المتبع فيما كتب في هذا النوع من الأفاصيص .

٢ - في مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة، ففيها «العقدة» وتحليل الشخصيات ، والمقامة المضيرية التي تكلمنا عنها في « الفكاهات » تمثل هذا الفن ، وكذلك المقامة البغداية التي أشرنا إليها في الجزء الثاني^(٣) ، وهاتان المقامتان هما أبرع ما قص بديع الزمان . وفيما عدا ما وفق إليه في نظم بعض الأفاصيص نراه يقف حيث وقف من قبله ابن دريد ، فيرسل العظة ، أو يسوق الوصف ، أو ينمق الفكاهة ، أو يقضى بأحكام أدبية أو فلسفية ، من دون أن يهتم بالعقدة القصصية ، واليك هذا المثال :

حدثني عيسى بن هشام قال : بلغنا نحن بيجرجان في مجمع لنا نتحدث ومعنا يومئذ رجل العرب حفظاً ورواية وهو عصمة بن بدر الفزاري . فأفضى بنا الكلام إلى ذكر من أعرض عن خصمه حلماً ، ومن أعرض عنه آحتقاراً ، حتى ذكرنا الصلتان العبدى والبعيث وما كان

(١) انظر ترجمة بديع الزمان في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٣٢٥ وما يليها من الصفحات .

(٢) راجع يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٩ (٣) ص ٣١٥ و ٣١٦

من آحتقار جرير والفرزدق لهما ، فقال عصمة : سأحدثكم بما شاهدته عيني ، ولا أحدثكم عن غيري ، بينما أنا أسير في بلاد تميم مرتحلا نجية ، وقائدا جنيبة ^(١) ، عن لي راكب على أورق ^(٢) جعد اللغام ^(٣) ، فإذاني حتى إذا صك الشبح بالشبح ، رفع صوته بالسلام عليك ، فقلت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ! من الراكب الجهير الكلام ، بتحيةة الاسلام ؟ فقال : أنا غيلان بن عقبة . فقلت : مرحبا بالكريم حسبه ، الشهير نسبه ، السائر منطقته ! فقال : رُحِبْ واديك ، وعز ناديك ، فمن أنت ؟ قلت : عصمة بن بدر الفزاري . قال حيالك الله نعم الصديق ، والصاحب والرفيق ! وسرنا فلما هجرنا قال : ألا تغوريا عصمة ، فقد صهرتنا الشمس ؟ فقلت : أنت وذلك ! فلنا الى شجرات الألاء ^(٤) ، كأنهن عذارى متبرجات ، قد نشرن غدائرن ، لأثلاث تناوحن . فخططنا رحالنا ونلنا من الطعام ، وكان ذو الرمة زهيد الأكل ، وصلينا بعد ، وآل كل واحد منا الى ظل أثلة يريد القائلة ، وأضطجع ذو الرمة ، وأردت أن أصنع مثل صنيعه ، فوليت ظهري الأرض ، وعيناي لا يملكهما غمض ، فنظرت غير بعيد الى ناقة كوما ^(٥) قد ضحيت ، وغبيطها ملق ، وإذا رجل قائم ، يكلوها كأنه عسيف أو أسيف ^(٦) ، فلهيت عنهما — وما أنا والسؤال عما لا يعنيني ! — ونام ذو الرمة غرارا ، ثم آنتبه وكان ذلك في أيام مهاجته لذلك المرى ، فرفع عقيرته وأنشأ يقول :

أمن مية الطلل الدارس ^(١٠)	ألظ به العاصف الرامس ^(١١)
فلم يبق إلا شجيج القذال ^(١٢)	ومستوقد ماله قابس
وحوض تشلم من جانبيه ^(١٣)	ومحتفل دارس طامس
وعهدى به وبه سكه	ومية والأنس والأنس

- (١) الجنيبة الفرس يقودها الرجل الى جنبه . (٢) الأورق من الابل ما في لونه بياض الى سواد . (٣) جعد اللغام : متراكم الزبد . (٤) هجر بالتشديد صادف وقت الهجير ، وهو حر الظهيرة . (٥) التنوير : النوم عند الفائرة وهي القائلة . (٦) الألاء : شجر مرم . (٧) كوما : عظيمة السنام . (٨) العسيف الأجير ، والأسيف العبد . (٩) قليلا . (١٠) ألظ به : لازمه . (١١) من رمس الشيء دفته . (١٢) الشجيج : المكسور . والقذال الرأس ، والمراد به هنا الود الذي كانت تربط فيه الأطناب . (١٣) السكن بفتح فسكون : الساكنون .

كأنى بمية مستنفر غزالا تراءى له عاطس^(١)
 اذا جئتها ردنى عابس رقيب عليها لها حارس
 ستأتى أمراً القيس مأثورة^(٢) يغنى بها العابر الجالس
 ألم ترأن أمراً القيس قد أظ به داؤه الناجس^(٣)
 هم القوم لا يألون الهجاء وهل يأل المجرب اليابس؟
 فإلهم في العلا مركب ولا لهم في الوغى فارس
 ممرطة في حياض الملام كما دعى الأدم الداعس^(٤)
 اذا طمع الناس للكرام فطرفهم المطرق الناعس^(٥)
 تعاف الأكارم إصهارهم فكل أياما هم عانس^(٦)

فلما بلغ هذا البيت تنبه ذلك النائم وجعل يمسح عينيه ويقول : أذو الرمية يمنعنى النوم
 بشعر غير مثقف ولا سائر؟ فقلت : يا غيلان من هذا؟ فقال : الفرزدق، وحى ذو الرمة
 فقال :

وأما مجاشع الأردلون فلم يسق منبتهم راجس^(٧)
 سيعقلهم عن مساعى الكرام عقال ويحبسهم حابس^(٨)

فقلت : الآن يشرق ويثور، ويعم هذا وقيلته بالهجاء . فوالله ما زاد الفرزدق على أن
 قال : قبحا لك يا ذا الرمية أتعرض لمثل بمقال متحل؟ ثم عاد فى نومه كأن لم يسمع شيئا ،
 وسار ذو الرمة وسرت معه، وإنى لأرى فيه انكسارا حتى افترقنا “ .

فهذه المقامة ليست أقصوصة، وإنما هى خبر من الأخبار التى كثر اختراعها فى الأدب
 القديم، والتى تمثل بعض العادات والتقاليد، وتصف ما يقع بين الناس من ألوان الخصومات

(١) العاطس : الصبح ، ونفرة الغزال فى الصباح شديدة لقرب عهده بوحشة الليل .
 (٢) الناجس الداء العصال . (٣) ممرطة : ملطخة . (٤) الأيامى جمع أيم وهى التى لا زوج لها ،
 بكراً أو ثيباً ، والعانس التى لم تزوج أصلاً . (٥) الراجس : السحاب الراجع . (٦) يشرق :
 يغص بريقه : كناية عن شدة الغيظ . (٧) يهيج .

والأحقاد . وقد يمكن مع ذلك إضافتها الى الأقاصيص الوصفية التي لا يراد بها الإغراب في العقدة والشخصيات ، وإنما تجرى على نمط الأحاديث .

٣ — ومن مظاهر الضعف عند بديع الزمان ومن حاكاه وقوفه عند شخصية واحدة ، فأبو الفتح الاسكندري ينتقل من قصة الى قصة ، وعيسى بن هشام يحدثننا في كل مرة عن دهشته من كشف شخصيته ، مع أنه كان يكفي أن يشتبه عليه أمره مرة أو مرتين ، ولكنه في جميع الأحوال يضل عن عرفانه ، ولا يتبينه إلا بعد كشف اللثام . غير أن لعيسى بن هشام مواقف لا يذكر فيها أبو الفتح ، كما وقع في المقامة الأهوازية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الصفرية ، والمقامة الخلفية .

٤ — وبديع الزمان مغرى برسم السوات ، والمقامة الشامية والرصافية والدينارية من شواهد ذلك ، وله غرام بالأهاجى المقذعات — وكان هذا الفن مما يقصد اليه كتاب القرن الرابع^(١) — فقد اتفق لعيسى بن هشام أن يفكر في التصديق بدينار على أشخذ رجل في بغداد ، وذُكر له اسم أبي الفتح الاسكندري فضى اليه فوجده في رفقة ، قد اجتمعت في حلقة ، فقال : يا بني ساسان ؟ أيكم أعرف بسلعته ، وأشخذ في صنعته ، فأعطيه هذا الدينار ؟ فقال الاسكندري : أنا ! وقال الآخر من الجماعة : لا ، بل أنا ! ثم تناقشا وتهارشا ، فقال عيسى ابن هشام : ليشتم كل منكما صاحبه ، فمن غلب سلب ، ومن عزّ بزّ !

فقال الاسكندري يهجو صاحبه :

يا برد العجوز ، يا كربة تموز ، يا وسخ الكوز ، يا درهما لا يجوز ! يا فسوة التنين ، يا نخلة العنين ، يا حديث المغنين ! يا سنة البوس ، يا ضرطة العروس ، يا كوكب النحوس ، يا وطاة الكابوس ، يا تخمة الرؤوس ! يا أم حبين ، يا رمد العين ، يا غداة البين ، يا فراق المحبين ، يا ساعة الحين ، يا مقتل الحسين ، يا ثقل الدين ، يا سمة الشين ! يا بريد الشوم ، يا طريد

(١) كما سترى في حكاية أبي القاسم البغدادى التي حللناها في آخر هذا الباب . (٢) مخففة عن البزس .

(٣) دوية كربة المنظر .

اللوم، يا ثريد الثوم، يا دية الزقوم! يا منع الماعرن، يا سنة الطاعون! يا بنى العبيد، يا آية
 الوعيد، يا كلام المعيد! يا أقبح من حتى، في مواضع شتى! يا دودة الكنيف، يا فروة
 الصيف، يا نَحْنَح المُضَيِّف، اذا كَسِرَ الرغيف! يا جشاء المخمور، يا نكهة الصقور، يا وتد
 الدور، يا خزونة القدور، يا أربعاء لا تدور، يا طمع المقمور! يا ضجر اللسان، يا بول
 الخصيان، يا مؤاكلة العميان، يا شفاعاة العريان، يا سبت الصبيان! يا كَلَاب التعازى،
 يا قرارة المخازى، يا بخل الأهوازى، يا فضول الرازى! والله لو وضعت إحدى رجلك على
 أروند، والأخرى على دماوند، وأخذت بيدك قوس قزح، وندفت الغيم في جباب الملائكة
 ما كنت إلا حلاجاً!!

وقال الآخر:

يا قراد القرد، يا لبود اليهود، يا نكهة الأسود، يا فسوة السود، يا ضرطة في السجود،
 يا عدما في وجود! يا كلبا في الهراش، يا قردا في الفراش، يا قرعية بمأش^(٣)، يا أقل من لاش!
 يا دخان النقط، يا صنان الابط، يا زوال الملك، يا هلال الهلك! يا أخبث ممن باء بذل
 الطلاق، ومنع الصداق! يا وحل الطريق، ياماء على الريق! يا محرك العظم^(٤)، يا معجل
 الهضم، يا قلع الأسنان^(٥)، يا وسخ الآذان! يا أجر من قلس، يا أقل من قلس! يا أفضح من
 عبرة، يا أبغى من إبرة! يا مهيب الخلف، يا مدرجة الأكف! يا كلمة ليت، يا وكف
 البيت، يا كيت وكيت! والله لو وضعت آستك على النجوم، ودليت رجلك في التخوم،
 واتخذت الشعرى خفا، والثريا رفا، وجعلت السماء منوالا، وحكت الهواء سربالا، فسديته
 بالنسر الطائر، وألحمته بالفلك الدائر، ما كنت إلا حائكا! « .

(١) الخزونة : التغير والفساد . (٢) ندفه ضربه بالمندفة التي يطرق بها الوتر ليرق القطن .

(٣) القرعية طعام يصنع من القرع، والمأش حب يقرب من حب الباقلاء يقرب في طعمه من العدس فاذا خلط بالقرع

كان كزبه المذاق . (٤) محرك العظم هو الحى الشديدة المصحوبة بالبرد والقشعريرة . (٥) قلع الأسنان

ما يعلوها من خضرة أو صفرة . (٦) القلمس بفتح فسكون الحبل يجرب به المركب .

وهنا يتحدثنا عيسى بن هشام أنه لم يدر أيهما يؤثر ؛ فما منهما الا بديع الكلام ، عجيب المقام ، ألد الخصام .

وهذا النمط من الانشاء لا يراد به الا الظهور بقوة القريحة ، وغنى اللغة ، وخصب الخيال . وهو يمثل هذر الحضريين وسفاهاتهم وميلهم الى شناعة القيل والقال . وعند مراجعة هذه الأهاجى نجد فيها عبارات طريفة تبعث الضحك الى ثغر الحزين .

وهل فى الدنيا أبرد من « نطح المضيف ، اذا كسر الرغيف » ؟ !

وهل فى الحياة أثقل من « شفاعة العريان ، وسبت الصبيان » ؟

٥ — والوصف من الفنون المقصودة فى مقامات بديع الزمان ، وهو يفتن فيه من موضع الى موضع ، وأنظر قوله فى المقامة الأسدية :

« ... الى أن أتفقت لى حاجة بحجص ، فشذت الحرص ، فى صحبة أفراد كنجوم الليل ،^(١)
أحلاس لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق نذهب مسافته ، ونستأصل شافته ، ولم تزل أسمة^(٢)
النجاد ، بتلك الجياد ، حتى صارت كالعصى ، ورجمت كالقسي^(٣) ، وتاح لنا واد فى سفح
جبل ذى ألاء وأئل كالعدارى يسرحن الضفائر ، وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا اليها^(٤)
ونزلنا نفور ونفور^(٥) ، وربطنا الأفراس ، بالأمراس ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا الا صهيل الخيل ،
ونظرت الى فرس يحدّ قوى الجبل بمشافره ، ويخذ خد الأرض بحافره ، ثم اضطربت الخيل
فأرسلت الأبوال ، وقطعت الجبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا الى سلاحه
فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه ، منتفخا فى إهابه ، كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد
ملى صلفا ، وأنف قد حشى أنفا ، وصدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا :
خطب والله ! وتبادر اليه من سرعان الرفقة فتى :

أخضر الجلدة فى بيت العرب يسأأ الولو الى عقد الكرب^(٦)

(١) الاحلاس جمع حلس بالكسر وهو البردعة . (٢) النجاد جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .

(٣) تاح : عرض . (٤) نفور : نزل الغور . (٥) نفور : نائم .

(٦) أخضر الجلدة : أسمر اللون .

بقلب ساقه قدر، وسيف كله أثر، وملكته سورة الأسد نخاعته أرض قدمه، حتى سقط ليده وفه، وتجاوز الأسد مصرعه، إلى من كان معه، ودعا الحين أخاه، بمثل ما دعاه، فصار إليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضه، وأفرش الليث صدره. ولكنى رميته بهامتي، وشغلت فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتى فوجاً بطنه، حتى هلك الفتى من خوفه، والأسد للوجأة في جوفه. ونهضنا في أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه.

فلما حثونا التراب فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها، حتى إذا ضمرت المزد، ونقد الزاد أو كاد يدركه النفاد، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلين الظماً والجوع، عت لنا فارس فصمدنا صمده، وقصدنا قصده. ولما بلغنا نزل عن حرّ فرسه ينقش الأرض بشفتيه، ويلقى التراب بيديه، وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى، وتحتم بجنابى، ونظرت فاذا وجهه يبرق برق العارض المتهلل، وقوام متى ما ترقّ العين فيه تسهل، وعارض قد أخضر، وشارب قد طرّ، وساعد ملآن، وقضيب ريان، ونجاد تركى، وزى ملكى، فقلنا: ما لك، لا أباك ! فقال: أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم^(١). فهمت على وجهى إلى حيث ترانى. وشهدت شواهد حاله، على صدق مقاله. ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالى مالك. فقلت بشرى لك وأذاك سيرك إلى فناء رجب، وعيش رطب! وهنأتى الجماعة، وجعل ينظر فتقتلنا ألاحظه، وينطق فتفتننا ألاحظه، والنفس تنازعنى فيه بالمحذور، والشيطان من وراء الغرور، فقال: ياسادة! إن فى سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء^(٢)، نخذوا من هناك الماء، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركب الجنادب العيدان، فقال: ألا تقيلون فى هذا الظل الرطب، على هذا الماء العذب؟ فقلت: أنت وذاك! فتزل

(١) أى عن فرسه الحز العتيق. (٢) وقع هذا التعبير فى كلام بديع الزمان غير مرة وهو فى الأصل من

كلام امرئ القيس. (٣) الهم: العزم. (٤) عوراء: قليلة العيون فليس بها ما

عن فرسه ونحى منطقته^(١)، وحل قرطته^(٢). فما آستر عنا إلا بغلالة تنم على بدنه، فما شككت أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج فخطها، وإلى الأفراس فخشها^(٣)، وإلى الأمكنة فرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقفت الأبصار عليه^(٤)، .. وقلت : يا فتى ! ما ألطفك في الخدمة، وأحسنك في الجملة ! فالويل لمن فارقته، وطوبى لمن رافقته ! فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ فقال : ما سترونه منى أكثر ! أتعجبكم خفى في الخدمة، وحسنى في الجملة، فكيف لو رأيتموني في الرفقة ؟ أريكم من حذق طرفا، لتردادوا بى شغفا ؟ فقلنا : هات ! فعمد إلى قوس أحدنا فوق سهما فرماه في السماء، وأتبعه بأخر فشقه في الهواء، وقال : سأريكم نوعا آخر، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسى فعلاه، ورمى أحدنا بسهم أثبتة في صدره، وطيره من ظهره . فقلت : ويحك، ما تصنع ؟ ! فقال : أسكت يالْكَم ! والله ليشدّت كل منكم يد رفيقه، أو لأغصّنه بريقه ! فلم ندر ما نصنع، وأفراسنا مربوطة، وسروجنا محبوسة، وأسلحتنا بعيدة، وهو راكب ونحن رجاله، والقوس في يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها البطون والصدور، وحين رأينا الحدّ، أخذنا القدّ^(٥)، فشدّ بعضنا بعضا، وبقيت وحدى، لا أجد من يشدّ يدي، فقال : انخرج بإهابك، عن ثيابك ! فخرجت، ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر. ويقول : أقمت قضيتك، فخذ نصيبك ! ... الخ“ .

والقصة في حملتها فكاهة . ولكن الوصف ظاهر فيها كل الظهور، وفيها فقرات تعدّ من آيات الوصف السابغ، والحركة قوية في تلك الأقصوصة، والمناظر تتوارد في حياة وأنسجام . وعند تأمل ما انتهت إليه نجد الغرض في غاية من التفاهة، فكأن بديع الزمان ما كان يقصد غير هذه الأوصاف .

(١) المنطقة : الحزام .

(٢) القرطقة : مؤنث قرطق وهو قباء ذو طاق واحد وأصله (كوتة) بالفارسية (راجع شرح المقامات للشيخ

محمد عبده ص ٣٩) . (٣) ألقي لها الحشيش .

(٤) حذفتنا من هذا الموطن كلمات فيها مجون . (٥) القدّ بالكسر سير من جلد غير مدبوغ .

والمقامة الخمرية وضعت قصدا لوصف الصباء ، فيحدثنا عيسى بن هشام : أنه كان في عنفوان شببته عدل ميزان عقله ، وعدل بين جدّه وهزله ، بفعل النهار للناس ، والليل للкас ، وأنه اجتمع في بعض لياليه مع إخوان الخلوة فما زالوا يتعاطون نجوم الأقداح ، حتى نفذ ما معهم من الراح ، ثم دعته دواعي الشطارة ، إلى حان الخمار ، والليل أخضر الدياج ، مقتلم الأمواج ، فلما أخذوا في السبح ، ثوب منادى الصبح ، فخنس شيطان الصبوة ، وتبادروا إلى الدعوة ، وقاموا وراء الإمام ، قيام البررة الكرام ، بوقار وسكينة ، وبحركات موزونة ، وإمامهم يحدّ في خفضه ورفع ، ويدعوهم بإطالته إلى صفعه ! حتى إذا راجع بصيرته ، ورفع بالسلام عقيرته ، تريخ في ركن محرابه ، وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل إطرافه ، ويدمّ استنشاقه ، ثم قال : أيها الناس ! من خلط في سيرته ، وأبتلى بقاذورته ، فليسه ديماسه^(١) ، دون أن تتجسنا أنفاسه ، انى لأجد منذ اليوم ، ريح أم الكبائر من بعض القوم ، فما جزء من بات صريع الطاغوت ، ثم آبتكر إلى هذه البيوت ؟ !

وأشار إمام المسجد إلى عيسى بن هشام وأصحابه فتألبت عليهم الجماعة حتى مزقت أرديتهم ، وأدمت أفقيتهم ، فأقسموا لا عاودوا الشراب ، وأفلتوا وما كادوا يفتنون ، وسألوا من مرّ بهم من الصبية ، عن إمام تلك القرية ، فأجابهم الصبية : بأنه الرجل التقى أبو الفتح الاسكندري ؛ فقالوا : سبحان الله ! ربما أبصر عجميت ، وآمن عفريت ! والحمد لله لقد أسرع في أوبته ، ولا حرمنا الله مثل توبته . وجعلوا بقية يومهم يعجبون من نسكه ، مع أنهم كانوا يعجبون من فسقه ... ثم شرع عيسى بن هشام في الوصف فقال :

”ولما حشرج النهار أو كاد ، نظرنا فإذا برايات الحان أمثال النجوم ، في الليل البهيم ، فتهادينا بها السراء ، وتباشرنا بليلة غراء ، ووصلنا إلى أنخمها بابا ، وأنخمها كلابا ، وقد جعلنا الدينار إماما ، والاستهتار لزاما ، فدفعنا إلى ذات شكل ودلّ ، ووشاح منحلّ ، اذا قتلت

(١) الديماس : البيت .

(٢) الشكل الغزل .

ألاحظها، أحيت ألفاظها، فأحسنّت تلقينا، وأسرعت تقبل رؤوسنا وأيدينا، وأسرع من معها من العلوج، الى حط الرحال والسروج، وسألنا عن نحرها فقالت :

نحمر كريقى فى العذو بة واللذاذة والحلاوة
تسذر الحليم وما علي له حلمه أدنى طلاوة

كأنما أعتصرها من خدى ، أجداد جدى ، وسربلوها من القار بمثل هجرى وصدى ،
ودبعة الدهور، وخيئة جيب السرور، وما زالت تتوارثها الأخيار، ويأخذها الليل والنهار،
حتى لم يبق إلا أرج وشعاع، ووهج لذاع، ريحانة النفس، وضرة الشمس، فتاة البرق، عجوز^(١)
الملق، كاللهب فى العروق، وكبرد النسيم فى الخلق، مصباح الفكر، وترياق سم الدهر، بمثلها
عُزُر الميت فانتشر، ودوى الأكمة فنظر .

ثم ينتقل عيسى بن هشام فيحدثنا بعد هذا الوصف أنهم قالوا :

”هذه الضالة وأبيك، فمن المطرب فى ناديك؟ ولعلها تُشعشع للشرب، من ريقك العذب!“ .

وأنها أجابتهم بأن لها شيخا ظريف الطبع طريف المجون، مر بها يوم الأحد فى دير المربد،
فوقعت بينهما الخلطة، وتكررت الغبطة، وذكر لها من وفور عرضه، وشرف قومه فى أرضه،
ما عطفها عليه . وأشتاق عيسى بن هشام الى رؤية هذا الشيخ الذى يجمع بين ظرف الطبع
وطرافة المجون فإذا هو أبو الفتح الاسكندرى إمام المسجد فى صباح الأمس !

أكان بديع الزمان يريد بهذه المقامة أن يعرض ببعض الأشياخ الذين يظهرون بسمت
مشرق، وينطوون على زيغ موبق ؟

لا، إن بديع الزمان نفسه مرتاب، ولذلك نراه ينطق أبا الفتح بهذه الأبيات :

دع من اللوم ولكن أى دكاك ترائى^(٣)
أنا من يعرفه كل تهمام ويمانى

(١) البرق بالتحريك : التزين . (٢) عزز : أعين . (٣) الدكاك : المحال .

أنا من كل غبار أنا من كل مكان
ساعةً ألزم محمرا بآ وأنحري بيت حان
وكذا يفعل من يع قل في هذا الزمان

ومن المقامات التي أريد بها مجرد الوصف المقامة الحمدانية، وهي في وصف الخيل، وهي مشهورة، وقد شرحها صاحب "زهر الآداب"^(١).

٦ -- أكثر بديع الزمان في مقاماته من الكلام على الشعر والشعراء، فأنطق أبا الفتح في المقامة العراقية بهذه الأسئلة الطريفة:

هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله؟^(٢)
وهل نظمت مدحا لم يعرف أهله؟^(٣)
وهل لها بيت سمج وضعه، وحسن قطعه؟^(٤)
وأى بيت لا يرقأ دمه؟^(٥)
وأى بيت يثقل وقعه؟^(٦)
وأى بيت يشج عروضة، ويأسو ضربه؟^(٧)

- (١) راجع ص ٢٨ و ٢٩ من الجزء الثاني .
(٢) مثاله قول الشاعر :
دراهمنا كلها جيد فلا تحبسنا بتقادها
فان هذا البيت كالمثبور لا تقديم فيه ولا تأخير .
- (٣) مثاله قول الهذلي :
ولم أدر من ألقى عليه رداؤه على أنه قد سل عن ماجد محض
- (٤) مثاله قول أبي نواس :
فبتنا يرانا الله شر عصابة نجرر أذيال الفسوق ولا نخر
- (٥) مثاله قول ذى الرمة :
ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كل مفرية مرب
- (٦) مثاله قول ابن الرومي :
إذا من لم يمين بمن يمينه وقال لنفسى أيها النفس أمهلى
- (٧) مثاله قول الشاعر :
دلقت له بأبيض مشرقا كما يدنو المصاغخ للسلام

- وأى بيت يعظم وعيده ويصغر خطبه^(١) ؟
 وأى بيت هو أكثر رملا من يبرين^(٢) ؟
 وأى بيت هو كأسنان المظلوم^(٣) ، والمنشار المثلوم^(٤) ؟
 وأى بيت يسرك أوله ويسوءك آخره^(٥) ؟
 وأى بيت يصفحك باطنه ، ويخدعك ظاهره^(٦) ؟
 وأى بيت لا يخاق سامعه ، حتى تذكر جوامعه^(٧) ؟
 وأى بيت لا يمكن لمسه^(٨) ؟
 وأى بيت يسهل عكسه^(٩) ؟

- (١) مثاله قول عمرو بن كلثوم :
 كأي سيفونا منا ومنهم
 مخاريق بأيدى لاعبيننا
- (٢) مثاله قول ذى الرمة :
 معرويا يمرض الرضراض يركضه
 والشمس حيرى لها في الجو تدويم
- (٣) المظلوم هو الذي كسر ظله أى أسنانه .
- (٤) مثاله قول الأعشى :
 وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى
 شاء مثل شليل شلشل شول
- (٥) مثاله قول امرئ القيس :
 مكر مفر مقبل مدبر معا
 بكهود صخر حطه السيل من عل
- (٦) مثاله قول الشاعر :
 عاتبتها فبككت وقالت يافى
 نجاك رب العرش من عنى
- (٧) مثاله قول طرفة :
 وقوفا بها صحنى على مطيم
 يقولون لا تهلك أسمى وتجلد
- فان السامع يظن أنك تنشد قول امرئ القيس .
- (٨) مثاله قول الخبزرى :
 تقشع غيم الهجر عن قمر الحب
 وأشرف نور الصلح من ظلة العتب
- وقول أبى نواس :
 نسيم عبير في غلالة ماء
 وتمثال نور في أديم هوا
- (٩) مثاله قول حسان :
 بيض الوجوه كريمة أحسابهم
 شم الأنوف من الطراز الأول

- وأى بيت هو أطول من مثله ، وكأنه ليس من أهله^(١) ؟
 وأى بيت هو مهين بحرف ، ورهين بحذف^(٢) ؟
 وفى المقامة الشعرية ينطقه بهذه الأسئلة :
 أى بيت شطره يرفع ، وشطره يدفع^(٣) ؟
 وأى بيت نصفه يغضب ، ونصفه يلعب^(٤) ؟
 وأى بيت إن حرك غصنه ، ذهب حسنه^(٥) ؟
 وأى بيت مدحه ذم^(٦) ؟
 وأى بيت يأكله الشاء ، متى شاء^(٧) ؟
 وأى بيت حله عقد ، وكله نقد^(٨) ؟

- (١) مثاله قول المتنبي :
 عش أبى آمم سد جد قد مر أنه أسر فله تسلى غط آدم صب آحم أغز آسب رع زع دل آئن نل
 (٢) مثاله قول أبى نواس :
 لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع در على خالصه
 فاذا أنشدت «ضاع» كان هجاء ، وإذا أنشدت «ضاء» كان مدحا .
 (٣) مثاله قول الشاعر :
 والله عندى جانب لا أضيعه والله عندى جانب والخلاعة جانب
 (٤) كقول الشاعر :
 كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبيننا
 (٥) مثاله قول الشاعر :
 لك قسدا لولا جوارح عينيه لك لغنت عليه ورق الحمام
 (٦) مثاله قول الشاعر :
 فان قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شئ . وإن هانا
 (٧) مثاله قول الشاعر :
 فيا للنوى جذ النوى قطع النوى رأيت النوى قطاعة للقرائن
 (٨) مثاله قول الأعشى :
 دراهمنا كلها جيد فلا تحبسنا بتفادها

وأى بيت نصفه مدّ، ونصفه ردّ؟^(١)

وأى بيت إن أفلتناه ، أضللناه؟^(٢)

وأى بيت قام ، ثم سقط ونام؟^(٣)

وأى بيت أوله يطلب ، وآخره يهرب؟^(٤)

وأى بيت ضاق ، ووسع الآفاق؟^(٥)

وأى بيت كاد يذهب فعاد .^(٦)

وفي المقامة القريضية ينطق عيسى بن هشام وأبا الفتح الإسكندري بأسئلة وأجوبة تعين خصائص الشعراء المتقدمين . وإليك هذا الحوار .

عيسى بن هشام — مخاطبا أبا الفتح — يا فاضل! أدنُ فقد منيت ، وهات فقد أثبت .

أبو الفتح — سلوني أجيبكم ، واسمعوا أعجبكم !

عيسى بن هشام — ما تقول في أمرئ القيس ؟

(١) مثاله قول البكري :

أناك دينار صدق ينقص سنين فلدا
من أكرم الناس إلا أصلا وفرط ونفعا

(٢) مثاله قول الشاعر :

ألا إنني بال على حمل بال يقود بنا بال ويتبعنا بال

(٣) كقول الآخر :

ألا أيها النواجم ويحكوا هبوا أسألكم هل يقتل الرجل الحب ؟

(٤) مثاله :

يجهل بكهل السيف والسيف منتضى وحلم كحل السيف والسيف منعد

(٥) كقول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

(٦) كقول المتنبي :

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

أبو الفتح — هو أول من وقف بالديار وعمرصاتها، وأغتندى والطير في وكثاتها، ووصف الخليل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسبا، ولم يجد القول راغبا، ففضل من تفتق لليلة لسانه وأتبع للرغبة بنانه .

عيسى بن هشام — فما تقول في النابغة ؟

أبو الفتح — يثلب اذا حنق، ويمدح اذا رغب، ويعتذر اذا وهب، ولا يرمى إلا صائبا .

عيسى بن هشام — فما تقول في زهير ؟

أبو الفتح — يذيب الشعر والشعر يذيه، ويدعو القول والسحر يحبيه .

عيسى بن هشام — فما تقول في طرفة ؟

أبو الفتح — هوماء الأشعار وطينتها، وكثر القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه .

عيسى بن هشام — فما تقول في جرير والفرزدق، وأيهما أسبق ؟

أبو الفتح — جرير أرق شعرا، وأغزر غزرا، والفرزدق أمتن صحرا، وأكثر نخرا، وجرير أوجع هجوا، وأشرف يوما، والفرزدق إذا أفتخر أجزى، وإذا أحتقر أزرى، وإذا وصف أوفى .

عيسى بن هشام — فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟

أبو الفتح — المتقدمون أشرف لفظا، وأكثر من المعاني حظا، والمتأخرون ألطف صنعا، وأرق نسجا .

وهذا وذاك يبين كيف كان كتاب القرن الرابع يعنون بدراسة الشعر وتعقب أخبار الشعراء، وإنما لنجد مصداق ذلك في مكان آخر إذ يتحدثنا عيسى بن هشام بأن « البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره » وقد أسلفنا القول بأن مدرسة القرن الرابع النثرية تعتمد في أسسها على المذاهب الشعرية من حيث الصنعة والخيال .

٧ - ولم يكتف بديع الزمان بالخوض في الشؤون الأدبية، بل تعداها إلى العضلات الكلامية؛ فعرض لمذهب المعتزلة بالتحقير والتسفيه، وأتخذ المتكلم من بين المجانين، إذ حدثنا أن عيسى بن هشام قال :

دخلت مارستان البصرة ومعى أبو داود المتكلم فنظرت إلى مجنون تأخذنى عينه وتدعنى فقال : إن تصدق الطير فأتم غرباء . فقلنا كذلك . فقال : من القوم ، لله أبوهم ؟ فقلت : أنا عيسى بن هشام ، وهذا أبو داود المتكلم . فقال : العسكرى ؟ قلت : نعم ، فقال : شأته الوجوه وأهلها ! إن الخيرة لله لالعبد ، والأمور بيد الله لا بيده . وأتم ياجوس هذه الأمة يعيشون جبراً ، وتموتون صبراً ، وتساقون إلى المقدور قهراً ، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . أفلا تنصفون ؟ إن كان الأمر كما تصفون ، وتقولون خالق الظالم ظالم ، أفلا تقولون خالق الهلك هالك ؟ أتعلمون يقينا ، أنكم أخبث من إبليس دينا ، قال رب بما أغويتنى ، فأقر وأنكرتم ، وآمن وكفرتم ، وتقولون خير فاختار ، وكلا فان المختار لا يبيع بطنه ، ولا يرمى من خالق أبنه ؛ فهل الإكراه ، إلا ماتراه ، والا كراه مرة بالمرة ومرة بالدره ، فليخزكم أن القرآن بغيضكم ، وأن الحديث يغيظكم ، إذا سمعتم « من يضل الله فلا هادى له » ألدتم ، وإذا سمعتم « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » جحدتم ، وإذا سمعتم « عرضت على الجنة حتى هممت أن أقطف ثمارها ، وعرضت على النار حتى آتقت حرها بيدى » أنغضتم^(١) رؤوسكم ، ولو يتم أعناقكم ، وإن قيل عذاب القبر تطيرتم ، وإن قيل الصراط تغامزتم ، وإن ذكر الميزان قلتم : من الفِرغ كفتاه ، وإن ذكر الكتاب قلتم : من القِد دفناه . يا أعداء الكتاب والحديث بهم تطيرون ؟ أبا لله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ إنما

(١) يريد : إن تصدق الفراسة . (٢) شأته : قبحت . (٣) رد على المعتزلة الذين يقولون بأن المرء مختار في أفعاله . (٤) أى مقهورين على الحياة . (٥) الموت صبراً أن يجبس الرجل حتى يموت والمراد أنهم محبوسون في آجالهم . (٦) إشارة إلى جواب القرآن في الرد على من قالوا : « لو كان لنا من الأمر شئ . ما قلنا هاهنا » . (٧) المرة بالكسر العقل . (٨) حركتموها كالمتعجين .

مرقت مارقة فكانوا خَبَث الحديث، ثم مرقت منها فأتَمَّ خَبَث الحديث . يا مخانيث الخوارج ترون رأيهم إلا القتال، وأنت يا ابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض . سمعت أنك أفرشت منهم شيطانة^(١)، ألم ينهك الله عز وجل أن^(٢) تتخذ منهم بطانة ؟ ويلك هلا تخيرت لنطفتك، ونظرت لعقبك ! ثم قال : اللهم أبدلني هؤلاء خيرا منهم وأشهدني ملائكتك^(٣) ! »

ثم يتحدثنا ابن هشام أنه بقي هو وأبو داود لايحيران جوابا، ويتبين بعد المراجعة أن ذلك المجنون كان أبا الفتح الاسكندري « ينبوع العجائب »

٨ — ولبيدع الزمان مقامة تدل على نحو من فساد الحياة الاجتماعية في بغداد لذلك الحين هي المقامة الرصافية ، وقد شرح فيها حيل اللصوص ، وهي حيل فيها القبيح والطريف عددها فرأيتها تجاوز السبعين حيلة وما أظن قرأى ينتظرون أن أخلص تلك المقامة الشريرة فهم عنها أغنياء ! على أن أكثر تلك الحيل لا ينفع اليوم — فلا يأسف بعض الناس ! — لأن أوضاع اللباس وطرق المعاش تغيرت في الدنيا عما كانت عليه منذ عشرة قرون في بغداد، ولعل اللصوص المحدثين اخترعوا من الحيل ما لو رآه بديع الزمان لبدت له حيل بغداده ألعيب صبيانية !

وفي المقامة الرصافية قصة ماجنة أظرف المجون ، ولكنها لاترعى في هذا الكتاب ، وقد أسقطها المرحوم الشيخ محمد عبده من طبعته ، وبقيت في طبعة استانبول ، وخلاصتها أن عيسى بن هشام عَنَ له على سطح البيت سواد فنظر فإذا هو غلام كانت له مع ابن هشام سابقة إدلال . فتحدث مع جاريته حديثا فهم منه اللص أن في البيت ذخائريهون يجانبها العرض . وتمت الخديعة ، ونرجع من البيت وهو خزيان ، وصح لابن هشام أن يقول :

« وفتش الغلام البيت ؛ فلم يجد سوى البيت » .

وهو تهكم ظريف !

(١) المراد إحدى نساء المعتزلة ، والافتراء هنا الزواج .

(٢) يريد أن الموت خير من صحبة هؤلاء .

٩ - وبديع الزمان مفطور على الفكاهة ، وهى منشورة فى رسائله ومقاماته ، وفى هذا الكتاب طرف مما تخيرناه ^(١) . فلنشر فى هذا الفصل إلى حديث عيسى بن هشام حين طال شعره ، وآتسخ بدنه ، فقد سأل غلامه أن يختار له حماما وحماما "وليكن الحمام واسع الرقعة ، نظيف البقعة ، طيب الهواء ، معتدل الماء ، وليكن الحمام خفيف اليد ، حديد الموصى ، نظيف الثياب ، قليل الفضول" .

ودخل الحمام ، فدخل على أثره رجل وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه . ثم خرج ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام ، ويفمزه غمزا يهذ الأوصال ، ويصفّر صفيرا يرش البزاق . ثم عمد إلى رأسه يغسله ، وما لبث أن دخل الأول فلطم الثانى لكمة فقعقت أنيابه وقال : يا لكع ! مالك ولهذا الرأس وهو لى ؟ ثم عطف الثانى على الأول فضربه ضربة هتكت حجابيه وقال : بل هذا الرأس حق وملكى وفى يدي . ثم تلاكما حتى عيا . وتحاكما الى صاحب الحمام فقال الأول : أنا صاحب هذا الرأس ، لأنى لطخت جبينه ، ووضعت عليه طينه ، وقال الثانى : بل أنا مالكة ، لأنى دلكت حامله ، وغمزت مفاصله ! فقال الحمامى : لئتنونى بصاحب الرأس أسأله ، ألك هذا الرأس أم له ؟

وأتيا عيسى بن هشام فقالا : لنا عندك شهادة .

الحمامى - مخاطبا عيسى بن هشام - يا رجل ! لا تقل غير الصدق ، ولا تشهد بغير الحق ، وقل لى : هذا الرأس لأيهما ؟

عيسى ابن هشام - يا عافاك الله ! هذا رأسى قد صحبني فى الطريق ، وطاف معى بالبيت العتيق . وما شككت أنه لى !

الحمامى - اسكت يا فضولى !

ثم مال الحمامى إلى أحد الخصمين وقال :

(١) ونوصى القارئ بالرجوع الى مناظرة بديع الزمان للخوارزمى المثبتة فى آخر الجزء الثانى من هذا الكتاب فقها

شواهد كثيرة على روح الفكاهة عند بديع الزمان .

يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس ، بهذا الرأس ! تسَلَّ عن قليل خطره ، إلى لعنة الله
وَحَرَسَقْرَه . وهب أن هذا الرأس ليس ، وأنا لم نر هذا التيس !
وكانت النتيجة أن نجل عيسى بن هشام ولبس ثيابه وأنسلَّ من الحمام .
وللقارئ أن يتأمل الدعابة في هذه الأقصوصة فإنها في غاية من الظرف .
أما قوله ” اسكت يا فضولى ! “ فهو في هذا الموضع من وثبات الخيال .

١٠ — ويجانب الأوصاف والفكاهات وضع بديع الزمان طائفة من العظات ، كأنه
أراد أن يودع مقاماته أظهر ضروب البيان ، من ذلك ما حدثنا أن أبا الفتح الإسكندري
لما جهز ولده للتجارة أوصاه فقال :

” يا بني ! إني وإن وثقت بمتانة عقلك ، وطهارة أصلك ، فإني شفيق ، والشفيق سيئ
الظن ، ولست آمن عليك النفس وسلطانها ، والشهوة وشيطانها ، فاستعن عليهما نهارك بالصوم ،
وليلك بالنوم ، إنه كبوسٌ ظهارته الجوع ، وبطانتة الهجوع ، وما لبسهما أسد إلا لانت
سورته ، أفهمتهما يا ابن الخبيثة ؟ ! وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصين أحدهما الكرم ،
وأسم الآخر القرم^(١) ، فإياك وإياهما . إن الكرم أسرع في المال من السوس ، وإن القرم أشأم
من البسوس^(٢) . ودعني من قولهم : إن الله كريم . إنما خدعة الصبي عن اللبن . بلى إن الله
لكريم ، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره ، ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم
خصاله . فأما كرم^(٣) لا يزيدك حتى ينقصني ، ولا يريشك حتى يريني ، فخذلان لا أقول
عبرى ، ولكن بقرى . أفهمتهما يا ابن المشثومة ؟ ! إنما التجارة ، تنبط الماء من الحجارة ،
وبين الأكلة والأكلة ريج البحر ، بيد أن لا خطر ، والصين غير أن لا سفر ، أفتركه وهو
معرض ثم تطلبه وهو معوز ؟ أفهمتهما لا أم لك ؟ ! إنه المال ، عافاك الله ! . فلا تتفقن
إلا من الريج ، وعليك بالخبز والملح ، ولك في النخل والبصل رخصة مالم تدمهما ، ولم تجمع^(٤)

(١) القرم ، بالتحريك ، اشتداد الشهوة إلى اللحم (٢) امرأة عربية ثارت بسببها الحرب أربعين عاما بين
قبيلتين فضرب بها المثل في الشؤم . (٣) منسوب إلى بقر يضف ففتح وهو الداهية .
(٤) من أذمه وجده ذميا .

بينهما . واللحم لحك وما أراك تأكله ، والحلو طعام من لا يبالي على أى جنبه يقع ، والوجبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشبع داعية الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج ، خذ كل ما معهم وأحفظ كل ما معك !

يا بنى قد أسمعت وأبلغت ، فإن قبلت فإله حسبك ، وأن أبيت فإله حسبيك^(١) .

وهناك المقامة الوعظية وقد رصعها بأبيات من الشعر متحدة القافية والوزن ، وهو فن يجيده بديع الزمان .

١١ - وهناك مقامات كثيرة نحسبها انتهت من رسائله ، وهى بعيدة عن منحنى القصص ، وأغلب الظن أنها رتبت كذلك على أيدي بعض النساخ .

١٢ - وبديع الزمان فى مقاماته رجل حرص وحذر وأرتياب ، ولا يُنطق أبا الفتح بالحكمة إلا اقتناصا لئال ، ففى المقامة الكوفية يُطرق باب عيسى بن هشام فيسأل من المشتاب ؟ فيجيب الطارق : « وفد الليل وبريده ، وفلّ الجوع وطريده ، وحرّ قاده الضر ، والزمن المر ، وضيفّ وطؤه خفيف ، وضالّته رغيف ، وجار يستعدى على الجوع ، والجيب المرقوع ، وغريب أوقدت النار على سفره ، ونبح العواء فى أثره ، ونبذت خلفه الحصيات ، وكنست بعده العرصات ، نضوه طليح ، وعيشه تبريح ، ومن دون فرخيه مهامه فيح^(٢) » .

ويهش عيسى بن هشام لهذا السائل الأديب فينتفحه بالمال ويقول : زدنى سؤلا أزدك نوالا ! فيقول الطارق :

« ما عَرَضَ عَرَفَ العود ، على أحر من نار الجود ، ولا ألقى وفد البر ، بأحسن من بريد الشكر ، ومن ملك الفضل فليواس ، فلن يذهب العرف بين الله والناس » .

(١) وهذه الوصية أشباه فى أدب بديع الزمان ، ورسائله فى وصيته لابن أخته معروفه ، وقد ترجمناها الى الفرنسية

« أنظر الأصل الفرنسى ص ١٥٤ و ١٥٥ » .

(٢) المهامه جمع مهمه وهو اليداء ، وفيح جمع أفيح وفيحاء ، أى واسعة ، والمعنى مأخوذ من قول ابن محم الشيبانى :

وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفرانخى مهامه فيح

ويطرب عيسى بن هشام لهذا السجع الجميل ويفتح الباب فيرى السائل أبا الفتح فيقول :
«شد والله يا أبا الفتح ما بلغت منك الخصاصة ! » :

فيتبسم أبو الفتح وينشئ يقول .

أنا فيه من الطلب	لا يفرتك الذى
لها بردة الطرب	أنا فى ثروة تشق
ت سقوفا من الذهب	أنا لو شئت لأتخذ
ط وطورا من العرب	أنا طورا من النبى

وفى المقامة القردية يفضل الحق على العقل ويقول :

الذنب للأيام لا لى	فأعتب على صرف الليالى
بالحق أدركت المنى	ورفلت فى حلل الجمال

١٣ — وخلاصة القول أن مقامات بديع الزمان تحفة من تحف النثر الفنى فى القرن الرابع، وقد أردنا أن نطيل بها الطواف ليتعرف إليها القارئ ، فقد كان مفهوما عند كثير من الناس أنها ألعاب لفظية ليس فيها من المعانى ما يستحق الدرس، ولكننا بعدمواجهتها مرة ومرة رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح ما يوجب الإعجاب، وكنا نحفظها فى الحداثة، غير أننا لم نكن ندرك خطرها كما تمثلت لنا فى هذه الأيام .

فى تلك المقامات بعض العيوب، ولكن أى عمل فنى سلم سلامة مطلقة من العيوب ؟ ونؤكد للقارئ أننا لم نكشف من محاسنها إلا القليل ، فليعد إليها يطالعها فى فهم وروية، وليتأمل بصفة خاصة قرار الألفاظ والتراكيب وصوغ الأمثال .

وسيرى القارئ فى الجزء الثانى لمحات من سيرة بديع الزمان وتحليل رسائله ، ولكن ذلك لا يغنى عن العودة الى مقارنة المقامات بالرسائل واستخلاص صور الحياة الاجتماعيه لذلك العهد من آثار ذلك الكاتب النجاج .

٣ - أحاديث ابنه دريد

رأى القارئ أن بديع الزمان الهمداني ليس المنشئ الأول لقن المقامات، وإنما حاكي أحاديث ابن دريد، فمن هو ابن دريد؟ وما عسى أن تكون الأربعون حديثاً التي أنشأها وفتح بها باب القصص لبديع الزمان؟

١ - ولد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بالبصرة في خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ ثم صار إلى عمان فأقام بها مدة، ثم صار إلى فارس فسكنها مدة، ثم قدم بغداد فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢١

ولسنا هنا بصدد الإفاضة في حياة ابن دريد وما وقع فيها من مختلف الأحداث، وما عُرف به من قوة الحفظ وكثرة الإملاء، وما أخذ عليه من أفعال العربية وتوليد الألفاظ، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها، وإنما يهمنا أن نذكر بعض الجوانب الدقيقة من تلك الشخصية القوية التي حسبها الناس لا تحسن غير رواية اللغة والشعر وتصريف الأفعال. وسنرى أن ابن دريد بالرغم من شغله باللغة والرواية وكلفه بالبحوث الجافة التي تحتم على القلب، كان رجلاً دقيق الحس، عذب الروح، وليس يكبر عليه أن يكون فنانياً بارعاً يدين له أمثال بديع الزمان ممن طُبعوا على جودة الفهم وحسن البيان.

٢ - كان ابن دريد شاعراً. ولكن أي شاعر؟ شاعر مُقلِّ، تحفظ له الأبيات والمطوعات، وبعض القصائد، ولكنه كان يسكب روحه فيما ينظم من الشعر، فتسرى معانيه قوية سخارة بلا جلبة ولا ضوضاء، كما تفعل الجفون النواغس بألباب الشعراء. خرج مرة يريد عمان فترل تحت نخلة فاذا فاختتان ترقوان في فرعها فقال:

أقول لورقاوين في فرع نخلة (٢) وقد طفل الإمساء أو جنح العصر

(١) ص ٤٨٦ ج ٦ ياقوت. (٢) منى ورفاء وهي الجماء.

وقد بسطت هاتا لتلك جناحها ومال على هاتيك من هذه النحر
 لينكما أن لم تُراعا بفرقة وما دبّ في تشيت شملكما الدهر
 فلم أر مثلى قطع الشوق قلبه على أنه يحكى قساوته الصخر

وهي أبيات تفيض بالرفق والحنان، وتمثل آتلاف الطير أرق تمثيل، ولا يعرف قيمتها إلا من ألف مناغة الطير في ضخوات الربيع وأصائل الخريف .

ومن شعر ابن دريد هذان البيتان :

عانقت منه وقد مال النعاس به والكاس تقسم سكرًا بين جلّاسي
 ريحانة ضمخت بالسك ناضرة تمجّ برد الندى في حرّ أنفاسي

وفي هذين البيتين صورة شعرية جذابة، والبيت الثاني يبدو وكأنه وثبة من وثبات الخيال .

٣ — فإذا تجاوزنا أمثال هذه الشواهد من شعر ابن دريد — وفيها وحدها الدلالة على التفوق في الاقتنان والابتداع — ثم انتقلنا إلى حياة الرجل الخاصة رأيناها شهيدة بدقة فهمه، وحلاوة نكته، وجرأته في الخروج على ما ألفت الجماهير . جاءه يوما سائل فلم يكن عنده غير دقّ نبيذ فوهبه له . بخاء غلام وأنكر عليه ذلك، فاحتج بقوله تعالى : ﴿لن تتألوا البرحتى تنفقوا مما تحبون﴾^(١) . وهي نكتة تدل على خفة الروح ولطف النسيم . وتذاكر جماعة يوما المتنزهات في مجلس بعض الأمراء وابن دريد حاضر، فقال بعضهم أنزه الأماكن غوطة دمشق وقال آخرون : نهر الأبلّة ، وقال آخرون بل سفد سمرقند ، وقال بعضهم نهروان بغداد، وقال بعضهم شعب بوان بأرض فارس وقال آخر نوبهار بلخ . فقال ابن دريد : هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هي يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبّار لابن قتيبة، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر، ثم أنشد :

ومن تك نزهته قينةً وكأس تُحْتّ وكأس تصبّ

(٢)

فترهتنا وأستراحاتنا تلاقى العيون ودرس الكتب

وهذا حديث طريف كانت لفظة ابن دريد فيه لفظة الشاعر الفيلسوف إذ يقول "هذه
متنزهات العيون، فإني أتم من متنزهات القلوب" على أن في الشعر الذي أنشده كلمة تستوقف
النظر، تلك كلمة "تلاق العيون" التي قدمها في متعة القلب على "درس الكتب" فهو رجل
يرى الجمال في الطبيعة الناطقة طبيعة الإنسان الجذاب التي يؤثرها على جمال الأنهار والبحار
والمروج الفيحاء، والرياض الغناء .

٤ — ومن الدلائل على خفة روحه وحلاوة نكته تلك الرؤيا التي قصها علينا إذ قال :
"سقطت من منزلي بفارس فانكسرت رفقوقي ، فسهرت ليلي ، فلما كان آخر الليل حماةني
عيناي فرأيت في نومي رجلا طويلا أصفر الوجه دخل عليّ وأخذ بعضادتي الباب وقال :
أشدني أحسن ما قلت في الخمر . فقلت : ما ترك أبو نواس شيئا . فقال : أنا أشعر منه .
فقلت ومن أنت ؟ قال أنا أبو ناجية من أهل الشام، ثم أنشدني :

وحمرء قبل المزج صفراء بعده بدت بين ثوبى نرجس وشقائق

حكمت وجنة المعشوق صر فافسلطوا عليها مزاجا فاكنتس لون عاشق

فقلت له : أسأت . قال : ولم ؟ قلت لأنك قلت : (وحمرء) فقدمت الحجرة ، ثم
قلت : (بدت بين ثوبى نرجس وشقائق) فقدمت الصفرة . فالأقدمتها على الأخرى كما
قدمتها على الأولى ! فقال : وما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض ! وقد رويت هذه
القصة على نحو آخر في كتاب طبقات النحاة لابن الأنباري ص ٣٢٤ فلتراجع هناك .

٥ — وكان ابن دريد فوق هذه المرونة العقلية جريئا في بيته وفي درسه جرة جامعة
لا يسمو اليها ولا يقوى على تكاليفها إلا من وثق بأنه أمة وحده وأن على الناس أن يسمعو له
طائعين . فاذا سمعت أنه ألف أكثر من عشرين كتابا في اللغة والأدب وأنه كان أعرف أهل
زمانه بما ترك الأقولون فاذا كرم بجانب ذلك أنه كان رجلا مرحا طروباً ، وأن نفسه اللعوب

أوحت إليه أفانين من الأدب بهرت معاصريه وأعطته في الذرة قوة بارعة تجعله في الصف الأول من صفوف المبدعين .

٦ - ولكن ما هي آثاره النثرية ؟

هي تلك الأربعون حديثا التي حدثنا عنها الحصري في زهر الآداب ، والتي هاجت بديع الزمان وحملته على أن يكتب في معارضتها أربعمائة مقامة لم يبق منها إلا أربعون . وقد شقيت في البحث عن تلك الأحاديث ، ثم عدت أتلمس الصواب فيما أفترضه الدكتور طه حسين وأخذت أتتبع كل ما رواه القالي عن ابن دريد فوجدته روى عنه أكثر من ستين حديثا بعضها قصير وبعضها طويل . ثم قابلت تلك الأحاديث بالحديث الشائق الذي نقله عنه حمزة الاصفهاني جامع ديوان أبي نواس فصحت لدى النتائج الآتية :

أولا - حديث ابن دريد في حج أبي نواس حديث ممتع خلاب كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية لأن تكون أساسا لفن المقامات . ولست أشك الآن في أن هذا الحديث جزء من الأربعين حديثا التي أبتكرها ابن دريد .

ثانيا - الأحاديث التي نقلها القالي عن ابن دريد تشتمل على طائفة من القصص المسجوعة تقرب في وضعها من قصته عن حج أبي نواس وتصلح أيضا أن تكون أساسا لفن المقامات ، فلا بأس من الاطمئنان إلى أنها شطر من الأربعين حديثا التي عارضها بديع الزمان .
ثالثا - إذا غرضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جدا التي نقلها القالي عن ابن دريد وعددها مما رواه عن شيوخه أو مما وقع إليه من كلام الأعراب ، كان ما بقي من أحاديثه المتشابهة في القدر والوضع والأسلوب قريبا من الأربعين .

رابعا - يلاحظ أن أكثر ما روى القالي عن ابن دريد من الأحاديث جرى على ألسنة ناس مجهولين : فأشخاصه يكونون حيناً من الأعراب ، وتارة يكونون من أقيال اليمن الذين لا يعرف لهم أسم ولا يحفظ لهم تاريخ ، وأحيانا يكونون من النكرات التي لا يعرف لها وجود وهذا دليل على الوضع والاختراع .

خامسا — لاحظ صاحب زهر الآداب أن الأربعين حديثا التي أبتكرها ابن دريد (جاء أكثرها مما تنبوع قبوله الطباع، ولا ترفع له حججها الأسماع) وأنها وقعت "في معارض عجمية وألفاظ حوشية" ولو أننا نتبعنا ما نقله القالى من تلك الأحاديث لوجدنا الصنعة والإغراب ظاهرين فيها كل الظهور. وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد تعمد أن يدس في أحاديثه بعض الألفاظ التي آتاهم بافتعالها وتوليدها، فقد آتهم أبو منصور الأزهري في مقدمة كتاب التهذيب بادخال ما ليس من كلام العرب في كلامها، فكان من همه إذن أن يجرى ما آتهم بافتعاله على السنة الاعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق.

٧ — بعد ذلك نرى من المهم أن نتناول بالتحليل بعض أحاديث ابن دريد، ولنذكر أولا أن تلك الأحاديث في جملتها تمثل جانب الدعابة والفن من ذلك الرجل الخليع. وأى نكتة أدق وأرشق من قصة توضع مثلا عن حج أبي نواس؟ إن رحيل أبي نواس إلى بيت الله الحرام هو في نفسه قصيدة من قصائد المحجون، فكان من الحتم أن يُعنى بعض الكتاب المازحين بعرض تلك الشخصية عرضا تلتقي فيه الفكاهة والسخرية بصورة توهم القارئ أن ماتحت عينيه جِدُّ صُراح. وكذلك فعل ابن دريد فأنطق أبا نواس بقصة طريفة حدثنا فيها أنه لقي في طريقه نصبا إذ أنهمل المطر في أرض بنى فزارة ففزع إلى بعض الخيام فاذا جارية مبرقة تنو بطرف مريض الجفون ساحر النظر، فاستسقاها، فمضت تنهادى في جسم خصب رشيق، وأحضرت إليه الماء، ثم كان منه حوار مملوء بالسفه واللؤم أراد به الوصول إلى معاينة ما تحت تلك الثياب من أسرار الجمال. ولكن طبل الرحيل صرفه فانصرف، وفي قلبه حسرة كامنة وكرْبٌ دخيل، فلما قضى حجه ورجع مر بتلك الخيام طامعا في الصيد، ولكن مطامعه انتهت بنجبة مخجلة نكتنى في الإبانة عنها بهذه الإشارة، ونحيل القارئ على مقدمة الديوان ليرى كيف برع ابن دريد في السخرية من أبي نواس.

٨ — ثم ننظر بعد فنرى ابن دريد آتهم بتصوير الشئائل العربية وكلف بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء في فهم الرجال، وإعجاب البنات بأعمال

الآباء ، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج ، والتواصى بين الشباب والكهول . كل ذلك بطريقة قوية أخاذة تجعل له مكانا بين العالمين بالغرائز وأهواء النفوس . ونلاحظ أنه يميل إلى الفكاهة حين يعرض للهواجس الجنسية فينطق النساء والبنات بألفاظ وتعابير تغلب عليها النكتة ، وبخاصة حين يتكلم عن فتاتين تبادلان الأمانى أو زوجين يتقارضان الهجاء ، فتلك فتاة تصف الزوج المشتبه بأنه إن ضم قضقة وإن دسر أغمض ، وتلك امرأة تخاضم زوجها فتصمه بأنه يشبع ليلته يضاف ، وينام ليلته يخاف ، وأوائك بنات عنسن أبوهن فتها من بحيث يسمع أبيات من الشعر قهرته على أن يعجل لمن بالزواج .^(١)

٩ — فإذا تحدث ابن دريد عن شجعان العرب وفرسانهم وأجوادهم رأيناه رجلا جزل الرأي بعيسد الغور ينطق بالحكم وفصل الخطاب ، فراه تارة يقول على لسان أوس بن حارثة "المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبلد، والقبر خير من الفقر، ومن قلّ ذل، ومن أمر فلّ، والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك"^(٢) . وزاه أخرى ينطق رجلا أعمى من أزد السراة يقوده شاب جميل فيقول "يا ابن أحمى! إن اغترارك بالشباب كالتذذك بسمادير الأحلام، ثم تنقشع فلا تلمسك منها إلا بالحسرة عليها . ثم تعرى راحلة الصبا وتشرب سلوة الهوى . وأعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قديم ذخيرة ، وأشدّهم اغتباطا يوم الحسرة من أحسن سريرة"^(٣) .

١٠ — وبمراجعة أحاديث ابن دريد نلاحظ أنه يتعقب أعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ما كان يحب العرب أن يُعرف عن أسلافهم من كرم الطباع وشرف الأحساب . ولو بقيب لنا مقامات بديع الزمان كاملة لعرفنا إلى أى حدّ حاكى ابن دريد في هذا الباب . فان قصة بشر بن عوانة التي اخترعها بديع الزمان نموذج طريف في ابتداع الأفاصيص ... إلى هنا عرفنا الفرق بين مقامات بديع الزمان وأحاديث ابن دريد . وعرفنا من السابق ومن المسبوق، فلننظر ما ترك معاصروهم من هذا البدع الجديد .

(١) ص ١٧ ج ١ أمال . (٢) ص ١٠٤ (٣) ص ١٠٧ ج ٢ . (٤) أمر الرجل كثر عدده .

(٥) ص ١٠٢ ج ١ (٦) ربما كان الصواب «الحشر» بدل الحسرة . (٧) ج ٢ ص ٣١٦

نموذج من أحاديث ابن دريد

أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال :

دُفِعْتُ يوماً في تلمسى بالبادية الى وادٍ خلاء لا أنيس به إلا بيت معتز، بفنائيه أعز، وقد ظمئت، فيمته فسلمت، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعامه راخم^(٢)، فقلت : هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن ؟ فقلت ما كان بغيي إلا الماء، فاذا يسر الله اللبن فاني اليه فقير . فقامت الى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله، ثم جاءت الى الأعتر فتغبرتهن حتى أحتلبت قُراب ملء القعب، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطففت ثملته كأنها غمامة بيضاء، ثم ناولتني إياه فشربت حتى تحببت رياء، وأطمأننت . فقلت إني أراك معتزة في هذا الوادى الموحش، والحلة منك قريب، فلو أنضمت الى جنابهم فأنست بهم . فقالت : يا ابن أخي ! إني لآنس بالوحشة، وأستريح الى الوحدة، ويطمئن قلبي الى هذا الوادى الموحش، فأنذ كرم من عهدت، فكأنى أحاطب أعيانهم، وأترأى أشباحهم، وتخيّل لى أنديّة رجالهم، وملاعب ولدانهم، ومُنْدَى أموالهم . والله يا ابن أخي لقد رأيت هذا الوادى بشع اللديدين بأهل أدواح وقباب، ونعم كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون الرياح، ويمحون الصباح، فأحال عليهم الجلاء قماً بغرفة فأصبحت الانار دارسة، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به . ثم قالت : ارم بعينك في هذا الملا المتباطن . فنظرت فاذا قبورٌ نحو أربعين أو خمسين . فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قلت نعم . قالت : ما أنطوت إلا على أخ أو ابن أخ أو عم أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمات عليهم الأرض، وأنا أترقب ما غلهم . انصرف راشداً رحمك الله !

- (١) معتز: منفرد . (٢) الراخم التي تحضن بيضها . (٣) تحببت: امتلأت . (٤) والجمع الحلال : وهي بيوت الناس . (٥) الجناب : فناء الدار . (٦) بشع : ملان . (٧) اللديدان : الجانيان . (٨) الأدواح : جمع دوحه وهي الشجرة العظيمة . (٩) الهضاب : الجبال الصغار . (١٠) قبا : كنساء . قمت البيت : كنسة . والغرفة واحدة الغرف وهو ضرب من الشجر . (١١) الملا : النضا . (١٢) متباطن : متطامن . (١٣) ألمات عليهم : احتوت عليهم وتلبأت عليه الأرض : استوت عليه ووارته .

٤ - روايات الأغاني

١ - من مشاهير الكتاب في القرن الرابع أبو الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ في خلافة المطيع^(١) لله . والأصبهاني هذا يعدّ في رأي أكبر مؤلف عرفته اللغة العربية . ولا يوجد في المؤلفين من بعده من لم يعول عليه ، ويندر أن نجد باحثا في تاريخ الأدب أو تاريخ الإسلام لم يتخذ كتاب الأغاني مرجعا له . والأغاني هذا كتاب عظيم في ٢١ مجلدا ألفه الأصبهاني في خمسين سنة وكتبه مرة واحدة في عمره وأهداه الى سيف الدولة بن حمدان^(٢) .

٢ - شهرة الأصبهاني وكتابه مستفيضة فلا حاجة لإعادة ما يعرفه الناس . وإنما أريد هنا أن أنص على ناحيتين في الأصبهاني وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين . ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة في فهم الحياة الأدبية ، وسيكون لهما أثر عظيم في دعوة المؤلفين الى الاحتياط حين يرجعون الى كتاب الأغاني يتلمسون الشواهد في الأدب وفي التاريخ .

الناحية الأولى خاص بالأصبهاني : تلك الناحية هي خلقه الشخصي . فقد كان الأصبهاني مسرفا أشنع الإسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلق أثر ظاهر في كتابه ، فان كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون . وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويهمل الجوانب الجدية إهمالا ظاهرا يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدل والرزانة والتجمل والاعتدال . وهذه الناحية من الأصبهاني أفسدت كثيرا من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جورج زيدان في كتابه تاريخ أدب اللغة العربية ، وما كتبه الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء تكفي للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني بحرّ هذين الباحثين الى الخط

(١) ياقوت ص ١٤٩ ج ٥ (٢) ياقوت ج ٥ ص ١٤٩

من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية ، وحملهما على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر شك وفسق ومجون .

٣ - ولا أريد بهذا أن أحكم بأن الأصهباني كان يتعمد الاختلاق، وأن الجمهور في العصر العباسي كان مغمورا بالطهر والعفاف، كلا، فقد قلت غير مرة إن الحياة الانسانية مزيج من الشك واليقين، والحلم والجهل، والهدى والضلال، وإن الانسان لا يكون خيرا محضا ولا شرا محضا ، وإنما بقاؤه في أن تكون سريره مسرحا لنوازع الغي والرشد، والبر والفجور، ولكني أريد أن أقول : إن إكتار الأصهباني من تتبع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتاب، جعل في كتابه جوا مشبعا بأوزار الإثم والغواية ، وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقرية بالتزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين .

٤ - أما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الأغاني : تلك الناحية هي نظم ذلك الكتاب ، ففي مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على أن مؤلفه قصر أهتمامه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق : فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ . وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تُغدّي بها الأنديّة ومجامع السمر ومواطن اللهو ومغانى الشراب . وإنه ليحدثنا في المقدمة بأنه أتى في كل فصل من كتابه بفقر إذا تأملها قارئها لم يزل منتقلا بها من فائدة الى مثلها ومتصرفا فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها الماثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام . وأخبرنا بعد ذلك أنه آهم بالغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن . وعلى ذلك بقوله : ” إذ ليس لكل الأغاني خبر نعرفه ولا في كل ما له خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهى السامع “^(١) .

وأحب أن يتأمل القارئ قوله : ” رونق يروق الناظر ويلهى السامع “ فهذا التعبير هو الوصف الصادق لما اختار الأصهباني أن يدور عليه كتابه حين أراد أن يقدم ما رافه من أيام

العرب وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام، وخصوصا إذا لاحظنا أن كلامه يشعر بأنه مستعد لإهمال ما فيه بعض الفائدة إذا خلا من ذلك الرنق الذي "يروق الناظر ويلهى السامع". فهو إذن يساير القراء المتطلعين الى النواحي الطريفة من أخبار الملوك والخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء . ولهذا النحو في التأليف قيمة عظيمة جدا إذا فهمه القارئ على وجهه الصحيح : فهو دليل على خصوبة التصور والخيال، وبرهان على أن كتاب اللغة العربية لم يحرموا من القصص الشائق الخلاب، ولم يفهم أن يقدموا لأوقات اللهو والفراغ ما تحتاج اليه العقول المكدودة والنفوس المحزونة من طرائف الأفاصيص وغرائب الأسرار . ولكن انخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون الى أن لروايات الأغاني قيمة تاريخية، وأن ينبوا على أساسها ما يشاءون من حقائق التاريخ . لاسيما وصاحب الأغاني يصارحنا بأن "في طباع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء، والاستراحة من معهود الى مستجد، وكل منتقل اليه أشهى الى النفس من المنتقل عنه، والمبتكر أغلب على القلب من الموجود"^(١) وأن "انتقال القارئ من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن أخبار قديمة الى محدثة ومليك الى سوقة وجد الى هزل" أدعى الى نشاطه وأبعث على شهوته لتصفح ما في الكتاب من مختلف الفنون .

هـ - ولأضرب المثل بما قصه صاحب الأغاني من أخبار عمر بن أبي ربيعة، وهى أخبار ظنها كثير من الباحثين صورة حياة الحجاز في القرن الأول للهجرة، وقد حدثني المسيو ماسينيون بأن لأشعار عمر بن أبي ربيعة وحوادثه أهمية عظيمة من هذه الناحية . وأنا قد اعتمدت بالفعل على كتاب الأغاني حين فصلت أحاديث من عرف ذلك الشاعر من الملاح في الطبعة الثالثة من كتابي "حب ابن أبي ربيعة وشعره" ولكنى دعوت القارئ الى الاحتراس وبينت له أنني أريد أن أرسم من ابن أبي ربيعة صورة جذابة تشبه صورة ميسيه عند الفرنسيين وجوت عند الألمان ويرون عند الانجليز . وأنا أستبج هذا النحو من استغلال كتب الأدب والتاريخ، فإن الأدب يقصد به إمتاع القلوب كما يراد به إقناع العقول . ومتى نص الكاتب

على أن وجهته فنية محضة وأن منحاه أدبي صرف فقد أبرأ ذمته عند من يريد أن يتخذ من أقاصيص الأدب صورة صادقة لحياة الأشخاص وما أحاط بهم من مختلف البيئات وشتى الظروف . وكذلك فعلت حين قلت :

”إن كثيرا من حوادث ابن أبي ربيعة الغرامية من صنع الخيال . وقد قبلناه على علاته واكتفينا بتلك الإشارة عند التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبي ربيعة التي أضيفت إليه تدلنا على شيئين : فهي أولا علامة على أن المتقدمين أنسوا بروحه وأسلموا قلوبهم لوحيه فأبدعوا في ظلال ذكراه ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر والهوى الغلاب ، وهي ثانيا دليل على أنه كان للتقدميين ميلٌ إلى القصص الغرامي وحظ من الإجادة فيه ، فكان من الخير أن نستغل تلك الباكورة القصصية ونحن نتحدث عن هوى ذلك الشاعر من حسان النساء^(١)“ .

لكن صاحب الأغاني لم يفعل شيئا من ذلك ، وإنما ساق أخبار ابن أبي ربيعة كلها على أنها حقائق ، وساقها مروية بالسند ، والرواية بالسند شيء سحر فتن به كثير من الناس وظنوه علما دقيقا له آداب وشروط ، واعتمادا على هذا العلم الدقيق أطمأن أكثر الباحثين إلى روايات الأغاني فضلوها وأضلوا في حقائق التاريخ .

٦ — قلت إن صاحب الأغاني كان يهتم بالنواحي الطريفة من السير والأخبار . فلا ذكر من أدلة ذلك أنه حدثنا بسنده عن ابن أخي زرقان عن أبيه قال : أدركت مولى لعمر بن أبي ربيعة شيخا كبيرا فقلت له : ”حدثني عن عمر بحديث غريب“ وكلمة ”حديث غريب“ هذه لها معناها فيما نحن بسبيله من أخذ الرواة بالتلفيق والاختلاق ، فإن البحث عن الأوضاع الغريبة من أحاديث عمر بن أبي ربيعة يدل على ظمأ تلك النفوس إلى النادر المستطرف من القصص والأحاديث . وما عسى أن يكون ذلك الخبر الغريب ؟ هو خبر يشبه من أكثر نواحيه قصة حج أبي نواس التي اخترعها ابن دريد . فأبو نواس حين رجع من حجه اجتذبه جماعة من

(١) راجع كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » ص ٢٩٥ من الطبعة الثالثة .

حسان النساء . وما كاد يطمئن الى ظفره بما كان يشتهي من جميل الصيد حتى دخل عليه جماعة من العبيد في حالة جارحة بددت ما نظم من ساحر الأحلام . وابن أبي ربيعة في حجة تعرض للنسوة من جوارى بنى أمية نخلينه ووعدنه بتذكرة طيبة تكون تحفة له كلما تذكر أنسه بهن في أيام الطواف ، فلما بعث غلامه ليتسلم التذكرة عاد ومعه صندوق لطيف مقفل مخنوم كان يظن أنه أودع طيبا أو جوهرا ، ففتحه فاذا هو مملوء من المضارب وهي الكيرنجات وإذا على كل واحد منها اسم رجل من مجان مكة وفيها اثنان كبيران على أحدهما الحارث بن خالد وهو يومئذ أمير مكة وعلى الآخر عمر بن أبي ربيعة . وإذا كانت المضارب والكيرنجات هي آلات السفاد فقد تم التشابه بين قصة عمر وقصة أبي نواس .

وتجد صاحب الأغاني في مكان آخر يروي بسنده عن عثمان بن ابراهيم الخطابي أنه قال :
 ” أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو في مجلس قومه من بنى مخزوم فانتظرت حتى تفرق القوم ثم دنوت منه ومعى صاحب لى ظريف وكان قد قال لى : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل فننظر هل بقى فى نفسه منه شىء؟ فقال له صاحبي : يا أبا الخطاب، أكرمك الله ! لقد أحسن العذرى وأجاد فيما قال ، فنظر عمر اليه ثم قال له : وماذا قال؟ قال حيث يقول :

لوجد بالسيف رأسى فى مودتها لمز يهوى سرىعا نحوها راسى

ثم مضى يهيج بالشعر حتى طرب ، وحدثهما بحديث وُصف بأنه ” حديث حلو “ وتلك الحلاوة لها معناها أيضا فهي نص على أنه وضع ليكون فكاهة طريفة يتنقل بها السامرون فى مجالس الشراب . ويتلخص الحديث فى أن خالدا الخزيت صاحب عمر حدثه عن نسوة مررن به قبيل العشاء لم ير مثلهن فى بدو ولا حضر ، فهن هند بنت الحارث المرية ، وأشار عليه بأن يأتى متكررا ليسمع من حديثهن ويتمتع بالنظر اليهن ولا يعلمن من هو . فقال له عمر : ويحك ! وكيف أخفى نفسى ؟ فأشار اليه بأن يلبس لبسة أعرابي ثم يجلس على قعود فلا يشعرون إلا به وقد هجم عليهن : فاطاع عمر ثم وقف بقرب النسوة وأنشدهن ما سألن إنشاده

من شعر كثير وجميل والأحوص ونصيب . وبعد لحظات تغامر النساء وجعل بعضهن يقول لبعض : كأننا نعرف هذا الأعرابي ! ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة ! ثم مدت هندیها فانترعت عمامته وألقته عن رأسه ثم قالت : هيه يا عمر ! أترك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا في أسوأ هيئة ونحن كما ترى ! ثم قالت بعد أن أخذنا في الحديث : ويحك يا عمر ؟ اسمع مني ، لو رأيتي منذ أيام وأصبحت عند أهلي فأدخلت رأسي في جبتي فنظرت الى حري فاذا هو ملء الكف ومنية المتعنى فناديت يا عمراه يا عمراه ! فصاح عمر : يالبيكاه يالبيكاه ! ومد في الثالثة صوته ، الى آخر الحديث .

ونحن نجد لهذه القصة أشباها كثيرة من حيث الغرض والأسلوب . فقد حدث ابن دريد أن رجلا جلس الى مجنون ليلي في ظل شجرة فقال : ما أشعر قيسا حيث يقول :

يبيت ويضحى كل يوم وليلة على منهج تبكي عليه القبائل
قتيلٌ للبنى صدّع الحب قلبه وفي الحب شغلٌ للحبين شاغل

فقال المجنون أنا أشعر منه حيث أقول :

سلبت عظامي لحما فتركته معرقة تضحى لديك وتخصر
وأخليتها من مخها فكانها قوارير في أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت ذكر الفراق تقطعت علائقها مما تخاف وتحذر
خذي بيدي ثم أنهضى بي تبينى بى الضر إلا أننى أتستر^(١)

وللحديث بقية ، وفي هذا ما يكفى لبيان الأسلوب الذى كان يجرى عليه الرواة في تصوير العشاق الذين تسولوا أو يؤسوا ، وما كان يعمل أرباب الفضول في تهيج ما كانوا يكتمون من أسرار الوجد الدفين ...

ويشبه هذين الحديثين مارواه محمد بن خلف بسنده عن علي ابن عاصم إذ قال :

”قال لى رجل من أهل الكوفة من بعض اخوانى : هل لك فى عاشق تراه ؟ فضيت معه فرأيت فى كأنما نزع الروح من جسده وهو مؤزر بلزار ومرتد بأخرو إذا هو مفكر وفى ساعده وردة فذكرنا له بيتا من الشعر فتهيج وقال :

جعلت من وردتها تيممة فى عضدى
أشمتها من حبها إذا علانى كمدى - أنخ^(١)

وما روى عن هند بنت الحارث فى أستدراجها لعمر وأستقدامه بأسوأ هيئة يشبه ما روى عن الثريا بنت على حين دست من يخبره بأنه سمع عند رحيله عن الطائف صوتا وصياحا عاليا على امرأة من قریش أسمها آسم نجم فى السماء وقد ذهب عنه أسمه . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم ، وكان قد بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه الى الطائف يركضه ملء فروجه وسلك طريق كداد وهى أخشن الطرق وأقربها حتى آتته الى الثريا وقد توقعته وهى تتشوف له فوجدها سليمة . فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأختبر مالى عندك !

ومن أحلى القصص التى رواها صاحب الأغاني عن محمد بن خلف قصة عمر مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وخلاصتها أن امرأة أقبلت عليه وهو فى فناء مضر به وغلمانُه حوله فسلمت عليه وسألته : هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خلقا وأكلهم أدبا وأشرفهم حسبا ؟ قال : ما أحب ذلك الى ! فاشتربت عليه أن تمكنه من عينيه فتشدهما وتقوده حتى إذا توسط الموضع الذى تريد حلت الشدة ثم تفعل به ذلك عند إخراجهم حتى تنتهى به الى مضر به . فقبل عمر ، ثم قادتة الى امرأة لم ير مثلها قط جمالا وكالا ، فسلم وجلس ، ثم كان بينهما وبينه حوار آتته بطرده ، فعاد الى مضر به كاسف البال ، ثم عادت المرأة فى اليوم التالى فقادتة مرة ثانية آتته بمثل ما آتته به المرة الأولى من الإخفاق ، وظلت الحال على ذلك أياما حتى آهتدى عمر الى أنها فاطمة بنت عبد الملك ، فى حديث شائق طويل .

(١) ص ٧ . صارع العشاق وقد وردت هذه الحكاية فى الأمالى ج ٣ ص ١٤٥ مروية عن عبد الله بن خلف .

وقد آسתר صاحب الأغاني ينقل من اخبار عمر بن أبي ربيعة ما طاب له من غير نقد ولا تمحيص . ولكنه فطن في بعض ما رواه الى تلفيق الرواة حين عرض الى تزويج الثريا وخروجها الى مصر وعمر غائب ، فقال : « وهذا الخبر عندي مصنوع ، وشعره مضعف يدل على ذلك . ولكنني ذكرته كما وقع الى^(١) » .

٧ — هنا دلنا صاحب الأغاني على آرتيابه في بعض الأخبار، ولكن لماذا يذكر ما يرتاب فيه كما يقع اليه ؟ يذكره لأنه يريد أن يقدم ما يروق الناظر ويلهى السامع ، كما أشرنا من قبل . ولكن لا يفوتنا أن نشير الى أن هذا الخبر الذي حدثنا الأصبهاني بأنه مصنوع هو كذلك منقول عن جماعة من الرواة ، كان يصح أن يحتج بروايتهم من يصدقون كل شيء روى بأسانيد ، لو لم ينص الأصبهاني على أنه مدسوس .

وفي رأيي إن أكثر أخبار عمر بن أبي ربيعة وُضع تفسيراً لشعره ، لأن كل قصيدة من قصائده تشير الى حادثة من حوادثه الغرامية ، وقد صنع الرواة مثل هذا الصنع في أخبار أبي نواس ، فقد لفقوا حديثاً يشرح قوله في جنان :

ياذا الذى عن جنان ظل يخبرنا	بالله قل وأعد يا طيب الخبر
قال أشتكك وقالت ما أبتليت به	أراه من حيث ما أقبلت في أثرى
ويُعَمِّل الطرف نحوى إن مررت به	حتى ليخجلنى من حدة النظر
وإن وقفت له كىما يكلمنى	في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بى هذا ويدمنه	حتى لقد صار من همى ومن وطرى ^(٢)

واخترع الرواة كذلك قصة طريفة لتفسير أبيات أبي نواس التي مطلعها :

أسأل القادمين من حكام كيف خلقتما أبا عثمان^(٣)

(١) ٢٣٦ ج ١ "وما قيمة تضعيف الشعر في هذا الخبر ؟ كان ينبغي تحقيقه من وجهة تاريخية إن أمكن" .

(٢) الأغاني ج ٨ ص ٤ طبع السامى . (٣) ج ١٨ ص ٥

وقد تنبه كثير من الباحثين إلى ما دُسَّ على أبى نواس ، ولم أجِد من أشار إلى ما دس على عمر ابن أبى ربيعة ، مع أن الرجلين يشتركان فى أن كلا منهما قضى معظم حياته فى اللهو والعبث والمجون . وإذا جارينا صاحب الأغانى فى الاستدلال على وضع الشعر بضعفه ، فإن فى شعر ابن أبى ربيعة قصائد كثيرة يغلب عليها الضعف والانحلال ، حتى ليبعد معظم شعره عن المتانة التى عرفت فى عصره وطبع عليها عدد من قصائده الطوال .

هذا . ولو مضينا نحصى ما فى روايات الأغانى من التلفيق لطال بنا القول ، فلنكتف بهذا ، ولنسجل مرة ثانية أن الأصهبانى أراد أن يكون كتابه معرضا لما تجمع بين أيدى معاصريه من طرف الأفاقيص ، فليعتبره القارئ كتاب أدب لا كتاب تاريخ .

٨ — بقيت مسألة لها خطر فى هذا الباب : قد يتوهم القارئ أننا نجزم بأن صاحب الأغانى اخترع ما دونه من أخبار عمر بن أبى ربيعة ، فلننف هذا الوهم ، ولندكر أننا رأينا فى ارشاد الأريب لياقوت أن ابن بسام كان ألف كتابا فى أخبار عمر ، وقد روى فيه عن الزبير بن بكار وعمر بن شبة وحماد بن اسحق ومحمد بن حبيب ويعقوب بن أبى شبة وأحمد ابن الحارث الخراز^(١) .

وبعض من روى عنهم ابن بسام يكثر النقل عنهم فى كتاب الأغانى ، وخاصة عمر بن شبة والزبير بن بكار . وابن بسام هذا من رجال القرن الثالث . وفى كتابه عن عمر دليل على أن أخبار ذلك الشاعر كانت معروفة قبل الأصهبانى بنحو قرن أو يزيد ، وكانت موضع عناية المؤلفين .

ولو وصل إلينا كتاب ابن بسام لعرفنا الفرق بين طريقته وطريقة أبى الفرج فى صياغة الأخبار ، ولكننا على أى حال نرجح أن أبا الفرج له يدٌ فى تلوين تلك الأخبار ووضعها فى قوالب يغلب عليها اللهو والمجون ، فهو لم يخلقها كلها ، لأن عبث ابن أبى ربيعة كان مشهورا قبل ذلك ، ولكنه نفخ فيها من روحه ، وصاغها بلباقة وأفتنان .

* * *

ولو خلدنا الأخبار المروية جانباً، ونظرنا فيما حدث به أبو الفرج عن نفسه، لعرفنا مبلغ حذقه في وضع الأقاصيص .

والى القارئ هاتين النادرتين :

١ — قال أبو الفرج : خرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله ماضيين الى دير الثعالب في يوم من سنة ٣٤٥ للترهة، ومشاهدة اجتماع النصارى هناك، والشرب على نهر يزدجرد الذى يجرى على باب هذا الدير، وفيه جماعة من أولاد كتاب النصارى من أحداثهم، وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تمايل وتثنى كغصن الريحان في نسيم الشمال . فضربت بيدها الى يد أبى الفتح وقالت : يا سيدى ! تعال أقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا الشاهد، فضبتنا معها، وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحه منطلقها ما الله به عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومات الى الموضع فاذا فيه مكتوب :

خرجت يوم عيدها	في ثياب الرواهب
فتنت بأختيالها	كل جاء وذهب
لشقاى رأيتها	يوم دير الثعالب
تهادى بنسوة	كاعب في كواعب
هى فيهم كأنها الـ	بدر بين الكواكب

فقلت لها : أنت والله المقصودة بهذه الأبيات . ولم نشك أنها كتبت الأبيات ، ولم نفارقها بقية يومنا . وقلت لها هذه الأبيات وأنشدتها لياها ففرحت :

مرت بنا في الدير نحصانه	ساحرة الناظر فتانه
أبرزها الذكران من خدرها	تعظم الدير ورهبانه
مرت بنا تخطى في مشيها	كانما قامت باه
هبت لنا ربح فمالت بها	كما تثنى غصن ريحانه
فتيمت قلبي وهاجت له	أحزانه قدما وأشجانه

وحصلت بينها وبين أبي الفتح عشرة بعد ذلك ، ثم خرج الى الشام وتوفي بها ،
ولا أعرف لها خبرا بعد ذلك^(١) .

٢ — وقال في كلمة ثانية : كنت في أيام الشيبية والصبي ألف قتي من أولاد الجند
في السنة التي توفي فيها معز الدولة ، وولّي بختيار ، وكانت لأبيه حال كبيرة ومنزلة من الدولة
ورتبة ، وكان القتي في نهاية حسن الوجه ، وسلاسة الخلق ، وكرم الطبع ، ممن يحب الأدب
ويميل الى أهله ، ولم يترك قريحته حتى عرف صدرا من العلم وجمع خزانة من الكتب حسنة .
فمضت لي معه سير لو حفظت لكنت في كتاب مفرد من مكاتبات ومعاتبات ، وغير ذلك
مما يطول شرحه . منها أننى جئته يوم جمعة غدوة فوجدته قد ركب الى الحلبة . وكانت عادته
أن يركب إليها في كل يوم ثلاثاء ويوم جمعة . جلست على دكة على باب دار أبيه في موضع
فسيح كان عمرها وفرشها . فكنا نجلس عليها للحادثة الى ارتفاع النهار . ثم ندخل اذا أقيمت
عنده الى حجرة لطيفة كانت مفردة له لتجتمع على الشراب والشطرنج وما أشبههما . فطال
جالوسى في ذلك اليوم منتظرا له ، فأبطأ وتصبح من أجل رهان كان بين فرسين لبختيار ، فعرض
لى لقاء صديق ، فمضت لأمضى ثم أعود إليه ، فهجس لى أن كتبت على الحائط الذى كنا
نستند إليه هذه الأبيات :

يا من أظل بياب داره ويطول حبسى لانتظاره
وحياة طرفك وأحوراره ومجال صدغك فى مداره
لأحلت عمري عن هوا لك ولو صليت بحر ناره

وقمت . فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لئلا يقف عليه من يحتشمه . وكان
شديد الكتمان لما بينى وبينه مطالبا بمثل ذلك مراقبة لأبيه ، إلا أن ظرفه ووكيد محبته لى
وميله إلى لم يدعه حتى أجاب بما كتب تحتها . ورجعت من ساعتى فوجدته فى دار أبيه
فاستأذنت عليه فخرج إلى خادم لهم فقال : يقول لك : لا التقينا حتى تقف على الجواب
عن الأبيات ، فانه تحتها . فصعدت الدكة فاذا تحت الأبيات بخطه :

”ما هذه الشناعة؟ ومن فسّح لك في هذه الإذاعة؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة؟ ولكن أنا جنيت على نفسي وعليك : ملّكتك فطغيت، وأطعتك فتعدّيت ، وما أحترمت أن أقول : هذا تعرّض للإعراض عنك . والسلام“ .

فعلمت أنني قد أخطأت، وسقطت — شهد الله — قوتي وحركتي، فأخذتني الندامة والحيرة، ثم أذن لي فدخلت فقبلت يده فمُنّني، وقلت : يا سيدي ! غلطة غلطتها، وهفوة هفوتها، فإن لم تتجاوز عنها وتعف هلكت . فقال لي : أنت في أوسع العذر بعد أن لا يكون لها أخت . وعاتبني على ذلك عتابا عرفت صحته . ولم تمض إلا مُديدة حتى قبض على أبيه وهرب . فاحتاج إلى الاستتار فلم يأنس هو ولا أهله إلا بكونه عندى . فأنا على غفلة إذ دخل في خف وإزار، وكادت مرارتى تنفطر فرحا، فلقيته أقبل رجليه وهو يضحك ويقول : يأتيها رزقها وهي نائمة! هذا يا حبيبي بخت من لا يصوم ولا يصلي في الحقيقة — وكان أخف الناس روحا وأقلهم لبادة . وبتنا في تلك الليلة عروسين لا نعقل سكرًا ! وأصطبحنا وقلت هذه الأبيات :

بتّ وبات الحبيب ندماني من بعد نأى وطول هجران
نشب قفصية معتقة بجانة الشط منذ أزمان
وكما دارت الكؤوس لنا أثنى فاه ثم غناني
الحمد لله لا شريك له أطاعنى الدهر بعد عصيان

(١) ولم يزل مقيما عندى نحو الشهر حتى آستقام أمر أبيه، ثم عاد إلى داره .

فهذه الأخبار التي رواها أبو الفرج عن نفسه تعين اتجاهاته الذوقية في الحياة .
ومن هنا جاء غرامه بتعقب أخبار الخلاعة والمجون فيمن ترجم لهم من الشعراء .

٥ - أخبار ابنه دريد

١ - لقد تكلمت عن ابن دريد في فصل سبق ، وإني لعائد إليه لأستقصى أمره ، إذ كنت أول من كشف الغطاء عن محاولاته في النثر الفني ، ولأذكر أولاً أن الذي كان يريب الدكتور طه حسين من ابن دريد هو روايته عن عبد الرحمن ابن أنحى الأصمعي ، نوكان يرى في كلمة " ابن أنحى الأصمعي " مثارا للشك . وقد رأيت أن أتعب هذه الفكرة فوصلت الى أن رواة العرب كانوا يستعملون مثل هذا التعبير ، فاننا نجد الأصبهاني ينقل " حدثني أبو مسلم عن ابن أنحى رزقان ^(١) " .

وفي معجم ياقوت " قال أبو حيان : وكان يختلف الى مجلس أبي سعيد علي بن المستنير وكان هذا ابن بنت قطرب " وكلمة " ابن بنت قطرب " تدل على أنهم كانوا يعطون قيمة لمن يتصلون بكار العلماء اتصال قرابة . ومثل هذا ما نقل ياقوت : " حدث يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ ^(٢) " . وفي الأغاني : " أخبرني محمد بن جعفر صهر المبرد ^(٣) " . وكان مثار الشك أن عبد الرحمن هذا لم يذكر أحد من أبوه ، وقد وصلت بعد البحث الى أنه عبد الرحمن بن عبد الله وقد ذكره ابن الأنباري في طبقات النحاة بين من أخذ عنهم ابن دريد ^(٤) . لكن بقيت مسألة تثير الشك : ذلك أن هناك راوية آدعى أنه ابن أخت الأصمعي وهو أحمد بن حاتم وأنكر عليه ذلك ^(٥) . وأحمد هذا الذي أستباح لنفسه أن ينسب الى الأصمعي كذبا كان أثبت من عبد الرحمن فيما نقل ياقوت . فعبد الرحمن إذن متهم في روايته ، وهذا الاتهام له خطره فيما نقله عنه ابن دريد .

(١) ص ١٦٩ طبع دار الكتب المصرية ، وفي معجم ياقوت ص ٩٨ ج ١ (٢) ص ٧٨ ج ٦ —

وفي بغية الوعاة أخذ عبس القاهرة بن عبس الرحمن النحوعن « ابن أخت » الفارسي ولم يأخذ عن غيره — ٣١٠

(٣) ص ٤٨ ح ١٨ (٤) وفيات الأعيان ص ٣١٠ ج ٢ (٥) ص ٣٢٢ (٦) ياقوت ص ٤٠٥ ج ١

٢ - وقد وصلت الى نصوص مهمة تبين اختلاق ابن دريد وتلفيقه وثبت أنه راع معاصريه بكثرة ما يروى من الأخبار حتى اضطروا الى الارتياح في أمانته . ولننظر ما نقل ياقوت من خط أبي على المحسن : سألت القاضي أباسعيد السيرافي رحمه الله عن الأخبار التي يرويها عن ابن دريد، وكنت أقرؤها عليه، أكان يملها من حفظه ؟ فقال : لا، كانت تجمع من كتبه وغيرها ثم تقرأ عليه، وسألت أبا عبد الله محمد بن عمران المرزباني - رحمه الله - عن ذلك ، فقال : لم يكن يملها من كتاب ولا حفظ ولكن كان يكتبها ثم يخرجها إلينا بخطه فإذا كتبناها خرق ما كانت فيه ^(١) .

وعبارة " لم يكن يملها من كتاب ولا حفظ " عبارة خطيرة الدلالة على آثام ابن دريد بالتلفيق وأخذه بوضع الأقاصيص .

وقال ابن خلكان في أخبار ابن دريد : " سئل عنه الدارقطني : أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل إنه كان يتسامح في الرواية فيسند الى كل واحد ما يخطر له " ^(٢) .

وهذا النص صريح في أن ابن دريد كان متهما بين معاصريه ، وأنهم أطالوا القول فيه ، وأنه كان مأخوذا بعدم الثقة فيما ينسبه الى الرواة ، فإذا أضيف هذا الى ما حدثنا به الحصري من اختراعه الأحاديث عرفنا ان له يدا في صنع ما نسبته الى العرب القدماء .

٣ - وهناك جانب عقل من ابن دريد لابد من الإشارة إليه : ذلك أنه مع سعة علمه وقوة ذكائه كان يطمئن الى بعض الحقائق المزيفة التي يتداولها الناس ، فكان يذكر أن أول من أقوى في الشعر أبونا آدم عليه السلام في قوله :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيحُ
تغير كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح ^(٣)

وهي سذاجة مطبقة أن يظن أن آدم كان يتكلم العربية حتى يؤخذ عليه أنه أول من وقع في الإقواء .

(١) ص ٢٤٨ ج ٦ (٢) ص ٣١٠ ج ٢ وفيات الأعيان . (٣) ص ١٠٣ ج ٣ ياقوت .

٤ — وهناك قصة نقلها ابن دريد عن العكلي قال :

كان لقمان بن عاد الذي عمّر عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء، وكان يتزوج المرأة فتخونه ، حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال ، ثم نقر لها بيتا في سفح جبل وجعل له درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد ، فاذا خرج رفعت السلاسل ، حتى عرض لها فتى من العماليق فوقع في نفسه فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنسني عليكم حربا لا تقومون لها . قالوا : وما ذاك؟ قال : إمراة لقمان بن عاد هي أحب الناس إلي . قالوا : فكيف نحتال لها؟ قال : اجمعوا سيوفكم ثم اجعلوني بينها وشدوها حزمة عظيمة ، ثم آتوا لقمان فقولوا : إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع ، وسموا له يوما ، وأقبلوا بالسيوف فدفعوها الى لقمان فوضعها في ناحية بيته وخرج ، وتحرك الرجل فحلت الجارية عنه ، فكان يأتيها ، فاذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف حتى آنقضت الأيام . ثم جاءوا الى لقمان فاسترجعوا سيوفهم ، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فاذا نخامة تنوس في سقف البيت ، فقال لأمرأته : من نخم هذه؟ قالت : أنا . أنا . قال : فتنخمي ، ففعلت فلم تصنع شيئا ، فقال : يا ويلتاه ! والسيوف دهنتي ! ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطعت قطعا وأنحدر مغضبا ، فاذا أبنه له يقال لها صحر فقالت له : يا أبتاه ، ما شأنك؟ قال : وأنت أيضا من النساء؟ فضرب رأسها بصخرة فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر^(١) .

ولقمان بن عاد الذي عمر عمر سبعة أنسر من الشخصيات الخرافية، والقصة مخترعة يراد بها إثبات أن كيد النساء عظيم وأنه لا ينجو من مكهن مخلوق . وقد تكون القصة وضعت تفسيرا لذلك المثل : ” ما أذنبت إلا ذنب صحر “ فهناك أمثال كثيرة جهلت موارها فاحتال الرواة وألبسوها أقاصيص جديدة لتتم بها العبرة وليفهمها الناس موصولة بأسباب الحياة .

٥ — وهذا العصر الذي دهش فيه المتأدبون من الأخبار التي كان يرويها ابن دريد كانت تجرى فيه أشياء أخرى تدل على أن الرواة كانوا ألفوا التلفيق ، ففي ترجمة السيرافي

أن نصر بن نوح وكان من أدباء ملوك آل ساسان كتب إليه كتابا سأل فيه عن أمثال مصنوعة على العرب شك فيها ^(١).

ولو وقفنا على تلك الأمثال المصنوعة لاستطعنا أن نفهم ما بينها وبين الأخبار التي أفتعلها ابن دريد من قرب أو بعد، ولكن ذلك الكتاب ضاع كما ضاع ما نقله السيرافي من أخبار ابن دريد وفي معجم ياقوت إشارة إلى إن المحسن بن الحسين أملى بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه ^(٢). وابن خالويه هذا من تلامذة ابن دريد، أفنستطيع أن نقترض ^(٣) أن تلك الحكايات قيمة أدبية، وكان ابن دريد يتخير لأخباره وأحاديثه أدق الأساليب؟

وتعقب روح العصر له أهمية في فهم هذا الموضوع، وقد كان ابن فارس يقول: سمعت أبا أحمد بن أبي التيار يقول: أبو أحمد العسكري يكذب على الصولي مثلما كان الصولي يكذب على الغلابي مثلما كان الغلابي يكذب على سائر الناس ^(٤)، وقد يمكن أن نقول على أساس هذه النكتة: ابن دريد يكذب على عبد الرحمن بن عبد الله مثلما كان عبد الرحمن يكذب على الأصمعي مثلما كان الأصمعي يكذب على سائر الناس!

٦ — وقد عاصر ابن دريد رجل ملفق هو أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد راوية ثعلب، بلغ من شهرته بالاختلاق أن قيل فيه: "لو طائر طار في الجوق لقال أبو عمر الزاهد حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي ويذكر في معنى ذلك شيئا" ^(٥). وله حادثة عجيبية دهش لها معاصروه: ذلك أن معز الدولة بن بويه قلد شرطة بغداد غلاما تركيا من ممالكه اسمه خواجا فبلغ ذلك أبا عمر الزاهد وكان يملئ كتابه اليواقيت في اللغة فقال للجماعة في مجلس الإملاء: اكتبوا "ياقوتة خواجا: الخواجة في أصل اللغة الجوع" ثم فرغ على هذا بابا وأملأه عليهم فاستعظموا كذبه وتبعوه ^(٦). وقد أخذ على السيرافي أنه كان يشهد كذبا إذ يكتب بخطه في ذيل

(١) ص ١٠٠ ج ٣ ياقوت. (٢) ص ٢٢٩ ج ٦. (٣) ص ٣٨٣ طبقات النحاة.

(٤) ص ١١ ج ٢ ياقوت. (٥) ص ٢٦ ج ٧ ياقوت.

(٦) ص ٢٧ ج ٧ ياقوت.

الكتب أنه راجعها وأنها صحيحة لتشتري بأكثر من ثمن مثلها^(١). وهذا نوع من التهاون له خطره في تقدير أمانة العلماء .

٧ - وأكبر مجموعة باقية من أخبار ابن دريد هي ما نقله عنه أبو علي القالي في أماليه . وهذه المجموعة منقولة بصيغ مختلفة فبعضها يصل الى ابن الكلبي وبعضها الى الأصمعي ، وجزء منها مروى عن أبي حاتم السجستاني . والجزء الذي وصله بابن الكلبي يتحدث في الأغلب عن شئون يمنية . منها ذلك الحديث الذي يصف كيف كان قيل من أقبال حير منيع الولد دهرًا ثم ولدت له بنت فبنى لها قصرًا منيفًا بعيدًا من الناس ووكّل بها نساء من بنات الأقبال يخدمنها ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشاء وأتمه في عقلها وكملها فلما مات أبوها ملكها أهل خلافها فاصطنعت النسوة اللواتي ربينها وأحسنن اليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرًا دونهن ، فقلن لها يوما : ” يا ابنة الكرام لو تزوجت لثم لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف . قالت : نعم هذا الشيء ! فقالت الثانية : الزوج شعاري حين أصرد ، ومتكئ حين أرقد ، وأنسى حين أفرد . فقالت : إن هذا لمن كمال العيش ! فقالت الثالثة : الزوج لما عانى كاف ، ولما شفى شاف ، يكفيني فقد الألف ، ريقه كالشهد ، وعناقه كالخلد ، لا يمل قرانه ، ولا يخاف حرانه . فقالت : أمهلني أنظر فيما قلتن ، واحتجبت عنهن سبعا ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتني أملكه رقي ، وأبشه باطلاً وحق ، فإن كان محمود الخلاق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغيتي ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شقوتي ، على أنه لا ينبغي إلا أن يكون كفؤًا كريما يسود عشيرته ، ويرب فصيلته ، لا أتقنع به عارا في حياتي ، ولا أرفع به شئنا لقومي بعد وفاتي . فليكن فابغينه ، وتفزقن في الأحياء ، فإيتكن أتنني بما أحب فلها أجزل الحباء ، وعلى لها الوفاء^(٢) .

وقد عاد النساء بعد البحث فوصفت كل واحدة منهن الزوج الذي فضله في عبارات جميلة أراد بها الكاتب أن يدون أخلاق الرجال .

(١) ص ١٠٥ ج ٣ ياقوت . (٢) من الصرد وهو البرد . (٣) ص ٨٠ ج ١ أمالي .

٨ — وهناك أخبار أراد بها الكاتب أن يوجّه قراءه وجهة علمية صرفة كحديث الرواد الذين أرسلتهم مذج حين أجذبت فقد وصف كل رائد وأديا وصفا يمتاز من وصف غيره ، في عبارات مصنوعة أنيقة تؤدّي ما رمى اليه الكاتب من جمع الأوصاف الحسية للوديان المعشبة^(١) . ويشبه هذا الحديث من الواجهة التعليمية ما نقله ابن دريد بسنده عن أبي عبيدة من أنه اجتمع عند يزيد بن معاوية أبو زيد الطائي وجميل بن معمر العذري والأخطل التغلبي فقال لهم : أيكم يصف الأسد في غير شعر ؟ فوصفوه بالتعاقب وصفا فنيا في عبارات جزلة مسجوعة تذكّر بما رواه ابن دريد منسوبا الى الأعراب^(٢) .

٩ — أما ما وصله ابن دريد بالأصمعي فهو في جملة يتحدّث عن أهل البادية ، ومن طريقه هذه الأقصوصة التي حكاها الأصمعي إذ قال :

”مررت بحى الربرة فاذا صبيان يتقامسون^(٣) في الماء ، وشاب جميل الوجه ملقح الجسم قاعد . فسألت عليه فرد على السلام . وقال من أين وضع الراكب ؟ قلت من الحمى . قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحا . قال : وأين كان مبيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشارق^(٤) . فالتقى نفسه على ظهره وتنفس الصعداء ، فقلت : نفساً حجاب قلبه ، وأنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سليماً تحلّه من المزن ما تروى به وتسيم
وإن لم أكن من قاطنيه فانه يحلّ به شخص على كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه لدى وان شط المزار نعيم
ومن لامنى فيه حميم وصاحب فردّ بغيط صاحب وحميم

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه فصحت بالأصيبة فأتوا بماء فصبته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعى وأنفاسى تزين بالخشوع

(١) أنظر ص ١٨٣ ج ١ أمالى . (٢) راجع ص ١٨٣ ، ١٨٤ ج ٣

(٣) يتقامسون : يتقاطون . (٤) المشارق : منابت العرغ . (٥) نفساً : تشقق .

ولى غير أضربها التفاتى الى الأجرع مطلقه الدعوى
الى الخلو تأنس فيك نفسى كما أنس الوحيد الى الجميع^(١)

وفيا وصله ابن دريد بالأصمعي أخبار تتجه وجهة تعليمية كحديث الأعرابي الذي وصف
بتيه^(٢) والأعرابي الذي وصف قومه والأعرابي الذي وصف المطر^(٣). وهناك حديث وصله
بالأصمعي وردت فيه القصة المشهورة التي روت كيف مات الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص
وهي في رأينا قصة موضوعة أريد بها شرح المثل المعروف « حال الجريض دون القريض »
وقراءة هذه القصة تعطى فكرة عن أحتيال الكتاب والقصاصين في إحياء العهود الجاهلية^(٤).

أما ما ينقله ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني فهو في الأكثر من كلام الأعراب الذين
يفدون على الحواضر كحديث الأعرابي الذي وقف بالمسجد الحرام يصف ما وقع فيه قومه من
القحط ويطلب الاحسان، وهو حديث منقح يجري بنفس اللغة التي كتبت بها أحاديث ابن دريد^(٥)
وهناك حديث وصف به ما وقع من الملاحاة بين الوليد بن عقبة وعمرو بن سعيد في مجلس
معاوية وهو كذلك حديث مصنوع^(٦).

١٠ — وهناك حديث آحتفل به ابن دريد ليسبغ عليه ثوب الجلال، إذ ذكر أن
أبا حاتم كان يرضن به ويقول « ما حدثني به أبو عبيدة حتى آختلفت اليه مدة، وتحملت عليه
بأصدقائه من الثقفين وكان لهم مواخيا » وسرى مثل هذه العبارة حين ينقل التوحيدى حديث
السقيفة، فالجؤ واحد، وطريقة التشويق تكاد تكون واحدة عند أولئك الكتاب. وهذا
الحديث مهم من حيث دلالة على تصور كاتبه لطائفة من الأخلاق الاجتماعية في ذلك الحين،
والحديث يقع بين عامر بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي وقد آجتمعا عند ملك
من ملوك حمير، فقال الملك تساءلا حتى أسمع ما تقولان، فقال عامر لحممة : أين تحب أن

(١) ص ٣٨ ج ١ أمالى . (٢) ص ٥٣ ج ١ (٣) ص ١٣٩ ج ١ (٤) ص ١٧٣ ج ١

(٥) ارجع الى هذه القصة في ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ج ٣ من الأمالى . (٦) راجع ص ١١٣ ج ١ أمالى .

(٧) أنظر ص ٤٠ ج ٢ أمالى .

نكون أياديك؟ قال : عند ذى المرض العديم ، وذى النحلة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف الهضم . قال : من أحق الناس بالملت؟ قال : الفقير المحتال ، والضعيف الصوال ، والعي القوال . قال : فمن أحق الناس بالمنع؟ قال : الحريص الكاند^(١) ، والمستמיד الحاسد ، والملحف الواجد . قال : من أجدر الناس بالصنعة؟ قال : من اذا أعطى شكر ، واذا منع عذر ، واذا موطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم الناس عشرة؟ قال : من إن قرب منع ، وإن بعد مدح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح . قال : من الأثم الناس؟ قال : من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع ، ظاهره جشع ، وباطنه طبع . قال : فمن أحلم الناس؟ قال : من عفا اذا قدر ، وأجمل اذا انتضر ، ولم تطفه عزة الظفر . قال : فمن أحزم الناس؟ قال : من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيّب دبر أدنيه^(٢) .

وللحديث بقية ، ولكنى اكتفيت بهذا القدر . وقد لفت نظرى قوله بعد ذلك :

”قال : فمن أبلغ الناس؟ قال : من جلى المعنى المزيّن ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزير“ .

ففى ذلك إشارة الى أنه كان مفهوما عندهم أن الجاهلين كانوا يدركون ماهية البلاغة ويتساءلون عن الكلام البليغ .

(١) الكاند : الجاحد . (٢) منع انقبض . (٣) راجع ص ٢٨٠ ج ٢ أمالى .

٦ - خطبات ابنه الأتباري

١ - ابن الأتباري هو أبو بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ ببغداد . كان من أعلم الناس باللغة والشعر وعلوم القرآن . والذين ترجموا له ذكروا أنه كان صدوقاً ثقة^(١) . ومن شعره :

إذا زيد شرا زاد صبراً كأنما هو المسك ما بين الصلاة والفهر
لأن فتيت المسك يزداد طيبه على السحق والحرأصطبارا على الضر

وأنا لا أتهمه بالاختراع . ولكنه روى أحاديث قصيرة تلوح عليها علامات الصنع ، من ذلك ما رواه أنه مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان ، فلما حمل على النعش صرّ على أعناق الرجال ، فقال رجل في الخنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونهُ ولكنه أعناق قوم تقصّف
وليس فتيق المسك ما تجدونه ولكنه ذاك الشئ الخفاف

وعبارة : « مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان » صريحه في خلق هذه الحادثة للإشادة بنبل الاخلاق العربية .

٢ - وقد روى عن أبيه قصة طريفة فقال : كان بمكة رجل سفيه يجمع بين الرجال والنساء فشكا ذلك أهل مكة إلى الوالي فغربه إلى عرفات فاتخذها منزلاً ، ودخل مكة مستترا ، فلقى حُرّاءه من الرجال والنساء فقال : ما يمنعكم ؟ قالوا وأين بك وأنت بعرفات ؟ فقال : حمار بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والنزهة ! قالوا : نشهد أنك صادق ، وكانوا يأتونه ، وكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وسفهاءهم وحواشيهم ، فعادوا بالشكاية إلى أمير مكة فارسل إليه فأتى به ، فقال : أيّ عدوّ الله ! طردتك من حرم الله فصرت إلى

(١) وفيات الأعيان ص ٣١٩ ج ٢ و ٩١ بنية الوعاة .

المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق، فقال : أصلح الله الأمير يكذبون علىّ ويحسدوني ! قالوا : بيننا وبينه واحدة، قال : ما هي، قالوا : تجمع حمير المكارين وترسلها بعرفات، فإن لم تقصد الى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء إياه فالقول ما قال . فقال الوالى : إن فى هذا لدليلا . وأمر بحمير فجُمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله فأتاه بذلك أمناؤه، فقال : ما بعد هذا شيء، جردوه، فلما نظر الى السياط قال : لا بد من ضربى أصلح الله الأمير؟ قال : لا بد منه ! قال : اضرب، فوالله ما فى هذا شيء أشد علينا من أن تسخر منا أهل العراق فيقولون : أهل مكة يبخزون شهادة الحمير ! فضحك الأمير وقال : والله لا أضربك اليوم، وأمر بتخلية سبيله ^(١) .

ولنقيد أن ما يرويه ابن الأنبارى لا صنعة فيه فهو يجرى فى لغة مقبولة لا يلتزم فيها السجع ولا الأزدواج . ويمكن الاطمئنان الى أنه كان يتحدث عن أخبار كانت معروفة فى عصره بشيء يسير من الترتيب لم يصل قط الى مثل ما صنعه ابن دريد .

٣ — وفى مجموعة (التحفة البهية والطرفة الشمية) المطبوعة فى الآستانة سنة ١٣٠٢ هـ مانصه :

ومن غرائب هذا الأسلوب وعجائبه ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى رحمه الله قال : إن سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة المهدي فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى . فأمرت به فرفع ، ثم دعوت جارية أحدثها وأشغل بها فلم تطب نفسى، فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم ، فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت أستقبلنى وكيل لى ومعه مال، فقلت ما هذا؟ فقال : ألفا درهم جئت بها من مستغلك الحديد، قلت أمسكها معك، وأتبعنى . فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم مضيت فى شارع الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار وأنهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت

فقلت للخادم : أعندك ماء تستقينيه؟ قال نعم ، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها مندبل فناولني فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يتلمس فقلت ما تريد يا هذا؟ قال : إياك أريد، قلت : فما حاجتك؟ بغاء حتى جلس إلى جانبي وقال : شممت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعم فأردت أن أحدثك بشيء، فقلت قل، قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت نعم، قال هذا قصر كان لأبي فباعه ونخرج إلى نحرسان ، ونخرجت معه فزالنا عن النعم التي كنا فيها وعميت ، فقدمت هذه المدينة ، فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلني به فأتوصل إلى سوارفانه كان صديقا لأبي ، فقلت ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته ، وإذا هو كان أصدق الناس إليّ ، فقلت له يا هذا إن الله تبارك وتعالى قد أنالك بسوار ومنعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت إذا كان غد فسر إلى منزلي ثم مضيت وقلت ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي فلما دخلت إليه حدثته بما جرى لي فأعجبه ذلك وأمر لي بألف دينار فأحضرت فقال : ادفعها إلى الأعمى ، فنهضت فقال : اجلس ، جالست ، فقال : أعليك دين؟ قلت نعم . قال : كم دينك؟ قلت خمسون ألفا ، فخذني ساعة وقال : امض إلى منزلك ، فمضيت إلى منزلي ، فاذا بخادم معه خمسون ألفا وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اقض بها دينك ، قال : فقبضت ذلك منه ، فلما كان من الغد أبطأ على الأعمى وأنا في رسول المهدي يدعوني بخيته فقال : قد فكرت البارحة في أمرك ، قلت يقضى دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضا . وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى ، قال : فقبضتها وانصرفت ، بغاءني الأعمى فدفعتم إليّ الألف دينار ، وقلت له : قد رزق الله تعالى بكرمه وكافأ على إحسان أبيك وكافأني على إسداء المعروف إليك . ثم أعطيته شيئا آخر فأخذه وأنصرف .

وهذه القصة أطول من سابقتها ، وهي خالية من الشعر الذي حُلّيت به الأولى والفكاهة التي بنيت عليها الثانية ، وتضمن الدعوة إلى البر والمعروف بما اشتملت عليه من حسن الجزاء .

وهذا النمط من القصص الأخلاقي كان كثير الذيوع في القرن الثاني والثالث والرابع، ومن أشهر من كتب فيه أبو جعفر أحمد بن يوسف أحد كتاب الدولة الطولونية، وسنعود إليه في بحث خاص .

٤ — وتلك القصص المتفرقة في كتب الأدب منسوبة إلى ابن الأنباري تدل على أنه كان مغرماً بتصوير الشخصيات عن طريق القصص الأخلاقي والوصفي والفكاهي، وهو منحى طريف كنا نود لو ظفرنا بما يميزه من الشواهد الوافية، ولكن في ذلك القليل المبعثر هنا وهناك ما يكفي للاطمئنان إلى أن ابن الأنباري كانت له يد فيما نسب إلى الخلفاء والوزراء والقضاة والأعراب من طرائف القصص وروائع الأحاديث .

(١) ص ١٩٦ — ١٩٧

٧ - التوابع والزوابع

سياحة شاعر في وادى الشياطين

معنى التوابع والزوابع - متى ألف ابن شهيد رسالته - متى ألقت رسالة الغفران - التشابه بين موضوع الرسالتين - كيف اتصل ابن شهيد بعالم الجن - هل كان للكاتب والخطباء شياطين ؟ - الفكاهة في رسالة التوابع - يقال الجن وحيرهم يتعاشقون ويتغزلون - بغلة أبى عيسى تتباكى مع ابن شهيد وتساله عن حاله وعن إخوانه - أوزة من أهل العلم والأدب تناظر ابن شهيد - دقة ابن شهيد في نقل آراء الكتاب - رأى ابن شهيد في لغة معاصريه من أهل الأندلس - توجع ابن شهيد من حقد معاصريه وحسدكم - شكواه من زمانه - غرامه بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه - ملاحاة ابن شهيد لشیطان أنف الناقة - حرصه على إظهار فضله وتفوقه - إجازة الجن إياه وتقديمهم له - رأيه في أن البيان نقحة سماوية لا صلة لها بالنحو والتصرف - ابن شهيد عند نفسه أشعر الناس وخاصة في الرثاء .

١ - التوابع جمع تابع وتابعة وهو الجنى والجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب ، والزوابع جمع زوبعة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن ، ومنه سمي الإعصار زوبعة إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء في القاموس المحيط .

٢ - والتوابع والزوابع اسم رسالة نفيسة - لم يبق منها إلا شذرات في كتاب مخطوط هو الذخيرة - ألفها أبو عامر ابن شهيد الأندلسي^(١) ، ولم نجد لها صدى يذكر في كتب القدماء ، وأول من وجه نظرنا إليها هو المرحوم الأستاذ محمد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية سنة ١٩١٥ ثم عاد الدكتور أحمد ضيف فحدثنا عنها في سنة ١٩٢٢ ومن رأى الدكتور ضيف أن التوابع والزوابع محاكاة لرسالة الغفران وأن ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء لأنه أدرك عصره، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء. وأقوى حجة عند الدكتور ضيف أن عصر ابن شهيد يندرج في عصر أبي العلاء، فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى سنة ٤٢٦ وعاش المعري من سنة ٣٦٣ الى سنة ٤٤٩^(٢)

(١) انظر ترجمة ابن شهيد في الجزء الثاني ص ٣٠٢ وانظر تحليل ثره ص ٣١٠ وراجع آراءه في النقد

الأدبي ص ٤٨ (٢) راجع بلاغة العرب في الأندلس ص ٤٨

٣ - وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهتد، ولكنا رأينا فى الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهل: فقد جاء على لسانه ما يشير إلى أن من إخوانه (من بلغ الإمارة وآنهى إلى الوزارة) وألقى إليه على لسان أوزة جنية هذا السؤال :

”ما أبقت الأيام منك؟“ .

وفى هذا السؤال إشارة إلى أنه كان ودع نصارة الشباب .

ولكن لا ينبغي أن نتخذنا هذه التعابير ، فهناك نص يدل على أنه وضعها وهو شاب ، فقد حدثنا فى (التوابع والزوابع) أن الجن قالوا له : ”قد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك ، ولا يمل من الطعن عليك ، والاعتراض لك ، فن أشدهم عليك؟“ وأنه أجاب ”جاران دارهما صقب ، وثالث نابته نوب ، فامتطى ظهر النوى ، وألقت به فى سرقسطه العصا ، انتضى على لسانه عند المستعين ، وساعدته زرافة من الحاسدين ... انل“ .

وهذا الكلام يشعر بأنه كتب هذه الرسالة فى عهد المستعين . والمستعين هذا هو سليمان ابن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموى ، الذى بويع بقرطبة منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ بعد مقتل عمه هشام بن سليمان وجددت له البيعة سنة ٤٠٣ ثم مات مقتولا سنة ٤٠٧^(٣)

ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة (التوابع والزوابع) كتبت بين سنة ٤٠٣ وسنة ٤٠٧ هذا جانب من المسألة ، أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذى وضعت فيه رسالة الغفران . وقد بحثنا طويلا فى كتب التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعزى رسالة الغفران فلم نهتد ، ولكنا وصلنا بعد التأمل إلى تقريب التاريخ ، ذلك أن رسالة الغفران جواب على

(١) الذخيرة ج ١ ص ١٥٢ (٢) الذخيرة ج ١ ص ١٣٨ (٣) فى الذخيرة تفاصيل مزجحة لما وقع بين المستعين وبين هشام بن سليمان ، وصور شعبة لما كان يجرى فى الأندلس من اشتعال الفتنة واغتيال العصبة لذلك العهد . أنظر ص ١٧ — ٢٤ ج ١

رسالة ابن القارح، وقد عدنا الى رسالة ابن القارح فدرسناها فقرة فقرة حتى انتهينا الى قوله :
 ”وكيف أشكو من قاتني وعالني نيفا وسبعين سنة“^(١) . فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين،
 ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ فاذا أضفنا الى هذا الرقم - ٧٠ - وجدناه كتب رسالته
 حوالى سنة ٣٢١ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة ٤٢٢ ؛ واذا قدرنا
 أن ابن القارح قال نيفا وسبعين، وللنصف دلالة، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الاجابة
 بأنه مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٢٢ و ٢٤^(٢)

ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوايح والزوايح بنحو عشرين سنة،
 وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين أقترض أن ابن شهيد قلد أبا العلاء،
 وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قلد ابن شهيد، وكما كان الأندلسيون يقلدون
 أهل المشرق فى كل شئ كان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية
 فى الأندلس، بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن
 يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران .

٤ - والواقع أن التشابه تام بين الرسالتين ، فالموضوع واحد وهو عرض المشاكل
 الأدبية والعقلية بطريقة قصصية ، والخلاف فى جوهر الموضوع يرجع الى روح الكاتبين :
 فأبو العلاء يحصر أولا وقبل كل شئ على عرض المعضلات الدينية والفلسفية، وأبن شهيد
 يحصر على عرض المشكلات الأدبية والبيانية، ويتفق كلا الرجلين على التعريض بمعاصريه
 وشرح ما أخذ على المتقدمين من أساطين العقل والبيان . والمسرح واحد تقريبا : فهو عند
 ابن شهيد وادى الجن فى الدنيا، وهو عند أبى العلاء وادى الإنس فى الآخرة : أى الفردوس

(١) رسائل البلغاء ص ١١٢ (٢) بعد تحرير هذه المسألة وصلنا الى نص فى رسالة الغفران يدل على أنها
 كتبت سنة ٤٢٤ إذ يقول المعرى : ”ولا يجوز أن يخبر بخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرمها الله فى سنة
 أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان ابن فلان“ راجع ص ٤٨ ج ٢ من الطبعة الثانية لرسالة الغفران شرح الأديب
 كامل كيلانى .

والجحيم . فالممثلون عند ابن شهيد جنٌ يسخرون الناس ، وعند أبي العلاء إنس تسخرهم الملائكة والشياطين ، وكان لكل إنسان في عرفهم ملك وشيطان .

٥ — وجه ابن شهيد رسالته الى أبي بكر بن حزم فيين في فاتحتها أنه كان في حديثه يحن الى الآداب ويصبو الى تأليف الكلام ، فآبتاع الدواوين وجلس الى الأساتيد فنبض فيه عرق الفهم ودرّ له شريان العلم وأنه كان له في أوائل صبوته هوى أشد له كلفه ثم لحقه ملل في أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كان يهواه مدة ذلك الملل فجزع وأخذ في رثائه فقال :

تولى الجمام بظبي الخلدور وفاز الردى بالغزال الغرير

الى أن آتته الى الاعتذار من الملل الذي كان فقال :

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد نوى في الضمير

ثم أرتج عليه فاذا هو بفارس بباب المجلس على فرس أدهم قد آتكأ على رمح وصاح به :
”أعجز يا فتى الإنسان؟“ .

فأجاب : ”لا وأبيك ! للكلام أحيان وهذا شأن الانسان“ فقال : قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم اذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته وقال : ”وبأبى من أنت؟“ قال : ”زهير بن نمير من أشجع الجن ، تصورت لك رغبة في أصطفائك“ .

فقال ابن شهيد : ”أهلا بك أيها الوجه الواضح ! صادفت قلبا اليك مقلوبا ، وهوى نحوك مجنوبا“^(١) وهنا ينطلق ابن شهيد فيقص علينا أنهما تحادثا وتذاكرا أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يالفهم من التوايع والزوايع وأنه سأل صاحبه زهير بن نمير أن يحتال له في لقاء من اتفق من الشياطين ، فيمضى زهير ليستأذن شيخ الجن ويعود وقد أذن له فيركب ابن شهيد مع صاحبه على متن الأدهم ويسيران كالطير يحتاج الجوّ فالجوّ ، ويقطع الدوّ والدوّ ، حتى يلماحا

أرضاً لا كأرضنا، ويشارفا جوا لا بكونا، متفرع الشجر، عطر الزهر . وهناك يقول الجنى مخاطباً ابن شهيد :

”حلت أرض الجن، أبا عامر؟ فبمن تريد أن تبدأ“ .

فيجيب ابن شهيد :

”الخطباء أولى بالتقديم، ولكنى الى الشعراء أشوق“ .

ومن هنا نفهم أنه كان للخطباء والكتاب شياطين، كما كان للشعراء شياطين، وهذه أول مرة أرى فيها أن العرب كانوا يعتقدون وجود شياطين للكتاب والخطباء، وقد حدثنا ابن شهيد أنه صادف في أرض الجن شيطان الجاحظ، وشيطان بديع الزمان، وشيطان عبد الحميد . فهل كان العرب يرون ذلك أم هو اختراع ابن شهيد^(١) ؟

٦ - رسالة التوايع نفيسة جداً ومؤلفها خفيف الظل الى حد بعيد، وقد وقعت له فيها فكاهات تبعث الأتس الى النفس، من ذلك ما قصه علينا من أنه أشرف بأرض الجن ”على قرارة عيناء، تفتّر عن بركة ماء، وفيها عانة من حمير الجن وبغالها قد أصابها أولق^(٢) : فهى تصطك بالحوافر، وتتفخ من المناخر، وقد أشدت ضراطها، وعلا شحيجها ونهاقها“ . فلما بصرت بهم أجفلت اليهم وهى تقول :

”جاءكم على رجليه“ .

فارتاع ابن شهيد وتبسم زهير وقد عرف القصد وقال له : تهياً للحكم . قال ابن شهيد : فلما لحقت بنا بدأتنى بالتفدية، وحيثنى بالسكينة . فقلت : ما الخطب، حمى حماك أيتها العانة وأخصب مرعاك ! قالت : شعران لبغل وحمار من عشاقنا آخلفنا فيهما وقد رضىناك حكماً . قلت : حتى أسمع ! فتقدمت الى بؤلة شهباء عليها

(١) فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٥٩ ما يفيد أنه كان للكهان شياطين، وكان فيهم الكتاب والخطباء..

(٢) الأولق : الجنون .

جلها و برقعها لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسخف الحركة — فقالت :
الشعر لبغل من بغالنا وهو :

على كل صب من هواه دليل	سقام على جد الهوى ونحول
وما زال هذا الحب داء مبرحا	إذا ما أعتري بغلا فليس يزول
بنفسى التى أما ملاحظ طرفها	فسحر وأما خدها فأسل
تعبت بما حملت من ثقل جها	وانى لبغل للثقال حول
وما نلت منها نائلا غير أننى	إذا هى بالت بلت حيث تبول

والآخر لدكين الحمار وهو :

دهيت لهذا الحب منذ هويت	وراثت لإراداتى فليست أريث
كلفت بإلفى منذ عشرين حجة	يحول هواها فى الحشا ويعيث
وغير منها قلبها لى نيممة	نماها أحتم الخصيتين خبيث
وما نلت منها محروما غير أننى	إذا هى راثت رثت حيث تروث

قال ابن شهيد : فأستضحك زهير وتماسكت وقلت للنشدة : ما هويت ؟ قالت :
هويت بلغة الحمير ! قلت والله إن للروث لرائحة كريهة ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم
فى الشعرين ! فقالت : فهمت عنك ، وأشارت الى العانة أن ركبنا مغلوب . وأنصرفت
قاعة راضية .^(١)

٧ — وتتفرع عن هذه الفكاهة نكتة أبدع وأظرف إذ يقول ابن شهيد :

”وقالت لى البغلة : أما تعرفنى ، أبا عامر ! قلت : لو كان ثم علامة ! فأماطت لثامها
فاذا هى بغلة أبى عيسى ، والحال على خدها ، فتبا كينا طويلا ، وقد أخذنا فى ذكر أيامنا
فقالت :

ما أبقت الأيام منك ؟ قلت : ما ترين ! قالت شبّ عمرو عن الطوق ! وما فعل الأجابة ؟

قلت : شب الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الأخلاق ، ومن إخواننا من بلغ الإمارة ، وآتتهى إلى الوزارة . فتنفست الصّعداء وقالت : سقاها الله سبيل العهد ، وإن حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود ! بجرمة الأدب إلا أقرأتهم سلامى ! فقلت : كما تأمرين .

٨ - وهناك فكاها من مبتكرات ابن شهيد تدل على فهمه لعالم الطين كما دلت الفكاهات الماضية على فهمه لعالم الحيوان ، ذلك أنه يتحدثنا عن أوزة كانت فى البركة بالقرب منهم :

” أوزة بيضاء شهلاء فى مثل جثمان النعامة ، كأنما دُثر عليها الكافور ، أو لبست غلالة من دمس الحرير ، ... فى ظهرها صفاء ، تثنى سالفها وتكسر حدقتها ، وتلwab قمح دوتها ، فترى الحسن مستعارا منها ، والشكل مأخوذا عنها “ .

وقد صاحت تلك الأوزة بالبغلة :

” لقد حكمت بالهوى ، ورضيت من صاحبكم بغير الرضى “ .

فيسأل ابن شهيد صاحبه : ما شأن هذه الأوزة ؟ فيجيبه : ” هى تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة ، وتسمى أم عفيف ، وهى ذات حظ من الأدب فاستعد لها “ .

فيقول لها ابن شهيد : ” أيتها الأوزة الجميلة ، العريضة الطويلة : لجمال صفتك باعتدال منكبيك ، وأستقامة جناحيك ، وطول جيدك ، وصغر رأسك ، تقابلين الضيف بمثل هذا الكلام وتلقين الطائر الغريب بشبه هذا المقال ، وأنا الذى همت بالأوز صباية ، وأحتملت فى الكتاب بها غض كل مقالة ، وأنا الذى استرجعتها للوطن المألوف ، وحبيتها إلى كل غطريف ، فاتخذتها السادة بأرضنا ، وأستهلك عليها الظرفاء منا ، ورضيتها بدلا من العصافير ، ومتكلمات الزرازير ، ونسيت لذة الحمام ، ونفار الديوك ، ونطاح الكباش “ .

عند ذلك داخلها العجب من كلام ابن شهيد ، ثم تدفعت وقد أعترتها خفة شديدة في مائها ، فترة سابحة ، ومرة طائرة ، تنطس هنا وتخرج هناك ، وهذا الفعل معروف في الأوز عند الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها وقالت لابن شهيد :

”أيها الغاز المغرور! كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول ؟ ما الذي تحسن ؟“
ثم يلاحقها وتلاحيه حول الشعر والخطابة والنحو والغريب الى أن يسألها : يا أم عفيف !
بالذي جعل رداءك ماء ، وحشا رأسك هواء ، أيهما أفضل ؟ الأدب أم العقل ؟ فتجيب :
بل العقل . فيقول ابن شهيد : وهل تعرفين في الخلائق أحق من أوزة ؟

فتجيب : لا !

فيقول : فتطلبي عقل التجربة إذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة !^(١)

٩ — وابن شهيد في رسالته التوابع مغرم بأن ينطق الجن بالآراء التي كان يحرص عليها من ينسبون اليهم . من ذلك أنه حين اتصل بأبي عينية عتبة بن أرقم شيطان الجاحظ سمع منه هذا الملام :

”إنك لخطيب وحائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرم بالسجع فكلامك لا نثر“^(٢) . وهذا هو مذهب الجاحظ الذي كان يؤثر الكلام المرسل على المسجوع ويميل في نثره الى المقابلة والأزدواج .

١٠ — وقد ساقطت هذه المناسبة ابن شهيد الى أن يعلن رأيه في لغة معاصريه من أهل الأندلس فيقول :

”ليس هذا — أعزك الله ! — مني جهلا بأفن السجع ، وما في المائلة والمقابلة من فضل ، ولكنني عدمت ببلدى فرسان الكلام ، ودهيت بغباوة أهل الزمان ، وبالحرى أن أحدهم

(١) راجع ص ١٥٢ و ١٥٣ (٢) ص ١٣٥ (٣) في الأصل ”بأفن“ وهو تحريف ،

والأفن معناه العيب ، وهي لفظة يستعملها ابن شهيد . راجع ص ١٣٨ من النذيرة .

بالآزدواج . ولو فرشت للكلام فيهم طوله ، وتحركت لهم حركته ، لكان أرفع لى وأوج
فى قلوبهم^(١) .

فيدهش الجنى ويقول :

”أهذا على تلك المناظر، وكبير تلك المحابر، وكمال تلك الطيالس ؟“ .

فيجيب ابن شهيد : ”نعم ! — انما يحنى الشجر، وليس له ثمر ولا عتر“ فيقول الجنى :
كيف كلامهم بينهم ؟ فيجيب ابن شهيد ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفرايدى اليه طريق ،
ولا للبيان عليه سمة ، انما هى لكنة يؤدون بها المعانى تأدية المحوسى والنبطى .

فيصيح الجنى : إنا لله ! ذهبت العرب كلامها ، إرمهم بسجع الكهان فعسى أن ينفعك
عندهم ، ويطير لك ذكرا فيهم ، وما أراك مع ذلك إلا ثقیل الوطأة عليهم كرية الحجيء اليهم^(٢) !

١١ — وفى تضاعيف الرسالة فقرات تشعر بأن ابن شهيد كان مبتلىً بحقد معاصريه
وحسددهم وإسرافهم فى الكيد له والغض من شأنه ، فقد حدثنا أنه قرأ على الجن رسالة
فى وصف الحلواء فاستحسنوها وقالوا :

”إن لسجعك موضعا من القلب ، ومكانا من النفس ، وقد أعرتة من طبعك ، وحلاوة
لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال أفنه ، ورفع غبنه ، وقد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك ،
ولا يمل من الطعن عليك والاعتراض لك ، فمن أشدهم عليك ؟“

”وهنا يجيب ابن شهيد بأن أشد أعدائه جاران تصاقب دارهما داره ، وثالث أمتطى
ظهر النوى ، فألقت به فى سرقسطه : حيث ينتضى عليه لسانه عند المستعين ، وتساعده
على إفكه زرافة من الحاسدين“ وأنه أنشد فى أولئك الأعداء :

وبلغت أقواما تبحش صدورهم على وإنى منهمو فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولى فأسمعت معجزا وغازوا على سرى فأعياهمو أمرى^(٣)

١٢ - ولا يكتفى ابن شهيد بإعلان حزنه لتحامل معاصريه ، بل يضيف الى ذلك صرخته من عدوان زمانه فينطق الجن - وقد استجادوا شعره - بهذه الكلمة الموجهة :
 ” ما أنت إلا محسنٌ على إساءة زمانك ! “^(١) .

١٣ - وابن شهيد مغرم بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه ، حريص على التفوق عليهم ، فقد حدّثنا أنه قابل بأرض الجن ” زبدة الحقب “ شيطان بديع الزمان فقال له : اقترح على وصف جارية فوصفها ، فقال له الجنى : أحسنت ! فقال له ابن شهيد : أسمعنى وصفك للاء . فقال الجنى : ذلك من العقم ” يريد أنه معنّى لا تمكن معارضته “ ثم أنطلق يقول : ” أزرق كعين السنور ، صاف كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ، وأستعمل بعد البيات ، فكان كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة “^(٢) .

ويعارضه ابن شهيد فيقول :

” أنظر يا سيدى كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر ليّاح ، ينصبّ من إنائه ، إنصباب الكوكب الدرّى من سمائه ، العين كأنونه ، والقمر عفرينه ، كأنه خيط من غزل فلق ، أو منحصرة ضربت من ورق ، يرفع عنك فتروى ، ويصدع به قلبك فتحياً “^(٣) .

عندئذ ضرب شيطان بديع الزمان الأرض برجله فانفجرت له عن عين تدهدى إليها فاجتمعت عليه وغاب وهو نجل خزيان !

١٤ - ولم يقف الزهو بابن شهيد عند إعلان التفوق على كتاب المشرق ، بل مضى يتحدثنا أنه ناوش شيطان أنف الناقة وانتصر عليه بحيث علت أنف الناقة كآبة ، وأختلط كلامه ، وبدت منه ساعتئذ بوادٍ فى خطابه رحمه لها من حضر ، وأشفق عليه منها من نظر ، فشمّر له عن ساعدٍ فتّى من الجن كان الى جنب أنف الناقة وقال :
 ” وهل يسوء قريحتك ، أو ينقص من بديهتك ، لو تجافيت لأنف الناقة وجُدت له ، فانه على علاقته زى علم ، وزنبيل فهم ، وكنف رواية ؟ “ .

فقال ابن شهيد لصاحبه زهير : من هذا ؟ فقال : هو أبو الآداب صاحب أبي إسحاق
آبن حمام جارك .

فقال له ابن شهيد : رققا على أخيك بغرب لسانك ! وهل كان يضر أنف الناقة ويتقص
من علمه ، ويفل شفر فهمه ، أن يصبر لى على زلة تمزبه فى شعر أو خطبة : فلا يهتف بها
بين تلاميذه ويجعلها طرمذة من طراميده !

فقال الفتى الجنى : إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم فى الندرة .

فيقول آبن شهيد : إنها المرة بعد المرة ^(١) !

ثم يحدثنا وهو مزهو مفتون أن أساطين الجن حاروا فى أمره فلم يدروا : أشاعر هو أم
خطيب ، وأنهم آنصرفوا والأبصار اليه ناظرة ، والأعناق نحوه مائلة .
ومثل ابن شهيد فى عبقريته يعذر فى مثل هذا الفتون !

١٥ — ويتصل بحرص آبن شهيد على إظهار تفوقه وفضله ما نراه فى غير موطن من
التوايع من النص على أن زعماء الجن أجازوه ، وبلغ الأمر بأحدهم أن فتن بيت من شعره
فقام يردده ويرقص ، قال آبن شهيد :

ثم أفاق وقال : ” والله هذا شئ لم نلهمه نحن ، ثم آستدنا فى فدنوت منه فقبل بين عيني
وقال : اذهب فانك مجاز على بظر أم الكاره ^(٢) ! “ .

وأولئك الكارهون هم بالطبع من عالم الإنس ، يضاف اليهم من ناواه من زعماء الجن .

١٦ — وفى رسالة التوايع إشارة لطيفة الى رأى ابن شهيد فى البيان وهو يعتقد أن
البيان نفحة سماوية لا صلة بينها وبين معرفة النحو والتصريف ، فليس يكفى أن يختلف
الانسان الى الأساتذة يتلقى عنهم ، وليس يغنى أن يراجع الكتب والدواوين ، وإنما يجب
أن تكون هناك فطرة سمحة وطبيعة سخية يصدر عنها النثر الجيد والشعر البليغ ^(٣) .

(١) راجع ١٤١ و ١٤٢ (٢) ص ١٣٣ (٣) تجد آراء ابن شهيد فى النقد الأدبى مبسطة

وفي هذا يحدثنا ابن شهيد أنه أصطدم في وادي الجن بشيطان أنف الناقة وأنه أستطال على ذلك الشيطان وقال له : طارحني كتاب الخليل وشرح ابن درستويه . فقال الجني :
”دع عنك هذا، أنا أبو البيان“ .

فقال ابن شهيد لاهّا لله ! إنما أنت كمن وسط لا يحسن فيطرب ، ولا يسيء فيلجى .
قال الجني :

”لقد علمنيه المؤدّبون“ .

فقال ابن شهيد .

”ليس هو من شأنهم ، إنما هو من تعليم الله حيث يقول : ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ . ليس من شعر يفسر ، ولا أرض تكسر ، حتى يكون نفسك من أنفاسك ، وقلبك من قلبك ، وحتى تناول الوضع فترفعه ، والرفع فتضعه ، والبيع فتحسنه“^(١) .
ومعنى هذه الفقرات أن البيان شيء آخر غير الكلام المفيد ، فمن الناس من تقرأ له فلا تحمده ولا تذمه ، وشر الكتاب من يملكون على القراء فلا يكون لهم قاذح ولا مادح ولا عدو ولا صديق .

ولا عيب فيما رآه ابن شهيد إلا أنه قدّم له شواهد في وصف الثعلب والبرغوث تدل على ذكاء ولكنها بعيدة عن سحر البيان^(٢) .

١٧ - في رسالة التواضع إشارات كثيرة تدل على رأى ابن شهيد في شعره ، وهو عند نفسه أشعر الناس وخاصة في باب الرثاء ، فإن الجن حين يطارحونه الشعر يسألونه عن مرثيته ، وإلى القارئ نموذجاً مما اختاره من شعره في الرثاء :

أفي كل عام مصرعٌ لعظيم أصاب المنيا حادثي وقديمي
فكيف لقائي الحادثات إذا سبط وقد قلّ سيفي منهمو وعزيمي

(١) ص ١٣٩ (٢) راجع أوصافه للثعلب والبرغوث في الذخيرة ص ١٣٩ ج ١ وبتيمة الدهر ص ٣٩١ ج ١

وكيف أهدأني في الخطوب اذا دجت وقد فقدت عيناى ضوء نجومى
مضى السلف الوضاح إلا بقيّة كفرة مسودّ القميص بهيم
أما وأبى الأيام لولا اعتداؤها لظاهرتُ في ساداتها بقروم
وقارعت من ينبغي قراعى منهمو بأحلام بطش أو بطيش حلوم
أنا السيف لم يتعب له كف ضارب صروم اذا صادفت كف صريم
سعت بأحرار الرجال نفعانى رجال ولم أنجد يجد عظيم
وضيعنى الأملاك^(١) بدءا وعودة فضعت بدار منهمو وحریم^(٢)

(١) الأملاك : الملوك . (٢) في يتيمة الدهر طائفة صالحة من شعر ابن شهيد تجدها في الصفحات

٨ - الانسان والحيوان أمام محكمة الجحيم

١ - تلك رسالة كتبها جندى مجهول من رجال الفكر والبيان الذين كتبوا رسائل إخوان الصفاء . وكاتبنا هذا رجل متفوق في علم الحيوان ، ورسالته عن محاكمة الانسان أمام محكمة الجن لبطشه بالحيوان تجرى مجرى القصص الطريف . ولكن هذا القصص يدور حول محور واحد هو شرح طبائع الطير والحيوان ، ولذلك نرى الكاتب يبدئ ويعيد في الكلام عن خواص الكائنات الحية التي استبد بها الانسان ، وينطلق فيسرد طبائعها جنسا جنسا ، ثم يمتضى فينطقها بما أودعت غرائزها من ضروب الأسرار ، ولا يزال يمعن في الدرس والبحث حتى يتمكن القارئ من معارف جمّة طريفة تشوق العقل والخيال .

٢ - وكاتب هذه الرسالة متأثر بكتاب كليلة ودمنة ، وآية ذلك أنه اختار كليلة رئيسا لوفد السباع^(١) . ووصفه بأنه "كليلة أخو دمنة" وهنا أخطأ الكاتب خطأ فنيا ، فان الخرافة تحدثنا أن كليلة مات حزنا على دمنة بعد أن أودع دمنة السجن زمنا رهنا المحاكمة جزاء بما كسبت يده من الدس لشربة الذي راح فريسة لدسائسه ومكايده . وكان ذلك قبل الاسلام بآماد طوال ، على حين وقعت محاكمة الانسان أمام محكمة الجن بعد أن ظهر الاسلام وخضع الجن لتعاليم القرآن .

٣ - وقصة الخصومة بين الانسان والحيوان نتلخص في أن بني آدم كانوا في بداية الحياة قلقين خائفين مستوحشين من كثرة السباع والوحوش في الأرض ، وكانوا يأوون في رؤوس الجبال والتلال ، وفي المغارات والكهوف ، وكانوا يأكلون من ثمر الأشجار وبقول الأرض وحب النبات ، ويسترون بأوراق الشجر من الحر والبرد . ثم تحضروا فبنوا المدن

والقرى والحصون. ثم سخرُوا من الأنعام البقر والغنم والجمال، ومن البهائم الخيل والبغال والحمير، وقيدوها وأجموها وصرفوها في مآربهم من الركوب والحمل والدراس، وأتعبوها في آسخدامها، وكلفوها أكثر من طاقتها، ومنعوها من التصرف في مآربها، بعد ما كانت مُخلّة في البرارى والآجام والغياض تذهب وتجيء حيث أرادت في طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها. ونفرت منهم بقيتها من حمر الوحوش والغزلان والسباع والطيور بعد ما كانت مطحّنة في أوطانها وأماكنها، وهربت من ديار بنى آدم الى البرارى البعيدة، والآجام والدّحال^(١) ورءوس الجبال، وشمروا بنو آدم في طلبها بأنواع من الحيل والقنص والشباك والفخاخ، واعتقد بنو آدم أنها عبيد لهم هربت وخلعت الطاعة وعصت. ومضى الأمر على ذلك الى أن ظهر الاسلام وخضع له فريق من بنى الجان.

٤ - واتفق أن ولى أمر المسلمين من الجن ملك يقال له "يراست الحكيم" ولقبه "شاه مردان" وكانت دار مملكته مردان في جزيرة يقال لها "صاغون"^(٢) في وسط البحر الأخضر مما إلى خط الاستواء، وهى جزيرة طيبة الهواء والتربة، فيها أنهار عذبة، وعيون جارية، وهى كثيرة الريف والمرافق وفنون الأشجار وألوان الثمار والرياض والأنهار والرياحين والأنوار. وحدث أن طرحت العاصفة في وقت من الزمان مركبا من سفن البحر الى ساحل تلك الجزيرة، وكان فى المركب قوم من التجار والصنّاع وأهل العلم وأغنياء الناس، فخرجوا الى تلك الجزيرة وفُتِنُوا بما فيها من الفواكه والبقول والرياحين، وصادفوا ما فيها من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والهوام والحشرات فى ألفة لا يشوبها تنافر ولا شقاق. وأسْتَطاب القوم المقام فى تلك الجزيرة وبنوا هنالك وسكنوا، ثم أخذوا يتعرّضون لما فيها من البهائم والأنعام ليسخروها فيركبوها ويحملوا عليها أثقالهم على المنوال الذى كانوا يفعلون فى بلدانهم، فنفرت منهم وهربت، وشمروا فى طلبها لاعتقادهم أنها عبيدٌ خرجت عن

(١) الدحال جمع دحل بالفتح ويضم، وهو نقب ضيق فهِ، منسَع أسفله حتى يمشى فيه. (٢) هكذا أميتها الكاتب. والفرنسيون ينطقونها سيجون Saigon وسألت أحد الصينيين فأخبرنى أنهم ينطقونها "سيكون".

طاعتم . فلما رأت تلك البهائم رغبتهم في استعبادها جمعت زعماءها وخطباءها وذهبت الى ييراست الحكيم ملك الجن وشكت اليه ما لقيت من جور بنى آدم ، فبعث ملك الجن رسولا الى أولئك القوم ودعاهم الى حضرته ، فذهبت طائفة من أهل ذلك المركب الى هناك ، وكانوا نحو من سبعين رجلا من بلدان شتى . وبذلك تبدأ قصة التحكيم ^(١) .

٥ - وأول ما ينبغي ملاحظته في هذه المحاكمة هو روح الفكاهة الذى يظهر من فصل الى فصل . ومن أمثلة ذلك أن زعيم الإنس أستدل على حقهم في تسخير الحيوان بهذه الآيات ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ... وعليها وعلى الفلك تحملون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... لتستوها على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ﴾ .

فلما طلب ملك الجن من زعماء الحيوان أن يجيبوا على هذه الآيات قام البغل فقال :
” ليس فى شىء مما قرأ هذا الإنسى من آيات القرآن ، أيها الملك ، دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم ؛ انما هى آيات تذكار بإنعام الله عليهم وإحسانه فقال ؟ ﴿سخرها لكم﴾ .
كما قال : ﴿سخر الشمس والقمر والسحاب والرياح﴾ . أفترى أيها الملك أنها عبيد لهم وأنهم أربابها ؟ “ ^(٢) .

ومن ظريف الفكاهة أن الثعبان وقف يتحدث عن مصير الحشرات والهوام في المحاكمة فبداله أن أكثرها صم بكم عمى بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا منقار ولا مخلب ، ولا ريش على أبدانها ولا شعر ولا وبر ولا صوف ، وأن أكثرها عراة حفاة ضعفاء فقراء مساكين بلا حيلة ولا حول ولا قوة .

وهنا يتحدث المؤلف أن الثعبان أدركته الرحمة والشفقة والرأفة ورق قلبه فدمعت عيناه

من الحزن !

(١) راجع ص ١٧٣ - ١٧٦ ج ٢

(٢) ص ١٧٧

٦ - وفي الرسالة فقرات تدل على أن المؤلف مأخوذ بفلسفة اليونان، وأنظر هذه الكلمة فهي تذكر بنظرية المثال التي شرحها أفلاطون :

”ثم أعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والأشكال والهياكل والصفات التي تراها في عالم الأجسام وجواهر الأجرام هي مثالات وأشياء وأصبغ لتلك الصور التي في عالم الأرواح ، غير أن تلك نورانية شفافة وهذه ظلمانية كاسفة ، ومناسبة هذه إلى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التي على وجوه الألواح وسطوح الحيطان إلى هذه الصور والأشكال التي عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور التي في عالم الأرواح محركات وهذه متحركات ، والتي دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات ، وتلك ناطقات معقولات وروحانيات غير مرنيات باقيات^(١) .

٧ - وفي الرسالة أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ، ويستطيع الباحث أن يستخرج منها ضروب الملابس والعادات إن بدا له أن يضع قصة تمثيلية تقع حوادثها في القرن الرابع ، فالهندي لذلك العهد كان ”طويل اللحية ، موفور الشعر، متوشحاً بزار أحمر على وسطه^(٢)“ والعبراني من أهل الشام كان ”يرتدي برداء أصفر وبيده مدرجة ينظر فيها ويزمزم^(٣)“ والسرياني من آل المسيح كان ”يلبس ثياباً من الصوف وعلى وسطه منطقة من السيور^(٤)“ والقرشي كان ”يلبس ثوبين : رداء وإزاراً، شبه المحرم^(٥)“ واليوناني ”كانت على رأسه مشدة^(٦)“ ولم يعين المؤلف ثياب الفارسي وإن كان وصفه بحسن الهندام^(٧)، وكذلك وصف مندوب العراق^(٨) .

٧ - أنطق المؤلف زعماء الوفود بمحامد أمهم ، ثم أنطق صاحب العزيمة من وزراء الجن بمساوى تلك الأمم . فمندوب الهند يفاخر بأن الله بعث في بلاده الأنبياء وجعل أكثر أهلها الحكماء ، وخصهم بالسحر والعزائم والكهانة ، فيقول الجن وهو يحاوره : ”لو أتممت

(١) ص ٢٣٢ (٢) ص ٣٣٦ (٣) ص ٣٣٧ (٤) ص ٣٣٨ (٥) ص ٣٣٩

(٦) ص ٣٤٠ (٧) ص ٣٤٢ (٨) ص ٣٣٤

الخطبة وقلت : ثم بلينا بحرق الأجساد وعبادة الأصنام والقروء وكثرة أولاد الزنا وأسوداد الوجوه ! ” .^(١)

والعبراني يفاخر بأن الله أصطفى إسرائيل ومن ذريته موسى بن عمران الذي فلق البحر وأغرق فرعون ، وأن الله أنزل على بني إسرائيل المن والسلوى وجعلهم ملوكا وأعطاهم ما لم يعط أحدا من العالمين . فيقاطعه الجنى : ” نسيت ولم تقل : وجعل منا القردة والخنازير وعبدة الطاغوت ! ” .^(٢)

ويفاخر السرياني بأن الله آتخذ من العذراء البتول جسد الناسوت ، وقرن به جوهر اللاهوت ، وأيده بروح القدس ، وأظهر على يده العجائب ، وأحيا به آل إسرائيل من موت الخطيئة ” .^(٣)

فيضيف الجنى : ” قل أيضا : فما رعيناه حق رعايتها وكفرنا وقتلنا ثلاث ثلاثة ، وعبدنا الصلبان ، وأكلنا لحم الخنزير في القربان ، وقتلنا على الله الزور والبهتان ؟ ” .

ويتكلم القرشي فيذكر أن الله خص أمته بخير الأديان وأكرمها بتلاوة القرآن وصوم شهر رمضان . فيقول له الجنى : ” قل أيضا : إنا رجعنا بعد وفاة نبينا مرتدين ، وقتلنا الأئمة الخيِّرين ، طلبا للدنيا بالدين ” .

وفي هذه الفقرة يعبر المؤلف عن نزعة دينية كان يناصرها إخوان الصفاء .

ويخطب مندوب العراق فيذكر أن الله خص قومه بأوسط البلاد مسكنا وأطيبها هواء ، وأكثرها أنهارا وأشجارا وثمارا ، وأن الله فضلهم على كثير من خلقه : فمنهم نوح وإدريس وإبراهيم ، ومنهم كان الملوك الذين سيطروا على العالم القديم . فيقول الجنى : ” ومن عندكم خرج الطوفان ، ومنكم كان نمرود الجبار ، ونجت نصر محرف التوراة وقتل أولاد سليمان وآل إسرائيل ” .^(٤)

ويتقدّم مندوب اليونان فيفاخر بأن الله خص بلادهم بكثرة البقول ، وخص قومه برحمان العقول، ودقة التمييز، وجودة الفهم، وكثرة العلوم والصنائع والطب والهندسة والنجوم وعلم تركيب الأفلاك ، ومعرفة منافع الحيوان والنبات والمعادن والحركات وآلات الرصد والطلسمات، وعلم الرياضيات والمنطقيات والطبيعات والإلهيات .

وهنا ينهض الجنى فيقول :

”من أين لكم هذه العلوم والحكمة التي ذكرتها وأفتخرت بها؟ أولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس، وبعضها من أيام مسيطوس، فنقلتموها إلى بلادكم، ونسبتموها إلى أنفسكم“^(١).

وفي هذه النقطة يحاول المؤلف أن يثبت أن العلوم قديمة أخذها بعض الأمم عن بعض، وهو بهذا يدفع طغيان الثقافة اليونانية التي كان أشياعها يتكبرون إذ ذاك في الأقطار الإسلامية. وإنه ليدكر أن ملك الجن نظر إلى اليوناني وسأله : ماذا تقول؟ وأن اليوناني أجاب :

”صدق الحكيم فيما قال؛ فإذا أخذنا عنهم فإن علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من بعض، ولولم يكن كذلك فمن أين للفرس علم النجوم وتركيب الأفلاك وآلات الرصد، لولا أنهم أخذوها من أهل الهند؟ ومن أين كان لبني إسرائيل علم الحيل والسحر والعزائم ونصب الطلسمات واستخراج المقادير، لولا أن سليمان عليه السلام أخذها من خزائن علوم سائر الأمم حينما غلب عليهم ونقلها إلى لغة العبرانيين وإلى بلاد الشام وكانت مملكته في بلاد فلسطين“^(١)؟

٩ — وقد أجاد المؤلف إنطاق زعماء الشعوب فوضع على لسان كل خطيب تعابير تعين ما لقومه من الأذواق في العلوم والفنون، ومن أطرف ما جاء من ذلك قوله على لسان مندوب اليونان :

”الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كان قبل الهوى ذات الصورة والأبعاد! الحمد لله الذي أفاض من جوده العقل الفعال! الحمد لله الذي أنتج من نوره العقل في جواهر

النفس الكلية ! الحمد لله الذى أظهر من قوة النفس عنصر الأكوان ذوات الهوى والكيان !
الحمد لله مركب الأفلاك والكواكب السيارات ، الموكل بدورانها النفوس والأرواح ، والملائكة
ذات الصور والأشباح “ .

١٠ - وفى المحاورة فقرة تدل على أن العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس
حتى القرن الرابع ، فقد جاء على لسان مندوب الفرس ما نصه : ”ومنا من يقرأ القرآن ويلحنه
ولا يعرف معناه ويؤمن بحمد ويصدق وينصره“^(١) .

١١ - وعرض المؤلف لأمة يأجوج ومأجوج التى تحدث عنها القرآن فذكر أنهما
”أمتان صورتها آدمية ، ونفوسهما سبعة ، لا تعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع
ولا الشراء ولا الحرفة ولا الحرث ولا الزرع ، بل الصيد من السباع والوحوش والسمك
والنهب والغارات بعضها على بعض“^(٢) .

وهو شئ من التفصيل لما أجمله القرآن فى سورة الكهف ، وإن لم يحدد موقع هذه
الأمة من التاريخ .

١٢ - ومن فلسفة كاتب الرسالة أن الطبيعة يأكل بعضها بعضا ، ومن فساد شئ
يكون صلاح شئ آخر ، وحيوانات البحر تفرغ من التين وتهابه ، وهو لا يفرغ إلا من دابة
صغيرة تلسعه ، فإذا لسعته دب سمها فى جسمه فمات واجتمعت عليه الحيوانات البحرية
تأكله فيكون لها عيشا رغدا أياما ، كما تأكل كبار السباع صغارها مدة من الزمان ، وكذلك
حكم الجوارح من الطير : فالعصافير والقناير والخطاطيف تأكل الجراد والنمل والذباب ،
والبواشق والشواهين تصطاد العصافير والقناير . وهكذا سيرة بنى آدم : فانهم يأكلون لحوم
الجدى والحملان والغنم والبقر والطير ، ثم إذا ماتوا أكلتهم فى قبورهم الديدان والنمل والذباب^(٣) !

١٣ - وتحدث الكاتب عن النقل بالعربات ، وحديثه هنا طريف ، لأن العربى
موجودة من قديم الأزمان ، ولكننا نجد أثرها قليلا فى المدنية الإسلامية ، بحيث يظن أن

أن المسلمين الأولين لم ينتفعوا كثيرا بهذه الأداة في حمل الأثقال ، وقد وردت في كلام الكاتب كأنها أعجوبة ، وفي ذلك دلالة على أنها كانت قليلة الاستعمال ، فقد قرنها بالحيلة في الغوص إلى قاع البحار لاستخراج الدر والمرجان والصعود إلى رؤوس الجبال لإنزال النسور والعقبان ، فقال : ” وهكذا بالحيلة يعملون العجلة من الخشب ويشدونها في صدور الثيران وأكافها ، ثم يحملون عليها الأحمال الثقيلة وينقلونها من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق ، ويقطعون البراري والقفار والمفاوز “^(١) .

١٤ - ويحدثنا الكاتب أن زعماء الحيوان اجتمعوا لينتخبوا رسولا منهم يجادل زعماء الانسان ، ثم اختاروا أحد الحكماء من بنات آوى ، فتلطف ابن آوى في الاعتذار وقال : ” وكيف أصنع مع كثرة أعدائي هناك من أبناء جنسنا ؟ ” فقال الأسد : ” من هم ؟ ” فقال : ” الكلاب ؟ ” فسأل الأسد : كيف يصير الكلاب أعداء للسباع وأصدقاء لبني آدم ؟ فقال ابن آوى : أليس قد آستأمنت إلى بني آدم وصارت معينة لهم علينا معشر السباع ؟ فيسأل الأسد عن علة ذلك فلا يعرفها أحد غير الذئب .

وهنا ينطلق المؤلف فينطق الذئب بالأسباب التي جمعت بين الانسان والكلب فيقول : ” إنما دعا الكلاب إلى مجاورة بني آدم ومدخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق ، وما وجدت عندهم من المرغوبات واللذات ومن المأكولات والمشروبات ، وما في طباعها من الحرص والشره واللؤم والبخل ، وما في جبلتها من الأخلاق المذمومة الموجودة في بني آدم ، مما السباع عنه بمعزل : وذلك أن الكلاب تأكل اللحم ميتا وجيفا ومذبوحا ، قديدا ومطبوخا ومشويا ، وما لحا وطريا ، وجيدا ورديئا ، ثمارا وبقولاً وخبزا ، ولبنا وحليباً ، وحامضاً وجبناً وسمناً ودسماً ، ودبساً وشيرجاً ، وناطفاً وعسلاً ، وسويقاً وكأخاً . وما شاكلها من أصناف ما كولات بني آدم التي أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها “ .

ويضيف الخطيب إلى هذا التعليل الطريف للتشابه بين الكلاب والناس في التوافق والتوارد على مختلف الألوان من الطعام والشراب أن الكلاب لا تترك أحداً من السباع يدخل

قرية أو مدينة مخافة أن ينازعها في شيء مما هي فيه ، حتى أنه ربما يدخل أحد من بنات
أوى أو بنات أبى الحصين قرية بالليل يسرق منها دجاجة أو ديكاً أو سنّوراً، أو يجز جيفة
مطروحة، أو كسرة مرمية، أو ثمرة متغيرة، فتحمل عليه الكلاب وتطرده وتخرجه من القرية.
ولا يكتفى الخطيب بذلك بل يلح في فرض المشابهة بين الإنسان والكلب، فيذكر أن
الكلب إذا رأى في يد أحد من بنى آدم من الرجال والنساء والصبيان رغيفاً أو كسرة أو ثمرة
أو لقمة طمع فيها وتبعه، وأخذ يصبص بذنبه، ويحرك رأسه، ويحدّ النظر إلى حدّقه حتى
يستحي أحدهم فيرمي بها إليه! وعندئذ يعدو إليها بسرعة، ويأخذها في عجلة، مخافة أن يسبقه
إليها غيره! ويقول الخطيب — ولا تنس أنه الذئب! — :

”وكل هذه الأخلاق المذمومة موجودة في الإنسان والكلاب، فمجانسة الأخلاق ومشاكله
الطباع دعت الكلاب إلى أن فارقت أبناء جنسها من السباع، وأسأنت إلى الإنسان،
وصارت معيتهم على أبناء جنسها من السباع“^(١).

١٥ — وعرض المؤلف لمسألة دقيقة ثار من حولها الجدل أزماناً طويلاً ، وهي خلق
الجن، وأصل العداوة بينها وبين الإنسان، فقد تخوف أحد زعماء الجن من عاقبة التدخل بين
الإنسان والحيوان، فإن الإنسان أعمق قوة، ومن المحتمل أن يشوروا على الجن فتقوم بينهم حروب
يخسر فيها الغالب والمغلوب .

وقد تألق الكاتب في عرض أدوار الخصومة بين الإنسان والجن والظروف التي كان يقع
فيها صلح أو قتال . والذي تجب الإشارة إليه هنا أن إخوان الصفا يعتقدون بما يسمى
”القران“ وهو عندهم تحوّل حظوظ الأنواع من حال إلى حال : فقد خشي أحد خطباء الجن
من أن تعجز البهائم عن مقاومة الإنسان في الخطاب لقصورها عن الفصاحة والبيان، وأن يجد
الإنس من ذرابة ألسنتهم وجودة عباراتهم ما يقضى بأن تظل البهائم أسيرة في أيديهم
يسومونها سوء العذاب . وكان جواب وزير الجن أن ذلك إن وقع فستكون النتيجة أن

”تصير البهائم في الأسر والعبودية الى أن ينقضى دور القرآن ويستأنف نشوء آخر ويأتي الله لها بالفرج والخلاص، كما نجى آل إسرائيل من عذاب فرعون، وكما نجى آل داود من عذاب بخت نصر، وكما نجى آل حمير من عذاب آل تُبَع، وكما نجى آل ساسان من عذاب اليونان، وكما نجى آل عمران من عذاب أردشير^(١)“ .

و ”القرآن“ هذا أمل جميل، ولو تأخر الزمن بالمؤلف لرجونا أن يقول :

”وكما نجى أهل مصر من عدوان الانجليز!“ .

١٦ - ولم يقف المؤلف عند حدود درس الحيوان، ولكنه استطرد فشرح كثيرا من الظواهر الاجتماعية، وتحدث عن الملوك والوزراء والعلماء والفقهاء، وأفاض في ذكر الأسباب التي قوضت العروش وحولت الأعززة الى أذلة صاغرين، ولم يشهد الكاتب لأحد من الملوك بالعدل إلا للملكين اثنين : ملك الجن وملك النحل^(٢) .

ويطول القول لو مضينا ندرس ما عرض له الكاتب من المعضلات العلمية والفلسفية والاجتماعية، فليرجع القارئ الى أصل الرسالة إن شاء^(٣) .

١٧ - وقد يسأل القارئ عن نتيجة المحاكمة التي فصل أخبارها الكاتب في خمسين ومائة صفحة، وهو سؤال لا بد أن يخطر بالبال .

ونجيب بأن المحاكمة لم تنته الى شيء : لأن زعماء الحيوان فكروا في الوصول الى الحرية عن طريق المفاوضات، ولو آستمعوا للنصيحة الأسد حين صمم على أن يصدع القوة بالقوة، ويقول الحديد بالحديد، لما احتاجوا الى محكمة الجن في جزيرة صاغون !

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

(١) ص ١٩٨ ج ٢ (٢) وصف المؤلف ملك الجن بالحكمة والعدل، أما ملك النحل فوصفه بالاشفاق على رعيته والرحمة لهم والتحنن عليهم (ص ٢٥٢) ويحسن بالقارئ أن يرجع الى ص ٢٥٠ و ٢٥١ ليرى كيف علل المؤلف كثرة الملوك عند الأنس : فقد نفذ الى صميم الحياة عند مختلف الشعوب، وفهم كيف تختلف العقول والطباع والأهواء باختلاف الأقاليم . (٣) لم يكن من همتنا أن نحلل الرسالة التي عرضنا لها في هذا الفصل تحليلا وافيا، وإنما قصدنا إلى إعطاء القارئ فكرة عن أسلوب الكاتب في عرض المسائل العلمية عن طريق القصص، وهو أسلوب له قيمة فنية، وله أثر في تشويق الجمهور الى تعقب الدقائق في مثل علم الحيوان . ولنشرها الى أن أسلوب هذه الرسالة خال من التكلف رهو في جملة يمتاز بالوضوح والصفاء .

(*)

٩ - أخبار التوحيدى

١ - يختلف عمل التوحيدى عن أعمال كتاب الأخبار والأقاصيص أشد الاختلاف : فهو لا يهتم بأهل البادية ، ولا يسلك مسلك الرواة الذين يُعنون بتقييد الغريب من الأخبار والأشعار ، وإنما يهتم بالنواحي التاريخية والأدبية من حياة الرجال : فهو الذى دون المناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس^(٢) فى المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى . وهذه المناظرة تدل على قوة عجيبة فى التوحيدى ، وهى مثل أعلى فى لغة الجدل والحوار بين المتناظرين . ولا يتسع المقام لتحليل هذه المناظرة فليرجع إليها من شاء فى معجم ياقوت^(٣) .

ولكن لا بد أن نشير هنا إلى أن التوحيدى يصرح بأن أهل عصره كانوا ينقلون فلسفة اليونان عن اللغة السريانية ، ويقول على لسان السيرافى فى محاوره متى :
” أنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعوننا الى لغة لا تفهمها ، وقد عفت منذ زمن طويل وباد أهلها ، وأنقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها ؟ على أنك تنقل عن السريانية ، فما تقول فى معان متحولة بالنقل من لغة يونان الى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه الى لغة أخرى عربية ؟ ! “^(٤)

٢ - ولعل هذا هو السر فى أن العرب ظل محصولهم الفاسفى غامضا : لأنهم اضطروا الى العناية بدرس ما وصل إليهم عن اليونان فى إبهام وغموض . وقد أجهت هذه

(*) فى هذا الكتاب فصل عن أبى حيان التوحيدى فى الباب الخامس ص ١٣٣ - ١٤٤ ج ٢

(١) توفى السيرافى فى بغداد سنة ٣٦٨ وكان من كبار للنحاة . (٢) متى بن يونس باحث من رجال

القرن الرابع كان مشغولاً بنشر علوم اليونان . (٣) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٠٥ - ١٢٤

(٤) ص ١٠٨ ج ٣

المشكلة وأنا أدرس فلسفة الغزالي فوصلت بعد الدرس إلى أن الفلاسفة المتفوقين من العرب هم الرجال الذين بنوا فلسفتهم على أساس العقلية العربية ، وكان اتصالهم بالفلسفة اليونانية اتصال ثقافة لا اتصال نقل ومحاكاة ، وكذلك نجح ابن رشد ونجح الغزالي : لأنهما ابتدآ من نقطة مفهومة : هى النفس العربية أو الإسلامية ، ثم مضيا يتعقبان ما يقضى به العقل أو ما يوحى به الدين ، وأستطاعا بذلك أن يخلقا الحماسة للفلسفة فى البيئات الإسلامية ، وأن يخلقا لها ألوفا مؤلفة من الأصدقاء والأعداء .

٣ — ومن أهم ما أبدع التوحيدى حديث السقيفة ، وهو حديث عجيب مهد له بالكلمة الآتية^(١) :

”سمرنا عند القاضى أبى حامد ليلة ببغداد بدار أبى جيشان بشارع الماديان : فتصرف بنا الحديث كل متصرف . وكان والله غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له فى كل جو متففس ، وفى كل نار مقتبس ، فجرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فقال كل فنا ، وقال قولاً ، وعرض بشيء . فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر إلى على وجواب على له ومبايعته إياه عقيب تلك الرسالة ؟

فقال الجماعة : لا ، والله ! فقال : هى والله من درر الحقائق المصونة ، ومخبآت الصناديق المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للهلبى فى وزارته ، فكتبها على فى خلوة بيده وقال : لا أعرف فى الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علم وحلم ، وفصاحة وفقاها ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له واحد من القوم : أيها القاضى ! فلو أتممت المنة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك ، فنحن أوعى لها من المهلبى وأوجب ذماماً عليك“ الخ .

٤ — وحديث السقيفة حديث ممتع ، والذي يهمنا قبل تحليله هو إيراد ما كتبه ابن أبى الحديد فى التعقيب عليه ، لأن لذلك أهمية عظيمة فى إعطاء ما نحن بصددده من إنشاء

(١) ورد حديث السقيفة فى شرح ابن أبى الحديد نهج البلاغة ص ٥٩٢ ج ٢ وأنبه القلقشندي فى صبح الأعنى ص ٢٣٧ ج ١ وبين النصين اختلاف قليل .

القصص التاريخي صبغة واقعية، ويتلخص نقد ابن أبي الحديد في أن حديث السقيفة هذا شبيه بكلام التوحيدى ومذهبه في الخطابة والبلاغة، وأن خطب عمرو وأبي بكر ورسائلهما خالية من البديع ومن صناعة المحدثين الظاهرة في ذلك الحديث، وأن الذى يتأمل كلام التوحيدى يعرف أن ذلك الحديث خرج من معدنه، ويدل عليه أنه أسنده الى القاضى أبى حامد المروذى وهذه عادته فى كتابه (البصائر) يسند الى أبى حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه اذا كان كارها لأن ينسب اليه، ومما يؤيد أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف فى علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية. ولقد كان الرضى يلتقط من كلام على اللفظة الشاردة والكلمة المفردة الصادرة عنه فى معرض التألم والتظلم فيحتج بها ويعتمد عليها وكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه، فأين كان الرضى من هذا الحديث؟ وكان الباقلانى شديدا على الشيعة عظيم العصبية على على، فلو ظفر بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هذا الحديث لملا الكتب والتصانيف بها وجعلها هجيرا ودأبه، ثم قال: "والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق فى علم البيان ومعرفة كلام الرجال، ولن عنده أدنى معرفة بعلم السير وأقل أنس بالتواريخ".

٥ - وخلاصة الحادث الذى وضع من أجله هذا الحديث أن أبى بكر لما استقامت له الخلافة بين المهاجرين والأنصار بلغه عن على تلكو^(١) وشماس فكره أن يتحدى الحال فتبدو العورة. وتتفرق ذات البين، فدعا اليه أبى عبيدة فى خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب، وأوصاه بأن يتلطف فى دعوة على الى مبايعة أبى بكر وإعلان الرضا عن خلافته، فلما هم أبو عبيدة بالانصراف لمعالجة الأمر الذى نذب له تبعه عمر فزوده بآيات من التلطف يلقي بها ابن أبى طالب، فلما وصل اليه بثه ما تلقاه من أبى بكر وعمر: فرق قلب على وأعتذر عن تخلفه بحزنه البليغ على فقد الرسول. ثم عاد أبو عبيدة فبلغ عمر نجاح مسعاه. وفى اليوم التالى ذهب على الى

(١) ص ٥٩٧ ج ٢ شرح نهج البلاغة . (٢) التلكو: الإبطاء والاعتلال . والشماس: النفور .

المسجد فاخرق الجماعة وباع أبا بكر، ثم استأذن للقيام وتبعه عمر مكرما له مستأثرا لما عنده .

تلك خلاصة القصة . ولكن أهمية الحديث ترجع الى ما فيه من الصور الفنية التى تأنق التوحيدى فى صوغها كل التأنق . وأنظر ما وصف به أبو بكر بوادى الشر المخوف الذى يهدد كيان المسلمين لو طال الشقاق^(١) :

” امض الى على وأخفض له جناحك ، وأغضض عنده صوتك ، وأعلم أنه سفالة أبى طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم ! — مكانه . وقل له : البحر مغرقة ، والبر مفرقه ، والحق أكلف ، والليل أغدق ، والسماء جلواء ، والأرض صلاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قذاحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثوب العداوة . وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متحيل يمينه ، نافع خصييه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ... يوسوس بالفجور ، ويدلى بالغرور ، ويمنى أهل الشرور ... ولا بد الآن من قول ينفع إذا أضر السكوت وخيف غبه . ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من آثار البقاء معك . ما هذا الذى تسول لك نفسك ، ويدوى به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ، ويتخاوص دونه طرفك ، ويسرى فيه طعنك ، ويتراءى معه نفسك ، وتكثر عنده صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ؟ أعجمة بعد إفصاح ؟ أتلبس بعد إفصاح ؟ أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ ... إنك والله جد عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة لله عز وجل ، ونصرة لدينه ، فى زمان أنت فيه فى كثر الصبا ، وخدر الغرارة ، وعنفوان الشبية ، غافل عما يشيب ويريب ، لا تعى ما يراد ويشاد ،

(١) خدع جماعة من رجال وزارة المعارف المصرية فظنوا هذه المحاوره صحيحة النسب فاختاروا منها قوامه نسبوها الى أبى بكر فى كتاب المحفوظات للدارس الثانوى .

ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه الى غايتك التي اليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر، ولا محدود الفضل . ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالا تزيل الرواسي، ونقاسي أهوالا تشيب النواصي، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجزع صعابها، ونشرح عباها، ونحكم آساسها، ونبرم أمراسها، والعيون تحدج بالحسد، والأنوف تعطس بالكبر، والصدور تستعر بالغيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشفاه تشحذ بالمكر، والأرض تيمد بالخوف، لا ننتظر عند المساء صباحا، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع في نحر أمر إلا بعد أن نحسو الموت دونه، ولا نبلغ مرادا إلا بعد الا بعد الإياس من الحياة عنده“ الخ . وهناك صفحة في غاية من الجودة كتبت على لسان عمر، رضى الله عنه، أوصى أبا عبيدة أن يواجه بها عليا كرم الله وجهه، وصفحة أخرى خاطب بها عمر عليا حين تلاقيا بعد البيعة، وهذه وتلك من آيات النثر الفني .

والحديث طويل . ولا حاجة الى الافاضة في تحليله فليرجع اليه القارئ إن شاء .

وهذا النمط من تنسيق الأخبار معروف عن التوحيدى، وما نحسبه ألف كتابا إلا أنطق الناس فيه بفنون من الأحاديث فيها متعة للعقل والذوق والإحساس .^(١)

(١) ضاق المجال عن تحليل المناظرات التي دونها التوحيدى، ويكفى أن يعرف القارئ أن تدوين المناظرات كان من أهم ما يمتاز به القرن الرابع، ونحن نرشد الى هذا العنصر من النثر الفني ليتعقبه من شاء، ففسد بطول القول أن مضينا ندرس كل ما اهتم به كتاب ذلك العهد من فنون البيان .

(١)

١٠ - قصص البغاء

١ - أما البغاء فكانت شاعر، كان في ريعان شبابه متصلاً بسيف الدولة، ثم تنقلت به الأحوال بعد وفاة صاحبه، فورد الموصل وبغداد ونادم بهما الملوك والرؤساء. وظل ينعم تارة ويشقى تارة أخرى حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

وليس لدينا من النصوص ما يكفي لبيان الاتجاهات الفنية التي كانت تغلب على البغاء في القصص. ولكن يظهر أنه كان معروفا بهذا الفن، حتى أستطاع الصابي أن يخاطبه بقوله:
خوشيت يا قس الطيور فصاحةً إذا أنشد المنظوم أو درس القصص^(٢)

٢ - وقد بقي لنا من قصصه حكاية ذكر الثعالب أنه لم يسمع أطرف منها في فنها، ولا أطف ولا أعذب ولا أخف^(٣). ونحن كذلك نشهد بأننا لم نقرأ في الأدب العربي أطرف من تلك الحكاية، وهي تمثل الحرية التي كان يمرح في ظلها رجال الأدب في ذلك الحين. ولغة البغاء في تلك القصة سهلة مقبولة لا يظهر فيها تصنع ولا تكلف، وهو لا يستعمل السجع الا حيث يقضى السياق بالتأنق والتنميق، فالسجع عنده حلية فنية يلجأ إليها حين يريد تصوير سمة من سمات الجمال، أو نزعة من نزعات الوجدان. ولو سلك الأدباء مسلك البغاء في ذلك القصص الغرامي لسانت اللغة العربية من الجفاف الذي غلب عليها في النثر ووقف به موقف الجمود. والشعر من هذه الناحية أسلس وأرق، فقد كان للشعر ما يشبه التقاليد المرسومة التي تبيح التحدث عن هفوات الصبا ونزوات الشباب. ولعل هذا كان من أسباب ظهور الشعر على النثر في البلاغة العربية، فانا نرى للشعر المكان الأول في الأنثية والمحافل

(١) راجع ترجمة أبي الفرج البغاء وتحليل رسائله في الجزء الثاني ص ٢٢٦ - ٢٤٢ من هذا الكتاب.

(٢) ص ١٨٨ ج ١ قيمة الدهر. (٣) ج ١ ص ١٧٤

والمواسم . ونراه كذلك أول ما نتوجه اليه عناية الناقلين ، إذ كان أقرب ألوان الأدب إلى النفوس ، وأحبها إلى القلوب ، لاهتمام أصحابه بالحديث عن أهواء الناس وشهواتهم وظنونهم في عالم الجسد وعالم المحبوس ، ولكن الثر لمّا قُصر قديما على الشؤون الجدية من علم وأدب وسياسة ودين كان نصيبه أن يجسّس على فئة قليلة هي الجمهور المحدود جمهور الساسة والعلماء والهداة ، وهو جمهور له قيمته وخطره ، ولكنه لقلته لم يستطع في أى عصر أن يذيع فنا من الفنون الأدبية التي يموت أصحابها إن لم تغز في وقت واحد ساكني القصور والأكواخ . ومن أجل هذا كانت الأقاصيص في النثر من أهم ما يمتاز به الأدب في القرن الرابع ، ففي كتابات بديع الزمان والتوحيدى والتنوخى والبيضا والأزدى نماذج فنية فيها فتن للعقول والقلوب والأهواء والأحاسيس ، لا تقل أثرا في أنفس قارئها وسامعها عما يقدم الشعر البليغ من صنوف اللذة والإمتاع .

قال أبو الفرج . تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكربا وقد سار عنها في بعض وقائمه . وكان الخطر شديدا على من أراد اللحاق به من أصحابه ، حتى أن ذلك كان مؤذيا إلى النهب وطول الاعتقال ، وأضطرت إلى إعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية ، وكان سنّى في ذلك الوقت عشرين سنة ، وكان أنقطاعى منهم إلى أبى بكر بن على بن صالح الرزبازى لتقدمه في الرئاسة ومكانه من الفضل والصناعة ، فأحسن تقبلى وبالغ في الإحسان بى وحصلت تحت الضرورة في المقام فتوفرت على قصد البقاع الحسنة والمتزهات المطرفة تسليا وتعللا ، فلما كان في بعض الأيام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر . وأستصحبت بعض من كنت آنس به وتقدمت لحمل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما نزلناه أخذنا في شأنا وقد كنت اخترت من رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع ، وسبحاجة الخلق ، حسبما جرى به الرسم في غشيان الأعمار وطرق الديرة من التظرف بعشرة أهلها والأنس بسكانها ، ولم تزل الأقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة إلى أن فض اللهو ختامه ، ولوح السكر لصحبي أعلامه ، وحانت

منى نظرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطابي متوثبا ، ولنظري إليه مترقبا . فلما أخذته عيني أكب يزعجني بخفي الغمز ، ووحى الإيماء ، فأستوحشت لذلك وأنكرته ونهضت عجلا وأستحضرتة ، فأخرج الى رقعة مختومة وقال لى : قد لزمك فرض الأمان فيما تقتضيه هذه الرقعة ، وسقط زمام كاتبها فى سترها بك عني . ففضضتها فإذا فيها بأحسن خط وأملحه وأقرأه وأوضحه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لم أزل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاي بين حزم يحث على الانقباض عنك ، وحسن ظن يحض على التسامح بنفيس الحظ منك . الى أن آستزلتني الرغبة فيك ، على حكم الثقة بك ، من غير خبرة ، ورفعت بيني وبينك سحجف الحشمة فأطعت بالانبساط أوامر الأنسة وأتتهزت فى التوصل الى مودتك فأتت الفرصة . والمستأح منك جعلنى الله فذلك زورة أرتجع بها ما أغتصبتيه الأيام من المسرة مهناة بالانفراد إلا من غلامك الذى هو مادة مسرتك ، وما ذاك عن خلق يضيق بطارق ، ولكن لأخذى بالاحتياط على حالى . فإن صادف ما خطبته منك أيدك الله قبولاً ولديك نفاقاً فئنة غفل الدهر عنها أو فارق مذهبه فيما أهدها الى منها . وإن جرى على رسمه فى المضايقة فيما أوتره وأهواه ، وأترقبه من قربك وأتمناه ، فذمام المروءة يلزمك رد هذه الرقعة وسترها وتناسيها وأطراح ذكرها . وإذا بأبيات تلتوا الخطاب وهى :

يا عامر العمر بالفتوة والقصد	ف وحث الكؤوس والطرب
هل لك فى صاحب تناسب فى الـ	مغربة أخلاقه وبالأدب
أوحشه الدهر فاستراح الى	قربك مستنصرا على النوب
فان تقبلت ما أتاك به	لم تشن الظن فيه بالكذب
وإن أتى الزهد دون رغبتنا	فكن كمن لم يقل ولم يجب

قال أبو الفرج : فورد على ما حيرنى ، وأسترد ما كان الشراب حازه من تمييزى ، وحصل لى فى الجملة أن أغلب الأوصاف على صاحبها الكتابة خطأ وترسلاً ونظماً ، فشاهدته

بالفراسة من ألفاظه ، وحدث أخلاقه قبل الاختبار من رقعته ، وقلت للراهب : ويحك من هذا وكيف السبيل الى لقائه ؟ فقال أما ذكر حاله فاليه اذا اجتمعتما . وأما السبيل الى لقائه فمتسهل إن شئت . قلت : دلّني . قال : تظهر فتورا وتنصب عذرا تفارق به أصحابك منصرفا ، وإذا حصلت بباب الدير عدلت بك الى باب خفيّ تدخل منه . فرددت الرقعة عليه وقلت : ارفعها ليتأكد أنه بي وسكونه إلى ، وعرفه أن التوفر على إعمال الحيلة في المبادرة الى حضرته على ما أثره من التفرد أولى من التشاغل باصدار جواب وقطع وقت بمكاتبته . ومضى الراهب وعدت الى أصحابي بغير النشاط الذي نهضت به فأنكروا ذلك ، فاعتذرت اليهم بشيء عرض لي وأستدعيت ما أركبه ، وتقدمت الى من كان معي ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم ، وقد كنا عملنا على المبيت فأجمعوا على تعجل السكر والأنصراف ، وخرجت من باب الدير ومعى صبي كنت آنس به وبخدمته ، وتقدمت الى الشاكريّ برد الدابة وستر خبري ومباكرتي . وتلقاني الراهب وعدل بي الى طريق في مضيق وأدخلني إلى الدير من باب غامض وصار بي إلى باب قلّاية^(١) متميز عما يجاوره من الأبواب نظافة وحسنا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة ، فابتدرنا منه غلام^(١) كأن البدر ركب على أزراره ، مهفهف الكشح مخطف ، معتدل القوام أهيفه ، تحال الشمس برقعت غرته ، والليل ناسب أصداعه وطرته ، في غلالة تم على ما تستره ، وتجفومع رقتها عما تظهره ، وعلى رأسه مجلسية مصمت فهر عقلي ، وأستوقف نظري ، ثم أجفل كالظبي المذعور ، وتلوته والراهب إلى صحن القلّاية فاذا أنا بيت فضيّ الحيطان ، رخاميّ الأركان ، يضم طارقة خيش مفروشة بحصير مستعمل ، فوشب الينا منه فتى مقبل الشيبة ، حسن الصورة ، ظاهر النبل والهيئة ، مثر من اللباس بزي غلامه ، فلقيني حافيا يعثر بسرأويله ، وأعتقني ثم قال : انما آستخدمت هذا الغلام في تلقيك ياسيدي لأجعل ما لعلك آستحسنته من وجهه مصانعا عما تردّ عليه من مشاهدتي ، فاستحسن آختصاره الطريق الى بسطى وأرتجاله النادرة على نفسه ، حرصا في تأنيدي ،

(١) القلّاية : بناء كالدير .

وأفاض في شكرى على المسارعة الى أمره ، وأنا أوصل في خلال سكاته المبالغة في الاعتداد به . ثم قال : يا سيدى أنت مكدود بمن كان معك ، والاستمتاع بمحادثتك لا يتم إلا بالتوصل الى راحتك — وقد كان الأمر على ما ذكر — فاستلقيت يسيرا ، ثم نهضت فخدمت في حالى النوم واليقظة الخدمة التى ألفتها في دور أكابر الملوك وأجلة الرؤساء . وأحضرنا خادم له ، لم أر أحسن منه وجها ، طبقا يضم ما يتخذ للعشاء مما خف ولطف . فقال : الأكل منى ياسيدى للحاجة ، ومنك للمالحة والمساعدة ، فنلنا شيئا . وأقبل الليل فطلع القمر ففتحت مناظر ذلك البيت الى فضاء أدى الينا محاسن الغوطة وجبانا بذخائر رياضها من المنظر الجنائى والنسيم العطرى ، وجاءنا الراهب من الأشرية بما وقع اتفاقنا على المختار منه ، ثم أقتعدنا غارب اللذة ، وجرينا فى ميدان المفاوضة ، فلم يزل يناهبنى نوادر الأخبار وملح الأشعار ، ونخلط ذلك من المزح بأظرفه ، ومن التودد بالطفه ، الى أن توسطنا الشراب فالتفت الى غلامه وقال له : يامترف إن مولاك ما آذرعنا السرور بحضوره ، وما يجب أن نذخر ممكنا فى مسرته ، فامتقع وجه الغلام حياء وخفرا ، فأقسم عليه بحياته وأنا لا أعلم ما يريد ، ومضى فعاد يحمل طنبورا وجلس فقال لى : يا سيدى تأذن لى فى خدمتك؟ فهممت بتقيل يده لما تداخلنى من عظم المسرة بذلك ، فأصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكى وهو ملكى وسالى ثوب نسكى
نزه يقين الهوى فيه لك عن تعرض شك
لولاك ما كنت أبكى الى الصباح وأبكى

فنظر الى الغلام وتبسم فعلمت أن الشعر له ، فكدت والله أطيّر طربا وفرحا بملاحة خلقه ، وجودة ضربه ، وعدوبه ألفاظه ، وتكامل حسنه ، فاستدعيت كيزا فأحضرنا الخادم عدة قطع من فاجر البلور وجيد المحكم فشربت سرورا بوجهه ، وشرب بمثل ما شربت ، ثم قال لى : أنا والله ياسيدى أحب ترفيئك وأن لا أقطعك عما أنت متوفر عليه ، ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد أن تشى ليلتنا بشيء يكون لها طرازا ، ولذكرها معلما ، فخذبت الدواة وكتبت آرتجالا وقد أخذ الشراب منى :

وايلةٍ أوسعتني حسنا ولها وأنسا
ما زلت أَلثمُ بدرًا بها وأشرب شمسًا
إذ أطلع الدير سعدًا لم يبق مذبان نحسا
فصار للروح مني روحا وللنفس نفسا

فطرب على قولى (أَلثمُ بدرًا وأشرب شمسًا) وجذب غلامه فقبله وقال : ما جهلت ما يجب لك يا سيدي من التوقير وإنما اعتمدت تصديقك فيما ذكرته ، فبحياتي إلا فعلت مثل ذلك بغلامك ، فأتبعت إشاره خوفا من احتشامه ، وأخذ الأبيات وجعل يرددها ثم أخذ الدواة وكتب إجازة لها :

ولم أكن لغريمي والله أبذل فلسا
لو آرتضى لى خصمى بدير مرآت حبسا

فقلت إذا والله ما كان أحد يؤذى حقا ولا باطلا ! وداعبته فى هذا المعنى بما حضر ، وعرفت فى الجملة أنه مستتر من دين قد ركبته وقال لى : قد خرج لك أكثر الحديث فان عذرت وإلا ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها ، فتبينت ما يؤثره من كتمان أمره ، فقلت له يا سيدي كل ما لا يتعرف بك نكرة ، وقد أغنت المشاهدة عن الاعتذار ، ونابت الخبرة عن الاستخبار ، وجعل يشرب وينجب على من غير إكراه ولا حث ولا استبطاء الى أن رأيت الشراب قد دب فيه ، وأكب على مجاذبة غلامه ، والفتنة تثنيه فى الوقت بعد الوقت ، فأظهرت السكر وحاولت النوم ، وجاء الغلام ببردعة ففرشها لى بازاء بردعته فنهضت اليها وقام يتفقد أمرى بنفسه ، فقلت له إن لى مذهبا فى تقريب غلامى منى ، واعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذه الحال فى غلامه ، فتبسم وقال لى بسكره : قد جمع الله لك شمل المسرة كما جمعه لى بك . وأظهرت النوم وعاد يجاذب غلامه بأعذب لفظ ، وأحلى معاتبة ، ويخلط ذلك بمواعيد تدل على سعة وأنبساط يد ، وغلامه تارة يقفل يده ، وتارة فمه ، وغلبتني عيناي الى أن أيقظنى هواء السحر فانتبهت وهما متعانقان بما كان عليهما من اللباس ، فأردت توديعه ، وحاذرت أنبهاه وأنزعاجه ،

نفرجت ولقيني الخادم يريد إيقاظه وتعريفه أنصرفني ، فأقسمت عليه أن لا يفعل ووجدت غلامي قد بركبما أركبه كما كنت أمرته ، فركبت منصرفا وعاملا على العود اليه ، والتوفر على مواصلته ، وأخذ الحظ من معاشرته ، ومتوهما أن ما كنت فيه منام لطيبه وقرب أوله من آخره ، وأعترضتني أسباب أدت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على أتم حسرة لما فاتني من معاودة لقائه^(١) . ولم أزل على أتم قلق وأعظم حسرة وأشد تأسفي على ما سلبته من فراق الفتى ، لا سيما ولم أحصل منه على حقيقة علم ولا يقين خبرة يؤدياني الى الطمع في لقائه الى أن عاد سيف الدولة الى دمشق وأنا في جملة ما بدأت بشيء قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه فخرج الى مرعوبا وهو لا يعرف السبب فلما رأني استطار فرحا وأقسم لا يخاطبني إلا بعد النزول والمقام عنده يومى ذلك ، ففعلت فلما جالسنا للحادثة قال : مالى لا أراك تسأل عن صديقك ! قلت والله مالى فكر ينصرف عنه ، ولا أسف يتجاوز ما حرمته منه ، ولا سررت بعودي الى هذه البلدة إلا من أجله ، ولذلك بدأت بقصده فاذكر لي خبره ، فقال لي : أما الآن فنعم ! هذا فتى من المادرائين جليل القدر ، عظيم النعمة ، كان ضمن من سلطانه بمصر ضياعا بمال كثير ، نفّاش^(٢) به ضمانه لقيعود السعر ، وأشرف على الخروج من نعمته ، فاستتر ، ولما أشتد البحث عنه خرج متخفيا الى أن ورد دمشق بزى تاجر فكان استناره عند بعض إخوانه ممن أخدمه فأنى عنده يوما إذ ظهر لي وقال لصديقه إنى أريد الانتقال الى هذا الراهب إن كان على ما مونا فذكر له صديقه مذهبي ، وأظهرت السرور بما رغب فيه من الأنس بى وأنا لا أعرفه ، غير أن صديقي قد أمرنى بخدمته وحصل فى قلايتى فواصل الصوم فلما كان بعد أيام جاءنا الرسول من عند صديقنا ومعه الغلام والخادم وقد لحقا به ومعهما سفائح^(٣) وعليهما ثياب رثة فلما نظر الى الغلام قال : يا راهب قد حل الفطر ، وجاء العيد !

(١) أسقطنا من هذا الموضع قصيدة رائية نظم بها البيغا ما سلف من حوادث هذه القصة . فليراجعها القارئ فى ص ١٨٠ ج ١ من يتيمة الدهر .
(٢) خاش : من الخوش وهو النقص ، وقد يكون الأصل "خاس بضمانه" أى غدر .
(٣) السفائح سندات مالية .

و وثب إليه فاعتنقه وجعل يقبل عينه ويبكى، ووقف على السفائح فأنفذها مع درج رقعة منه الى صديقه .

فلما كان بعد يومين حمل إليه ألفى دينار وقال له ابتع لنا ما نستخدمه في هذه الضيعة فابتاع آلة وفرشا، ولم يزل مكبا على ما رأيت الى أن ورد عليه بالبغال والآلات الحسنة، وكتب أهله باجتماعهم الى صاحب مصر وتعريفهم إياه الحال في بعده عن وطنه لضيق ذات يده عما يطالب به، والتوقيع بحبيطة المال عنه مقترن بالكتب، فلما عمل على المسير قال لغلامه سلم جميع ما بقى معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه في مصالح الدير الى أن نواصل تفقده من مستقرنا. وسار وماله حسرة ولا أسف إلا عليك يقطع الأوقات بذكرك ولا يشرب إلا على ما يغنيه الغلام من شعرك . وهو الآن بمصر على أفضل الأحوال وأجلها ما يبخل بتفقدى ولا يغب برى .

فتعجلت بعض السلوة بما عرفت من حقيقة خبره، وأتممت يومى عند الراهب وكان آخر العهد به .

١١ - أحمد بن يوسف المصري

١ - في أوائل سنة ١٩١٥ أرشدنا الأستاذ حسين مخلوف الى قراءة كتاب المكافأة لأبى جعفر أحمد بن يوسف المصري ، فاقنيتيه وقرأته ، ولكنى وجدته كتابا عاديا لا روح فيه . ثم عدت إليه في هذه الأيام ، صيف سنة ١٩٣٠ ، وأنا في باريس ، فدهشت لبعده ما بين الإحساسين : شعورى بتفاهة الكتاب سنة ١٩١٥ وشعورى بنفاسته سنة ١٩٣٠ ، ورجعت أختبر نفسى وأمتحنها لأعرف السر فى هذا البعد الهائل بين تقديرين مختلفين أشد الاختلاف نحو كتاب واحد ، فانهيت الى أن الكتاب هو هو بالطبع لم يتغير لا فى وضعه ولا فى أسلوبه ، ولكنى أنا الذى تغيرت ، ففى سنة ١٩١٥ كنت من المعجبين المفتونين بأسلوب بديع الزمان والحوارزى والصابى وآبن العميد ، وكان كتاب الصنعة المتأقنون أقرب الناس الى نفسى ، وأحبهم الى ، وأبعدهم تأثيرا فى تكوين مشاعرى الفنية والأدبية ، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بديع الزمان ومقامات الحريرى ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جدا من مختار ما كتب الحوارزى والصاحب بن عباد وآبن زيدون ومن اليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون الثرنا خالصا يسامى الشعر ويباريه فى الزخارف والتهاويل ، والوزن والقافية ، لأن أكثر النثر المصنوع مقفى موزون ، وإن لم يحروزنه وتقفيته على وتيرة واحدة ، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما فى زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وفقراتهم الماثورة فى الأوصاف والتشبيهات ، فأطمأنت نفسى الى أن النثر الجيد هو النثر الذى يعنى الكاتب ويشقيه فى اختيار الألفاظ والتعابير ، وأن الكاتب البليغ هو الصنّاع الفنان الذى ترى جهده وصنعه وفنه فى كل لفظة وكل جملة بحيث ترى فى رسالته أو خطبته ما تراه فى الأعمال الفنية الدقيقة من مظاهر البراعة والحذق ودقة النظم ومتانة التركيب . من أجل ذلك رأيت فى كتاب المكافأة يوم ذاك أنرا ينقصه الفن ويبدو هامدا لا حس فيه ولا روح .

٢ — ثم شاء الله أن أتعلم في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي ، وأن أقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطلوا القول في دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسرائرهم وضمائرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وألوان حياتهم ، فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التي تهيج الحواس ، هناك جمال النفوس الصافية ، والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة ، التي تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل ، وتسكب على الوجدان ما يوقظه ويحييه من نير العطف والحنان . وعرفت أن النثر قد يكون مصنوعا أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثرا للسجع والجناس والتورية والمطابقة والأزدواج ، وأن ما يسمى بالمحسنات البديعية ليس كل شيء في صناعة الكتابة ، فقد يشقى الكاتب في وضع الجملة وصياغة الأسلوب من غير أن يحس القارئ أنه أمام نثر مصنوع . وهذا النوع من الصنعة أدل على الحدق والمهارة وقوة الطبع وعبقورية الخيال ، إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارئ بأنه أمام نثر مطبوع لا أثر فيه للجهد والعنت في تخير الألفاظ ورصف التراكيب ، ومثله مثل المناظر الطبيعية ، فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط والنصاوير ، أو تُعرض عليه سمكة ملونة تلوينا دقيقا يزيغ البصر ويثير الحس ، ثم لا يحسب الإنسان أن في هذه السمكة أو تلك الزهرة فنا وصنعة ، لأنه يظنها هكذا خلقت ، ولا يدري أن الطبيعة صنعتها عن عمد وذكاء . وكذلك نقرأ الآثار الأدبية التي تنقصها الصنعة الظاهرة فتحسبها مطبوعة ، وذلك خطأ مبين ، فكل شاعر يصنع قصيدته ، وكل كاتب يصنع رسالته ، وكل خطيب يصنع خطبته ، والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأول يبدو فيه أثر التكلف ومحاولة الإبداع ، أما الثاني فيصدر عن طبيعة سخية لبقة تعودت الإتقان والإجادة ، بحيث يظن أنها تبدع ما تبدع بلا كلفة ولا عناء .

٣ — غير أنه ينبغي أن نقيّد أن هناك جمهورين من القراء : جمهور المبتدئين الذين تروقهم الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب الصنعة الدقيقة ، ولهذا الجمهور الساذج كتاب يحسنون التلوين والترتين والتهويل مثلهم مثل الباعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج طرائف

التياب المخططة المبرجة وهى ثياب ظريفة خلابة لا تكلف صانعيها جهدا كبيرا، ولكنها تروق العامة وتفتنهم وتبدو لهم غاية فى التجويد والإبداع . وهناك الجمهور الثانى جمهور المثقفين ثقافة أدبية عالية، وهؤلاء يفهمون دقائق الفنون الأدبية، ويفرقون بين الصنعة السطحية والصنعة الخفية التى لا يجيدها إلا الأفذاذ القلائل من فحول الكتاب . هذا الجمهور المثقف هو الذى يُشقى الكاتب المتفوق ويحمله على مراعاة الذوق الأدبى والحاسة الفنية، لأنه يعرف كيف تقع الكلمة من الكلمة، وكيف تؤدى الجملة ما وضعت له تأدية صحيحة لا نقص فيها ولا إسراف. والكاتب البليغ حقا هو الذى يضع الألفاظ على قدود المعانى وضعا رشيقا مهندما يفتن العقل والذوق بحيث لا يود القارئ المثقف لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة ، ومثل هذا الكاتب مثل الصيدلى البارع الذى يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركب أجزاء الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء ، أو زيد عليه جزء ، لأصبح ضارا أو غير مفيد . ومثل الكاتب البليغ مع جمهوره المثقف مثل التاجر المتأنق الذى يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعا ، فقد تبدو بضاعته عادية لا تروق فيها عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط . ولكنها تظهر نفيسة ثمينة عند من ألقت عيونهم وأذواقهم دقائق النسيج ، وغرائب الصنع . ومثل هذا التاجر خليق بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق الذخائر والأعلاق ، فان فهم النفائس يحتاج الى ثقافة خاصة لا تتاح لكل مخلوق . وكذلك الكاتب المبدع والفنان الذى يدق فنه وتسمو صناعته على كثير من العقول والأذواق يجب أن يطمئن الى أن جمهوره معدود الأفراد فليس له أن ينتظر جماهير كثيرة تصفق له وتستعيده وتشيد بذكره فى الأندية والأسواق، وإلا عاد رجلا عاميا لا إباء له ولا عزة ولا كبرياء، فان الخرز مهما راجت سوقه وصنعت منه ملايين العقود لن يصل فى أى ذهن الى مساماة اللؤلؤ المكنون الذى كتب عليه الخمول وظل سجين الأصداف، وفى ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم، وأقصتهم عن الجماهير، فعاشوا فى أوطانهم غرباء .

٤ — كتاب المكافأة طبع سنة ١٩١٤ بمطبعة الجمالية بالقاهرة بعناية الأديب الفاضل أمين عبد العزيز أفندى الذى ظفر بنسخة منه من أحد باعة الكتب بنابلس وقد اهداه الى استاذنا

البجائة أحمد زكى باشا، وهو يقع في ١٢٨ صفحة بالقطع الكبير وعليه بعض تعليقات وفيه أغلاط كثيرة يمكن استدراكها لو طبع مرة ثانية. أما المؤلف فهو أبو جعفر أحمد بن يوسف المصرى، وكان أبوه يوسف بن إبراهيم يكنى أبا الحسن. وكان من جلة الكتاب بمصر، قال ياقوت: ولا أدري كيف كان أنتقاله إليها عن بغداد. مات أحمد بن يوسف نحو سنة ٣٤٠ هـ وله من التصانيف: سيرة أحمد بن طولون وسيرة هارون ابن أبي الجيوش، وأخبار غلمان بنى طولون، وكتاب المكافأة، وكتاب أخبار الأطباء. الخ. وكان حسن المجالسة، جيد الكتابة، حسن الشعر، قد خرج من شعره أجزاء. حدثنا عن نفسه قال:

”كان أبو الفياض سوار بن شراة الشاعر صديقا لى، ومائلا لى. فلما أعتزم على الرجوع الى العراق سألتنى أن أكتب له شيئا من شعرى فكتبت له مقدار خمسين ورقة. وكان يستحسنه ويعجب به، فصار الى بغداد وعرضه على جماعة الأحرار، وأحسن وصفى لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته. ودخل محمد بن سليمان مصر وقد رد البريد بها الى أبى عبيد الله أحمد بن صالح، فسأل عند دخوله إياها عن أحمد بن يوسف فأحضر أحمد بن يوسف، كاتباً كان لأحمد ابن وصيف ولأبن الجصاص بعده، فقال له: تعرف أبا الفياض؟ قال: لا. فقال لهم: ليس هذا الرجل الذى طلبت، فأحضرت، فلما رآنى أستشرف الى وقال: تعرف أبا الفياض؟ فقلت: ذكرك الله وإياه بكل صالحة! نعم، وكان خلّالى. فقال: هل أنشدك من شعره: ظلمنا بها نستزل الدن صفوه. فينزل أقباسا بغير لميب

فقلت: لا ياسيدى! ولكنى أنشدته إياه من شعرى، فضحك وقال. والله لقد أشقت الى الدخول الى مصر من أجلك“.

ونحن نأسف لأن ضاع شعر أحمد بن يوسف الذى كان ينقل الى مصر سكان العراق. ٥ — كتاب المكافأة مصدر عظيم من مصادر الأدب والتاريخ، نعرف منه اتجاه العقول وسيرة الناس فى مصر فى أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع. والمصريون

لذلك العهد، كما وصفهم صاحب المكافأة، كانوا يقاسون ألوانا من الظلم والاضطهاد. وكانوا في أنفسهم مزيجاً من العرف والنكر، والخير والشر، والعدل والوفاء، فقد كان فيهم المحسنون والمتصدقون، كما كان فيهم اللصوص وقطاع الطريق . وهذه الحال تذكر بما كنت أسمع في طفولتي من أخبار المناسرات التي كانت تبيت الناس فتتزل عليهم في هدأت الليل وهم يديرون السواقي في أطراف الحقول . واللص المصرى في كتاب المكافأة هو نفسه اللص المصرى الذى كانت أخباره متعة السامعين الى عهد قريب، فهو رجل فاتك جرى نهاب سفاك، ولكنه مع ذلك رجل ذو مروءة وشهامة يفي بالعهد ولا ينقض الميثاق . واللصوص في مصر كانت لهم تقاليد تشبه تقاليد الصعاليك من عرب الجاهلية . فالصعاليك كانوا فتيانا ذوى بأس شديد يسوءهم أن تقسم الأرزاق بين الناس قسمة جائرة ، وأن تكثر الفروق بين الأغنياء الذين يحدون ولا يشتهون، وبين الفقراء الذين يشتهون ولا يحدون ، فكانوا لذلك ينظمون جهودهم ، ويغيرون على ما يملك الأغنياء البخلاء ، من إبل وشاء . وصاحب المكافأة نفسه يطلق على اللصوص كلمة صعاليك ، كأنه كان يلمح ما في طباع المصريين الناهبين من معنى الثورة على توزيع الأملاك . ولننظر كيف يقول :

”حدثني محمد بن صالح الغورى قال : كانت لى بضاعة أعود بفضلها على شملى ، فافترقت فى معاملات فى الصعيد وخرجت الى من عاملته بجمعتها، وكان مقدارها خمس مائة دينار، وخرجت أريد القسقاط فى رفقة كثيرة الجمع ، فلما كان منتصف طريقنا وفى جمع من الصعاليك فسلب الناس جميعا ودهشت، فرأيت منهم شابا حسن الصورة فقلت له : والله ما أملك غير هذا الكيس فارفعه لى عندك . فقال : وأين بيتك بالقسقاط ؟ فقلت فى دور عباس بن وليد . فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد الغورى . قال امض لشأنك . وجاء منهم من قلع ثيابى وسراويلى، وأنصرفوا عنا، ولم أزد أن سؤغت واحدا منهم جميع ما كان معى، ودخلنا الى القسقاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم الى ما تخلف له وبقيت ليس معى درهم أنفقه . وإنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد

وقف بي، فقال لي : هاهنا منزل محمد الغوري؟ قلت أنا هو . ولا والله ما آهتديت الى الرجل الذي أعطيته المال لأنه كان عندي أول مال ذاهب ، فقال لي : عيّنتني ! وأخرج الكيس فدفعه اليّ، فردّدت عليّ جدّتي وتطعمت الحياة^(١) .

وتنتهي القصة بأن الغوري دعا اللص الى المبيت عنده، وأنه مضى في الصباح الى بعض القواد يخبره بحديث ذلك اللص الشريف، وأن القائد قال له : الطف لي فيه، فوالله لأنوّهن باسمه ، ولأكافئنه عنك، قال : ”فرجعت اليه فأخبرته، فوالله ما آرتاع ولا أضطرب، ومضى معي، فأحسن تلقيه، وخلع عليه، وصيره سيارة لعمله، وضم اليه عدّة وافرة“ .

وللقارئ أن يعيّن المعاني النفسية في الفقرة الأخيرة ، خصوصا عبارة ”فرجعت اليه فأخبرته فوالله ما آرتاع ولا أضطرب ومضى معي“ فانها تدل على شهامة ذلك اللص، وإيمانه بقوة شخصيته، وجدارته بالتقدّم الى من يدعوّه من كبار القواد .

٦ — أسلوب أحمد بن يوسف يستحقّ الدرس والنقد، لأن هذا الكاتب كان فنانا يضع اللفظة في الموضع الذي لا يليق بها غيره ولا تستقرّ في مكان سواه . وهو كاتب مقصد لا يسجع ، ولا يوازن بين الكلمات، ولا يزاوج بين الجمل، كأكثر معاصريه . ولكن هذا الاقتصاد كثير التكاليف : فمن الصعب أن يصل الكاتب الى غرضه في عبارات موجزة خالية من شوائب الإسهاب والإطناب ، وأسلوبه مع هذا الاقتصاد شائق أخذ يغلب عليه الفن الجميل . ومن العجيب أن هذا الرجل أملك الناس لنفسه وأكثرهم سلطانا على قلمه ، فهو يتحدّث عن أبيه، ويتحدّث عن وقائعه الشخصية، بنفس الأسلوب والروح الذي يتحدّث به عن قوم آخرين . وكان في مقدوره — لو كان ممن يأخذهم الزهو والعُجب والكبرياء — أن يطيل القول حين يعرض لما وقع له ولأبيه من حوادث أنتصرت فيها المروءة والشرف وكرم العنصر وسماحة النفس . ولكنه ظل في جميع ما أودعه كتاب المكافأة رجلا عبقريا مالكا لزام قلمه وكابحا لجراح هواه، فلا تراه يستطيل ولا يتردد حين يتكلم عما أسدى من

(١) (المكافأة ص ٩٩ و ١٠٠) .

المعروف إلى بعض من عاصره من سلاسل الخلفاء والوزراء . وله مع قصصه وإيجازه عبارات بارعة تضي كأروع ما يكون في التعريض والتلميح ، وإليك قوله في بعض قصصه يتحدث عن واقعة أنتصر فيها الخلق النبيل :

”ونزل في حارتنا غلام أمرد تأخذه العين، وكنت أسلم عليه إذا أجترت به كما أفعل هذا بغيره من جيرتي . فأنصرفت يوما إلى منزلي فوجدته قائما على بابه، فدفع إلى رقة يذكر فيها أنه عباسي من ولد المأمون ويسألني برّه، ودخل من كان معي بدخولي، فقضيت شغلي بالجماعة حتى أنصرفتوا، ووضعت المائدة بيني وبين العباسي . فأكلنا وهو يتأملني فلا يجد في شيئا قدره . فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنائير ، واعتذرت إليه من تقصيري في حقّه ، وأنصرفت وقد رأيت تبجيلي في حماليق عينه^(١) .“

ففي هذه الأسطر القلائل عرض الكاتب مسألة خلقية دقيقة عرضا لا إخلال فيه ولا تطويل . وللقارئ أن يتأمل قوله : ”أمرد تأخذه العين“ فاني أستجيد هذا التعبير وأفضله على قول الثعالبي في ثمار القلوب ”أمرد تأكله العين“ الذي أخذه أحد الشعراء فقال :

ولقد شربتك بالمني ولقد أكلتك بالضمير

وجملة : ”فأكلنا وهو يتأملني فلا يجد في شيئا قدره“ من الجمل العجيبة التي تؤدى في قصصه وإيجاز ما تؤدّيه الكنايات البارعة التي تصل بالكاتب إلى غرضه من دون أن يخرج على قوانين الأدب والحياء . وقوله : ”وأنصرفت وقد رأيت تبجيلي في حماليق عينه“ من العبارات الرائعة القوية التي لا تقع لغير الكتاب الموقّعين .

٧ - وفي القصة التي رواها عن أحمد بن أيمن تعابير جيدة، وذلك أن ابن أيمن دخل البصرة إلى أحد التجار فرأى بين يديه ابنين له في نهاية من النظافة، فقال للتاجر: استجدت الأم فحسن نسلك . فقال التاجر: ما بالبصرة أفصح من أمهما ولا أحب إلى منها . ولتلك الأم خبر عجيب خلاصته أن أباهما كان عضلها وتعرض لعداوة خطابها، لسر خفي^(٢) هو أن أبنته كانت

(١) ص ٢٢١ ٢٢٢ (٢) عضلها : منها من الزواج .

دميمة محرومة من كل سمات الجمال ، وكان يخشى لو زفت أن تطلق ليومها ، فلما تقدم ذلك التاجر يخطبها رأى والد الفتاة أنه أهل للخير وأنه قد يقبلها على دمامة وجهها . فلما دخل بها واجهته بالكلمة الآتية :

”ياسيدى ! إنى سر من أسرار والدى كتمة عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، وراك أهلا لستره عليه ، فلا تخف ظنه فيك ، ولو كان الذى يُطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تديرها وعفافها لعظمت محنتى ، وأرجو أن يكون معى منها أكثر مما قصّر بى فى حسن الصورة“ .

ثم وثبت بغاءت بمال فى كيس وقالت :

”ياسيدى ! قد أحل الله لك معى ثلاث حرائر وما آثرته من الإماء ، وقد سوغك تزويج الثلاث وأبتاع الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك إلا سترى فقط“ .

وهنا يقول التاجر وقد حلف :

”إنها ملكت قلبى ملكا لم تصل إليه حسنة بحسنها ، فقلت لها جزاء ما قدمته ما تسمعيه منى : والله لا أصبت من غيرك أبدا ! ولأجعلنك حظى من دنياى فيما يؤثره الرجل من المرأة . وكانت أشفق الناس وأضبطهم وأحسنهم تدييرا فيما تتولاه بمنزلى ، فتبينت وقوع الخيرة فى ذلك ، ولحقتنى السن : فصارت حاجتى الى الصواب أكثر منها الى الجماع . وشكر الله لى ما تلقيت به جميل قولها ، وحسن فعلها ، فرزقنى منها هذين الأبنين الرائعين لك ، ونحن منقطعون الى جوده فينا ، وإحسانه إلينا“^(١) .

والقارئ حين يتأمل هذه العبارات يجدها بسيطة ، ولكنها قوية الأثر فى النفس ، وأية دقة ، أم أية بلاغة فات هذا الكاتب فى مثل قوله : ”استجبت الأم فحسن نسلك“ أو قوله : ”إنى سر من أسرار والدى كتمة عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، وراك أهلا

لستره عليه، فلا تخفّر ظنه فيك“ أو قوله : ” ولحقّنى السنّ : فصارت حاجتى إلى الصواب أكثر منها إلى الجماع “ .

هذه العبارات هي أنسب وأدق ما يتخير للحديث عن مثل هذه الشؤون التي تمس الحياة الزوجية ، وهي حياة تبنى على أساس الصدق والعدل والحب الخالص من شوائب الترق والرعونّة والشهوات . فمن البلاغة أن يعبر عنها في قصد وإيجاز بعيدين من طنطنة الإسهاب .

٨ — ومن التعابير المختارة قوله في أحمد بن كثير الفرغانى الذى عمل المقياس بمظمر :

” وكانت معرفته أوفى من توفيقه لأنه ما تم له عمل قط “^(١) .

وقوله على لسان محمد بن موسى : ” إن قدرة الحزّ تذهب بحفيظته، وقد فزعنا إليك في أنفسنا التي هي أنفس أعلامنا، وما ننكر أنا قد أسأنا، والاعتراف يهدم الاقتراف “^(٢) .

وقوله في وصف حصار إفريطش : ” وأشدّ الحصار ، ونزع السعير ، وتحلّق الماكول ، وشاع الجهد ، ثم زادت المكاره حتى أكل الناس مامات من البهائم جوعاً “^(٣) .

وقوله على لسان سيدة توفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات :

” فكنت أجاهد في مؤونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت :

أقرضيني كذا وكذا، إستحياء من أن أقول لها : هبى لى . ودخل شهر رمضان ، فلما مضى نصفه أشتها على صبيانى حلوى في العيد ، فصرت الى أختى فقلت لها : أقرضيني ديناراً أعمل به للصبيان حلوى في العيد ، فقالت : يا أختى تغيظيني بقولك ” أقرضيني “ وإذا أقرضتك من أين تعطيني : أمن غلة دورك ، أو بستانك ؟ لو قلت : هبى لى ، كان أحسن . فقلت لها : أفضيك من لطف الله تعالى الذى لا يَحْتَسَب ، وجوده الذى يأتى من حيث لا يرتقب . فتضاحكت وقالت : يا أختى ، هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النسوكى . فانصرفت عنها أخرجلى إلى منزلى “^(٤) .

وهي عبارات ساذجة ولكنها تؤدي ما وضعت له تأدية صحيحة تثير العطف وتبعث الحنان .

٩ - ويجانب هذا البيان الرائع توجد عند أحمد بن يوسف عبارات مقتولة باللبس والغموض ، من ذلك قوله في مقدمة المكافأة :

” وقد رأيتك لا تزيد من رغبت اليه فيما تحذوه على برك، وتحثه لما أغفل من أمرك، على نص مكارم من سلف، وترى أنه يهش الى مساجلتهم، فلا يبلغ في هذا أكثر من إحراز الفضيلة للرجوع إليه، ولا يوجد في الراغب فضيلة تحثه على شفيق قصده، ولو عدلت عن مكارم من رغبت اليه، الى حسن مكافأة من أنعم عليه، لكانت لك ذرائع يمت بها الراغب يوجد المرغوب اليه سبيلا الى الانعام“ .

فان الشطر الأخير من هذه الفقرة غارق في لجة من الإيهام .

وتوجد في الكتاب عبارات كثيرة يغلب عليها الضعف، وهذا مقتل خطراً لكثير الكتاب الذين لا يصنعون أساليبهم في تأنيق وحذق، فان الكتاب الذين يغلب عليهم الاستسلام لسجيته ولا يتخيرون للكتابة ساعات النشاط والقوة يقعون غالباً في مهاوى الركافة والإسفاف. ومهما قيل في تفضيل الطبع وإيثار ما توحى به النفس في غير كلفة ولا عناء، فانه لا يزال من الحق أن الطبيعة الخالصة تحتاج الى تهذيب وترتيب، وأحواض الزهر المنسقة المهندمة التي يعنى بها الجنائون في الحقائق والبساتين أفقن وأروع من الزهر المبدد الذي تلقى به الطبيعة هنا وهناك وفقاً لخصب الأرض وجود السماء .

١٠ - وهنا نقطة مهمة لابد من درسها بعناية: ذلك أن موزنى الأدب متفقون على أن البها زهير أقدم أديب ظهرت في أدبه ألفاظ وتعايير وأخيلة مصرية. ولكني رأيت أحمد بن يوسف سبقه الى ذلك بأجيال، والى القارئ البيان .

(١) الجنان : البستاني، وهي كلمة طريفة، صغناها من كلمة « الجنة » ثم رأينا أحد المتقدمين سبقنا اليها حين قال :

جنان يا جنان	إجن من البستان	الياسمين
واترك الريحان	بحرمة الرحمن	للعاشقين

ثم رأينا أن « الجنان » هي كذلك بمعنى البستاني في اللغة العبرية، من « الجان » وهي في العبرية كالجنة في العربية .

(١) المصريون، حتى المثقفون منهم ثقافة عالية، يقولون «ست» في مكان «سيدة» وهى كلمة مصرية قديمة أدخلها أحمد بن يوسف في لغته الفصيحة بمجازاة للغة الحديث^(١).

(ب) والذين يعيشون في الأقاليم المصرية يذكرون المنادى الذى ينادى في الطرقات قبيل العشاء ليبلغ الناس أوامر الحكومة، ويذكرون كيف يختم ندائه بهذه العبارة «والذى يخالف يستاهل مايجرى عليه» وكلمة «يستاهل» عربية فصيحة مخففة عن «يستاهل» بمعنى يستحق، وفي مثل هذا التعبير يقول ابن يوسف: «فقال أبو العباس: سيعلم مايجرى منى عليه»^(٢).

(ج) القاعدة العامة في النحو أن الفعل يفرد مع الفاعل المثني والجمع، فنقول: حضر الأفاضل، وحضر الأفاضلون، ولا يثنى الفعل ولا يجمع إلا في لغة ضعيفة يسميها النحاة لغة «أكلوني البراغيث» والعياذ بالله! ولكن المصريين في لغة الحديث يطابقون بين الفعل والفاعل في الأفراد والجمع فيقولون مثلاً: حضروا الغائبون. وكذلك نجد ابن يوسف يجارى أحياناً لغة الحديث فيقول: «فلما مضى نصفه اشتها على صبيانى حلوى في العيد»^(٣).

(د) اللغة الفصيحة تطلق كلمة زوج على الرجل والمرأة بدون إلحاق التاء للدلالة على التأنيث، وفي القرآن الكريم ﴿وَأَصْحَابُهَا لَهُ زَوْجُهُ﴾ ولا يقال «زوجة» إلا في كتب المواريث، ويذكرون أن الامام الشافعى كان يكره أن يقول «زوجة» فكان يقول «المرأة» إذا أقتضى الحال ذلك. ولكن المصريين في لغتهم يقولون زوج وزوجة مجازاة للقاعدة العامة التى تفرق بين المذكر والمؤنث بعلامة من علامات التأنيث. وكذلك نجد ابن يوسف يقول: «ولو كان الذى يطلب من الزوجة حسن صورتها، اتل»^(٤).

(هـ) ويقول أحمد بن يوسف: «فلما غسل يده دفعت اليه ثلاثة دنانير وأعتذرت اليه من تقصيرى في حقه»^(٥) وعبارة «قصر في حقه» لا تزال مستعملة إلى اليوم بين المصريين في لغة الحديث.

(١) أنظر ص ١١٧ و «لغة الحديث» تريد بها لغة التخاطب ويقابلها في الفرنسية La langue parlée.

(٢) ص ١١٤ (٣) ص ١١٦ (٤) ص ٥١ (٥) ص ٢٢

(و) المصريون يسمون البنات أحيانا «حسنة» بضم الحاء، وكنت أحسبها تحريفا عن حسناء، ولكنى رأيت ابن يوسف يقول «ملكت قلبى ملكا لم تصل اليه حسنة بحسناها» ومن ذلك عرفنا أن كلمة «حسنة» كانت تجرى إذ ذاك على لسان المصريين بمعنى جميلة، وهذه الصفة مهجورة في اللغة الفصيحة، وأكثر ما تستعمل في المذكر، ولكن قلما يكون ذلك بدون إضافة، فهم يقولون قى حسن الوجه، ويندر أن يكتفوا بالصفة من غير تخصيص.

(ز) المصريون يشعرون تاء الخطاب في مخاطبة المؤنثة فيقولون «فعلتيه» بدلا من «فعلته» ويحذفون النون من «تفعلين» وكذلك نجد ابن يوسف يقول: «جزاء ما قدمته ما تسمعيه^(١)» بدلا من «جزاء ما قدمته ما تسمعيه منى» ويقول «يا أختي تفيظني^(٢)» بدلا من «تفيظني» وهو نوع من التخفيف في لغة الحديث أدخله الكاتب في اللغة الفصيحة.

(ح) المصريون يسمون السفينة «مركبا» وكذلك يسميها ابن يوسف فيقول: «ركبت مركبا أريد الفسطاط من تنيس وحماة فيه تجارة لى ما كنت أملك غيرها». وكلمة مركب في لغته مذكورة، وهى كذلك عند أكثر البحارة في النيل، وإن كنت أرى بعض أهل الريف يحرونها مجرى المؤنث خصوصا أهالى ستريس.

(ط) المصريون يسمون الكيس الكبير جدا الذى توضع فيه الأمتعة «تليسا» بفتح التاء وتشديد اللام مكسورة. وهذه اللفظة موجودة في كتاب المكافأة حيث يقول المؤلف: «ثم دخل بتليس من شعر... الخ»^(٣).

(ى) كلمة نفر في اللغة الفصيحة تستعمل غالبا بمعنى الجمع؛ ففي القرآن الكريم ﴿استمع اليه نفر من الجن﴾. أى جماعة منهم، وفيه أيضا: ﴿وأعز نفرا﴾ بمعنى القوم والقبيل. ولكن المصريين يستعملون كلمة نفر بمعنى شخص، فيقولون خمسة أنفار مثلا، وكذلك نجد ابن يوسف يقول: «فتخفرت بأربعة نفر من القيسية»^(٤) يريد أربعة أشخاص.

(١) ص ٥٢ (٢) ص ١١١ (٣) ص ٨٢ (٤) ص ٢٠

(ك) والمصريون يقولون لمن يغلق الباب من الداخل "أغلقه من عنده" وكذلك يقول ابن يوسف : "دخلت البيت وأغلقتة من عندى"^(١).

(ل) ويقول ابن يوسف على لسان قابلة أولاد نحمارويه بن طولون : "فكنت أجاهد في مؤونة ولدى، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى"^(٢). وعبارة "وقف أمره" عبارة مصرية تساوى العبارة الجارية في الريف حين يقولون "وقف الحال" بمعنى ضاق الأمر وآشدت الكرب . وتقابلها في اللغة السورية عبارة "مشى الحال" ومنها الأغنية المشهورة "ماشى الحال، ماشى الحال" .

١١ - وأحب أن يتنبه القارئ إلى أن ما نسميه عبارات مصرية أو سورية أو يمنية أو مغربية ليس إلا ترديدا لأخيلة عربية صحيحة وردت جملتها في الشعر البليغ والنثر الفصيح، ولكن غلب بعضها هنا وساد بعضها هناك، بحيث صح أن يقال هذه عبارة مصرية، وتلك عبارة سورية، الخ .

وليس من المنطق في شيء أن نسد آذاننا مرة واحدة عن اللهجات المتفرقة في الأقطار العربية، فإن اللغة الفصيحة تحتاج إلى مدد دائم من تلك اللهجات، ومثلها مثل النهر الكبير يحتاج، مع فيض منابعه الأصلية، الى المدد المستمر الذى يصل إليه من روافده الصغيرة . وقد يوجد في اللهجات العامية نوع من الحرية والطلاقة والمرونة في بعض التعابير، فمن الأوفق أن يتسرب شيء من تلك السهولة الى اللغة الفصيحة لتعود ألين وأسلس، ولتصير أقدر على التوضيح والتفهم والتبيين .

والواقع أن فصاحة الكلمات وبلاغة التعابير ترجع في الأكثر الى قبولها من ذوى الطباع السليمة، والأذواق المهذبة، ففي مقدور الكتاب أصحاب النفوذ في تكوين الملكات الفنية، والأذواق الأدبية، أن يضيفوا الى قاموس اللغة الفصيحة بعض الكلمات المختارة في لغة الحديث، حتى تصبح تلك الكلمات بعد حين جزءاً من الثروة اللغوية التي نرجو أن نستغنى

بها عن الاستعانة ببعض ألفاظ الأجانب وأخيلتهم حين يعرض لنا معنى دقيق يحتاج إلى لغة أقدر وأصرح من لغة القدماء والمحدثين الذين وقفوا عند حدود مارسمت المعاجم والقواميس .

* * *

١٢ - ولكن لأي غرض وضع كتاب المكافأة ؟

يظهر أن أحمد بن يوسف المصرى كان غاية في نبيل النفس ، وقوة العقيدة ، وطهارة الوجدان . كان مؤمنا أصدق الايمان بعدل الله ورحمته ، وكان يثق ثقة مطلقة بأن المرء مجزى بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وكان فيما يظهر قد عرف من أخيار الناس وأشراهم طوائف كثيرة مختلفة أرتة أنواعا من الجزاء على أعماله الصالحة ، فمنهم الوفاء الشكور ، ومنهم الغادر الكفور ، لذلك تأصلت في نفسه الحفيظة والموجدة تجاه الجاحدين الكاندين الذين نسدى إليهم الخير والاحسان ثم تلقى منهم عاديات الغدر والعقوق . ونكاد نلمس في كلماته جمرات الغيظ كلما مر ذكر الناقضين للعهد والناسين للعرف ، حتى لنذكر به تلك الزفرة المرة زفرة يحيى بن طالب حين قال :

يَهْدِنِي فِي كُلِّ غَيْرِ صَنَعْتُهُ إِلَى النَّاسِ مَا جَرَبْتُ مِنْ قِلَّةِ الشُّكْرِ

وله في مقدمة كتابه عبارات حكيمة ، منها قوله :

” إن أشدَّ على المتحن من محنته ، عدوله في سعيه عن مصلحته ، وتجنبه الصواب

في بغيته “ .

وقوله :

” ولم يؤت الجود من مائى هو أغمض من مغادرة حسن المكافأة ، ولو أنعمت النظر فيها لوجدتها أقوى الأسباب في منع القاصد ، وحيرة الطالب ، ولو كانت توجد مع كل فعل استحقتها لآثر الناس قاصديهم على أنفسهم ولجروا على السنن الماثور عنهم “ .

١٣ - وقد قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أقسام : الأول المكافأة على الحسن ، والثانى

المكافأة على القبيح ، والثالث حسن العقبي . وقد وضع في القسم الأول إحدى وثلاثين حكاية ،

ختمها بحكاية رجل وقف بين يدى المنصور، وكان من رجال هشام بن عبد الملك ، فكان المنصور يسأله عن سيرة هشام لأنها كانت تعجبه ، فكان الرجل يترحم عند كل جارية من ذكره، فأحفظ ذلك حاشية المنصور، فقال له الربيع : ” كم تترحم على عدو أمير المؤمنين ؟ “ فقال الرجل للربيع :

” مجلس أمير المؤمنين، أيده الله، أحق المجالس بشكر المحسن، ومجازاة المجمل، وهشام فى عنق قلادة لا يترعها إلا غاسلى “ .

فقال له المنصور: وما هذه القلادة؟ قال : قلدى فى حياته، وأغنانى عن غيره بعد وفاته . فقال له المنصور : (أحسنت ، بارك الله عليك ، وبحسن المكافأة تستحق الصنائع ، وتزكو العوارف) .

ثم أدخله فى خاصته .

واستطرد المؤلف فقال : وقد مثل بعض الفلاسفة الحسن المكافأة بالحسام الصقيل الذى يحدث له وقوع الشمس عليه أنبعاث شعاع منه يجلو غياهب الأمكنة المظلمة، ويكون وفور شعاعه على حسب صقالته .

ووضع فى القسم الثانى لحدى وعشرين حكاية ختمها بحكاية شيخ كان يعرفه فى أيام نهارويه، حلو النادرة، مليح الألفاظ، يعرف بالدفانى، وكان معاشه من التوصل بكتب الولاية الى معاملهم، فحدثه أنه خرج بكتب الى الشرقية فالتقى مع رجل فى زى بعض المائوية من الأطباء، فدعاه المتطبب الى مؤاكلته وأخرج رغيفين مشطورين أعطاه أحدهما ووضع الآخرين يديه . ثم أخذ كوزا معه ومضى يسعى به، فشرهت نفس الدفانى الى الرغيف الذى كان بين يدى المتطبب فأبدله برغيفه ، وجاء المتطبب بالماء وأبتدأ الأكل ، فآبتلع المتطبب لقمة حتى شغص بصره وتمدد، الى آخر القصة ^(٢) .

ومهد المؤلف للقسم الثالث بهذه العبارات الفلسفية إذ قال :

”وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقيح، مارجونا أن يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير، وتطلب العارفة في الحسن، وزجر النفس عن متابعة الشر، وإبعادها عن سورة الانتقام في القبيح، وقد قالوا : الخير بالخير، والبأى أخير، والشر بالشر، والبأى أظلم، رأيت أن أصل ذلك، حفظك الله، بطرف من أخبار من آتلى فصبر، فكان ثمرة صبره حسن العقبي . لأن النفس إذا لم تعن عند الشدائد بما يحدد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها، وقد علم الإنسان أن سفور الحالة عن ضدها حتم لا بد منه، كما علم أن أنجلاء الليل يسفر عن النهار . ولكن خور الطبيعة أشد ما يلزم النفس عند نزول الكوارث ، فإذا لم تعالج بالدواء اشتدت العلة ، وازدادت المحنة ، والتفكر في أخبار هذا الباب مما يشجع النفس ، ويعينها على ملازمة الصبر، وحسن الأدب مع الرب عز وجل بحسن الظن في موأاة الإحسان عند نهاية الامتحان، والله ولي التوفيق“ (١) .

وقد وضع في القسم الثالث تسع عشرة حكاية، ختمها بحكاية عمرو بن عثمان إذ قال :
 ”كان لي مجلس في ديوان الإنشاء قليل الجدوى عليّ“، وحالي حال لا تنهض بما يحتاج إليه المقتصد، وقد لزممتي يمين لا كفارة لها في ترك النبذ . فكان جماعة الكتاب يجلسون ما جلس الوزير، وهو يومئذ الفضل بن الربيع، فإذا أنصرف إلى منزله أنصرفوا إلى ما عقدوا عليه أمرهم من الاجتماع، وأقيم وحدي في الديوان إلى أن يغلق، فبكرت إليه في يوم من الأيام، وجاءت مطرة تطرب الوزير فيها إلى الشرب، لتشاغل الرشيد في دعوة لزبيدة ، فلم يبق في ديوان الإنشاء غيري . فاني لجالس حتى دخل إلى خادم من خاصة الرشيد، فأخذ بيدي وأدخلني إلى الرشيد، فلما مثلت بين يديه قال : اقرأ هذا الكتاب . فقرأته فينته وأعربته . فقال : أجب عنه بين يدي . فأجبت عنه بأحسن معان وأجود لفظ . فقال : اقرأه عليّ، فقرأته . فقال لمسرور الكبير ”ألف دينار“ بجاء بها . فقال : ادفعها إليه، وقل للفضل : ”يصرف إليه ديوان الإنشاء فهو أحق به ممن غادره“ ثم قال لي : ”خذ هذا

المال ، وسأنظر لك فى الوقت بعد الوقت ما يزيد فى آصطناعى لك ، فلا يفسد الغنى ما أصلحته الفاقة من حسن ملازمتك ، وأستردنى أزدك^(١) .

١٤ — ومؤلف المكافأة يعتقد أن المحن والشدائد من أجل ما يهب الله لعباده الذين يعدهم لعزائم الأمور ، ويتمثل فى خاتمة كتابه بقول بزرجهر: ”الشدائد قبل المواهب تشبه الجوع قبل الطعام ، يحسن به موقعه ، ويلذ معه تناوله “ وكلمة أفلاطون : ”الشدائد تصلح من النفس بمقدار ما تصلح من العيش ، والتترف يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش “ وقوله : ”حافظ على كل صديق أهدته اليك الشدائد ، وآله عن كل صديق أهدته اليك النعمة “ وقوله أيضا : ” الترفه كالليل لا نأمل فيه ما تصدره وتتناوله والشدّة كالنهار ترى فيها سعيك وسعى غيرك “ وقول أردشير : ”الشدّة كحل ترى به ما لا تراه بالنعمة “ .

١٥ — قلت إن أحمد بن يوسف المصرى كان قوى العقيدة ، وأضيف الى ذلك أن قوة عقيدته لم تكن لأنه قرأ فى بعض الكتب أن الله موجود ، أو لأنه سمع من هداة القسيسين والأخبار أو العلماء والوعاظ أن الله سريع الحساب وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم . لا ، لا ، فذلك إيمان المقلدين ، إيمان الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على آثارهم مهتدون . ولكن إيمان بعدل الله ورحمته أنبعث من نفس راضتها الحوادث على الاطمئنان الحق الى وجود الله وحنان رفقته ، وقسوة جبروته . وآية ذلك أن الأفاضل الذين أودعها كتاب المكافأة أكثرها مما شاهدته فى عصره ، فبعضها وقع له بالذات ، وبعضها وقع لأبيه ، وجزء منها وقع لأناس عرفهم بالمجاورة والمعاشرة ، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حاشية بنى طولون . من أجل هذا نرى إيمان ابن يوسف إيمانا قويا خالصا بعيدا كل البعد عن الإيمان الرسمى الذى يحرص عليه من يعيشون باسم الدين فى أقطار الشرق والغرب ، وإن كان ذلك لا يمنع أن يكون فيمن تصلهم بالدين صلوات رسمية أبرار ومتقون .

فإن كان القارئ فى شوق الى لمحة من ذلك الإيمان القوى ، إيمان الرجل الذى عرف ربه كأنه يراه ، فليقرأ قول أحمد بن يوسف فى خاتمة كتابه ”ويلاك مصلحة الأمر فى الشدّة (١) انظر ص ١٢٥ و ١٢٦ من المكافأة .

شيئان : أصغرهما قوة قلب صاحبها على ما ينوبه ، وأكبرهما حسن تفويضه الى مالكه ورازقه ، واذا حمد الرجل بفكره نحو خالقه علم أنه لم يمتحنه إلا بما يوجب له مثوبة ، أو يحصى عنه كبيرة ، وهو مع هذا من الله في أرباح متصلة ، وفوائد متتابعة . فاذا أشد فكره تلقاء الخليفة كثرت رذائله ، وزاد تصنعه ، ورم بمقامه فيما قصر عن تأميله ، وأستطال من المحن ما عسى أن ينقضى في يومه ، وخاف من المكروه ما لعله أن يخطئه . وإنما تصدق المناجاة بين الرجل وبين ربه لعلمه بما في السرائر ، وتأيده البصائر ، والله تعالى روح يأتي عند اليأس منه يصيب به من يشاء من خلقه . واليه الرغبة في تقريب الفرج ، وتسهيل الأمر ، والرجوع الى أفضل ما تطاول اليه السؤال ، وهو حسبي ونعم الوكيل “ .

* * *

١٦ — وبعد فقد كان كتاب المكافأة عميق الأثر في نفسى ، وكان قبسا من الهداية أرفع به ظلمات الغواية في باريس . فهل أستطيع أن أحكم بأن إعجابى بذلك الكتاب هو أيضا مكافأة لمؤلفه رحمه الله ، وأن جهده في وضعه وتنسيقه لم يضع ، وأن حرصه على بث الفضيلة والتنفير من الرذيلة لم يضع ، وأن إيمانه بالله عز شأنه لم يضع . وهيئات أن يضع عند الله شيء ، هيئات ، هيئات !

كان أحمد بن يوسف مصريا ، وأنا كذلك مصرى . لقد لقي في مصر بعض الظلم ، وأكاد ألقى فيها كل الظلم . كان يحسن الى كثير من الناس ، فيفى له من يفى ، ويغدر به من يغدر ، وأنا في حدود طاقى أبذل البر والمعروف ، ثم ألقى من بعض من أحسن اليهم أشنع ألوان الجحود ، وأتلفت الى أصدقائى الأوفياء أعدهم فأقول : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، ثم أغمض عيني من لدعة الكمد الوجيع .

ولكن يبقى لى ذلك الكثر الذى لا ينفد ولا يفنى ، وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يفيض ، يبقى لى الله الذى يعاملنى بأجل وأفضل مما أستحق ، يبقى لى الله الذى تلمس يدى وترى عيني آثار رحمته وعدله ، وتكاد تصافه يمنى ، وتكاد تصافه يمنى ، ولو شئت لمضيت فى ترديد هذه الجملة ، ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب !

” ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب “ .

١٢ - عبد الله بن عبد الكريم

عبد الله بن عبد الكريم هذا من الشخصيات الخاملة لا نعرف عنه أكثر مما جاء في مجموعة النحلة البية من أنه كان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون ومن المرجح أنه أدرك القرن الرابع ، وقد روى حكاية مسجوعة تمثل عواقب القدر والوفاء ، رأينا أن نثبتها هنا بنصها وإن كنا لا نستبعد أن يكون دخل عليها شيء من التحوير ، وأهميتها ترجع إلى تصويرها لبعض الحوادث في القصور المصرية في عهد ضاع أكثر ما وضع عنه من الروايات والأقاصيص ...

حدث عبد الله بن عبد الكريم قال :

”كان أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلاً مطروحاً فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاءً وفطنة وأحسنهم زياً وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمزس فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده الأمير أبا الجيش نهارويه به فأخذه إليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير إليه وقال له : أنت عندي بمكانة أركانها ولكن عادتني أني أخذ العهد على كل من أصرفه في شيء إنه لا يخونني ، فعاهده ، ثم حكمه في أمواله ، وقدمه في أشغاله ، فصار أحمد اليتيم مستحوداً على المقام ، حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام ، والأمير أبو الجيش يحسن إليه كلما رأى خدمته متصفة بالنصح ، ومساعدته متسمة بالنجح ، فركن إليه ، وأعتمد في أسباب بيوته عليه ، فقال له يوماً : يا أحمد ، امض إلى الحجرة الفلانية ، ففي المجلس بحيث أجلس سبعة جواهر بخفي بها ، فضى أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياها مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بحل قريب ، فلما رآياه خرج الفتى بخفاء الجارية إلى أحمد ، وعرضت نفسها عليه ودعته إلى قضاء وطره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير ، وقد أحسن إليّ ، وأخذ العهد عليّ ، ثم تركها وأخذ السبحة وأنصرف إلى الأمير وسلم إليه السبحة وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد لئلا يذكر حالها للأمير ، فقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها ، ثم اتفق أن الأمير اشتري جارية

وقدمها على حظاياه ، وغمرها بغطاياه ، وأشتغل بها عن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، ولا يراها ، وكان أولا مشغوبا بتلك الجارية الجائرة ، الخائنة الغادرة ، العاتية القاهرة ، الفاسقة الفاجرة ، فلما أهرض عنها أشتغالا بالحديدة المحيطة ، المسعدة السعيدة ، الحامدة المحمودة ، الوصيفة الموصوفة ، الأليفة المألوفة ، الرشيقة المرشوقة ، العارفة المعروفة ، وصرفت لبهجة محاسنها وآدابها وجهه عن ملاعبة أترابها ، وشغلته بعذوبة رضاها عن آرتشاف ضرب^(١) أضرابها ، وكانت تلك الأولى لحسنها متأمرة على تأميره ، لا تخاف من وليه ولا نصيره ، فكبر عليها لإعراضه عنها ، ونسبت ذلك الى أحمد اليتيم ، وأطلعه على ما كان منها . فدخلت على الأمير وقد آرتدت من الكآبة بجلباب مكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها ، وقالت : ان أحمد اليتيم قد راودنى عن نفسى ، فلما سمع الأمير ذلك آستشاط غيظا وغضبا ، وهم في الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فتانى في فعله ، وآستحضر خادما يعتمد عليه ، وقال له : اذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق ذهب وقلت لك على لسانه : املاؤ هذا الطبق مسكا ، فاقتل ذلك الانسان وأحمل رأسه في الطبق ، وأحضره مغطى . ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماء الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه ، آمن في سربه لم يخطر بخاطره شئ ولا هجس في قلبه ، فلما ثمل الأمير وأخذ منه الشراب قال : يا أحمد ! خذ هذا الطبق وأمض به الى فلان الخادم وقل له يملؤه مسكا ، فأخذه ومضى ، وأجتاز في طريقه بالمغنين وبقيّة الندماء الخواص ، فقاموا اليه وسألوه الجلوس معهم فقال : أنا ماض في حاجة للأمير لأمرنى بإحضارها في هذا الطبق . فقالوا : أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وأدخل بها الى الأمير ، فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال امض الى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املاؤ هذا مسكا ، فمضى ذلك الفراش الى الخادم وذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغسله وجعله في الطبق وغطاه وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم

(١) الضرب بالتحريك : العسل .

وليس عنده علم من باطن الأمر . فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال : ما هذا ؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذه الطبق والرسالة مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره . قال : أفتعرف لهذا الفراش خبراً يستوجب ما جرى عليه ^(١) ؟ فقال : أيها الأمير ، ان الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة ، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك . وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله الى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة الجوهر ، فدعا الأمير بتلك الجارية واستقرها فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ، ففعل ، وأزدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه ، وضاعف إحسانه اليه ، وجعل أزيمة جميع ما تعلق به بيديه ^(٢) .

وقد مهد هذه القصة بعبارة مسجوعة ، وعقب عليها بالفقرة الآتية :

” فانظر إلى آثار الوفاء كيف يحى من المعاطب ، وينجى من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب ، ويفضى بصاحبه الى آرتقاء غوارب المراتب ، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده ، وهو بشر مثله وليس فى الحقيقة بعبده ، وأطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده ، دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده . فاذا كان العبد مع خالقه ورازقه وأفيا فى طاعته بعهده ، فكيف لا يفيض عليه من الطافه ومواهب بره ورفده ، ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته ما لا ممسك له من عبده . ويقال انه ليس شئ أوفى من القمرية اذا مات ^(٣) ذكرها لم تقرب آخر عبده ، ولا تزال تنوح عليه الى أن تموت . والله أعلم “ .

(١) لا تنس أن هذه عبارة مصرية . (٢) ص ١٩٠ — ١٩٢ من التحفة البهية (٣) ص ١٩٢

١٣ - المحسنة التنوخى

أرشدنا الى هذا الكاتب المسيو ماسينيون "صديق الجميع" كما كتب إلينا في وصفه المستشرق الهولندى الجليل الدكتور سنوك .

١ - والتنوخى هذا هو المحسن بن على بن محمد المتوفى ببغداد سنة ٣٨٤ ، وكان مولده بالبصرة سنة ٣٢٩ ، وله من التصانيف كتاب الفرج بعد الشدة ، وكتاب نشوار المحاضرة ، أحد عشر مجلداً ، كل مجلد له فاتحة بخطبة ، وهو كتاب جيد ألفه التنوخى في عشرين سنة أولها سنة ٣٦٩ وأشترط أن لا يضمه شيئا نقله من كتاب .

قال المستر مارجوليوت في خاتمة نشوار المحاضرة - وقد آتبدأ طبعه سنة ١٩١٨ وفرغ

منه سنة ١٩٢١ - :

"النشوار كلمة فارسية أصلها نشخوار ، ومعناها جرة الحيوانات المجترة ، وقد آستعملها التنوخى بمعنى الحديث «طيب النشوار والأدب»^(١) «حسن النشوار رواية الأخبار»^(٢) وأما ما ذكر من تاريخ الكتاب فيطابقه ما جرى فيه ذكره من التواريخ ، فإن المؤلف ذكر خبراً سمعه في سنة ٣٤٩^(٣) ثم أكثر من ذكر حوادث سنة ٣٦٠^(٤) ثم ذكر حادثاً حدث سنة ٣٦١^(٥) وأما ما اشترط من الاختصار على ما لم يدون في كتاب فكثيراً ما أخل بشرطه . وقد نهينا في مواضع على ورود الحكايات في (الفرج بعد الشدة) للمؤلف وغيره من الكتب . وأما ما زعم من اشتمال الكتاب على ١١ جزءاً فيؤكد ما يوجد في بعض الكتب من حكايات منقولة عن النشوار غير موجودة في جزئنا . من ذلك ما أورده السيوطى في المزهرة وياقوت الرومى في إرشاد الأريب^(٦) والغزولى في مطالع البدور^(٧) وأما نحن فلم نعث منه إلا على الجزء الأول في نسخة

(١) ص ٦٢ ص ١٦ (٢) ص ٨٦ ص ١٤ (٣) ص ١٦ (٤) ص ٢١٦ ص ٢٣٥

(٥) ص ٢٧٤ (٦) ج ٢ ص ١٦٣ من الطبعة الأولى . (٧) ج ٦ ص ٦٠ ص ١٩٠

(٨) ج ١ ص ٩٤

عددتها ٣٤٨٢ من الخطوط العربية المحفوظة في خزانة الكتب الوطنية في باريس، قد ذكر الناسخ أنه فرغ من نسخها في سنة ٧٣٠ وليس فيها ما يدل على أنها أول جزء من أجزاء عدة، وعدد صفحاتها ١٩٣ وهي كاملة الشكل كثيرة الأغلاط لا سيما في الأعلام ... وقد حذفنا حكايات ليست بكثيرة لم نرداعيا الى تخليدها .

٢ — هذه كلمة المستر مارجوليوت في التعليق على ما ذكر يا قوت . ونلاحظ أنه فاته حين تكلم عن مطابقة التواريخ أن يتنبه الى ما نقله خطأ عن يا قوت حيث دَوَّن أن كتاب نشوار المحاضرة صنف في عشرين سنة أولها سنة ٣٦، وهو قد ذكر أن التنوخي ولد سنة ٣٢٩ فعلى هذا يكون المؤلف ابتداء جمع أصول ذلك الكتاب في السابعة من عمره، وهو خطأ مبين وسنصححه بعد قليل .

٣ — وحدّثنا المستر مارجوليوت أنه حذف حكايات لم يرداعيا الى تخليدها، وكما نودّ لو نُشر الكتاب كاملاً لم يحذف منه شيء، فإن التحكم في أغراض المؤلفين من الأغلاط الشنيعة التي ينبغي أن ينزه عنها أمثال المستر مارجوليوت، وهو قد صنع مثل هذا الصنيع في طبع إرشاد الأريب لياقوت المعروف بمعجم الأدباء، فقد أذكر أنه حذف طائفة من رسائل أبي العلاء المعري اكتفاء بنشرها في مجموعة أخرى من مجموعات أكسفورد . فكأنه لا يفكر إلا في قرائه من المستشرقين .

وهذه المؤاخذة لا تحول دون الاعتراف بفضل هذا الباحث في نشر الآثار القديمة، فاليه يرجع الفضل في إحياء كثير من المراجع المهمة في الكشف عن معارف الأقدمين .

ونضيف الى ما كتبه عن نشوار المحاضرة ما أخبرنا به المسيو ماسينيون^(١) من أن مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق أخذت تنشر في أعدادها الأخيرة بقايا قيّمة من أصول ذلك الكتاب .

(١) في يولييه سنة ١٩٣٠

٤ — وأهمية كتاب شوار المحاضرة تعرف من مقدمته ، فان المؤلف يحدثنا أنه اتصل
بكثير من الناس ممن عرفوا أحاديث الملل ، وأخبار الممالك والدول ، ووقفوا على محاسن الأمم
ومعانيهم ، وفضائلهم ومثالبهم ، وسمعوا أخبار الملوك والكتاب والوزراء ، والسادة والبخلاء ،
وذوى الكبر والخيلاء ، والأشراف والظرفاء ، والمحاذين والندماء ، والسفهاء والحلماء ، والمحذنين
والفقهاء ، والفلاسفة والحكماء ، وأهل الآراء والأهواء ، والمتأذنين والأدباء ، والمترسلين والفصحاء ،
والرجاز والخطباء ، والعروضيين والشعراء ، والنسايين والرواة ، واللغويين والنحاة ، والشهود
والقضاة ، والأمناء والولاة ، والمتصرفين والكفافة ، والفرسان والأعجاذ ، والشجعان والأعجاذ ،
والجند والقواد ، وأصحاب الفنص والأصطياد ، والحواسيس والمتخبرين ، والسعاة والغمازين ،
والوزاقيين والمعلمين ، والحساب والمحترزين ، والعمال وأصحاب الدواوين ، والأكرّة والفلاحين ،
والمتكلمين على الطرق ، والواعظين والقصاص ، وأهل الصوامع والخلوات ، والنسك
والصالحين ، والعباد والمتبتلين ، والصوفية والمتواجدين ، والأئمة والمؤذنين ، والقراء والملحنين ،
وأهل النقص والمقصّرين ، والأغنياء والمتخافين ، والشطار والمتقين ، وأصحاب العصبية
والسكاكين ، وقطاع الطرق والمتلصصين ، وأهل الخسارة والعيارين ، ولعاب النرد والشطرنجيين ،
والملاح والمتطايين ، وأهل النادرة والمضحكين ، والطفيلية والمستطرحين ، والأكلة والمؤاكلين ،
والشرب والمعاقرين ، والمغنيات والمغنين ، والرقاصين والمختنين ، وأهل الهزل والمتخالعين ،
والبله والمغفلين ، والمفكرين والموسوسين ، والملحدة والمتنبئين ، والأطباء والمنجمين ،
والشكاليين والفصادين ، والآسية والمجبرين ، والشحاذين والمجتدين ، والمجدودين والمحدودين
والسعاة والمسافرين ، والمشاة والمتغترين ، والشباب والغواصين ، وسُلاك البحار والمفايزات ،
وأهل المهن والصناعات ، والمياسير والفقراء ، والتجار والأغنياء ، والفواضل من النساء ،
حرارهن والإماء ، وخواص الأحجار والحيوانات ، والأدوية والعلاجات ، والأحاديث
المفردات ، وطريف المنامات ، وشريف الحكايات ، وغير ذلك من ضروب أحاديث أهل
الخير والشر ، والتفيع والضّر ، وسكان المدر والوبر ، والبدو والحضر ، شرقا وغربا ، وبعدا وقربا .

ثم يقول :

وكان القوم الذين آستكثرت منهم ، وأخذت ذلك عنهم ، يحكونه في أثناء مذاكراتهم ، وفي عرض مجاراتهم... نفيا للساكتة ، واجترارا للثافنة^(١) ، وصلة للجالسة ، وفتحاً للؤانسة ، وسيرا لأحاديث الدنيا ماضيها وباقيها ، وتواصفا لسير أهلها وما جرى فيها ، وتمثيلا بين ما شهدوه منها ، وسمعه عنها ، وعانوه من تقلبها ، وقاسوه من تصرفها ، وأخبروا به من عجائبها ، ويوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضيه المحادثة ، وتبعثه المفاوضة ، فأحفظ عليهم ذلك في الحال ... وأستفيدة في أحوال . فلما تطاولت السنون ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن ، ولم يبق من نظرائهم إلا اليسير الذي إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه ، مات بموته ما يرويه ، ووجدت أخلاق ملوكنا ورؤسائنا لا تأتي من الفضل ، بمثل ما يحتوى عليه تلك الأخبار من النبل ... بل هي مضادة لما تدل عليه تلك الحكايات من أخلاق المتقدمين وضرائبهم وطبائعهم ومذاهبهم ، حتى أن من بقى من هؤلاء الشيوخ إذا ذكر ما يحفظه من هذا الجنس بحضرة أرباب الدولة ورؤساء الوقت ، خاصة ما كان منه متعلقا بالكرم ، ودالاً على حسن الشيم ، ومتضمنا ذكر وفور النعم ، وكبر الهمم ، وسعة الأنفس ، وغضارة الزمان ، ومكارم الأخلاق ، كذبوا به ودفعوه ، وجعلوه في أقسام الباطل وأستبعده ، ضعفا عن إتيان مثله ، وأستعظاما منهم لصغير ما وصلوا اليه ، بالاضافة الى كبير ما احتوى أولئك عليه ، وقصورا عن أن تنتج خواطرهم أمثال تلك الفضائل والخصال ، أو تتسع صدورهم لفعل ما يقارب تلك المكارم والأفعال . هذا مع أن في زمانهم من العلماء المحسنين في التعليم ، والأدباء المتصبين للتأديب والتفهم ، وأهل الفضل والبراعة ، في كل علم وأدب وجد وهزل وصناعة من يتقدم بجودة الخاطر ، وحسن الباطن والظاهر ، وشدة الحذق فيما يتعاطاه ، والتبريز فيما يعانیه ويتولاه ، كثيرا ممن تقدمه في الزمان ، وسبقه بالمولد في ذلك الأوان ، ويقتصر منهم على الإكرام دون الأموال ، وقضاء الحاجة دون المغارم والانتقال ، فما يرفعون به راسا ،

ولا ينظرون إليه إلا آختلاسا ، لفساد هذا العصر ، وتباعد حكمه من ذلك الدهر ، وأن موجبات الدهر فيه متغيرة متنقلة ، والسنن دارسة متبدلة ، والرغبة في العلم معدومة ، والهمم باطلة مفقودة ، والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع .

٥ - وهذه الفقرات التي آقتبسناها من مقدمة نشوار المحاضرة تصل بنا الى النتائج الآتية :

الأولى - يظهر أن المؤلف كان قوى الحس ، دقيق الملاحظة ، فكان لذلك يتعقب الأدباء والشعراء والوزراء ، ومن عدا هؤلاء من مختلف الطبقات ، ويبحث كل ما يسمع ، ويقيد كل ما يقع له من الأخبار والأشعار والمحاورات والمحدثات ، حتى أستطاع أن يكون نسيج وحده في هذا النوع من التأليف .

الثانية - يظهر أن المؤلف كان خصبا في لغته وإنشائه الى حد بعيد ، والذي يقرأ مقدمته كاملة يرى كيف كانت مفردات اللغة ومترادفاتها تثال عليه أنثيالا ، وإنه ليزدكر باللاحظ في هذا الباب ، ولا يؤخذ عليه إلا شيء يسير من الالتواء حين يباعد مثلا بين الفاعل والمفعول بطائفة من القرائن المتعاطفة المتواصلة بحيث يضطر القارئ الى تأمل ما تقدم من التراكيب ليظهر له الربط بين أجزاء الجملة التي قد لا تتم أحيانا إلا بعد عدة سطور ، وربما غلب عليه الإسفاف في بعض التعابير حين يتعمد السجع ، كقوله في الكلمة التي آقتبسناها آنفا :

”والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع“ .

الثالثة - لم يكن التنوع من المؤلفين الذين يفردون المتقدمين بالإجادة والإبداع ، ويظنون أنه لا جديد تحت الشمس ، وأن المتقدم لم يترك شيئا للتأخر ، ولكنه يقرر أن في معاصريه من فاقوا الأولين ، ويقول : ”فقد خرج في أعمارنا وما قاربها من السنين من مكنون أسرار العلم ، وظهر من دقيق الخواطر والفهم ، ما لعله كان معتاصا على الماضين ، وممتنعا على كثير من المتقدمين“^(١) .

الرابعة — لم يكن المؤلف راضيا عن الحكام والأمراء من أهل زمانه فهو يراهم من المتخلفين في طباعهم ومذاهبهم ، ويحكم على أهل عصره بالفساد ، ويرى طباع أهله متغيرة ، ورغبتهم في العلم معدومة ، وهمهم مفقودة ، ويقول :

”فنحن حاصلون فيما رُوي من الخبر أنه لا يزداد الزمان إلا صعوبة ، ولا الناس إلا شدة ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، وما أحسن ما أنشدني أبو الطيب المتنبّي لنفسه من قصيدة في وصف صورتنا :

أتى الزمان بنوه في شيبته فسرهم وأتيناها على الهرم^(١)

ويقول في مكان آخر من المقدمة :

”ولهذه الحال ما أنطمست المحاسن في هذه الدول ، وردّت أخبار هؤلاء الملوك ، وختلّت التواريخ من عجائب ما يجري في هذا الوقت : لأن ذوى الفضل لا يقنون أعمارهم بتشديد مغاخر غيرهم وإنفاق نتائج خواطرهم ، مع بعدهم من الفائدة ، وخلوهم عن العائدة ، وأكثر الملوك وذوى الأحوال ، والرؤساء وأرباب الأموال ، لا يجودون عليهم فيجيد هؤلاء لهم نسج الأشعار والخطب ، وحوك الرسائل والكتب ، التي تبقى فيها المآثر ، ما بقى الدهر الغابر ، فقد بخل هؤلاء ، وغفل هؤلاء ، ورضى كل واحد من الفريقين بالتقصير فيما يجده ، والنقص فيما يعتمد^(٢)هـ“ .

٦ — وواضح من هذا أن المؤلف كان ينتظر من أمراء عصره أن يمدّوه بالمال ويعينوه على التأليف .

وبهذه المناسبة نذكر أن اعتماد شعراء اللغة العربية وأدبائها على رعاية الملوك والأمراء والوزراء لم يكن من البدع الشاذة التي انفرد بها العرب في العصور القديمة ، بل كان سنة شائعة في الشرق والغرب . ويكفي أن يذكر المرء مثلا بلاط فرانسوا الأول أو لويس الرابع عشر أو فريديريك الثاني ليعرف أن شعراء أوروبا وأدباءها كانوا يعيشون في رعاية ملوكهم ،

ويعتمدون على معونات وزرائهم . وقد أقطعت هذه العادة أو كادت من الشرق والغرب ، وأنقبض الملوك والأمراء والوزراء عن تشجيع الكتاب والشعراء والمؤلفين . ولست أنسب انقطاع هذه العادة الى تغير الطباع وفساد الزمان ، كما فعل التنوخي ، فان عصرنا غير عصره ، وإنما أنسبها الى أن الشعراء والكتاب والمؤلفين قد أخذت خلائقهم تستقيم ، وشرعوا يفهمون أن الأدب أعلى وأرفع من أن يكون صاحبه ملحقاً بجواشي الملوك والأمراء . يضاف الى ذلك أن هذا العصر عصر الشعوب لا عصر الملوك . وللاديب المتفوق ، والشاعر المبدع ، والكاظم البليغ ، ميادين أخرى للشعر والإنشاء والتأليف هي أجدى وأنفع وأقرب الى الثروة والغنى والجاه من تلك الصلات الوضيعة التي كانت تخفض رءوس أصحابها أمام سدات الملوك .

* * *

٧ - أشرنا من قبل الى أن ياقوت ذكر أن التنوخي أبتدأ تأليف نشوار المحاضرة سنة ٣٦٠ وبنينا كيف غاب عن المستر مارجوليوت أن يحو هذا الخطأ المبين ، ونعود فنذكر أن المستر مارجوليوت حين غفل عن خطأ ياقوت أخذ يؤيده ويبنى عليه أن المؤلف ذكر خبراً سمعه سنة ٣٤٩ ثم أكثر من حوادث سنة ٣٦٠ ثم ذكر حادثاً حدث سنة ٣٦١

وهذا كله خطأ من حيث الوضع : فان ورود حوادث وقعت بعد سنة ٣٦٠ في صلب الكتاب لا يدل على أنه ألف في ذلك الحين . والحقيقة أن المؤلف شرع في وضع كتابه بعد التاريخ الذي ذكره ياقوت وحاول تأييده مارجوليوت بنحو خمس وعشرين سنة ، ولنتظر ماذا يقول المؤلف نفسه :

”وأتفق أيضاً أنني حضرت المجالس بمدينة السلام في سنة ستين وثلثمائة بعد غيبي عنها سنين فوجدتها محيطة بمن كانت به عامرة ، وبمذاكرته أهلاً ناضرة ، ولقيت بقايا من نظراء أولئك الأشياخ ، وجرى المذاكرة فوجدت ما كان في حفظي من تلك المخاطبات قديماً قد قَلَّ ، وما جرى من الأفواه في معناها قد آختل ، حتى صار من يحكى كثيراً مما سمعناه يخلطه بما يحيله ويفسده ، ورأيت كل حكاية مما أنسىته لو كان باقياً في حفظي لصلح لفن من المذاكرة ، ونوع

من نشوار المحاضرة، فأثبت ما بقي على ما كنت أحفظه قديماً، واعتقدت إثبات كل ما أسمعه من هذا الجنس، وتلميعه بما يحث على قراءته من شعر لمتأخر من المحدثين، أو مجيد من الكتاب والمتأدين، أو كلام منشور لرجل من أهل العصر، أو رسالة، أو كتاب بديع المعنى أو حسن النظم والنثر، ممن لم يكن في الأيدي شعره ولا نثره، ولا تكرر نسخ ديوانه، ولا ترددت معاني إحسانه، وما فيه من مثل طريء أو حكمة جديدة، أو نادرة حديثة، أو فائدة قريبة المولد، ليعلم أن الزمان قد بقي من القرائح والألحان، في ضروب العلوم والآداب، أكثر مما كان قديماً أو مثله، ولكن تقبلُ أرباب تلك الدول للأدب أظهره ونشره، وزُهد هؤلاء الأئمة في هذا الأدب غمره وستره“.

فهذه الفقرة واضحة الدلالة على أن المؤلف لم يشرع في جمع مواد كتابه إلا بعد سنة ٣٦٠ وإيراده لبعض حوادث سنة ٣٤٩ لا يدل على أنه ألفه قبل ذلك كما فصل مارجوليوث تأييداً لكلام ياقوت^(١).

٨ — أما طريقة التنوخي في التأليف فتتضح من قوله :

”وأوردت ما كتبته مما كان في حفظي سالفاً، مختلطاً بما سمعته آنفاً، من غير أن أجعله أبواباً مبوبة، ولا أصنفه أنواعاً مرتبة، لأن فيها أخباراً تصلح أن يذاكر بكل واحد منها في عدة أماكن، وأكثرها مما لو شغلت نفسي فيه بالنظم والتأليف، والترتيب والتصنيف، لبرد وأستثقل، وكان إذا وقف قارئه على خبر من أول كل باب فيه، علم أن مثله باقيه، فقل لقراءة جميعه آرتياحه ونشاطه، وضاق فيه توسطه وأنبساطه، ولكان ذلك أيضاً يفسد بما في أثنائه من الفضول، والأشعار والرسائل والأمثال والفصول... بل لعل كثيراً مما فيها لا نظيره ولا شكل، وهو وحده جنس وأصل، واختلاطها أطيب في الأذان وأدخل، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل“^(٢).

(١) الواقع أن ياقوت لم يخطئ حتى يتابعه مارجوليوث على الخطأ، فقد جاء في ياقوت أن التنوخي ابتداءً نشوار المحاضرة سنة «٣٦٠» فكتبها مارجوليوث «٣٦» وابتنى على ذلك توهمه أن التنوخي ابتداءً كتابه سنة «٣٣٦».

(٢) ص ٢٩ و ١٠

ولعل القارئ يتنبه هنا أيضا الى صنعة هذا الكاتب في إنشائه فهي تمضى به أحيانا الى التهافت والإسفاف . لا سيما اذا لاحظ قوله : ” وأختلطها أطيب في الآذان وأدخل ، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل “ فقد أراد أن يوازن بين الآذان والآذان فمضى به ذلك الى الغموض ، فضلا عن أنه ليس من المقبول أن يقال : ” أخف من الأذان “ إذ ليس من سلامة الذوق أن يدعى المرء أن كلامه أخف على القلوب من كلمة ” الله أكبر ، الله أكبر “ وهي الكلمة الباقية على الزمان . وتلك هفوة تذكر بهفوة المتنبي إذ قال :

يترشفن من في قطراتٍ هن فيه أحلى من التوحيد

والمؤلف ، في الجملة ، يسلك مسلك الاستطراد فينتقل بالقارئ من قصة الى قصة ، ومن حديث الى حديث ، بلا ترتيب ولا تبويب . وقد صنع هذا الصنيع غير واحد ممن تقدموه وعاصروه وخلفوه ، وهو منهج له قيمته في تشويق القارئ ونقله من حال الى حال ، بين الجدل والهزل ، والحلو والمر ، والقديم والطريف .

٩ — والمؤلف مع ذلك يحدثنا أنه أراد أن يقدم لقرائه ” من آداب النفس ، ولطافة الذهن والحس ، ما يغنيه عن مباشرة الأحوال ، وتلقن مثله من أفواه الرجال ، ويحذرك في العلم بالمعاش والمعاد ، والمعرفة بعواقب الصلاح والفساد ، وما يفضي اليه أواخر الأمور ، ويساس به كافة الجمهور ، ويحذره من المكاره حتى لا يتوغل في أمثالها ، ولا يتورط بنظائرها وأشكالها ، ولا يحتاج معها الى إنفاق عمره في التجارب ، وانتظار ما تكشفه له السنون من العواقب “ .^(١)

فهو إذن مقتنع باستفادة القارئ من تجارب من سبقوه ، ونحن نوافقه على ذلك مع تحفظ ، إذ كنا نعتقد أن المرء لا يتفهم جيدا مرامي الحوادث الماضية إلا اذا اتصلت بحوادثه الحاضرة ، وزى أن الرجل الخالي الذهن من المشاكل العقلية والخلقية والوجدانية والاجتماعية يقرأ ما يقع له من تجارب الأولين بذهن خامد ، وعقل مشكول ، ولب معقول . أما الرجل الذي أصطدم بحوادث دهره ، ومشاكل عصره ، فانه يقرأ أحاديث من سبقوه

بعقل يقظ، وفكر متنبه، وقلب حساس، إذ يرى من يواجهه بحقيقة نفسه، ويحدّثه عن قلبه، ويراجع معه مشا كل وجدانه، ومصاعب إحساسه، ومن هنا نشأ ما نراه من اختلاف التقدير للأثر الفني الواحد: فكم قصيدة وكم رسالة وكم قصة يبكي لها هذا ويسخر منها ذاك، والفرض هو هو لم يتغير لا في وضعه ولا في مرماه، وإنما تختلف النفوس والقلوب والعقول بحسب ما تمر به من مختلف الأحداث وشتى الظروف: فهنا قلبٌ هادئٌ وهناك قلبٌ مترددٌ وهناك قلبٌ مضطربٌ. ودليل ذلك أيضاً أنك قد تقرأ الرسالة أو القصيدة أو القصة فلا تحرك نفسك ولا تهيج وجدانك، ثم تعود الى ما قرأته مرة ثانية في أحوال مخالفة، وظروف مغايرة، فترى ذلك الأثر الفني الذي لم يرك في اللحظة الأولى قد راعك وبهرك وشغلك بنفسك وقلبك حين عدت إليه للمرة الثانية. ودليل آخر هو صلاحية النفس في الشباب لأنّار فنية وأدبية لا توافقها في حال الكهولة، فللشباب آداب، وللكهولة آداب، ومن الخطأ أن يظن أن قيمة الأثر الفني تقدر بصلاحيته لجميع النفوس، وقدرته على التأثير في جميع القراء من شباب وكهول، ورجال ونساء. ولا يقدر حقيقة ما نقوله إلا من خبر نفسه، ودرس مشا كل عقله ووجدانه وقلبه، وتأمل كيف يكون سكون النفس وأضطرابها، وكيف يكون شغل القلب وفراغه، وعرف أن الغرائز الانسانية أهول وأخطر وأقزع من أن يوضع لها مقياس ضابط لما تصلح له على اختلاف النوازع وفي جميع الأجيال.

* * *

١ - أشرنا من قبل الى أسلوب التنوخي وصنعتة في الإنشاء، ونحب أن نعود إليه بشيء من التفصيل.

يعدّ التنوخي من كبار الكتاب في زمانه، وقد استجابت له اللغة وطاوعه البيان، وحسبُ القارئ أن يعرف أنه أنفرد من بين المؤلفين بصياغة كل ما أشتمل عليه كتابه من مختلف الأقاصيص والأسمار والفكاهات. وتلك قدرة عظيمة أن يقصد الكاتب الى كل ما سمعه فيدونه في عبارات فصيحة محبوكة الأطراف، لا قلق فيها ولا اضطراب. على أنه قد أعطانا نماذج من ثمره المصنوع الذي عملت فيه الروية، وصاغه التدبر، وأملأه الفن على قلّمة البليغ،

وفي تلك النماذج القليلة تظهر صنعة التنوخي جيدة باهرة ، تشهد له بالحدق وطول الباع ،
والى القارئ كتابه الى بعض الرؤساء :

” لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت
عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود ، وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك ،
وتوفاك اذا كانت الوفاة أصلم لك ، بعد عمر مديد ، وسمو بعيد ، وختم بالحسنى عملك ،
وبلغك فى الأولى أملك ، وسدد فيها مضطربك ، وأحسن فى الأخرى منقلبك ، إنه سميع
مجيب ، جواد قريب^(١) .

وفى ظنى أن هذا الكتاب أغنى ما يكون عن الشرح والتعليق ، وللقارئ أن يتأمل قوله :
” لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته “ فان هذه الجملة تدلنا على فهم الكاتب
لنفوس الكرام ، فانه ليس أصعب ولا أعسر من أن يضطر الكريم الى اقتضاء ثمن المعروف ،
لأنه لا ينتظر ثمن المعروف إلا لثام الناس . وأنظر بعد ذلك تعرضه فى حكمة ورفق الى الحياة
والموت . فانه لم يطلب لرئيسه ما طلب أبو نواس للأمين إذ قال :

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمن
أنت تبقى والفناء لنا فاذا أفئتنا فكن

فتلك أمنية سخيفة أن يدعو الناس بعضهم لبعض بالبقاء والخلود فى دنيا لا بقاء فيها
ولا خلود .

وأذا مضينا نتعرف الى التعابير الجميلة فى كتاب التنوخي وجدناها كثيرة ، فأى جمال فاته
فى قوله :

” ونعوذ بالله من الإدبار ، وتغير النعم ، وإيحاشها بقلة الشكر “ .

وللقارئ أن يتأمل كيف تستوحش النعم بقلة الشكر ، فانه تصوير جميل ، آنس الله نعمنا
بما يلهمنا من واجب الشكران .

وأنظر قوله على لسان رجل يخاطب رئيساً أتهره على البكور اليه :

”ما العجب منك . العجب مني حين ربطت أمل بك ، وأسهرت عيني توقعا للفيجر في البكور اليك ، وأسهرت عيالي وغلماني ، وتحملت التجشم اليك ، وأنزلت بك حاجتي ، حتى نتلقاني بمثل هذا“^(١) .

وعند التنوخي ألفاظ متخيرة قلّ استعمالها اليوم ، مع أنها دقيقة الدلالة على معانيها ، من ذلك قوله على لسان ابن الجصاص :

”قت البارحة في الظلمة الى الخلاء فما زلت ألتحظ المقعدة حتى وقعت عليها !“^(٢)

فان كلمة ”ألتحظ“ أدق من كلمة ”ألمس“ التي كثر استعمالها اليوم .

وقوله على لسان بعض الخلفاء في العزم على إنقاذ رجل طالت عطلته ، ونحل ذكره :

”إذا أقبلنا عليه وندبناه لهذا الأمر العظيم تجدد ذكره ، وتطري أمره“^(٣) .

فان كلمة ”تطري“ تعطي صورة جديدة ، فكأن الجاه الخامل ، يماثل العود الذابل ، وكأن إقبال الدنيا يصنع بالرجل المحدود ، ما يصنع الماء بالعود .

وعند التنوخي مرونة في التعبير وذلك أهم ما يتحلى به صائغ الكلام . وأنظر قوله :

”فباكرت اسماعيل فحين رآني قال : هذا وجه غير الوجه الأمسي“^(٤) .

يريد : هذا وجه غير وجه الأمس ، والنسبة الى الأمس قليلة في الكلام ، مع أنها أدل على معناها من الإضافة وأصرح في الأداء .

وأنظر قوله على لسان صديق ينصح صديقه وقد عرض عليه الوالي أن يتقلد القضاء فرفض :

”اتق الله في نفسك ! ... إنك تعود الى بلدك فيقول أعداؤك : طلب القضاء فلما شوهده وجد لا يصلح فرد“^(٥) .

فقد جمعت الجملة الأخيرة صورا عديدة من أدق ما يكون من الإيجاز، والايجاز لا يقع مثل هذا الموقع إلا من كاتب مَرِن يعرف كيف يقود القلم ويسوس الكلام .
ومن مظاهر المرونة قوله :

” فلما رآني أبو جعفر أكبر ذلك وتهلل وجهه وقال : الى عندى ياسيدى الى عندى“^(١).

ومعروف أن « عند » تنصب على الظرفية ولا تجر إلا بمن . نحو : من عند الله ،
بجرها بالى سيراً الى الحرية فى التعبير .

١١ — فاذا خَلِينَا مرونته وتصرفه فى الكلام جانباً ومضينا نستقصى ما أثبتته من التعابير العامية وقع لدينا من ذلك شىء كثير . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نؤكد ما قلناه فى دراسة أسلوب أحمد بن يوسف المصرى : ونحن نرى أن إدخال بعض التعابير العامية الدقيقة فى اللغة الفصيحة يزيد ثروته ، والناس لا يلجأون الى العامية إلا حين يرونها أقرب الى تصوير أغراضهم فى بعض الأحيان . والعامية هى عنصر من اللغة الفصيحة دخل فى حكم المبتذل بكثرة الاستعمال ، والكاتب المجيد يستطيع أن يلقي عليها مسحة من الطرافة والجلدة بحيث يراجعها رونقها القديم . وسنرى فى هذه الدراسة أصول التعابير الجارية على ألسنة الناس ، فإن أكثرها كان فصيحاً ، فلما كثر تداوله أضيف ظلم إلى لغة العوام وتحاماه كبار الكتاب .

(١) من ذلك كلمة « الصورة » بمعنى الحالة ، نجدها على ألسنة التجار والفلاحين فنعتها عامية ، ولكنها فى كلام التنوخى كانت فصيحة ، وأنظر قوله :

” فدخلنا إليها فحين رآته أكرمته ، وبشت به ، وسألته عن خبره فصدقها عن الصورة“^(٢) .

(ب) والعامية يقولون : « فاتشه » اذا آخبره ليعرف ما عنده من سر أو كفاية ، ويقولون « كسبه » بتشديد السين اذا فتح له باب الكسب ، وقد وقعت هاتان اللفظتان فى قول التنوخى :

” فلزمه وفاتشه فوجده كاتباً فاستخدمه وكسبه مالا عظيماً“^(٣) .

(ج) ونحن ترمب أن نكتب « شال المائدة » بمعنى رفعها ؛ لأن التماموس لا ينص إلا على شال به إذا رفعه ، والعامة يقولون بدون تخرج « شالوا الطعام » بمعنى رفعوه . فلننظر كيف وقع هذا التعبير منذ عشرة قرون في قول التنوخي :

” ما تسمح نفسي بطريق التشعيب على هذا الحب ، شيلوه “^(١) .

وقوله :

” وقام أبو جعفر ، وقنا ، وشيلت المائدة “^(٢) .

وقوله : ” فشالني الجيران الى منزلي “^(٣) .

(د) والعامة يقولون : ” اخرج برا “ أى الى الخارج ، وقد ورد هذا التعبير في قول التنوخي :

” فخرج الى برا حتى أصعد أكلهم من فوق “^(٤) .

(هـ) وفي الأقاليم المصرية تكثر كلمة ” روزنة “ وهي الفتحة في السقف أو في الحائط ، وأكثر الكتاب يتعاملون هذه اللفظة ظنا منهم أنها عامية مع أنها موجودة في كلام التنوخي إذ يقول :

” نخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة في الدار الى الشارع “^(٥) .

(و) وكلمة ” بطل “ كثيرة الوقوع في لغة التخاطب ، ولكن قلما يستعملها الكتاب . وكانت قديما مستعملة في اللغة الفصيحة ، وحكاها التنوخي فقال على لسان أحمد بن محمد المدائني يحاور بعض الصوفية :

” أخبرني اذا كنت شيخا في معنك ، جلسا في ذات نفسك ، فأصاب يافوخك تقطيع يعرقب خرزك على سبيل العلم ، وكنت تحت الارادة ، هل يضر أوصافك شيء من تعطفك بجبل القدرة ، يا بطل “^(٦) ! “ .

(١) ص ٩١

(٢) ص ١٥٢

(٣) ص ٢٣٢

(٤) ص ١٤١

(٥) ص ٥٤

(٦) ص ٩١

(ن) والعامية يستعملون كلمة "أذية" بمعنى إيذاء، وقد وقعت في كلام التنونخي إذ قال :
"فأردت أذية ابن الحارث"^(١) .

(ح) وكلمة "صبية" بمعنى فتاة كانت مستعملة في اللغة الفصحى، وقد هجرت اليوم ،
وقد جاء في كلام التنونخي على لسان عريب :
"روهايتين الصبيتين الشعر"^(٢) .

(ط) وعوام مصر يقولون "جرف الأموال" بمعنى آتتها ، وهي كذلك في نشوار
المحاضرة في قصة وقعت في مصر .^(٣)

(ع) والعوام يستخفون حذف نون الرفع في "يفعلون" و "تفعلين" والتنونخي
يجري ذلك في اللغة الفصحى فيقول :

"فبعثت في جمعها والرسل تكذني بالاستعجال، والقهارمة يستبطئوني"^(٤) .

(ك) وكلمة "ست" بمعنى سيدة، كانت مستعملة في اللغة الفصحى، وكان ظني أنها
لم تستعمل إلا في مصر، حيث يقدر أنها كلمة مصرية قديمة ، ولكنني رأيتها قد آستعملت
كذلك في بغداد، واليك الشواهد الآتية :

"فقلت لها يا ستي إني قد عملت أبياتا أشتي أن تصنعني فيها لحنا"^(٥) .

"كنت مملوكا روميا فأت مولاي فعتقني فحصلت لنفسى رزقا برسم الرجالة وتزوجت
بستي زوجة مولاي، وقد علم الله أني لا أتزوجها إلا لصياتها، لا لغير ذلك"^(٦) .
"فقال لها يوما : بالله يا ستي غني"^(٧) .

والمسيو مرسيه يرجح أن كلمة "ستي" مخففة عن "سيدتي" لا أنها منقولة عن "ست"
المصرية بدليل آستعمالها في بغداد ، ولست أرى ما يمنع أن تكون آنتقلت الى بغداد عن
طريق المصريين .

(٤) ص ١٤٣

(٣) انظر ص ٢٦٢

(٢) ص ١٣٢

(١) ص ١٣٩

(٧) ص ٥٥

(٦) ص ٢٤٦

(٥) ص ١٣٢

(ل) والعوام يقولون : ” ما علينا من فلان “ وهي في الأصل عبارة فصيحة ، وأنظر قول التنوخي :

” فدخل عليه غلماناه فقالوا : يا سيدنا ! الوزير مجتاز في شارعنا . فقال : ما علينا منه ! “^(١)

(م) والعامّة يقولون أحيانا : ” هاتم “ في مكان ” هاتوا “ وقد وقعت في كلام التنوخي على لسان المعتضد :

” هاتم أعمدة الخيم الكبار الثقال “^(٢) — ” هاتم فلانا الطيبي “^(٣) .
وفي موطن آخر : ” هاتم فلانا الكاتب “^(٤) .

وما نريد أن نسرف في الاستقصاء ، وفيما أسلفناه ما يكفي للإبانة عن مرونة التنوخي وقدرته على التصرف في فنون الكلام ، وفي هذه الشواهد مقنع لمن يريد أن يعرف كيف تطورت التعابير ، وكيف أمتزج العامي بالفصيح .

* * *

١٢ — بقي علينا أن نشير إلى بعض ما أشتمل عليه نشوار المحاضرة من طرائف الأخبار ، وهو كما قدمنا يرجع إلى عدة ألوان ، منها الحلو والمز ، والجدة والهزل . فمن خير ما فيه من الجدة ما كتب المؤلف خاصا بالحسن بن علي بن زيد المنجم إذ قال بعد كلام :

” فكنت إذا جئته — وهو إذ ذاك على غاية الجلالة وأنا في حدّ الأحداث — اختصني ، وكان يعجبه أن يقرّظ في وجهه ، فأفاض قوم في مدحه ، وذكر عمارته للوقوف والسقايات ، وإدارة الماء في ذنابة المسرّقان وتفريقه مال الصدقات على أهلها ، وذنبت معهم في ذلك فقال لي هو : يا بني ! أرباب هذه الدولة إذا حدثوا عنى بهذا وشبهه قالوا : المنجم إنما يفعل هذا رياء ، وما أفعله إلا الله تعالى ، وإن كان رياء فهو حسن أيضا ، فلم لا يراوون بمثل هذا الرياء ؟ ولكن الطباع خست حتى الحسد أيضا ، كان الناس قديما إذا حسدوا رجلا

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ١٤١ (٤) ص ٤٥ (٥) المرقان : نهر

بخوزستان ، والذنابة بالضم وتكبير طرف الوادي . (٦) عل الصواب : ذهب معهم في ذلك .

على يساره حرصوا على كسب المال حتى يصيروا مثله ، وإذا حسدوه على علمه تعلموا حتى يضاهوه ، وإذا حسدوه على جوده بذلوا حتى قيل إنهم أكرم منه... فالآن لما ضعفت الطباع ، وصغرت النفوس ، وعجزوا عن أن يجعلوا أنفسهم مثل من حسدوه في المعنى الذي حسدوه عليه ، عدلوا الى تنقص المبرز ، فان كان فقيرا سعوا على فقره ، وان كان عالما خطئوه ، وان كان جوادا قالوا هذا متاجر بجوده وبخلوه ، وإذا كان فعّالا للخير قالوا هذا مرأء^(١) .

ففى هذه الفقرات تحليل دقيق لطباع الناس ، ونرى المنجم مع حبه لحسن السمعة وبُعد الصيت يذكر أنه يعمل ما يعمل آتفء مرضاة الله . والواقع أن الموقفين لعمل الخير قلما يسامون من حب المدح والثناء ، والطبيعة البشرية أضعف من أن تقبل على الخير المطلق ، فكل محسن يجب أن يذكر إحسانه بالجميل ، مهما أخلص لله ، وعلى الجماهير أن تفهم ذلك ، وأن لا تضن على المحسنين بمظاهر التبجيل ، فانه لا شئ أقتل لنوازع الخير فى نفوس الكرماء من نكران الصنيع ، وقد أفصح عن هذا يحيى بن طالب إذ قال :

يَهْدِنِى فِى كُلِّ خَيْرٍ صَنَعْتُهُ إِلَى النَّاسِ مَا جَرَّبْتُ مِنْ قَلَةِ الشُّكْرِ

ونرى المنجم بعد ذلك يعود الى نقد طباع الناس فيذكر أنها خست وضعفت ، وأن رذائلهم كان فيها قديما شئ من النفع ، حين كان الحسد يحملهم على مباراة من يحسدون فى ميادين العلم والسخاء والمال . فقد كان الحسد من البواعث على الجِد والتحصيل ، ثم خبت ناره ، وصار علالة يتلهى بها ضعفاء العزائم وصغار النفوس .

١٣ - ومن طرائف الأقاصيص الجدية ما نقله مرويا عن وهب بن منبه أنه كان فى عهد بنى إسرائيل حمار يسافر بخمر له ، ومعه قرد ، وكان يمزج الخمر بالماء نصفين ، ويبيعه بسعر الخمر ، والقرد يشير اليه أن لا تفعل ، فيضربه ، فلما فرغ من بيع الخمر وأراد الرجوع الى بلده ركب البحر وقرده معه ، وخرج فيه ثيابه والكيس الذى جمعه من ثمن الخمر ، فلما سار فى البحر

(١) حتى قيل : كذا فى الأصل وظاهر أن السياق يستوجب « حتى يقال » .

(٢) عليها شنعوا . (٣) ص ١٣ و ١٤

استخرج القرد الكيس من موضعه ، ورق الدقل وهو معه حتى صار في أعلاه ، ورمى الى المركب بدرهم والى البحر بدرهم ، فلم يزل ذلك دأبه حتى قسم الدراهم نصفين ، فما كان بحصة النحر رمى به الى المركب بجمعه صاحبه ، وما كان بحصة الماء رمى به الى البحر فهلك ، ثم نزل عن الدقل ^(١) .

ونشير أولا الى أن هذه الأقصوصة تخرج عن شرط نشوار المحاضرة ، وإن لم يشر المؤلف الى ذلك ، فان من المؤكد أن أخبار وهب بن منبه وأكثر الاسرائيليات كانت دؤنت قبل القرن الرابع .

ومغزى هذه الأقصوصة واضح : فان واضعها يريد أن يقرر في الأذهان أن فكرة الخير والشر والحرام والحلال لا تخفى على أحد ، وأنها مفهومة عند القرود ، في وقت لم يكن فيه من يرى أن القرد أصل الانسان ، أو هو إنسان فاته الترقى والنهوض ، والأقصوصة ظريفة في وضعها وفي الخيال الذي صبّت فيه ، ولا سيما اذا لا حظنا ان عند القرد جوانب مضيئة في ذهنه ، وأن له من الشئائل الانسانية نصيبا غير قليل ، وفي الأقصوصة تسجيل لطرائق اليهود في جمع المال عن طريق المكسب الخبيث ، وكذلك يفعلون .

١٤ — ومن الأخبار الدالة على قوة النفس أن أبا بابك الخرمي الماز يارقال له لما أدخله على المعتصم . يا بابك ! انك قد عملت ما لم يعمله أحد ، فاصبر الآن صبرا لم يصبره أحد . فقال له : سترى صبرى ! فلما صاروا بحضرة المعتصم أمر بقطع أيديهما وأرجلهاما بحضرته ، فبدىء بابابك فقطعت يميناه ، فلما جرى دمه مسح به وجهه كله حتى لم يبق من حلية وجهه . وصورة سمته شيء ، فقال المعتصم : سلوه لم فعل هذا ؟ فسئل فقال : قولوا للخليفة : إنك أمرت بقطع أربعى وفي نفسك قتلى ، ولا شك أنك لا تكويها وتدع دمي يتزف الى أن تضرب عنق ، فخشيت أن يخرج الدم منى فتبقى في وجهى صفرة يقدّر لأجلها من حضر

أنى قد فزعت من الموت، وأنها لذلك لا من خروج الدم، فنطيت وجهى بما مسحته عليه من الدم حتى لا تين الصفرة .

فقال المعتصم : أولا أن أفعاله لا توجب العفو عنه لكان حقيقا بالاستبقاء لهذا الفضل وأمر بامضاء أمره فيه : فقطعت أربعته ثم ضربت عنقه، وجعل الجميع على بطنه وصب عليه النفط وضرب بالنار، وفعل مثل ذلك بأخيه فما كان فيهما من صاح أو تأوه .^(١)

وأمثال هذه الأخبار تفسر لنا السرفى عنف الثورات التى كانت تهدد الحكومات الإسلامية، فقد كانت هناك مطامع ، وكانت هناك عزائم أقسى من الصخر وأمضى من السيوف، وفى أخبار تلك النفوس الطاغية ما يفسر لنا أيضا كيف كانت الحكومات الإسلامية تعتمد دائما على قادة من الطغاة المستبدين ، فانه لا يفل الحديدي إلا الحديد ، ولكل عراق حجاج !

١٥ - وفى نشوار المحاضرة أخبار كثيرة عن أريحية الوزراء وسخائهم ، من ذلك ما نقل المؤلف عن أبيه أنه سمع القاضى أبا عمر يقول :

عرض إسماعيل القاضى وأنا معه على عبيد الله بن سليمان رقاعا فى حوائج الناس فوقع فيها ، فعرض أخرى وخشى أن يكون قد ثقل عليه فقال له : إن جاز أن يتطول الوزير أعزه الله بهذا . فوقع له . فعرض أخرى وقال : إن أمكن الوزير أن يجيب إلى هذا . فوقع له . فعرض أخرى وقال : إن سهل على الوزير أن يفعل ذلك . فوقع له . فعرض أخرى وقال شيئا من هذا الجنس ، فقال له عبيد الله : يا أبا إسحاق ! كم تقول إن أمكن وإن جاز وإن سهل ؟ من قال لك إنه يجلس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعل شيء على وجه الأرض من الأمور فقد كذبك ، هات رقاعك كلها فى موضع واحد . قال : فأخرجها إسماعيل من كمه وطرحها بمحضرة فوقع فيها . وكانت مع ما وقع فيه قبل الكلام نحو ثمانين رقعة .^(٢)

وفي مثل هذا الخبر إن صحت تفاصيله ما يبين كيف تضعضت الحكومات الإسلامية وتداعت في زمن قليل، فقد كان الوزراء مفتونين بالمجد الكاذب والحمد المصنوع . ولا ننس أن أمثال هذه الرقاع التي كان يمضيها الوزراء بلا تردد كانت ترجع إلى الاستجداء وكان الوزراء يعرفون أن أتباعهم يستفيدون من قضاء حوائج الناس ، وفي نشوار المحاضرة نصوص تدل على أن الرشوة كانت شيئا مفهوما في مكاتب الوزراء .

١٦ - وشيوع الرشوة بين طبقات الحكام يفسر لنا غوامض التاريخ الإسلامي، فقديماً أكثر المؤرخون القول في نكبة البرامكة مثلاً وردوها إلى أصول أكثرها صحيح، ولكن أكبر الأسباب فيما افترض هو إقبال ذوى الحاجات على البرامكة، وكان لذلك الإقبال ربح مستور يجهله بعض الناس ويعرفه الرشيد . ولهذا السبب عينه نرى كيف كان الخلفاء يستصفون أموال عمالهم ووزرائهم حين يفضون عليهم ، وكانت مصادرة أموال الحكام المغضوب عليهم لا تجدد من يتفرغ لها من الجمهور الذي كان يعرف أنها جمعت من الحرام .

ونستطيع أن نفهم من هذا كيف كان فريق من ذوى الدين والمروءة ينفر من المناصب العمومية ، وخاصة منصب القضاء . وأهل العصر الحاضر لا يفهمون هذا حق الفهم : لأن رقابة الجمهور عن طريق الصحافة كبحت كثيراً من جشع الحكام والوزراء، وكشفت عورات كثير من المنافقين الذين يدعون نقاء الأيدي والسرائر، والله بما يضمرون علم !

١٧ - ومن طريف ما في نشوار المحاضرة حديث القاضى أبى يوسف مع زوجته حين كان فقيراً، فقد نقل أن أباً يوسف صحب أباً حنيفة لتعلم العلم على فقر شديد، فكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش، فيعود إلى منزل مختل، وأمر قل، فطال ذلك، وكانت امرأته تحتال له ما يقتاتة يوماً بيوم، فلما طال ذلك عليها خرج إلى المجلس وأقام فيه يومه ، وعاد ليلاً فطلب ما يأكل، فجاءته بغضارة مغطاة، فكشفها فإذا فيها دفاقر، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا ما أنت مشغول به نهارك أجمع، فكل منه ليلاً ! فبكى وبات جائعاً، وتأخر من غد عن المجلس

حتى أحتال ما أكلوه، فلما جاء الى أبي حنيفة سأله عن تأخره فصدقه، فقال : ألا عرفتني فكنت أمدك ؟ ولا يجب أن تغتم ، فإنه إن طال عمرك فستأكل بالفقير اللوزينج بالفسق المقشور . قال أبو يوسف : فلما خدمت الرشيد وأختصصت به قُدمت بحضرته يوما جامعة لوزينج بفسق ، فحين أكلت منها بكيت وذكرت أبا حنيفة ، فسألني الرشيد عن سبب ذلك فأخبرته .

وهذا الحديث من أطرف ما يتأسى به طلبة العلم الذين يرجون أن يغنيهم الله بعد فقر ، ويرفعهم بعد نحول .

وقد ذكر التنوخي السبب الذي اتصل به أبو يوسف بالرشيد^(١)، فأرانا أن أبا يوسف كان يتلطف بعض الشيء في فتاويه ليخرج أميره من بعض المحرجات . وهذا بالطبع جانب ضعيف من أبي يوسف ومن الرشيد، ولكن أين نحن من أولئك الناس ! أولئك قوم كانوا يشعرون بمعاني الحلال والحرام، ويتمسكون لضمائرهم وسائل الهدوء في ظلال التأويلات . أما أهل العصر الحاضر فقد أنصرفوا عن استفتاء الفقهاء فيما يحزبهم من أزمات الضمائر والقلوب ، وصار أكثر الناس لا يبالي ما حرمت الشرائع وما حلت من مختلف الشؤون، وعاد الأمر كله الى القوانين الوضعية، بحيث لا خطر على الجاني إلا أن يؤخذ ، ولا عاصم لصاحب الحق إلا أن يكون بيده عهد مكتوب !

١٨ - ويظهر من نشوار المحاضرة أن المتقدمين كانوا يستكثرون أن يكون للقضاة هوى وتشيب، فقد جاء فيه أن أبا إسحاق الزجاج قال :

” كما ليلة بحضرة القاسم بن عبيد الله وهو وزير فغنت جاريته بدعة :

أدلّ فأكرم به من مدلّ ومن ظالم لدمي مستحلّ

إذا ما تعزز قابلهُ بذل وذلك جهد المقلّ

فأدت فيه صنعة حسنة، فطرب القاسم عليه طربا شديدا، وأستحسن الصنعة والشعر، وأفرط في وصف الشعر، فقالت بدعة : يا مولاي ! إن لهذا الشعر خبرا أحسن منه . قال : ما هو ؟ قالت : هو لأبي حازم القاضي ! قال : فعجبنا من ذلك مع شدة تقشف أبي حازم وورعه وتقضيه . فقال لي الوزير : بالله يا أبا إسحاق بكر إلى أبي حازم واسأله عن هذا الشعر وسببه ، فباكرته وجلست حتى خلا وجهه ولم يبق إلا رجل بزى القضاة عليه قلنسوة ، فقلت له : بيننا شيء أقوله على خلوة . فقال : قل ، فليس هذا ممن أكرم ، فقصصت عليه الخبر، وسألته عن الشعر والسبب، فبتسم وقال : هذا شيء كان في الحادثة قتله في والده هذا (وأوما إلى القاضي الجالس فاذا هو أبنه) وكنت إليها مائلا، وكانت لي مملوكة ولقبي مالكة، فأما الآن فلا عهد لي بمثله منذ سنين ، ولا عملت شعرا منذ دهر طويل ، وأنا أستغفر الله مما مضى . قال : فوجم الفتى ونجمل حتى أرفض عرقا . وعدت إلى القاسم فأخبرته فضحك من نجمل الابن وقال : لو سلم من العشق أحد لكان أبو حازم !^(١)

والفكرة في ذاتها مقبولة ، فإن العشق والتشبيب من ألوان المرح التي قضى العرف باستهجان صدورها من القضاة . على أن عواطف الحب كانت تحتاج كثيرا من قضاة المسلمين ، وكتب الأدب مملوءة بأخبارهم في هذا الباب . من أجل ذلك أرجح أن عجب ذلك الوزير وأصحابه من غزل أبي حازم لم يكن مصدره أنه قاض لا يصح أن يتغزل، وإنما كان لأن أبا حازم اشتهر بالتقى والتصون حتى صار من المستغرب أن ينسب إليه حب أو تشبيب . أما نجمل الابن فصدره فيما أظن أن أباه صرح بأن أمه كانت مملوكة له ، وأنه تزوجها طاعة للهوى .

١٩ — وفي نشوار المحاضرة أخبار تدل على أن الغناء لم يكن من العمل المقبول ، بحيث

كان القيان يحتجن إلى التوبة إن كتب الله لهن التوفيق . وفي ذلك يقول المؤلف :

” أخبرني من أثق به أن إبراهيم بن المدبر قال : كنت أتعشق عريب دهرًا طويلا ، وأنفق عليها مالا جليلا ، فلما قصصني الزمان ، وتركت التصرف ولزمت البيت ، كانت هي

أيضا قد أسنت وتابت من الغناء وزمنت ، فكنت جالسا يوما اذ جاء بواب وقال : طيار عريب بالباب ، وهى فيه تستأذن . فمعبت من ذلك وأرتاح قلبى اليها ، فمعت حتى نزلت بالشط فاذا هى جالسة فى طيارها ، فقلت : يا سقى ! كيف كان هذا ؟ قالت : اشتقت اليك ، وطال العهد ، فأحببت أن أجده وأشرب عندك اليوم ! قلت : فأصعدى . قالت : حتى تجىء محفتى ، قال : فاذا بطيار لطيف قد جاء وفيه المحفة ، فأجلست فيها وأصعدتها الخدم ، وتحدثنا ساعة ، ثم قدم الطعام فأكلنا ، وأحضر النبيذ فشربت وسقيتها فشربت ، وأمرت جوارىها بالغناء ، وكان معها منهن عدة محسنات طياب حذاق ، فتغنين أحسن غناء وأطيبه ، فطربت وسررت ، وقد كنت قبل ذلك بأيام عملت شعرا ، وأنا مولع فى أكثر الأوقات بترديده وإنشاده ، وهو :

إن كان ليلىك يوما لا أنقضاء له فان جفنى لا تثنى لتغريض
كان جنبي فى الظلماء تقرضه على الحشية أطراف المقاريض
أستودع الله من لا أستطيع له شكوى المحبة إلا بالمعاريض

فقلت لها : يا سقى ! إني قد عملت أبياتا أشتهى أن تصنعى فيها لنا . فقالت : يا أبا إسحاق ! مع التوبة ؟ قلت لها : فأحتالى فى ذلك " الى آخر الحديث ^(١) .

والواقع أن الغناء كان موضع خلاف عند علماء المسلمين ، ولهم فى إباحته وتحريمه أقاويل نجد صداها عند الغزالي مثلا فى كتاب الإحياء . وكره الغناء والتعزز من مصاحبة المغنين والمغنيات قد تغفل فى كثير من البيئات الإسلامية ، وكان فى فقهاء الإسلام من يقول بتكسير آلات الموسيقى والطرب ، وقد شرحت ذلك ونقدته فى كتاب (الأخلاق عند الغزالي) ويكفى أن أشير هنا الى أن ثورة الوهابيين على الموسيقى وآلاتها ليس إلا بعثا لما كان يراه كثير من فقهاء الأقدمين . فالفكرة قديمة ، وإنما تتطور وتتحول من وضع الى وضع وفقا لتطور الظروف وتحويل الأذواق .

(١) أنظر ص ١٣١ - ١٣٣

١٤ - مطية أبي القاسم البغدادى

١ - مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدي محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكر قليلا جدا في المجموعات الأدبية ، ولم نستطع الوصول الى معرفة أخباره في كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس (Mez) هادانا في المقدمة الألمانية التي صدر بها طبعته لهذه الحكاية الى أن الأزدي كان يعيش في صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد في الربع الأخير من القرن الثالث فقد كان في سنة ٣٠٦ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله : "ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة ، وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعائة وستين جارية ، في الجانين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ، ما يفوت حدود الوصف ، هذا سوى ما كنا لا نظفر بهم ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهرون بالقناء والضرب إلا اذا نشط في وقت ، أو ثمل في حال ، وخلع العذار في هوى قد حالقه وأضناه ... الخ" .

وفي مكان آخر يتحدث عن مجلس أنس قضاه مع ابن المجاج وأبي محمد اليعقوبى وأبي الحسن بن سكرة^(٢) ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أولهم الى سنة ٣٩١ وثالثهم الى سنة ٣٨٥ لحكاية أبي القاسم البغدادى وضعت بلا ريب في أواسط القرن الرابع .

٢ - وليست حكاية أبي القاسم التي وضعها أبو المطهر الأزدي إلا فنونا من القول أراد بها وصف المجون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان . فهي ليست قصة بالمعنى المعروف ، ولكنها مجلس واحد يطرد فيه القول من فن الى فن في دعاية وظرف . (أبو القاسم

البغدادي) بطل القصة رجل جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق . وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندري في مقامات بديع الزمان : فانا نراه يدارى أهل المجلس وينافقهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى اذا رآهم على استعداد للهزل أنقلب لأعباء ممتزدا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون^(١) .

ولنعط الكلمة للؤلف ليحدثنا عن منهج كتابه :

”... بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله والسلام، أما الذى أختاره من الأدب فالخطاب البدوى والشعر القديم العربى ، ثم الشوارد التى أفرعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء، والنوادر التى اخترعتها قرائح المحدثين من أعيان الشعراء، هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه وأتحملى به وأدعيه وأرويه من ملح ماتنفسوا به وتنافسوا فيه ، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دقتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرته . ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادي كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستحشنة ، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كاللذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم ، وكالاتموزج الماخوذ عن عاداتهم ، وكأنها قد نظمتم في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم ، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب ، وتفاوت المنازل ، ولعلى صرت في ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ في فصل من كلامه :

(١) ولنلاحظ أن شخصية أبي القاسم وشخصية أبي الفتح من الشخصيات الخرافية ، وصدورها على طريق التكنية لون من التخميم أو التمليح ، والكنية ظاهرة عربية ، ولا يشترط فيها أبوة فقد يكنى الصبي أحيانا وهو لم يستحق أن يكون أبا ، وربما ولد له فسمى ولده بغير ما كنى به ، وتكنية الصغير تفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد ، وتكنية الكبير تعظيم له عن التسمية باسمه ، وقد يجعل العرب للرجل الكنية والكنيتين والثلاث على مقدار جلالته في النفوس (راجع نقد النثر ص ٤٢ و ٤٣) .

وفي معجم الأدباء لباقوت — ص ١٨٨ ج ٥ — في أخبار الكسائي كلام صريح في الافتخار بالكنية وعيب التكنية في مجالس الخلفاء ، لما في ذلك من مظاهر الزهو والخيلاء .

وقد عرضنا للتكنية بكلام مفصل في الجزء الثاني ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

”وإنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للغربي والخراساني والأهوازي والسندی والزنجي ، نعم حتى تجده كأنه أطيع منهم ، فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنه قد جمع كل طرفة في كلام كل فأفاء في الأرض في لسان واحد ، كما أنك تجده يحاكي الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله ، فكأن هذا الحاكى قد جمع ما هو مفترق فيهم ، وحصر جميع طرف حكايات العميان في أعمى واحد . ولقد كان فلان^(١) يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينطق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق ، وقد يسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك لحركته لصوت هذا الحاكى ، وكأنه قد جمع جميع النغم التي تناسب نهيق الحمار بفعلها نهيق حمار واحد ، فأرتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الخير . ولذلك زعمت الأوائل أن الانسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة ، ويحكي بفمه كل صوت ، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل اللحم كما تأكل السباع ، ويأكل الحب كما تأكل الطيور ، ولأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان“ .

وإذ قدمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله الى آخره ، أو ليلة كذلك ، وإنما يمكن استيفائها واستغراقها في مثل هذه المدة ، فن نشط لسماعها ولم يعد تطويل فصولها وفصولها كلفة على قلبه ، ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة يعيرني بها ، لا سيما مع آتئائه منها الى الحكاية البدوية الأدبية التي أردقتها بها ، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة في لحنها ، وحلاوتها في قصر متنها ، وحرارتها في حسن منطقها) كلفت له من البسط جهده المتعب على غيره المتع له^(٢) . ثم إن لي قدمة شوط أستعيه وأستغيره من شعر أبي عبد الله بن الجحاج وهو قوله :

(١) هو في البيان والتبيين (أبو دبوبة الزنجي) ص ٣٩ ج ١

(٢) في هذه العبارة ركافة وغموص .

يا سيدى، دعوة من شعره يجرى على العادة والعرف
لا بد أن يغفل عن لفظة طريفة يأتى بها سخفى

٣ — وهذه المقدمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة في بغداد لعهدده، وسياق الحكاية صريح في أنه قصد الى وصف جانب خاص هو جانب العبث والمجون . والطريف في منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته الى أن اللحن قد يكون أصح من الفصاحة في عرض الملح والفكاهات ، وأن السخف قد يكون وسيلة الى طريف الألفاظ في بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البغداديين فيما دونه أبو المطهر غير قاموسية ، أعنى أنها لم تدون في المعاجم . وأبو المطهر يقصد اليها قصدا : فهو رجل مثقف العقل يجرى في درس اللغة على منهاج . من ذلك ما أنطق به المحدث :

— يا أبا القاسم ، تعرف شيئا من السباحة ؟

فيجيب :

— يا أحق ! يا سوادى لا يحسن أن يركب البقر ، وتركى لا يحسن أن يزرع القوس ! أنا والله أسبح من الضفدع ومن التنين ! أعرف من السباحة أنواعا لم يحسنها قط ، سمك ولا بط ، أعرف منها الشق والذرع والغمر والاستلقاء والتراور والشكابي والطاووس والعقربى والمقرفض والموزون والكامل والطويل والمقيسد . كان أستاذى في جميعها ابن الطوؤ والزنايرى .

وفي هذا الحوار يعلمنا أبو المطهر أسماء العوم ، وهى أسماء لا نجد شرحها كاملا في القواميس ، ولا نجد في أهل زماننا من يعرف ما لها من مدلول . وقد تكون أسماء العوم في أندية الرياضة المصرية مما يمت الى لغات أجنبية .

ولا يقف أبو المطهر عند هذا . بل يُنطق المحدث بألفاظ الملاحين فيقول :

— يا أبا القاسم ، أريد أن أعرف شيئا من ألفاظ الملاحين وأحوالهم .

فيقول :

— يحتاج أن نعرف ألوان المراكب من السفن والسمريات ، والمراكب العماليات ، والزبازب ، والكمندوريات ، والبالوع ، والطبطاب ، والجدى ، والجاسوس ، والورجيات ، والقوارب ، والخيطات ، والشاملي ، والجعفریات ^(١) .

وللحديث بقية فيها أستقصاء لألفاظ الملاحين ، وهي خطة تذكر بما صنعه المسيو كولان Colin عین عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية : فأنظر كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون !

ويتصل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة في بغداد ، فقد سخر من أهل أصبهان اذ يجد السالك محال كرية الأسماء مثل : «موضع المجذومين» و «درب الصم» و «درب العمى» ويقول : «هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الوراقين ، والخطاطين ، والخياطين ، والخراطين ، والزرادين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطحانين ، ومن لا يحصى عددا من الخذاق المعجزين ^(٢) ؟ » .

٤ — ولأبي المطهر صور فنية يقصد اليها رغبة في الدعابة ، من ذلك قوله في وصف منافق :

«ويقبل خلال الأحاديث على من يليه من اليمن فيفاوضة ويتسمع من أحاديثه ويستش لها ويقول :

ياسيدنا ، ذا والله ليس كلام البشر ، انما هو سحر يولّه القلوب والأسماع ، كلام والله كبرد الشراب ، وبُرد الشباب ، بل كالنعيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ، ما هو إلا كالبشرى بالولد الكريم ، الى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة ، صافي الزجاجة ، حلو المساغ ، يعاق به المريض ، ويجبره المهيض ، يقود سامعه الى السجود ، ويجرى مجرى الماء

في العود، قد آتسع له بحمد الله مَشَرَع الإطناب، وأتفرج عنه مسلك الإسهاب، فهو ينثر الدر على الدر .

فيقول الذي على يساره : في أي شيء أتم ؟ فيغمز اليه بعينه ويقبل عليه ويقول :
ياسيدنا ! أنا في محنة صلعاء بلا طاقة شعر ، في كلام أثقل من الجنذل ، وأمر من الجنظل ، هذيان المحموم ، وسوداء المهموم ، لمشله يتسلى الأخرس عن كلمه ، ويفرح الأصم بصممه . كلام والله يصدى الخاطر ، إن لم يُعش الناظر . كلام تتعثر الأسماع من حزونه ، وتتحير الأوهام من وعورته ، لا مساغ له في الأسماع ، ولا قبول من الطباع .

ثم يلتفت الى اليمين فينشده صاحبه الذي يليه شعرا فيقول :
أعيذه بالله ! ما أصفى نظره ، وأنى درره ، وأغزر بحره ، وأحكم نخته ونجره ... لو جعل^(٢)
خلعة على الزمان لتحل بها مكائرا ، وتجل فيها مفاخرا . شعر والله يختلط بأجزاء النفس ، الآذان والله تصير أصدافا لهذا الدر .

ويلتفت عنه ثانيا الى اليسار فيقول :
ياسيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة ، الثقيل الاستعارة ، وتلك الإشارة الفاترة ! ياسيدنا ، بلا حلاوة ولا طراوة . ليس إلا إقواء وإيطاء وأخطاء . لو شعر ، أعزّه الله ، بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على اليمين ثالثا ويأخذ في تقريره ويقول :
سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق ، المجد لسان أوصافه ، والشرف نسب أسلافه ، ما ورث المحاسن عن كلاله ، ولا ظفر بها عن ضلاله . شجرة طيبة أصلها في الماء ، وفرعها في السماء ، ثم هو بحمد الله في الكرم والحدود بحر لا يظما وارده ، ولا يمتنع بارده ، لو أن البحر قدره ، والسحاب مده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه ، وفي العلم البحر الممد لسبعة أبحر ، كأنما يوم بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب ، وأغصانها علم ، وثمرتها

عقل ، هذا بحمد الله مع خلق كنسيم الأنوار ، على صفحات الأشجار ، فى نفحات الأسفار ، خلّاق^(١) فى ذكاء الخلق ، وشمائل فى صفاء الشمول ، أذكى من حركات الريح بين الريحان ، جد كعلو^(٢) الجّد ، وهزل كحديقة الورد ، سبحة ناسك ، وتفاحة فاتك ، وعشرة يكاد ماؤها يقطر ، وصحوها من الغضارة يطر . ثم المنظر الذى تبهر وضائه العيون ، متبرقع والله بيدع الجمال ، متعوذ من عين الكمال ، متخلل مخائل الأمثال . أحلى والله من الوبل ، على المحل ، انخلّاق^(٣) وضى ، وانخلّاق^(٣) رضى ، والفضل مضى . محاسن أنا والله منها فى روضة وغدير ، بل فى جنة وحرير .

ويلتفت الى من يليه ويقول على العادة فى النفاق والخبث :

ذا والله سخنة عين ، عصارة لؤم ، فى فؤاد خبث ، كالكمأة لا أصل لها ثابت ، ولا فرع ثابت ، لو قُذِفَ والله الليل بلؤمه لطفئت أنوار نجومه . لا يبيض حجره ، ولا يثمر شجره ، حجة لا تروى ، وزند لا يورى ، قالب جهل مستور بثوب ، يعثر فى عنان جهله ، ويتساقط فى ذبول خرقه ، صخرة خلقاء لا تستجيب للرتقى ، وحية صماء لا تسمع الى الرقى ، كأنى اذا ناظرته أسفر منه عودا ، وأهز طودا ، ثقيل الطلعة ، بغيض التفصيل والجملة . يحكى ثقل الحديث المعاد ، ويمشى على العيون والأبصار ، هو والله فى العين قذاة ، وبين النعل والأخص حصاة . كأن وجهه على الحقيقة هول . المطلع النحس يطلع من جبهته ، والخلل يقطر من وجنته . وجه يشق على العين ، وكلام لا يسوغ فى الأذن ، ما كنت أدرى والله أيمدّث أم يحدّث ، مدخل أكله أمدر^(٤) من مخرج ثقله ، لا يفرق والله بين محساة ومفساة ... أنخ^(٥) .

وأول ما يلاحظ فى هذه الصورة كثرة القسم . وكان ذلك لعهد المؤلف من طبيعة البغداديين . والصورة عادية من حيث السياق : فليس فيها تحليل لطبيعة المنافق غير هذا الوضع البسيط وهو التلون والتقلب ، والظهور بوجهين ، وتلك أظهر ما فى شيم المنافقين .

(١) الخلق بفتح الخاء الطيب . (٢) فى الأصل (غلو) بالغين المعجمة . (٣) مضى . وخفف للجمع .

(٤) أمدر : أخبت ، وبهضة مذرة : فاسدة . (٥) راجع ص ١١٣ و ١١٥

وليس لأبي المطهر يد في تلوين هذه الصور : فهي جملة من المحامد والمقايح جمعها من ألفاظ معاصريه ، وكنا أشرنا في النص الفرنسي الى أنه أقتبسها من كتب الثعالبي ، ويظهر لنا الآن أن الثعالبي هو الذي أعتمد على أبي المطهر في نظم هذه الصورة الفنية .

٥ — ومن هذا الباب ما كتبه في وصف الثقل :

« يا أول ليلة الغريب ، اذا بعد عن الحبيب ، يا طلعة الرقيب ! يا يوم الأربعاء في آخر صفر ،
يا لقاء الكابوس في وقت السحر ! يا خراجا بلا غلة ، يا سفرا مقرونا بعلة ! يا أخلق من طيلسان
ابن حرب ، يا أشام على نفسه من ضرطة وهب ! يا أبغض من قدح اللبلاب في كف المريض ،
وأنكر من نظر المفلس في وجه الغريم البغيض ! يا أتن من الكتيف في سحر الصيف ، وأثقل
من طلعة البغيض على الضيف ! يا وجه المستخرج في يوم السبت ، يا إفطار الصائم على الخبز
البيحت ! يا أبرد من الشمال في كانون ، وأوسخ من فراش الحرب المبطون ! يا أقدر من ذباب
على جمس^(١) رطب ، وأحقر من قملة في أذن كلب ! يا أقدر من جفنة الدباغين ، وأتن من ريح
القضايين ! يا أبلد من حضيض الحمام ، وأتن من حانوت الحجام ! يا أقدر من طين السماكين !
يا أوحش من شخص الظالم في عين المظلوم ، وأكره من صوت البوم اذا صك سمع المحموم !
يا أبرح من غم الدين ، وأشد من وجع العين ، وأوحش من بكرة يوم البين ! يا ليلة المسافر في كانون
الآخر ، على أكاف بأس ، وبرد قارس ! يا أدل من ناسج برد ، ودابغ جلد ، وراكب قرد ،
وسأس عرد ! يا أثقل من طفيل يعربد على الندماء ، ويقترح أنواع الغناء ، ويتشهى بعد
أكل الغداء والعشاء ، ألوان الصيف في الشتاء ، مجشما للساق ، قاطعا على المغنى ، يواش
ويدن^(٢) . يا أشد على الأحرار من تطاول الحجاب ، وعبوس البواب ، وجفاء الحجاب ، وسوء
المنقلب والإياب ! يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد ، وأضيق من قلب الكاشح الحاسد ،
وأكرب من الاستماع الى المغنى البارد ! يا أكره من هجرات الصديق ، ومن النظر الى زوج
الأم على الريق ، ومضيق الطريق ، بل من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ،

(١) الجنس : الرجيع . (٢) في رسائل الخوارزمي : « بزني » .

وحسد القرباء ، وملازمة الغرماء ^(١) ، وخيانة الشركاء ، وملاحظة الثقلاء ، وملابسة السفهاء ، ومسألة البخلاء ، ومعاداة الشعراء ^(٢) .

وقد شئنا فى النص الفرنسى الى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة الخوارزمى ، ونرجح الآن أن الخوارزمى هو الذى حاكى أبا المطهر فى وصف الثقليل ، لأن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ أو ٣٩٣ وأبو المطهر كان شابا ماجنا فى سنة ٣٠٦ فن المستبعد أن يكون عاش طويلا بعد منتصف القرن الرابع ^(٣) .

وقد عدنا فوازنا بين الرسالتين : رسالة أبى المطهر ورسالة الخوارزمى فوجدناهما تتوافقان فى ألفاظ وتختلفان فى ألفاظ . وفى العبارات المتقاربة تظهر الدقة فى جانب الخوارزمى ، فأبو المطهر يقول :

”يا أتن من الكنيف ، فى سحر الصيف“

والخوارزمى يقول :

”يا كنيف السجن فى الصيف“

وهى عبارة أقدر وأشنع .

ورسالة الخوارزمى طويلة جدا ، ولكن هيات أن يصل الى ما وصل اليه أبو المطهر من الإفحاش والإفداع فانه نثر أهاجيه فى كتابه نثر الشوك . وهذه الأهاجى البشعة من مظاهر الحضارة فى بغداد ، ونعيذ القارئ أن يدهش من ذلك ، فان الحضارات تقتضى فنونا من المناقب والمثالب لا تستطيعها البداوات . ويعيوب أصحاب الحرف والصناعات ، ورذائل المترفين ومساوى الموسرين لا تُعرف إلا فى الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أهاجى أبى المطهر عنوانا على قوة الحضارة فى بغداد .

(١) فى الأصل (القرباء) . (٢) راجع ص ١٢٠ .

(٣) وقد ورد وصف الثقليل على هذا النحو أيضا فى نثر بدیع الزمان (أنظر المقامة الدينارية ص ٧٩ ، ٨٠ .

طبع استامبول) .

وهل يستطيع البدوى أن يفهم كيف تكون القذارة في جفنة الدباغين ، وريح القصاين ،
وطين السماكين ؟ هيهات ! فتلك وأمثالها بلايا لا يعرفها إلا الحضريون !

٦ — ومن طريف الصور ما جرى به قلمه في وصف الجمال ، وهو كأهل عصره
يتحدث عن جمال النساء وجمال الغلمان ، ففي الفن الأول يقول :

”وذكاء البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يذكر، فما ظنك بخروبة
من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحه، والفتنة مع الصباحة... قد أطرّ الفتاء^(١) شاربها،
وزوى الإباء حاجبها ، ورخم ألقاظها ، وفتر النعيم ألحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها،
وألانت النعمة أطرافها ، ولد للراشف مقبلها، وأغص بالبرنى مغلخلها، وآطرد ماء النعيم
بين رياض وجنتها، وترقرق جريال الشباب على صفحاتها، وتورد من صبغ الحياء خدها،
وأهتر من نصارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها، وأرتجت من الشحم روادفها،
وتشربت أنوار الحسن سوافها، ثم أعيدت ساخطة على محبها، وقد قطب التيه جبينها،
وشمخت النخوة بعرينها، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة، وتأبى قبول معاذيره
المزخرفة، حتى إذا انتهى عاشقها في الاستكانه والخضوع، وبلى أكمامه بسوارب الدموع،
أقرت متبسمة عن شتيت الدر، ونضجت بلطيف كلامها على ذلك الحرى والحر . ثم أقبلت
نرجستها تدمعان رحمة لعاشقها المبتلى، فترى والله حجاب الدموع، أوخمر الخجل، ونفسا
تموت فتحبها بزاد من القبل، وتيجشمت بعد ذلك زيارة في ملأه من الظلام، ووافته وهو
سادر في ساعة الأحلام، وقد سرى أمامها أرج المسك الفتيق ، وعبق الجوق منها برىّ الراح
العتيق، وأنشئت متمايلة وقد بلّ البهر غلائلها، وفترّ الأين مفاصلها، وأرعد الوجد فرائصها،
وغمز المشى أنخاصها، وجعلت تمتن عليه بآلامها، وتدعى فضل غرامها، وتناسمه من

(١) الفتاء : طراءة السن ، قال الشاعر :

إذا عاش الفتى سبعين عاما * فقد ذهب البشاشة والفتاء

وفي الأصل (الفتاء) وهو تحريف . (٢) الأين : التعب .

أحاديثها بما هو أقر لعينه، وأشهى الى نفسه، من طول بقائها، وبلاغ نعمائها، تدوى بالفاظها،
وتدوى بالفاظها، تردى بمقلتها، وتحى بقبلتها... الخ^(١)

وفى الفن الثانى يقول :

”كم تشغلنى يا أبله ، وتسألنى عن الأباطيل ، وتقطع كلامى بما لا يفيدك؟ ما أرى والله
على رأس أحدكم غلاما نظيفا غنج الحركات ، حلو الشائل ، خنت الأعطاف ، بابل الطرف ،
يمشى بخصر دقيق ، وردف ثقيل ، غنت عليه المناطق ، ودل على حسن صنعة الخالق ، خده
جلنار ، وعينه نرجس ، وشاربه زمرد ، وشفتاه مرجان أو عقيق ، وثغره در وريقه رحيق^(٢)
كأنه دينار منقوش ، أو جرعة عسل ... لو جذب عضو منه أنفطر ، أرق من نسيم الهواء ،
وألذ من الماء بعد الظما ، كأنه طاقة ريحان ، أو غصن بان ، أو قضيب خيزران ، أو طاقة
آس ريان ، كأن جبينه هلال ، وكأن حاجبه خط بقلم ، كأن عينيه عينا جؤذر ، وكأن أنفه
حد سيف ، وكأن وجنته الخمر ، أولون الراح ، أو حمرة التفاح . أحسن من نور زهر الربيع
الباكر على الغصن الروى . أحسن من الروض المطور . كأن شاربه طراز بنفسج على ورد
جنى ... كأن شاربه زئبر الخبز الأخضر ، وعذاره طراز المسك الأذفر ، على الورد الأحمر ،
إذا تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق ، عن الدر الأنيق ... كأن فمه حلقة خاتم ، وكأن ثغره
البرد ، أو أحقوان تحت غمامة . كأن فاه الخمر ، نبت فيه الدر ، كان عنقه إبريق فضة ... كأنما
لبس بدنه قشور الدر ، كأنه فضة قد مسها ذهب ، كأن بطنه قبطية ، وساقه بردية ، وقدمه
لسان حية . كأن وجهه الشمس ، وكأنه دارة القمر ، وكأنه المشتري ، وكأنه الزهرة ، وكأنه
الدرة ، وكأنه الغمامة . أطهر من الماء الزلال ، وألذ من معانقة الخيال ، وأزهر من النار ،
وأزكى من الأرض التى تنبت البنفسج ، ... كالظبي الغرير ، والقمر المنير ، والغصن النضير ،
والمهابة على الغدير ... الخ“^(٣)

(١) (ص ٧٦ ، ٧٧) . (٢) الجلنار : زهر الرمان ، وهو فارسى معرب .

(٣) ص ٦٥ و ٦٦

وهذه الصورة أيضا منقولة عن معاصريه من كتاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذي يجمع بين أوامر الإنشاء المتين . فهي أوصاف حشرت حشرا ، ولم تكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأسجاع ، بحيث يصعب التمييز بين مانقله وما ابتدعه . وإن كنا نجد جودة القصص في مثل قوله يصف غلام ابن عرس :

”كان اذا حضر ألقى إزاره وقال لأهل المجلس : اقترحوا وأستفتحوا ، فاني ولدكم ، بل عبدكم ، أخدمكم بغنائى ، وأساعدكم على رخصى وغلائى ، من أراذنى مرة واحدة أردته ألف مرة ، ومن أحبنى رياء أحببته إخلاصا ، ومن مات لى مت عليه . لم أنجل عليكم بحسنى وظرفى ؟ ولم أتعسر عليكم ؟ وإنما خلقت لكم ! ولم أنطاول عليكم ؟ وأنا غدا مضطر اليكم ، اذا بقل وجهى ، وتدل سبالى ، وتولى جمالى ، وتكش خدى ، وتعوج قدى . حاجتى والله اليكم غدا أشد من حاجتكم الى اليوم . لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطباع ، وقلة الرعاية والحفاظ ... أنخ^(١) .

٧ — وقد وصف الخمر فى أماكن متفرقة من حكايته أظهرها ما جاء فى صفحة ١٠٩ وصفحة ١٣٢ وهى كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لعرضها فى هذا الفصل ، ونشير الى أننا استظرفنا وصفه للخمر بأنها ”أرق من دين أبى نواس“^(٢) !

وهو مأخوذ من قول أبى نواس نفسه فى وصف الصبيان :

عتقت فى الدن حتى * هى فى رقة دينى

٨ — وقد يلقاك أبو المطهر بنظرات فلسفية يعلل بها غلبة المحجون على الناس ، فقد وصف أحد المؤلفين فى زمانه بأنه كان اذا سمع غناء تمرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر ، وأستعر ، وعض بنانه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لكمة فى ساعة . وهنا يسأل السامرون :

(١) ص ٥٨ . (٢) وجاء فى ١٣٢ «نشاط الشراب يطوى على ما فيه من الخطأ» نشاط تحريف ،

وصوابه (بساط) و«متابعة الأبطال» ترك الشيوخ كالأطفال» والأبطال ، محرفة والصواب (الأبطال) و«ياخذ من ثقلهم» ويضحك من عقلهم» و«ثقلهم» محرفة ، والصواب (ثقلهم) .

— يا أبا القاسم ! كل هذا يجرى لسماع غناء ؟

فيقول :

— هذه صورة اذا آستولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا تملك ، وغاية لا تدرك :
لأنه قل ما يخلو الانسان من صبوة ، أو صباية ، أو حسرة على فائت ، أو فكر فى ممتنى ، أو خوف
من قطيعة ، أو رجاء لمتنظر ، أو حزن على حال . فالناس كأنهم على جديلة واحدة فى هذه
الحال^(١) .

٩ — وقد عرض لفكاهات البغداديين ونواديرهم فى غير موضع ، وهى فى الأكثر
فكاهات ماجنة لا تحسن روايتها فى هذا الكتاب ، ولا بأس من ايراد هاتين النادرتين :

استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لرج كان بها فقالت : ان كنت تريد
جملا تحج عليه فما أصلح لك ، وان كنت تريد جارية للتعلة فالعرج لا يمنعك من ذلك^(٢) .
وقال آنرجل جارية : ليتك أمسيت تحتى ! فقالت : نعم ياسيدى ، مع ثلاثة آخر^(٣) !
أى اذا كان على الجنابة .

وفى الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيم وقيانهم ، وأوصاف
سابقة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم . ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على
تشهى اللهو والمجون . وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعا لأكثر المعانى الهزلية ،
فلم يترك بابا من أبواب الدعابة إلا طرقه ، ولم يدع معنى من معانى الخلاعة إلا ألم به .
وأحسبه حشر فى كتابه أقذر ما روى من الشعر الماجن الخليع .

ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال ، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج اليه النفس
فى ساعات الملل .

١٠ — وفى الكتاب ألفاظ لا تزال حية على ألسنة عوام المصريين ، كقول شاعر

فى وصف ثقيل :

(١) يا كل شيء وحش مهول يارأس خنزير ووجه غول
والشاهد في (شيء وحش) .

وقول آخر :

(٢) يأسفل الناس وأوباشهم من بين صفعان الى ضارط
والشاهد في (أوباش) وهى مقلوبة عن (أوشاب) .

وقول أبى القاسم :

”ياسفل العالم ! اذا أسكرتمونى فن يزنى حينئذ بأم هذا الديوث الذى أنا فى داره“ .
وقول شاعر :

(٣) ويك ستي كلمينى قبل أن أبصر مثله

وعوام المصريين يقولون : ”فلان عليه حنة لسان“ يعنون أن له لسانا طويلا ، أى
ثرثارا . ومثل هذا التعبير ورد فى بيت ماجن تقبح روايته فى مثل هذا الكتاب .

١١ — وجملة القول ان كتاب أبى المطهر الأزدي سخيف ، ولكنه مع سخفه ظريف ،
والمؤلف خلىق بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء :

شيخٌ سخيفٌ ولكن يأتى بسخيفٍ مليح

وهناك قصيدة رائية لأبى دلف الخزرجى من شعراء القرن الرابع اسمها القصيدة
الساسانية^(٤) وهى فى الشعر كحكاية أبى القاسم فى النثر ككتاها تصف أخلاق الأوباش وتحكى
ألفاظهم . ومراجعة هذين الأثرين مفيدة لمن يعنيه أن يعرف ما أهملت المعاجم من ألفاظ
الجماهير السوقية . وبكل مدينة أحياء ماجنة تتفرد بالفاظ وتعاير تمثل ما فيها من شواذ
الأخلاق ، وفى القاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البلد) لهم كذايات وإشارات لا يفهمها
الخواص ، كالذى يقع لأهل (Belleville) من أحياء باريس .

(١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٤ (٣) ص ١٢٦

(٤) نجد هذه القصيدة مشروحة فى قيمة الدهرج ٣ ص ١٧٦ — ١٩٢

(١)

الفهرس المفصل

نقد النثر الفنى

صفحة	صفحة
الرسائل والخطب فن واحد أو فنان	عناية النقاد بالشعر وأنصرفهم عن النثر... ١٧
٢٣ متقاربان	كيف شُغل النقاد بنثر القرآن ... ١٧
الموضوعات هى التى تحدد الصياغة الفنية	طائفة من الكتب الخاصة بالنثر ونقده... ١٨، ١٧
٢٥ نقد رأى المسيو مرسيه فى فهم خطاب	الموازنة بين الشعراء والكتاب... ١٨
٢٥ معاوية	مظاهر إيثار الشعر على النثر فى البيئات
الجمع بين الشعر والنثر وفقا لموجبات	العربية ١٩
٢٥ المعانى والأغراض	المفاضلة بين الشعر والنثر... ١٩
كلمة حاسمة فيما يصلح للشعر وما يصلح	نقد رأى الثعالبي ٢٠، ١٩
٢٦ للنثر... ..	رأى ابن المعتدل فى حياة الشعراء... ٢٠
٢٦ غلبة الشعر على كتاب القرن الرابع	وصية أبى تمام للبحترى ودلالاتها على
نماذج من شعر الصاحب وآبن العميد	أحوال الشعراء النفسية ... ٢١
٢٧ وبدع الزمان	رسالة الشاعر الى العالم ... ٢١
٢٨، ٢٧ نقد رأى القلقشندى	نقد رأى ابن رشيق ٢٣، ٢١
٢٩ خلاصة القول فى الشعر والنثر	أثر النزعة الشخصية فى أحكام النقاد ... ٢٣، ٢٢
٢٩ دواعى الشعر لا تزال تزخر بها الحياة	نقد رأى أبى هلال العسكري ٢٤، ٢٣
٣٠ الغرض من تأليف هذا الكتاب	

(١) ليس الغرض من هذا الفهرس استقصاء موضوعات الكتاب ، ولكن الغرض إرشاد القارئ الى أهم الموضوعات التى عرض

لها المؤلف بالنقد والتحليل .

الباب الأول

تطور النثر من عصر النبوة الى القرن الرابع

صفحة	صفحة
٣٩	١ - النثر الجاهلي
٣٩	هل كان للعرب ترفني في عصور
٣٩	الجاهلية ؟ ٣٣
٣٩	نقد رأى الأستاذ خليل مطران ... ٣٣
٤٠	نقد رأى المسيو مرسيه والدكتور طه
٤٠	حسين ٣٣
٤٠	خطب أهل الجاهلية ٣٤
٤٠	كان للجاهليين ترفني ولكنه ضاع ... ٣٤
٤٠	نقد حديث خنافر الحميري ٣٥
٤١	خطبة قس بن ساعدة موضوعة ... ٣٥، ٣٥
٤١	خطب وفود العرب عند كسرى موضوعة ٣٦
٤١	هل كان كسرى يتكلم العربية ؟ وهل
٤١	كان عند النعمان ديوان إنشاء ؟ ... ٣٧، ٣٦
٤١	المحاورات المنسوبة الى أهل الجاهلية ... ٣٧
٤١	ما حفظ من الشعر أكثر جداً مما حفظ
٤١	من النثر ٣٧
٤١	ضياح خطب الاسلاميين أنفسهم لقلة
٤١	التدوين ٣٧
٤١	القرآن من شواهد البلاغة الجاهلية ... ٣٨
٤١	خطأ المسيو مرسيه والدكتور طه في دعواهم
٤١	أن ابن المقفع أول كاتب في اللغة
٤١	العربية ٣٨
٤١	خطأ من ظن أن القرآن لا هو شعراً ولا
٤١	هو نثر ٣٨
٣٩	أين نضع القرآن من عهود النثر في اللغة
٣٩	العربية ؟ ٣٩
٣٩	سر اللغة هو في طريقة الأداء لا في أعيان
٣٩	الألفاظ ٣٩
٤٠	عرض القرآن لما كان في عصره من
٤٠	المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية
٤٠	ليس القرآن مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها
٤٠	المسلمون وان أشتمل على سور قصيرة
٤٠	مسجوعة للدعاء والابتهاال ٤٠
٤١	خلق القرآن من الشعر الموزون ٤١
٤١	نظام الآيات يخالف نظام النثر المرسل
٤١	ونظام السجع ٤١
٤١	القرآن يسوق القصص وقد يكرر القصة
٤١	الواحدة ٤١
٤١	تبتدى بعض السور بألفاظ غير مفهومة
٤١	اختلف في تأويلها المفسرون ٤١
٤١	رأى المسيو بلائشو في فواتح السور القرآنية
٤١	نظم القرآن نظماً غنائياً وكان ترتيله ملحوظاً
٤٢	في أوضاعه النثرية ٤٢
٤٢	القرآن لا يلتزم السجع ٤٢
٤٢	الابتداء بالبسملة ٤٢
٤٢	الأسلوب يختلف بين السور المكية والمدنية
٤٢	تصوير القرآن لما كان يعرف الجاهليون
٤٢	من الحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية

صفحة

- الحياة الأدبية والاجتماعية لعهد النبي لم
٤٩ تصور بصورتها الحقيقية الى الآن ...
كيف ضاعت آثار الوثنيين والنصارى
واليهود ٥٠، ٤٩
كيف ضاعت آثار حزب المعارضة لعهد
الرسول ٥٠
ضياح أكثر آثار النبي وأصحابه ... ٥٠
كان للعرب في عصر النبوة أدب يمثل
طور التحول والانتقال ٥٠
كان للعرب أدب يقرب في أسلوبه
وروحه من أسلوب القرآن وروحه ٥١
تسمية العصر الذي سبق القرآن «بالجاهلي»
تسمية دينية فقط، وإلا فهو عهد
معرفة ونور ٥١
كيف استمسك العرب المسلمون بأهداب
الأدب الجاهلي وعدوه وحده المرجع
في ضبط أساليب اللغة العربية ... ٥١
كيف كان الأدب الجاهلي يصنع ويباع
في الأسواق ٥١
الجاهليون في رأينا هم سكان الحواضر،
وكانت لهم آداب وعلوم وفنون ... ٥١
الأدب الجاهلي لم يضع إلا عند المتأخرين
في المكاتب الشرقية والغربية آثار جاهلية
لم تدرس الى اليوم ٥٣
كيف وأد المسلمون بعض آيات الأدب
الجاهلي ٥٤، ٥٣
تشاؤم الخلفاء من رواية طائفة من الأدب
الجاهلي ٥٤

صفحة

- كان للعرب ثرفي قبل أن يتصلوا بالفرس
واليونان ٤٣
٢ - نشأة النثر الفني
يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفني
وصل الى العرب من الفرس ويرى
الدكتور طه أنه وصل اليهم من
اليونان، وهذه مدرسة قديمة ترجع
الى رينان ٤٤
تأثر العرب بالفرس في حياتهم الأدبية ... ٤٥
القرآن يفيض بالصنعة والزخرف ... ٤٥
من الواجب أن يجعل ميدان النضال
عصر النبوة لا العصر العباسي ... ٤٥
كيف يتعذر في الوقت الحاضر درس
القرآن دراسة تحليلية ٤٥
القرآن أثر عربي صرف لم يتأثر بالفرس
ولا باليونان ٤٦
الزخرف طابع أصيل في اللغة العربية ... ٤٧
هل كانت اللغة الأدبية التي سبقت
الاسلام تخالف كثيراً لغة القرآن ... ٤٧
نشأة العلوم العربية ٤٧
كان البديع موجودا وتطور على ألسنة
الشعراء ٤٨
لم يكن العرب أميين بالدرجة التي يصورهم
بها أكثر الباحثين ٤٨
كان الجاهليون يعرفون النقد الأدبي ... ٤٨
كان الاسلام تاجا لنهضة علمية وأدبية
وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية ٤٩، ٤٨

صفحة	صفحة
٦٠ ...	شاهد من الأدب المصرى الحديث الذى
عبد الحميد بن يحيى أول من نقل تقاليد	تناساه الناس عامدين ... ٥٤
٦٠ ...	ليس أبو الأسود أول من وضع النحو
هل كانت شخصية عبد الحميد بن يحيى	كما يعتقد الأزهريون، وليس النحو
٦٠ ...	أثرا من اتصال العرب بالسريان والروم
خرافية؟ ... ٦٠	كما يظن المستشرقون ... ٥٥
السجع لم يلتزم فى النثر الاسلامى ... ٦١	رأى ابن فارس فى قدم العروض ... ٥٦
جهد واصل بن عطاء ودلالته على	رأيه فى معرفة القدماء بأصول التصريف ٥٦
٦١ ...	ليس ابن المعتز أول من وضع علم البديع ٥٦
إجادتهم للنثر ... ٦١	٣ - النثر الفنى فى العصر الاسلامى
اهتمام الكتاب ببسط المعانى وتأكيدها	كيف أيقظ الاسلام العرب وأحيا أدبهم ٥٧
رسالة الحسن البصرى الى عمر بن	الخلاف بين المهاجرين والأنصار وقيام
٦١ ...	الأحزاب السياسية أثرا فى النهضة النثرية ٥٧
عبد العزيز ... ٦١	عمق النثر بفضل اتصال العرب بالأمم
مشاورة المهدي لأهل بيته ... ٦٢	الأجنبية ... ٥٧
٦٢ ...	حرص أمراء العرب على تربية أبنائهم
نقد أسلوب الجاحظ ... ٦٢	تربية بدوية ... ٥٨
٦٣ ...	كيف كان النبي وأصحابه يتدثرون الرسائل ٥٨
الخيال فى كلام الخطباء والكتاب ... ٦٣	أثر القرآن فى إحياء البلاغة العربية ومناقشة
٤ - أطوار السجع	رأى المسيو مرسيه فى دعوى تجنب
خطأ المسيو مرسيه والدكتور طه حسين ٦٤	العرب محاكاة القرآن ... ٥٨
٦٤ ...	الايجاز والإطناب ومراعاة ظروف
شواهد من السجع فى اللغة الفرنسية ... ٦٥	الخطاب ... ٥٩
شواهد من السجع فى أسماء المشهور عند	لم يكن الكتاب والخطباء جميعا موقفين
٦٥ ...	الى ترك الفضول ... ٥٩
الفرنسيين والمصريين ... ٦٥	رأى ابن قتيبة فى الايجاز والاطناب ... ٥٩
السجع من خصائص اللغة القرآنية ... ٦٥	كتاب يزيد بن الوليد ... ٦٠
تشابه صور الترتيل عند المسلمين	
٦٦ ...	
والنصارى واليهود ... ٦٦	
٦٧ ...	
أمثلة من سجع القرآن ... ٦٧	
٦٨ ...	
السجع فى الأحاديث النبوية ... ٦٨	
٦٨ ...	
السجع فى خطب الخلفاء ... ٦٨	

صفحة		صفحة	
٨١	رسالة كلثوم بن عمرو العتابي	٦٩	تقد رأى المسيو ديمومبين في نهج البلاغة
٨١	ظهور السجع في الكتابة والتأليف	٦٩	رسالة على لسان عمر يخاطب بها أبا عبيدة
٨١	كتاب في ذم أحمد بن الحبيب	٧٠	السجع في خطب خلفاء بني أمية
	كلمة ابن المعتز في مدح مدينة سر من رأى		السجع في لغة الزهاد والنسك في العصر
٨٢	وذم مدينة بغداد	٧٠	الأموى
٨٣، ٨٢	شواهد من كلامه المسجوع		نقد ما رأى المسيو مرسية من كراهة
٨٣	السجع في عناوين فصول كتاب الزهرة	٧١	معاوية للسجع
٨٤	السجع في عناوين الكتب	٧١	ابن المقفع كان يسجع، وكذلك عبد الحميد
٨٤	السجع في بعض كتب ابن المقفع	٧٢	شاهدان من نثر عبد الحميد
٨٥	السجع في عناوين كتاب الموشى	٧٢	شاهد من الكلام الموزون عند ابن المقفع
٨٥	شاهد من سجع الوشاء في كتابه	٧٣، ٧٢	ميل الأذواق العربية الى إيثار السجع ...
٨٦، ٨٥	أستباج على فصوص الخواتم		ما وضع من الأحاديث على السنة
٨٦	السجع في الغزل والوصف والهجاء	٧٣	الأعراب
٨٧، ٨٦	السجع في كلام الجاحظ	٧٤	الترام السجع في وصايا الآباء للأبناء ...
٨٧	ما هو المزدوج	٧٤	وصية عبد الله بن شداد وعلقمة بن لبید
٨٨	دفاع الجاحظ عن السجع	٧٤	زعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع
٨٩	الحقائق المستخلصة من كلام الجاحظ ...	٧٤	العجاج في حضرة عبد الملك بن مروان
٩٠، ٨٩	رأى الخفاجى في السجع		صعصعة بن صوحان في حضرة معاوية
	القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم	٧٦، ٧٥	ابن أبي سفيان
٩١	وعادتهم	٧٧	كان السجع من وسائل العفاة والمجتدين
	شاهد مسجوع من كلام قطرى بن	٧٨	بديع الزمان اقتبس طريقة السائلين ...
٩١	الفجاءة وآخر الخطيب من آل صوحان	٧٩	أعرابى يلاحى أحد الفتيان
	كان الكلام يوضع على السنة الرواة	٧٩	أعرابى وقف على قوم فمنعوه
٩٢	مسجوعا	٨٠	رأى الرقاشى في إيثار السجع
٩٣، ٩٢	دفاع أبى هلال العسكرى عن السجع ...		خطأ صاحب (الريحان والريحان) في الخلط
	رأى الحريرى في الإتباع، وشىء من	٨٠	بين الخطب والموزون
٩٣	شواهد في اللغة العامية عند المصريين		

صفحة	صفحة
السجع في بعض ما ترجم المتقدمون من	٩٤ السجع في الشعر وهو الترصيع
٩٩ الفارسية واليونانية والعبرية	٩٥ دفاع ابن الأثير عن السجع
١٠٠ درس السجع ضروري في بناء هذا الكتاب	٩٦ السجع من أسرار الإعجاز في القرآن
السجع يعطل حركة الفكر والعقل في كثير	القرآن لا يكاد شيء يخرج منه عن السجع
١٠٠ من الأحيان	٩٦ والموازنة
١٠١ السجع في العصر الحاضر	٩٦ هل كان عصر الجاحظ بريثا من السجع؟
رأى ابن أبي الحديد ورأى شوقي	٩٧ شواهد من سجع الجاحظ
١٠١ في السجع	٩٧ رأى قدامة بن جعفر في السجع
	٩٨ رأيه في سجع أهل القرن الرابع

الباب الثاني

خصائص النثر في القرن الرابع

٢ - السجع والازدواج	١ - خصائص نثرية
١١٣ طرائق الكتاب في إثبات السجع والازدواج	١٠٥ هل في القرن الرابع خصائص نثرية ...
١١٤، ١١٣ الطائفة التي تلتزم السجع	١٠٥ إثبات البديع
١١٥، ١١٤ شواهد من سجع الصاحب وابن العميد	١٠٦ التزام السجع في جميع الرسائل حتى المطولة
٢١٥ التوحيدى يمزج بين السجع والمزاوجة	تضمن الرسائل أطايب الشعر ومختار
شاهد مطول من نثره في وصف نكبة	١٠٦ الأمثال
١١٦-١٢١ أبي الفتح بن العميد	الكتابة في الموضوعات التي كانت خاصة
١٢١ تحليل بعض فقرات هذه الرسالة الطويلة	بالشعر كالغزل والمدح والهجاء والفخر
١٢١ أسلوب الشريف الرضى	و الوصف
١٢٢ أسلوب أحمد بن عبد ربه	رسالة بديع الزمان في ذم أحد القضاة ...
حرية النثر عند ابن مسكويه وإخوان	رسائله إلى شاب عاد يستميل فؤاده بعد
١٢٢ الصفاء	أن عزل وضاع صباه
موازنة بين أسلوب التوحيدى	١١٠ عدم التقيد بصيغة خاصة في بداية الكتب
١٢٣ وابن مسكويه	شواهد مختلفة
١٣٤ شاهد من نثر ابن مسكويه	١١٢ خصائص النثر في القرن الرابع ليست إلا
	فنونا تطورت على الزمان

صفحة	صفحة
٥ - التسيب	شاهد من نثر إخوان الصفا في وصف الرسول ١٢٤
النسيب فن قديم وجدت منه شواهد	نقد هذا الشاهد ١٢٥
١٤٧ في القرآن	ابن حزم والفارابي والاشارة الى الفرق
القصص الغرامى فى عصر بنى أمية	١٢٥ بين الكتابة العلمية والكتابة الأدبية...
١٤٨٠١٤٧ وبني العباسى	٣ - تصوير الحياة العقلية
١٤٨ أقصوصة غرامية	قوة حزب الشيعة ورسالة الخوارزمى
١٤٩ وصف المخطوبات	فى مناصرتهم... .. ١٢٦
١٥٠٠١٤٩ وصف الهوى والنساء	تفسير أمثال هذه الرسالة لغوامض التاريخ ١٢٧
١٥١ رسالة تشيب حدث بها مخارق المغنى...	اختلاف الفرس والعرب ١٢٨
١٥١ وصف أبى العتاهية لمخارق	تصوير الكتاب لنعيم العقل والحواس... ١٢٨
١٥٢ كلمات غزلية لعل بن عبيدة الريحاني...	رأى الثعالبي وآبن قتيبة فى الأدب
رسالة تشيب كتبها إسحاق بن إبراهيم	المكشوف ١٢٩
١٥٢ الموصلى	خصومات الكتاب ١٢٩
كتاب غلام من ولد أنوشروان الى رفيق	رسالة بديع الزمان الى أبى نصر بن المرزبان ١٣٠
١٥٣ له بالديوان	الخصومة بين الهمذاني والخوارزمى ... ١٣٠
١٥٤ جواب ذلك الرفيق	خصومة التوحيدى لابن عباد وآبن العميد ١٣١
١٥٥ كتاب شوق أرسله الجاحظ الى آبن المدبر	٤ - الفكاهات
كتاب حب أرسلته معشوقة لابن المعتز،	الفكاهة فن قديم أزدهر فى القرن الرابع ١٣٢
١٥٦ وجواب آبن المعتز على ذلك الخطاب	تحليل المقامة الشامية... .. ١٣٢
١٥٧ كتاب شوق لابن العميد	تحليل المقامة المضيرية ١٣٣-١٣٩
١٥٧ خطاب وجد لقا بوس بن وشمكير ...	وصف حمل هنبل لأبى الخطاب
١٦٠ فقرات فى محاسن النساء والعلماء ١٦٠-١٦٠	الصباى ١١٤٠٠١٣٩
خطاب المذكر أسهل من خطاب المؤنث	أبو إسحاق الصباى يعزى عن ثور
١٦٠ فى توجيه الضمائر والإشارات	أبيض ١٤٢٠١٤١
غزل المذكر نوع من الثورة على التقاليد	عهد التطفل للصباى ١٤٦٠١٤٢
١٦١ الأدبيية	

صفحة

٨ - المبتذل والطريف

- ١٨٠ ... ما هو المبتذل وما هو الطريف ؟ ...
- ١٨٠ ... رأى المسيو ديمومين ...
- ١٨٠ ... توجد المبتذلات في جميع اللغات ...
- ١٨١ ... نماذج من المبتذلات (الكليشيات) ...
- ١٨٢ ... تعابير تبتذل لسبب غير كثرة الاستعمال ...
- ١٨٣ ... انتقال المبتذلات من عصر الى عصر ...
- ١٨٣ ... تعابير تحيا على ألسنة أصحابها فقط ...
- ١٨٤ ... أنواع المبتذلات ...
- ... في اللغة العربية تعابير تفيض قوة وحياة
- ١٨٥ ... ولكن أنصرف عنها الكتاب ...
- ... تعابير توجهها الضرورة اللغوية وتحيتها
- ١٨٦ ... الصور الفنية ...
- ... «الكليشية» لا يوجد في اللغة العربية إلا
- ١٨٧ ... قليلا ...
- ١٨٨-١٩١ ... نماذج من التعابير الحية ...
- ١٩١ ... كلام سعيد بن حميد وتوفيق البكري ...
- ١٩٢ ... إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة ...
- ١٩٢ ... رأى أبي العلاء في حلاوة القرآن ...
- ... البلاغة كالموسيقا يزيدها التكرار قربا من
- ١٩٢ ... النفس ...
- ... عناية كتاب القرن الرابع بخلق أنصار من
- ١٩٣ ... الخواص ...

صفحة

رد الفعل لهذه النزعة عند كتاب العصر

- ١٦١ ... الحاضر ...
- ١٧٢ ... موقفنا موقف المؤرخ للظواهر الأدبية
- ٦ - الاخوانيات
- ١٦٣ ... قدم هذا الفن في اللغة العربية ...
- ١٦٦-١٦٣ ... فقرات من الاخوانيات ...
- ٢٦٦ ... انتهاب كتاب القرن الرابع لمعانى المتقدمين
- ١٦٩-١٦٦ ... الاخوانيات عند التوحيدى ...
- ٧٧٠-٧٦٩ ... الاخوانيات عند بدیع الزمان ...
- ١٧٠ ... الاخوانيات عند العتي ...

٧ - الوصف

- موضوعات الوصف عند كتاب القرن
- ١٧١ ... الرابع ...
- ١٧٢ ... فقرات مختلفة في الأوصاف ...
- ١٧٣ ... إغارة توفيق البكري على كتاب القرن الرابع
- ... إغارة كتاب القرن الرابع على معانى من
- ١٧٤ ... سبقهم من الكتاب والشعراء ...
- ١٧٧ ... نظرية الفن للفن ...
- ١٧٥ ... فهم المعاصرين لفن القرن الرابع ...
- ١٧٨-١٧٥ ... صور فنية على ألسنة أرباب الصناعات ...
- ١٧٨ ... وصف البلاغة ...
- ١٧٩ ... قيمة الزخرف عند كتاب القرن الرابع ...

الباب الثالث

كتاب الأخبار والأقاصيص

صفحة	
٢١٩-٢١٦ ...	ألفاز شعرية
٢٢٠-٢١٩ ..	القدماء والمحدثون من الشعراء
٢٢١ ...	رأى بديع الزمان في آراء المعتزلة
٢٢٢ ...	المجون في بغداد
٢٢٣ ...	فكاهة الحمام
٢٢٤ ...	نصائح بديع الزمان
٢٢٦-٢٢٥ ...	أخلاق بديع الزمان في مقاماته
٢٢٦ ...	أهمية المقامات
	٣ - أحاديث ابن دريد
٢٢٧ ...	حياة ابن دريد وشاعريته
٢٢٨ ...	حياته في بيته ونظراته الى المحاسن المعنوية
٢٢٩ ...	خفة روحه وحلاوة نكته
٢٢٩ ...	جراته في بيته ودرسه
٢٣٠ ...	أحاديثه القصصية
٢٣١ ...	ظرفه في تصوير حج أبي نواس
٢٣٢-٢٣١ ...	اهتمامه بتصوير الشئام العربية
٢٣٢ ...	تصويره لشجعان العرب وأجوادهم
٢٣٢ ...	وصفه لأعيان الجاهلية
٢٣٣ ...	حديث المرأة التي عاشت بجوار قبور أهلها
	٤ - روايات الأغاني
٢٣٤ ...	حياة الأصفهاني
٢٣٤ ...	أثر أخلاقه الشخصية في أعماله الأدبية

صفحة	
	١ - المقامات
١٩٧ ...	القصص في البيئات العربية
	هل كان بديع الزمان هو المنشئ الأول
١٩٨ ...	لفن المقامات
١٧٧ ...	رأى الحريري
١٩٩-١٩٨ ...	ابن دريد هو مبتكر هذا الفن
٢٠٠ ...	أحاديث ابن دريد
٢٠١ ...	ماهى المقامات في كلام ابن المدبر
٣٠١ ...	طريقة ابن دريد وطريقة بديع الزمان
٢٠٢ ...	مقامات ابن نباتة السعدي
٢٠٢ ...	مقامات الحريري
٢٠٢ ...	فن بديع الزمان وفن الحريري في المقامات
٢٠٣-٢٠٢ ...	شيوخ هذا الفن في الأقطار العربية
	انتقال هذا الفن الى الفارسية والعبرية
٢٠٣ ...	والسريانية
٢٠٤ ...	فن المقامة غير فن القصص
٢٠٥ ...	أهمية ابتداء بديع الزمان
	٢ - مقامات بديع الزمان
٢٠٦ ...	كانت مقاماته خمسين ولم تكن أربعمئة
٢٠٦ ...	شواهد من المقامات
٢٠٩ ...	وقوف بديع الزمان عند شخصية واحدة
٢٠٩ ...	شغفه برسم السوءات
٢١٦-٢١١ ...	الوصف في مقامات بديع الزمان

صفحة	
٢٥٢	ما نقله ابن دريد عن السجستاني ...
	حديث عامر بن الظرب العدواني وحمة
٢٥٢	ابن رافع الدوسي ...
٢٥٣	هل كان الجاهليون يفكرون في البلاغة ؟

٦ - حكايات ابن الأنباري

٢٥٤	هل كان ابن الأنباري يضع القصص ؟
	قصة السفية الذي كان يجمع بين الرجال
٢٥٤	والنساء في مكة وعرفات ...
٢٥٥	لغة ابن الأنباري ...
٢٥٥	قصة سوار ...

٧ - التوابع والزوابع

٢٥٨	معنى التوابع والزوابع ...
٢٥٨	رأى الدكتور أحمد ضيف ...
٢٥٩	متى كتبت رسالة التوابع ...
٢٦٠	التشابه بين رسالة التوابع ورسالة الغفران
٢٦١	مطلع الرسالة والاتصال بزهير بن نمير الجني
١٦٢	هل كان للخطباء والكتاب شياطين ؟
٢٦٢	شعر البغال والخير في عالم الجن ...
٢٦٣	حكم ابن شهيد بين بغل وحمار ...
٢٦٤	بغلة أبي عيسى ...
٢٦٤	فهم ابن شهيد لعالم الطير ...
٢٦٤	وصف الأوزة ...
٢٦٥	ملاحاة الأوزة لابن شهيد ...
٢٦٥	مذهب الجاحظ في الكتابة ...
٢٦٦-٢٦٥	رأى ابن شهيد في أهل الأندلس ...

صفحة	
٢٣٥	تعبه لهفوات الشعراء ...
٢٣٥	منهج كتاب الأغاني ...
٢٣٦	نموذج من أخبار ابن أبي ربيعة ...
	اهتمام الأصفهاني بالجوانب الطريفة من
٢٣٧	الأخبار ...
٢٤٠-٢٣٧	قصص ابن أبي ربيعة ...
٢٤١	نقد الأصفهاني لبعض الأخبار ...
	أخبار ابن أبي ربيعة وضعت تفسيراً
٢٤١	لشعره ...
٢٤٢	لم يخترع الأصفهاني كل أحاديث عمر
	أقاصيص من حياة الأصفهاني
٢٤٥-٢٤٣	الشخصية ...

٥ - أخبار ابن دريد

٢٤٦	من هو عبد الرحمن بن أنحى الأصمعي ...
٢٤٧	اختلاق ابن دريد ...
٢٤٧	بعض النواحي العقلية من ابن دريد ...
٢٤٨	قصة لقمان بن عاد ...
٢٤٩	حكايات ابن خالويه ...
٢٤٩	روح العصر ...
٢٤٩	أبو عمر الزاهد وتلقيقاته ...
٢٥٠	تحليل أخبار ابن دريد ...
٢٥٠	وصف الزوج المنشود ...
٢٥١	الأخبار التعليمية ...
٢٥١	قصة الفتى العاشق ...
	تعليل الكلمة التي قالها عبيد بن الأبرص
٢٥٢	وهو مختصر ...

صفحة		صفحة	
٢٨١	٩ - أخبار التوحيدى	٢٦٦	كان ابن شهيد مبتلى بحقد معاصريه ...
٢٨١	ما هو عمل التوحيدى فى الأفاصيص ...	٢٦٧	غرام ابن شهيد بمعارضة كتاب المشرق
٢٨١	نقل فلسفة اليونان عن اللغة السريانية	٢٦٧	اصطدامه بشيطان أنف الناقة ...
٢٨١	محصول العرب من الوجهة الفلسفية ...	٢٦٨	زهو ابن شهيد ...
٢٨٢	واضع حديث السقيفة ...	٢٦٨	رأيه فى البيان ...
٢٨٣	خلاصة هذا الحديث ...	٢٦٩	رأيه فى شعره ...
٢٨٤	بوادر الشر الذى كان يهدد كيان المسلمين		
	١٠ - قصص البيغا		
٢٨٦	طرف من حياته ...	٢٧١	تأثر كاتب الرسالة بكتاب كليله ودمنة ...
٢٨٦	القصص الغرامى عند العرب ...	٢٧١	قصة الخصومة بين الانسان والحيوان ...
٢٩٣-٢٨٦	قصة طريفة فيها قليل من المحجون ...	٢٧٢	وصف جزيرة صاغون ...
	١١ - أحمد بن يوسف المصرى	٢٧٣	روح الفكاهة فى الرسالة ...
٢٩٦-٢٩٤	رأى مؤلف هذا الكتاب فى أسرار البلاغة	٢٧٤	تأثر الكاتب بنظرية المثل ...
٢٩٧	كتاب المكافاة ...	٢٧٤	أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب
٢٩٨	للصوص الشرفاء ...		زعماء الوفود يصفون أهمهم وينقدهم
٢٩٩	أسلوب أحمد بن يوسف ...	٢٧٦-٢٧٤	وزير الجن ...
٣٠٠	نموذج من دقة الاشارة ...	٢٧٦	تعايير تعيين أذواق الشعوب ...
	قصة الفتاة الدمية التى تزوجت من		اللغة العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض
٣٠١-٣٠٠	رجل كريم ...	٢٧٧	فارس ...
٣٠٢	تعايير جيدة ...	٢٧٧	الطبيعة يا كل بعضها بعضا ...
٣٠٣	بعض المآخذ فى أسلوب ابن يوسف ...	٢٧٧	النقل بالعربات ...
٣٠٦-٣٠٤	تعايير مصرية ...	٢٧٨-٢٧٩	التشابه بين الكلب والانسان ...
٣٠٦	السرفى فصاحة الكلمات ...	٢٧٩	أصل العداوة بين الإنسان والجن ...
٣٠٧	الغرض الذى وضع لأجله كتاب المكافاة	٢٨٠	دور القرآن ...
٣٠٨	أقسام الكتاب ...	٢٨٠	السبب فى كثرة الملوك عند الانس ...
		٢٨٠	نتيجة المحاكمة بين الانس والجن ...

صفحة	
٣٣٤	القاضي أبو يوسف وعنف زوجته ...
٣٣٥	أبو يوسف عند الرشيد ...
٣٣٥	تشبيب القضاة ...
٣٣٦	صلة ابن المدبر بعريب ...
٣٣٧	بين عريب و ابراهيم بن المدبر ...
٣٣٧	الغناء عند المسلمين ...
١٤	حكاية أبي القاسم البغدادى
٣٣٨	حياة أبي المطهر الأزدى ...
٣٣٩، ٣٣٨	الغرض من هذه القصة ...
	شخصية أبي القاسم البغدادى وشخصية
٣٣٩	أبي الفتح الاسكندرى ...
٣٣٩	منهج أبي المطهر فى قصته ...
٣٤٠	حكاية شمائل العميان والحيوانات ...
٣٤١	وصف المحبون فى بغداد ...
٤٤١	ألفاظ السباحة والملاحين ...
٣٤٢	أسماء الشوارع فى أصبهان ...
٣٤٥-٣٤٢	صورة فنية فى وصف منافق ...
٣٤٥	وصف الثقيل ...
	موازنة قصيرة بين رسالة أبي المطهر
٣٤٦	ورسالة الخوارزمى ...
٣٤٧	وصف جمال النساء ...
٣٤٨	وصف جمال الغلمان ...
٣٤٩	وصف غلام ماجن ...
٣٤٩	تعليل المحبون ...
٣٥٠	فكاهات البغداديين ...
٣٥١	تعايير بغدادية تحيا فى مصر ...
	رائية الخزرجى فى ألفاظ الماجنين من
٣٥١	أوباش بغداد ...

صفحة	
٣١٠	الحن والشدائد من أجل ما يهب الله ...
٣١٠	قوة العقيدة ...
	فضل كتاب المكافاة على مؤلف هذا
٤١١	الكتاب ...
١٢	عبد الله بن عبد الكريم
٣١٢	شخصيته ...
٣١٢-٣١٤	قصة وقعت فى قصر ابن طولون ...
١٣	المحسن التنوخى
٣١٥	نشوار المحاضرة ...
٣١٦	موضوع هذا الكتاب وما حذف منه ...
٣١٧	أهمية هذا الكتاب ...
	قوة الحس ودقة الملاحظة وخصب اللغة
٣١٩	عند التنوخى ...
٣١٩	المتقدمون لم يتفردوا بالابداع ...
٣٢٠	ثورة التنوخى على أمراء عصره ...
٣٢١	الوقت الذى وضع فيه كتاب النشوار ...
٣٢٢	طريقة التنوخى فى التأليف ...
٣٢٣	نقل آداب الناس ...
٣٢٤	درس النفوس ...
٣٢٤	لغة المؤلف ...
٣٢٥	خطاب من نثر المؤلف ...
٣٢٦	تعايير جميلة ...
٣٣٠-٣٢٧	كلمات حية ...
٣٣١	نقد طباع الناس ...
٣٣١	قرء يفهم فكرة الخير والشر ...
٣٣٢	بابك الخرمى وقوة النفس ...
٣٣٣	أريحية الوزراء ...
٣٣٤	شيوخ الرشوة عند الحكام الأقدمين ...

(١) تصحیحات

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٧٧	٦	الْقَوْل	الْقَوْل
٨١	١٤	من عمك غيره	من عمك خيره
٨٣	١٧	من اغتفر	من اغتفر
٨٤	١	خطيرة	حظيرة
٩٧	١٩	عبوب	عيوب
١٠١	٢٣	ولن يصيرها	ولن يضيرها
١٢٠	١٢	كتابه	كاتبه
١٣٩	٦	يقلق	يعلق
١٥٦	٧	أتى	انى
٢١٣	٢١	كوته	كرته
٣٠٧	١٣	فى كل غير	فى كل خير

(١) صحح هذا الكتاب بعناية شديدة . ولكن ذلك لم يصل به الى العصمة من الخطأ ، وقد رأينا تصحيح ما رأيناه من الأغلاط . وان كنا على ثقة من أن القارئ الفطن لن يغيب عنه المعنى لكلمة ينقصها إجماع أو يشوبها تحريف . وقد نظرنا في الجزء الثانى فلم نجد فيه إلا أغلاطا يسيرة جدا يدركها القارئ بدون توقيف ، فلم نرموجبا لاثباتها هناك .



كَمَل طبع الجزء الأول من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"

بمطبعة دارالكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢

(أول فبراير سنة ١٩٣٤) محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدارالكتب المصرية

الأخلاق عند الغزالي

قُدِّمَ هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور في ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدًا » ولقب دكتور في الآداب .

يقع هذا الكتاب في ٤٣٤ صفحة ، وبه كثير من الرسوم التاريخية التي تمثل طائفة من المعالم القديمة ، وبه مقدمة بديعة بقلم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمي . وهذا الكتاب ضروري جدا لمن يحب الوقوف على فلسفة الأخلاق ، وعلى العصر الذي عاش فيه الغزالي ، والمصادر التي أستقى منها آراءه الفلسفية ، والفرق بين الخير والشر ، والكفر والإيمان ، والشك واليقين ، والخبر والاختيار ، وما الى ذلك من المباحث الهامة التي حار في فهمها الباحثون ، وخبط أكثرهم فيها خبط عشواء .

وفي هذا الكتاب باب ممتع في الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحدثين ، حيث تناول المؤلف بالنقد والتحليل آراء ديكارت ، وبسكال ، وهوبس ، وبوتلير ، وكارليل ، وسبينوزا ، وجسندى ، ومالبرانش .. وفيه كذلك صورة لآراء علماء العصر في الغزالي : كالدكتور منصور فهمي ، والشيخ علي عبد الرازق ، ومحمد بك جاد المولى ، والأستاذ عبده خير الدين ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، والكونت دى جالارزا ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، والشيخ حسين والى ، والشيخ عبد الباقي سرور ، والشيخ يوسف الدجوى .

وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة عنيفة ، فمن الواجب أن يطلع عليه أهل العلم ليقفوا على كنه ما فيه من آثار حرية الفكر والرأى .

مؤلفات زكي مبارك

- ١ - الأخلاق عند الغزالي .
- ٢ - La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire
- ٣ - البدائع .
- ٤ - Étude sur La Lettre Vierge العذراء شرح الرسالة العذراء
- ٥ - حب ابن أبي ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة) .
- ٦ - ديوان زكي مبارك .
- ٧ - الموازنة بين الشعراء .
- ٨ - مدامع العشاق (الطبعة الثانية) .
- ٩ - ذكريات باريس .
- ١٠ - تحقيق نسب « كتاب الأم » .

إصلاح أشتغ خطأ في تاريخ الشريعة الإسلامية

كتاب الأمر

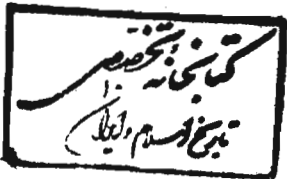
لم يؤلفه الشافعي وإنما ألفه البوطي وتصرف فيه الربيع بن سليمان

بحث وتحقيق

بقلم

الدكتور زكي مبارك

يطلب من المكتبات الشهيرة وثمان النسخة خمسة قروش



كبر اكر ن م

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢/٦١/٣٠٠٠)

